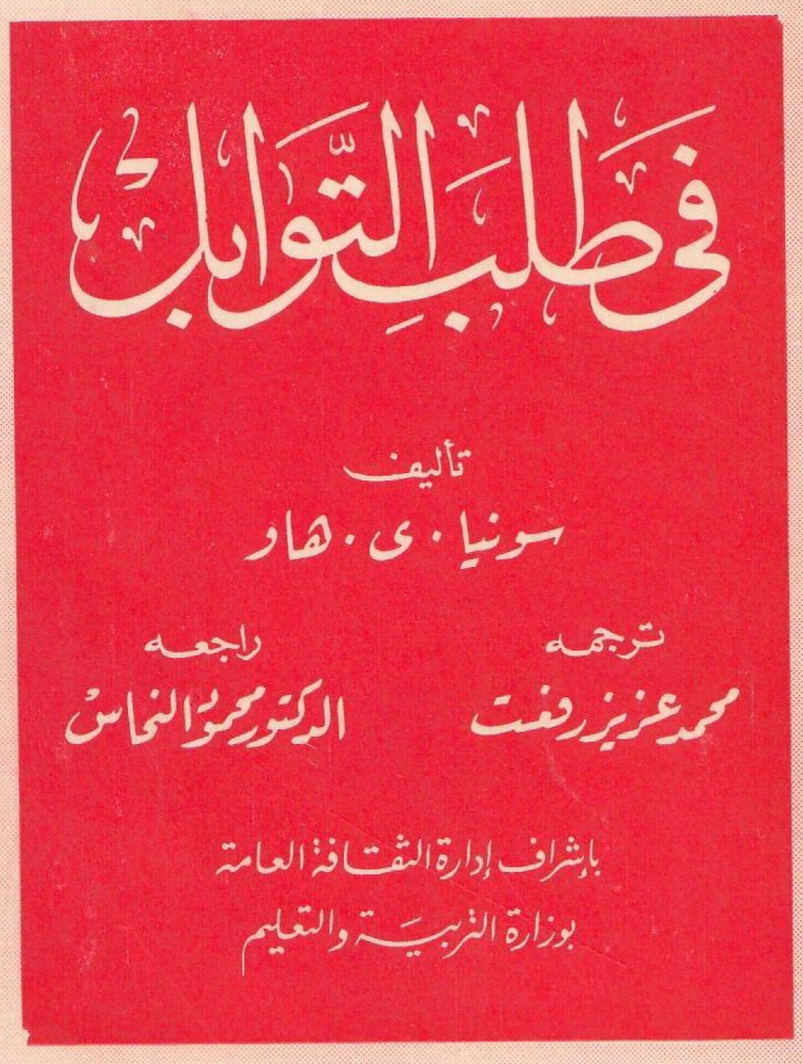
www.ibtesama.com





في طلب التوابل

تأليف

سونيا ى. هار

ترجمه

محمد عزيز رفعت

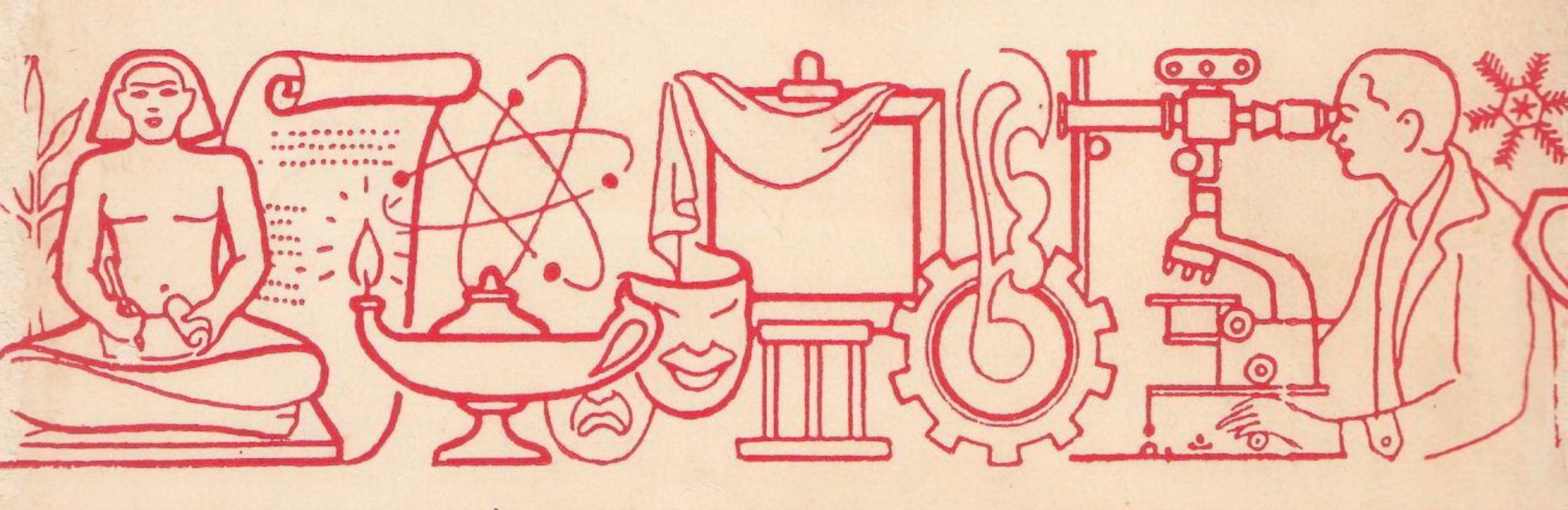
راجعه

الدكتور محمود النحاس

بإشراف إدارة الثقافة العامة

بوزارة التربية والتعليم

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة



نشرته مكتبة نهضة مصر بالفجالة

www.ibtesama.com Exclusive

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com Exclusive

الألف كتاب

فى طلب التوابل

(٩٨)

باشراف إدارة الثقافة العامة
بوزارة التربية والتعليم بمصر

www.ibtesama.com Exclusive

مؤلفة الكتاب

صنفت كتاب فى طلب التوابل هذا سيدة إنجليزية عالمة، قضت — على ما يبدو من مقدمتها للكتاب الذى نحن بصدده — شطرا من حياتها فى فرنسا حيث نشرت لها عدة مؤلفات باللغة الفرنسية، كرم اثنين منها المجمع الفرنسى l'Academie Française كما منحتها الجمعية الجغرافية بباريس مدالية جودى « Gaudy » على أحدهما وعنوانه « أبطال الصحراء » Les Heros Du Sahara. ومدالية أرمان روسو « Armand Rousseau » على الآخر، وعنوانه « أوروبا ومدغشقر » L'Europe Et Madagascar

وللمؤلفة عدة كتب بلغتها الأصلية وقد ترجم كتاب « فى طلب التوابل » إلى اللغة الفرنسية، نقله إليها الجنرال فيلونو كما سيأتى فى المقدمة .

أما المراجع التى استعانت بها المؤلفة فكثيرة متعددة متشعبة منها البرتغالية والإسبانية والفرنسية والإنجليزية ومنها العربية المطبوعة فى بعض العواصم الأوروبية كرحلة ابن بطوطة . وقصص السيرافى وألف ليلة وليلة وكتب الجغرافيين من أمثال أبى الفداء والادريسى وابن خرداذبه، والحق أن الكاتبة قد ألمت بموضوع الكتاب من جميع أطرافه على تشعب ميادينه وحوادثه وإن مزجت فيه الحقيقة بالقصص، والواقع بالخيال أحيانا .

المترجم

www.ibtesama.com Exclusive

الألف كتاب (٩٨)

فى طلب التوابل

** معرفتي ** www.ibtesama.com

تأليف

سونيا . ى . هاو .

الحائزة لتقدير الأكاديمية الفرنسية والجمعية الجغرافية بباريس

مزين بخرائط تفسيرية ورسومات معاصرة

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

ترجمة
محمد عزيز رفعت
الخبير الفنى للاذاعة المصرية سابقاً

مراجعة
الدكتور محمود النحاس
وكيل مصلحة الفنون

نشرته
مكتبة نهضة مصر ومطبعتها
الفجالة ــ القاهرة

١٩٥٧

www.ibtesama.com Exclusive

هذه ترجمة لكتاب :

IN QUEST OF SPICES

BY

SONIA E. HOWE

Laureate de l'Académie Française
and of la Société de Géographie
de Paris

ILLUSTRATED WITH MAPS AND
CONTEMPORARY DESIGNS

HERBERT JENKINS LIMITED
3 DUKE OF YORK STREET, S AMES'S
LONDON, S. W. 1

www.ibtesama.com Exclusive

تقديم المراجع

بسم الله الرحمن الرحيم ، وبعد : فهذا كتاب « فى طلب التوابل » يسرد لنا قصة الرحالة الأوائل الذين ركبوا الأهوال وشقوا طريقهم فى البحار المجهولة شرقا وغربا فى طلب التوابل، من البرتغاليين الذين كشفوا الطريق الأفريقى إلى الهند ، ومن الأسبانيين الذين جابهوا أهوال المحيط الأطلسى غربا فى اتجاه أمريكا وجزائر الهند الغربية ، ومن الهولنديين والفرنسيين والانكليز الذين شقوا طريقهم شرقا وغرباً فى طلب تلك الكنوز النادرة .

وكتابنا هذا قد وفّى الموضوع حقه من وجهة النظر الغربية إذ سرد تلك القصص سردا شيقا بأسلوب سلس واضح مضيفا إلى الوقائع التاريخية بعض النوادر والفكاهات التى أضفت على الوصف الجاف ألوانا وصورا حية تقرب إلى أذهاننا تفهم الحياة فى الغرب وفى الشرق إبان تلك العصور .

ويبدأ الكتاب بنبذة أولى تمهيدية عن التوابل فى العصور القديمة ، ولعل الكاتبة تعنى العصور التى سبقت عصر الأمير هنرى الملاح ، أى أنه لم يعنَ بالتوابل الا منذ اللحظة التى بدأ فيها الغربيون حملاتهم البحرية للكشف عن طرق التوابل والاستيلاء عليها . وهذا القسم الأول من الكتاب صورة طريفة طلية وتجميع لكل ما ورد فى كتب التاريخ القديم والقصص وما حكى عن الشرق من خرافات وما فيه من عجائب ونفائس ، تختلط فى سياقه التوابل النادرة مع الأحجار الكريمة واللآلئ والطنافس ، وتختلط فيها مصادر هذه النفائس مع جنات عدن ، كما يخلط فيها الرواة والمؤرخون بين الأنهار والجبال والبحار والممالك ، كل ذلك حائر بين مختلف ممالك إفريقيا وآسيا . .

والصورة تجمع ماورد على لسان الرحالة العرب أمثال أبى زيد السيرافى

www.ibtesama.com Exclusive

والبيرونى وابن بطوطة، وما ورد فى القصص مثل قصص السندباد البحرى، وما ورد على لسان الجغرافيين أمثال الإدريسى مع ماجاء فى كتب القدماء من الإغريق والرومان وجوابى القرون الوسطى، كل ذلك بدون تحقيق ولا تعليق، وانتهت المؤلفة فى آخر هذا الجزء إلى الحديث عن «مملكة القس يوحنا» دون أن تربط بين البحث عن التوابل وبين هذه المملكة سوى أن بعض الرحالة كانوا يسافرون للبحث عن احداها دون الأخرى أو عن الاثنتين معاً.

ويبدأ القسم الثانى (وهو القسم الرئيسى منه) بقصة الأمير هنرى البرتغالى مؤسس أول مدرسة للبحرية والذى كرس حياته لرسالة مقدسة هى حرب المسلمين فى الهند وجزائر الشرق الأقصى وكسب شعوب تلك البلاد إلى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. وليس أدل على الصفة الدينية لهذه الرحلات من تلك الرسالة التى بعث بها البابا نيقولا الخامس إلى الأمير هنرى فى سنة ١٤٥٤ يحثه فيها على حرب الكفرة (ويعنى المسلمين) ونشر الدين المسيحى والاتصال بالممالك المسيحيه فى الشرق للتحالف معها على حرب المسلمين أعداء المسيحية، وأن يدخل فى زمرة المسيحية تلك الشعوب التى لم تتلوث بوباء الإسلام.

وليس أدل على ذلك من قيام أساطيل البرتغال بمصادرة مراكب العرب وإعدام من فيها من ملاحين وركاب، ومهاجمتها موانىء العرب والمسلمين كلما سنحت لهم الفرصة.

كانت إذا حرب التوابل من أول أمرها حربا صليبية وامتدادا لتلك الحروب التى شنها الغربيون على الشرق الإسلامى فى عام ١٠٩٨ والتى دامت قرنين كاملين.

والحديث عن الحروب الصليبية حديث طويل لا تتسع له هذه المجالة، ولكن هذه الحروب تتصف ببعض الصفات الرئيسية المميزة. أولها تحالف الغرب بأجمعه عندما دعا الداعية لحرب المسلمين وانتزاع الأراضى المقدسة

www.ibtesama.com Exclusive

منهم وثانيتها أن تلك الحروب لم تأخذ صفتها الجدية إلا بعد أن أفاقت مصر من هول أول صدمة وقيض الله لها صلاح الدين الأيوبى الذى أنزل بالصليبيين هزيمة حطين التى كانت بدون شك نقطة تحول هامة فى تاريخ العالم . وثالثتها أن الصليبيين لما فهموا مركز مصر وأهميته وقوتها حولوا هجماتهم عن الأراضى المقدسة إليها ، فكانت هزيمتهم فى المنصورة وأسر لويس التاسع ضربة قاصمة قضت على آمالهم فى البطش بتلك الدولة التى وقفت فى وجههم .

وانتهت تلك الحروب فى عام ١٢٩١ بطرد الصليبيين من عكا على يد الأشرف خليل بن قلاوون أحد سلاطين المماليك البحرية .

لذلك كان لزاما على الغربيين إن أرادوا استئناف الحرب المقدسة والبطش بمصر أن يهاجموها بوسيلة أخرى وعن طريق آخر، وكانوا يعلمون أن مصر دولة قوية غنية ، وأن معظم ثروتها تأتيها من تجارة التوابل وغيرها من كنوز الشرق ، كالحرير واللآلئ والأحجار الكريمة والأعشاب الطبية والتحف النادرة ، تأتى إلى مصر ثم يعاد تصديرها بثلاثة أضعاف ثمنها الأصلى . وفى نفس الوقت كان يترامى إلى سمع الغربيين أن بالشرق دولة مسيحية كبيرة سموها دولة (القس يوحنا) قد تكون بأفريقيا وقد تكون بالهند وقد تكون فى غير ذلك من الأقطار ولكنها بالتأكيد حليفة هامة لدول الغرب إن هى أرادت أن تأخذ المسلمين على غرة وتطعنهم من الخلف ، وهى على كل حال خير عون لتثبيت أقدام المسيحيين فى تلك الأقطار التى توغل فيها الإسلام ونشر تعاليمه ، فكانت حرب التوابل لكل هذا امتدادا للحروب الصليبية حملها البرتغاليون إلى تلك البحار لأخذ مصر والمسلمين عامة من الخلف وللاتصال بمملكة (القس يوحنا) لعلها أن تكون لهم فى هذه الحرب خير حليف وأحسن قاعدة لمهاجمة المسلمين ، فكان المبعوثون يكلفون دائماً بأحد أمرين . . البحث عن التوابل أو عن تلك المملكة أو بكليهما .

ونحن إذ نبحث هذا الأمر ونتذاكره من وجهة نظرنا الشرقية يجب

www.ibtesama.com Exclusive

أن لا تفوتنا هذه العوامل الروحية الأساسية التى دفعت إلى تلك الحرب لإضافتها إلى الحافز الرسمى وهو البحث عن التوابل والتنافس على تجارتها ونقلها .

ثم نخلص من ذلك كله إلى نتائج تلك الحرب التى كان لها فى تاريخ العالم أبعد الآثار ، ولقد بقيت بعدها حتى يومنا هذا :

كان اكتشاف القارة الأمريكية كلها وما ترتب عليه من الأثر العميق فى تاريخ العالم وجغرافيته ومستقبله أثرا من آثار تلك الحرب

وكان اكتشاف افريقيا والهند وجزائر الملايو ورغبة البرتغاليين أولا ثم باقى دول الغرب من بعدهم فى إنشاء المتاجر والقواعد البحرية بها فاتحة عصر الاستعمار وبدء قيام امبراطوريات ماوراء البحار وما يصحبها من عقلية بغيضة تجعل من الغربى السيد ومن الشرقى المسود وتفرق بين العناصر والألوان تفرقة لايزال العالم إلى اليوم يرزح تحت وطأتها .

وكان من نتائج حرب التوابل أن ركزت الدول الكبرى اهتمامها حول بناء الأساطيل لفرض سلطانها على العالم خلال تلك الفترة الطويلة التى لم تنته إلا أخيرا حين انتقلت السطوة من البحر إلى الجو ، وأصبحت الطائرات سلاحا أشد بطشا وأبعد مدى من السفن . ولكن سيادة العالم كانت قبل ذلك للدولة التى تملك أقوى الأساطيل وتسيطر على البحار ، حتى لقد قال أحد المؤرخين أن الامبراطورية الاسبانية ماتت يوم هزم أسطولها الضخم (الارمادا) على سواحل انجلترا .

ولست أريد أن أختم هذه المقدمة — ونحن فى الحديث عن حرب التوابل — دون أن أشير إلى دور مصر فى تلك الحرب وهو الدور الذى أهملته الكاتبة إهمالا أعتبره تقصيرا بالغا .

لقد كانت مصر فى القرون الثالث والرابع والخامس عشر هى الطريق الرئيسى لتجارة التوابل بين الشرق والغرب ، وكان سلاطين المماليك

www.ibtesama.com Exclusive

يحتكرون هذه التجارة لما كانت تدره على الدولة من أرباح طائلة . ولكن مصر كانت دائما تحترم حرية التجار وتفتح أبوابها لتجار الشرق من صينيين وهنود وفرس وعرب وأحباش ، كما كانت تفتحها فسيحة رحبة لتجار الغرب من بنادقة وجنويين وغيرهم . بل لقد كانت لهم فى القاهرة والاسكندرية وكالات خاصة بهم ينزلون بهـا ويتجرون فيها ، أحراراً فى حياتهم الخاصة وفى إقامة شعائرهم الدينية وفى تنقلاتهم ، فلما وصل البرتغاليون إلى شواطىء الهند نزلوا فى أول الأمر بمدينة قاليقوط التى كان يحكمها أحد ملوك الزاموريين ولم يكن مسلما . ولكن المدينة كانت محط رحال التجار العرب يعاملون أهلها كخير مايعامل به الأخ أخاه . فكان أول شرط أراد البرتغاليون فرضه على ذلك الملك أن يقصى عن مدينته تجار العرب وأن لا يتعامل معهم والا فهى الحرب بينه وبينهم ، ورفض الملك مطلبهم فكانت الحرب وكان أن أرسل البرتغاليون أساطيلهم الواحد بعد الآخر لمهاجمة تلك المدينة الوادعة . فلما تحقق ملك الزاموريين من أن سفنه الخفيفة لن تجديه نفعا أمام سفن البرتغاليين الحربية المزودة بالمدافع استنجد بصديقه السلطان قانصوه الغورى سلطان مصر وكان ذلك فى سنة ١٥٠٢ . وكان سلطان مصر عاقلا حكيما يدبر أموره بفطنة وعلى أكمل وجه فبدأ بالتحالف مع البندقيين أعداء البرتغاليين ثم جهز أسطولا ضخما مجهزا بأحدث الأسلحة وحمل فيه ١٥٠٠ مقاتل وعقد لواءه للأمير حسين أحسن قواده البحريين .

سار الأسطول المصرى فى سنة ١٥٠٧ بقيادة ذلك الملاح المحنك الذى رأى أن يتخذ جزيرة ديو قاعدة لعملياته ولتموينه . ومنها اتصل بأسطول الزاموريين الذى انضم إليه لمهاجمة البرتغاليين . وكان الأسطول البرتغالى تحت أمرة لورنسو دالميدا مرابطا فى كوشين ، فقام منها واتجه شمالا حتى التقى الأسطولان فى شولا ، فهجم الأمير حسين بأسطوله هجمة صادقة وأصلى

www.ibtesama.com Exclusive

البرتغاليين بمدافعه نارا حامية ، ففر الأسطول البرتغالى بعد أن أصيبت سفينة أميرهم فغرقت وقتل دالميدا .

وأسقط فى يد البرتغاليين بعد أن رأوا أمامهم أسطولا بحريا يعادلهم فى القوة والخبرة البحرية ثم هو فوق ذلك حليف وصديق لملك قاليقوط ولكنهم جمعوا بقايا أسطولهم بعد ما جاءتهم النجدات وواجهوا الأمير حسين مرة أخرى عند ديو فى سنة ١٥٠٩ ، وبالرغم من أن حاكم الجزيرة خانه ورفض أن يقوم بتقديم الامداد اللازم له ، فإن الأمير حسين خاض المعركة وهزم البرتغاليين مرة أخرى .

ولكن خطرا أكبر بدأ يهدد مصر نفسها حين شعر قانصوه الغورى بأن سلطان تركيا سليم ياوز بدأ يتحرش به وبالشاه اسماعيل الصفوى ورأى أنه فى حاجة إلى تجميع كل قواه للدفاع عن مصر العزيزة الكريمة التى قامت مدى ثلاثة قرون مقام السـد المنيع الذى دفع غائلة الغرب عن الشرق وبلاده .

وانهزمت مصر بمرج دابق فى سنة ١٥١٧ أمام جحافل سليم الغاشمة نتيجة خيانة الأميرين خيربك وجاق بردى وانهار ذاك السد المنيع وأطلقت يد البرتغاليين فى الهند وبذلك بدأ عصر الاستعمار الذى لم ينته إلا فى عصرنا هذا . . . . »

الدكتور محمود النحاس

www.ibtesama.com Exclusive

فى الأشادة بالتوابل

شبّه العاشق الملكى ، مُرتّلُ أغنية سليمان بن داود حبيبته « ببستان . . . فيه الفاكهة الحلوة وفيه الكافور والناردين[1] والزعفران وفيه القلماوش[2] والقرفة . وفيه أشجار اللبان والمرّ والصّبر وفيه أجود أنواع التوابل الأخرى ».

حملت ملكة سبأ إلى الملك سليمان « كميات عظيمة من التوابل » وما أن انقضى ألف عام على ذلك العهد حتى حضر رجال حكماء من الشرق ليقدموا للطفل المقدس فى بيت لحم ، الذهب واللبان والمرّ .

(١) سنبل الطيب .
(٢) القصب الذريرى وفيه جذور زيت طيار وهو عطرى مر مقو للمعدة .

www.ibtesama.com Exclusive



تمهيد

تقص الصفحات التالية حوادث معينة فى حياة رجال أبطال مغامرين ، من مواطن مختلفة جابوا البحار المجهولة فى طلب التوابل فاكتشفوا فى طريقهم بلاداً جديدة لم تكن معروفة من قبل .

كانت فكرتى فى أول الأمر أن أبدأ كتابى بقصة ڤاسكو دا جاما (Vasco da Gama) أول من أمعن فى البحر إلى ما وراء رأس الرجاء الصالح فى طلب التوابل صدوعا بالأوامر الصادرة إليه ضمناً .

على أنى لم ألبث أن تبين لى ضرورة الرجوع إلى تاريخ البرتغال . أولا لأتمكن من تقدير أعمال أولئك الأبطال حق قدرها ، أولئك الذين اتخذ كمونز (Camoens)[1] من بسالتهم مادة لقصائده اللسياديات (Lusiades). فمن الشواهد الجلية الواضحة أن عام ١٤١٥ وهو العام الذى استولى فيه البرتغاليون على مدينة سبته لا يقل خطراً وأهمية عن عام ١٤٨٧ الذى دار فيه برثولوميو دياز [2] حول القارة الأفريقية من جنوبها ، فقد بلغت البرتغال يومئذ أوج مجدها بعد جهاد دام اثنين وسبعين عاما وفقا للخطة التى وضعها ملوكها . على أنى وجدت نفسى مضطرة إلى التعمق فى تاريخ البرتغال إلى ما قبل هذا التاريخ لأتفهم الحوافز التى استنهضت هممهم حق الفهم ومنطق النتائج التى ترتبت على هذا النشاط الفذ . ثم انتقلت من ميدان التاريخ إلى ميدان قصص الجوّابين وما زلت أتتبعها حتى انتهيت إلى شخصية « القس يوحنا » التى يكتنفها الغموض وهو الذى يُزعم أن الفلفل ينبت

---

(١) شاعر برتغالى مشهور ١٥٢٥ م ـــ ١٥٨٠ م ولد فى لشبونة ومات من الفاقة . مجد ڤاسكو دا جاما فى قصائده المعروفة باللوسياديات وهى عشر قصائد تعتبر من أروع الشعر البرتغالى .

(٢) Bartholomeo Diaz

www.ibtesama.com Exclusive

فى حقول مملكته . بل أنى اضطررت بعد ذلك كله إلى الخوض فى مزاعم ما قبل ذلك العهد — إلى الفردوس الأرضى الذى أعتقد الناس فى العصور الوسطى بأن التوابل والأفاويه كانت تأتيهم منه .

فى عام ١٥١١ استطاع ربابنة السفن البرتغالية الوصول لأول مرة إلى تلك المجموعة من الجزائر التى انفردت وحدها فى عالمنا الفسيح بزراعة أشجار جوزة الطيب والقرنفل فأطلقوا عليها اسم « جزائر التوابل » .

وكان الذى استرعى إهتمامى بوجه خاص فى تاريخ البحث عن التوابل، بعض حوادث إنسانية معينة وعوامل سياسية قربت إلينا وإلى عصرنا الذى نعيش فيه أولئك الملاحين الذين مخروا البحار فى طلب التوابل كما قربت إلينا نشاط ملوكهم الدبلوماسى .

ولقد تتبعت رجال البحار من برتغاليين وفرنسيين وهولنديين وانجليز حتى نهاية أهدافهم عند جزائر « ملوك » جاعلة نصب عينى تلك العوامل الإنسانية والسياسية متعمدة عدم الخوض فى الموضوعات المعروفة للجميع والتى كانت معالم من معالم التاريخ بفضل تلك السياحات البحرية .

وقد يبدو أنه ليس هناك أية علاقة تربط بين السياسة والفلفل أو بين الدبلوماسية وبين جوزة الطيب والقرنفل . بيد أن هذه التوابل قد تأثرت بها مصائر عدة دول أوروبية دفعتها شهوة الحصول على التوابل للسفر إلى البلاد التى تنبت فيها ثم إلى الفتح والاغتصاب .

لقد توصلت إلى معرفة الرجال الذين يروى أخبارهم كتابى هذا معرفة وثيقة حتى أصبح الكثير منهم من أصدقائى حقاً . فلقد بذلت كل ما فى وسعى لتفهم عصرهم وعقليتهم ومبلغ علمهم واستعدادهم لمغامراتهم التى اكتنفتها الأخطار من كل جانب .

ومما زاد من سرورى فى الكتابة عما كانوا يبحثون عنه هو أنى زرت كثيراً من العواصم والبلاد التى كان لها إتصال بتاريخ التوابل ، لشبونه ،

www.ibtesama.com Exclusive

القاهرة ، الإسكندرية ،سيلان ، غرب أفريقيـة ، الزنجبار ، مدغشقر والصين .

وفى موريتانيا شاهدت أشجار توابل زرعها فى القرن الثامن عشر مسيو بيير بواڤر[١] الذى كان من نتيجة إقدامه ونشاطه ومغامرته أن جزائر ملوك لم تعد تنفرد بزراعة القرنفل وجوزة الطيب . فمن مشاتله أرسلت بذور هذه الأشجار النفيسة إلى الزنجبار ومدغشقر اللتين أصبحتا أهم مصادر القرنفل فى العالم . والواقع أن الزنجبار أصبحت تنافس سيلان وجزائر ملوك فى التوابل والأفاويه .

وأنى أدين بجزيل الشكر لصديق المرحوم الجنرال فيلونو [٢] من كبار المهندسين الفرنسيين الذى وضع تصميمات خط ماجينو [٣] فقد كان لى خير عون . وهو لم يكتف بنقل كتابى هذا إلى اللغة الفرنسية فى أسلوب عذب صحيح العبارة حتى لتبدو الترجمة وكأنها الأصل ، بل ذهب إلى أبعد من هذا فنقد النص الإنجليزى الأصـــلى ونقح التعبيرات البحرية العديدة التى عييتُ بها .

وأود كذلك أن أخص بشكرى الدكتور هيو مِل [٤] وكيل الجمعية الجغرافية الملكية لتفضله بقراءة نص الكتاب جاعلا تنقيحه نصب عينيه كلما دعت الضرورة إلى ذلك ولحسن تشجيعه لى .

سونيا . ى . هاو (Sonia E. Howe)

باريس ١٩٢٧ — لندن ١٩٤٦

---

(١) Pierre Poivre (٢) Fillonneau (٣) Maginot (٤) Hugh Mill

www.ibtesama.com Exclusive

الجزء الأول

التوابل فى أول عهدنا بها

www.ibtesama.com Exclusive

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

الفصل الأول

من الجنة إلى تنبكتو

« وكان نهر يخرج من عدن ليسق الجنة . ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس . اسم الواحد فيشون وهو المحيط بجميع أرض الحويلة حيث الذهب . . . . واسم النهر الثاني جيحون [1] . هو المحيط بجميع أرض كوش. واسم النهر الثالث حداقل . وهو الجاري شرق أشور . والنهر الرابع الفرات »

[سفر التكوين — الاصحاح الثاني ١٠ — ١٤]

ساد الاعتقاد بوجه عام إبان القرون الوسطى بأن التوابل والأحجار الكريمة تأتي من جنة عدن ، تحملها إلى الدنيا أنهار تنبعث منها . وكان الجغرافيون يوضحون موقعها على خرائطهم برسم دائرة أو نصف دائرة يكتبون إلى جانبها في ثقة تامة . « هنا موضع الجنة » . وكانوا يعتقدون أنها تقع بالشرق في أقصى شماله ، عالية مرتفعة حتى أنها لتلامس القمر ، تحيط بها أسوار شامخة تكسوها أوراق الأشجار الخضراء وتقوم من حولها الحصون. وكان هذا المكان الذي يثلج الصدور وغرسته يد الله جل شأنه والذي ترعرعت فيه الأشجار الباسقة وانتشرت منه الروائح العبقة — كان هذا المكان بمعزل من مساكن البشر تفصل بينه وبينها البحار والجبال والصحارى . فكل اتصال مباشر بين الجنة والعالم معدوم إلا عن طريق هذه الأنهر الأربعة التي تنبعث منها .

هذا ما كان عليه عامة الناس أيام الحروب الصليبية بشأن هذه الأنهار فقد كانوا يعتقدون أن نهر الفيشون أو الجانجيز يخترق في مجراه أرضا

---

(١) جيحون كما يعرف اليوم نهر بآسيا الوسطى يسمى عند الإفرنج أكسوس وإليه تنسب الجهة المشهورة عند العرب ببلاد ما وراء النهر واسمه بلغة التتار أموداريا .

www.ibtesama.com Exclusive

مليئة بالتوابل والأحجار الكريمة وأن نهر الفرات كان يفيض بالجواهر والأحجار الكريمة أيضاً وأن نهر دجلة فى تدفقه السريع من الفردوس الأرضى كان يحمل معه التوابل، وأن نهر جيحون أو النيل الذى كانت ترتفع مياهه إلى سطح الأرض غير بعيد من « أيلانت » كان يجرى أولا حول أثيوبيا ثم يخترق بعد ذلك أرض مصر .

ولقد قيل للسيد دى جوانفيل عند ما كان بالاسكندرية مع القديس لويس [١] أن جميع التوابل التى تعرض بأسواق القطر المصرى تأتيها من الفردوس الأرضى . أما الطريقة التى كان يحصل بها الناس على هذه التوابل فهى كالآتى : هناك حيث ترتفع مياه النيل إلى سطح الأرض يمد الصيادون شباكهم بعرض النهر فى المساء فإذا ما أقبل الفجر ضموا شباكهم اليهم وما أكثر ما كانوا يجدون فيها من القرفة والجنزبيل والراوند والقرنفل وأخشاب الصبر وما إلى ذلك من صنوف التوابل والأفاوية الطيبّة . على أنه كان يقال أيضاً أن هذه التوابل كانت تأتيهم من أرض « أوفير » وهى جزيرة تقوم فى وسط نهر جيحون بها جبال عديدة من الذهب وبها التوابل المستملحة الطيبة وما أصدق ما كان يقوله الناس من أن العثور على هذه الجزيرة الذهبية ، مثل الذهب نفسه يعسر العثور عليه .

ويصف السير جون مندفيل جنة عدن بأنها تقوم وسط صحراء مرعبة لا يستطيع البشر اجتيازها بالرغم من أن النهر المنبعث من الجنة يخترقها وإن لم يكن به قطرة من الماء قط ، ولكن يندفع فيه ، على حد قوله ، سيل جارف ثلاث مرات فى الأسبوع تتألق أمواجه كبريق الماء تحت أشعة الشمس ، ولكن هذه الأمواج لم تكن سوى جدول من الجواهر والأحجار الكريمة فكان الناس يبادرون إلى جمعها كلما حملها النهر .

(١) هو لويس التاسع ملك فرنسا الذى قاد حملة الصليبيين السابعة وأسر فى مدينة المنصورة.

www.ibtesama.com Exclusive

وروى هذا الرحالة المغوار، كيف أنه وصل هو وأصحابه إلى واد يزخر بالجواهر و بالشياطين فى آن واحد، وكيف أنهم قبل أن يقدموا على اجتيازه كفروا عن خطاياهم بالاعتراف وتقبل السر المقدس استعدادا للموت ، وهو يعتقد كما اعتقد رفقته أن نجاتهم من المكروه ترجع إلى تعففهم حتى عن لمس تلك الجواهر . فللشياطين حيل وقدرة على جعل الأشياء تبدو على غير حقيقتها الأصلية .

فلا جرم أن كانت الأحجار الكريمة والتوابل ، من السلع التى ارتفع ثمنهما فى ذلك العهد ارتفاعا كبيراً .

إن الحياة فى الشرق لا يمكن تخيلها مجردة من تلك الهبات المبهجة التى تحبوها بها الطبيعة . فالحب والحياة، والموت والجمال، وشهوة التنعم والتعبد، والحبور والحزن ، كلها تتطلب التعبير عن مظهرها الخارجى بما تضيفه عليها تلك العطور والتوابل والدهون الغالية والبخور والحلى من زينة ومباهج . على أن أوروبا الغربية لم تتصل عن كثب بصور الحياة فى الشرق إلا بعد قدوم فرسانها الصليبيين إلى فلسطين لانتزاع الضريح المقدس من أيدى المسلمين[١]. وقد ترتب على هذا أن ازدادت معلومات أوروبا عن كنوز الشرق ، واستطاعوا أن يقدروا الانتفاع بها وبخصائصها المتنوعة حق قدره ، فازدلد طلب الناس للتوابل لمعالجة الطعام بصورة ملموسة ، وازدادت حاجة الصيادلة اليها لصنع المراهم والأشربة التى كانت تضاف إلى تركيبها الكاسيه[٢] والقرفة والكندر والقرنفل وجوزة الطيب والفلفل ، إما لتسكين الأعصاب أو لتنشيطها .

وفى القرن الثالث عشر ، خطرت لراهب علامة يسمى برثولوميوس انجليكس[٣] فكرة طيبة لوضع دائرة معارف كان لها فضل كبير فى إطلاعنا

---

(١) فى الأصل الكفار ، وهو يدل على مدى تعصب المسيحيين فى القرون الوسطى .

(٢) جنس من النباتات البقولية يخرج من بعضها السنا .

(٣) Bartholomeus Anglicus

www.ibtesama.com Exclusive

على ما كان يعتقده أهل ذلك العصر بشأن التوابل والأحجار الكريمة .

وقد دأب هذا الراهب في مؤلفه ، على ذكر أسماء الكتاب الذين نقل عنهم من إغريقيين ولاتينيين، ومنهم الجغرافيون والمؤرخون والفلاسفة والجوابون والرهبان الخ الخ .

ولقد التزم منتهى الدقة وصدق الرواية في كل ما نقل إلينا ، سواء في ذلك القصص والأساطير ، أو الوقائع والحوادث التي لا يتطرق إليها الشك .

فتحت مادة « خشب الصَّبِر » تقول دائرة المعارف المذكورة .

المفروض أنه ينبت بين أشجار الجنة الأخرى وينحدر منها إلى العالم نتيجة حادث من الأحداث ، أو يجرفه تيار نهر السند[1] . ومن بين منافع خشب الصبر العديدة أنه حينما ينقع في النبيذ يساعد على شفاء القلب من جميع ما يعتريه من أمراض ونوبات .

وتحت الإسم الشامل لفصيلة البلسان نقرأ (أن شجرة البلسان تنبت حول بابليون[2] في مصر، وأن جميع فوائدها طيبة . فعصيرها يلهب المخ حتى لكأنه يشتعل ناراً . وأهم خصائص البلسان أنه يذيب ويلطف ويفني ويبيد، ويحفظ جثث الموتى من التعفن) .

وأحسن أنواع البلسان هو المستخرج من الأشجار المعروفة ببلسان إسرائيل ، قرب مكة ومن « المطرية » قرب بابليون بمصر .

وبشأن هذا المكان الأخير تروى الأسطورة التالية .

نزلت الأسرة المقدسة لتستريح أثناء فرارها إلى مصر بمكان غير بعيد عن بابليون (إسم القاهرة فى تلك الأيام) فجلست السيدة مريم العذراء على الأرض وفى حجرها طفلها الصغير[3] بعد أن أجهدها السير ونال منها

---

(١) Indus

(٢) حصن بابليون بمصر القديمة

(٣) في الأصل (ابن الإله)

www.ibtesama.com Exclusive

العطش . وهنــا حدثت المَعجزة . فقد أخذ الطفل المقدس يرفس برجليه الصغيرتين كما تفعل الأطفال فلامس كعباه الأرض وما أن حدث ذلك حتى تفجرت عين ماء فى الموضع الذى لمسه كعباه فاستطاعت السيدة العذراء أن تروى ظمأها من ذلك الماء وأن تغسل لفائف الطفل أيضا . ثم نبتت حيث تساقطت نقط المياه المعتصرة من لفائف الطفل شجيرات من البلسان لاتزال تنبت وتزهر فى ذلك المكان منذ ذلك العهد يزورها الحجاج فى طريقهم إلى بيت المقدس للحج وفى انصرافهم منه حاملين معهم إلى أوطانهم ما أمكنهم الحصول عليه من ذلك البلسان .

ولما رأى سلطان مصر تهافت الحجاج على زيارة هذا المكان وحرصهم على التزود من ورق البلسان استقر رأيه على أن يستغل هذا النبات ليكون مصدر ربح له فابتنى سوراً حول الموضع وكان يحضر بنفسه عملية استخراج زيت البلسان الغالى فى كئوس من الفضة .

على أن الجانب الأكبر من دهن البلسان كان يستورد من جزيرة العرب . ويقول الأخ برثولوميوس أن الإغريق كانوا يسمون جزءاً من الجزيرة العربية Eudaimon ويسميه الرومان Felix [1].

وعن جزيرة العرب السعيدة كتب الجغرافى الاسكندرى ديونسيوس Dionysius فى القرن الثالث .

أنظروا الروضة الساحرة الخالدة
أبداً معطرة يفوح منها عبير اللبان
وعبير المر والقلفاش والقرفة العاطرة
والبخور الذى يقدم على مذبح القربان
فهنا المشترى أنزل باخوس [2] فى هذا المكان
فمنذ مولده تضوع كل زهر وريحان

---

(١) أى السعيد .

(٢) ابن الإله جوبيتر (المشترى) فى أساطير الرومان . وهو الـى ديونيسوس عند اليونان .

www.ibtesama.com Exclusive

وأطلق المصريون أيضا على هذا الجزء الخصيب من الجزيرة العربية اسم « السعيد » لأنهم كانوا يحصلون منه على كل مايحتاجون إليه من التوابل والعطور .

ولكن التوابل وإن عزىَ إليها مثل هذه القيم العلاجية العظيمة إلا أن ما عزىَ إلى الأحجار الكريمة من القيمة العلاجية كان أوفر نصيبا — يدل على ذلك المثل القائل « إن قيمة الأعشاب عظيمة ولكن قيمة الأحجار الكريمة أعظم » ويقول الأخ برثولوميوس : « ليس الاعتبار بالموضع الذى توجد فيه الأحجار الكريمة . فبعضها يوجد فى قاع البحر وبعضها يوجد بين حصى الأنهار ولكن الأحجار الكريمة إذا شرف جوهرها حلت فيها بركة الخالق وعظمت قيمتها حتى ما كان يوجد منها فى بطون الطيور والزواحف . والحق إذا نحن آمنا بقول دائرة المعارف كان كل مايحتاج إليه الإنسان لينعم بسلامة العقل والجسد هو أن يقرن إلى شخصه بعض جواهر معينة لتضفى عليه الفضيلة والشجاعة والاخلاص وليصبح محبوبا وبمأمن من الأخطار .

ومفعول بعض الجواهر المعينة من هذه الأحجار الكريمة لا يظهر على الوجه الأكمل الا إذا قرنت إلى جزء معين من الجسد فالماس مثلا إذا وضع على الكتف الأيسر أو تحت الإبط أكسب صاحبه مناعة ووقاه شر الخصومات والتشاحن والكابوس والأطياف . لأنه جوهر المحبة والوئام .

وعلى الرغم مما عزى إلى معظم أنواع الأحجار الكريمة من الفضائل فان الحجر الذى سماه براتسين[1] يعتبر أفضلها من الوجهة العملية لحامله لن يمسه الذباب ولو طلىَ جميع بدنه بالشهد، ويعتبر الصُّفَّير[2] (الياقوت الأزرق) أكرم الجواهر وأليقها بتزيين أصابع الملوك . فهو يحفظ سلامة أطراف الجسم ويُلطف ثورة الحمى إذا علق قرب موضع النبض أو عروق القلب

---

(١) Baralicine

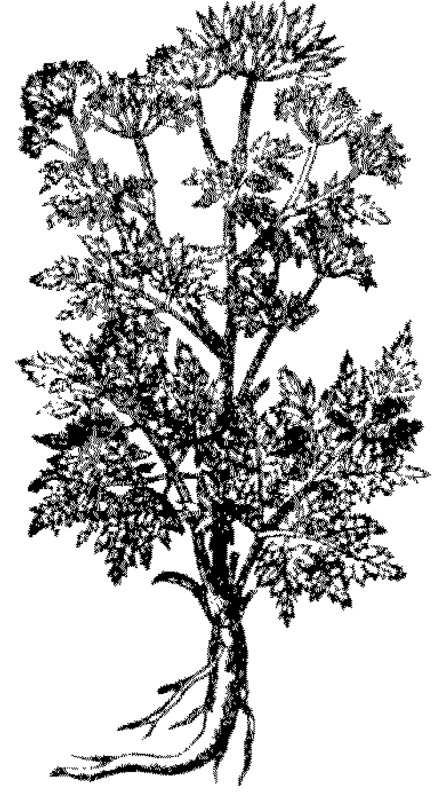
(٢) Sapphire

www.ibtesama.com Exclusive

وهو يشرح الصدور ويساعد على تخفيف حدة الانفعالات القلبية ويوقف نزيف الأنوف إذا وضع على الأصداغ الخ. الخ. وهو إلى جانب هذا كله يعين العرّافين ويرشدهم إلى أحسن الردود المنشودة. وللسحرة به ولع شديد. وهو يخرج المساجين من سجونهم ويفتح ما استغلق من الأبواب بمجرد لمسها.

والجواهر وإن وجدت فى الجنة إلا أنها توجد كذلك فى جزيرة سيلان التى يزعم أن آدم وحواء لبثا بها خمسمائة عام يذرفان الدموع لمقتل قابيل. ومن هذه الدموع تكونت رويداً رويداً بحيرة تمور بالأحجار الكريمة التى تولدت من الحب والحزن.

وقد سجل الراهب اودوريكس[1] الذى ساح فى ربوع الشرق خلال القرن الرابع عشر، هذه الرواية فى يومياته مع إضافة بعض تفاصيل قليلة تتصل بهذه البحيرة مضمونها أن ملك هذا القطر كان يسمح لفقراء رعيته بالغوص فى البحيرة مرتين كل عام لجمع الأحجار الكريمة على شريطة أن يصلُّوا لله ليبارك روحه ويخصها برحمته.



شجرة المر

ولما كانت البحيرة ملأى بالعَلَق[2] وأشباهها من ماصة الدماء فقد أمر الملك بأن يدهن الغائصون فى البحيرة أجسادهم بعصير الليمون.

ولقد أيد السيد نيقولا دى نيقولاى[3] العالم الجغرافى ببلاط هنرى الثانى ملك فرنسا — هذه الوقائع بعد مضى مائتى عام على رواية الأخ الراهب برثولوميوس. ثم إنه زار جزيرة العرب فكتب عنها عن

(١) Odoricus

(٢) دويبة فى الماء تمص الدم.

(٣) Nicolas de Nicolay

www.ibtesama.com Exclusive

تجربة شخصية . فكان من بين ماكتب « إن هذه المنطقة تفوق كل ما عداها في العالم خصبا في النباتات النادرة والمواد البلسمية والجزء الواقع في أقصى جنوب هذه المنطقة تكسوه غابات البخور وأشجار المرّ والقرفة والكاسيه واللّادن فما أزكى وأرق الرائحة العبقة المنبعثة من هذه الأشجار حتى لكأنها لم تكن من أشجار هذه الدنيا وإنما هي أشجار قدسية علوية وكأنما الطبيعة قد حشدت في هذه الرقعة من الأرض أروع العطور شذى وأعبقها أرجا وأكثرها حلاوة وأسرعها في شفاء الناس .

ولنعد إلى دائرة المعارف، «الكاسيه» نوع من التوابل له رائحة طيبة نبيلة تشبه رائحة بلسان «سبأ» إلا أنه يفوق البلسان طيبا .

وكانت فوائد الكافور ومنافعه كثيرة متشعبة حتى أن مؤلف دائرة المعارف وجد نفسه عاجزاً عن أن يحصيها عدّا . غير أنه ذكر على كل حال أنه إذا مزج بالنبيذ حرك الشهوة لمزاولة العملية الجنسية .

ويبدو أنه كان يعزى للقردامون[1] معظم الفوائد العلاجية المتنوعة . طبقا لكيفية مزجها عند تعاطيها فيكون المزج بالماء أو بالنبيذ أو بالخل !

أما القرفة فقد ذكرت دائرة معارف الأخ الراهب برثولوميوس أنها — إلى جانب نموها في جنة عدن — تنمو في بلاد الحبشة الصغيرة في أرض بني تروجلوديت[2] وهي توجد أيضا في أوكار الطيور وخاصة في أوكار السمندل[3] الذي يقول عنه الأخ برثولوميوس أنه من «أصل خرافي» . ثم يواصل الكلام فيقول : هذا الطائر بعد أن يعمر ثلاثمائة عام ويشعر بالضعف يأخذ في بناء عش له من أغصان شجر القرفة والكاسيه والكندر والمرّ . وبعد ذلك يجلس السمندل في عشه ثم يشعل فيه ناراً فيحترق . وبعد مضي ثلاثة أيام تتولد من الرماد امرأة صغيرة جداً ثم يتضاءل حجمها رويداً ويبدأ الريش يكسو جسمها وفي النهاية تصبح طائراً .

---

(١) نبات الكراوية البرى

(٢) Troglodytes

(٣) طائر خيالى

www.ibtesama.com Exclusive

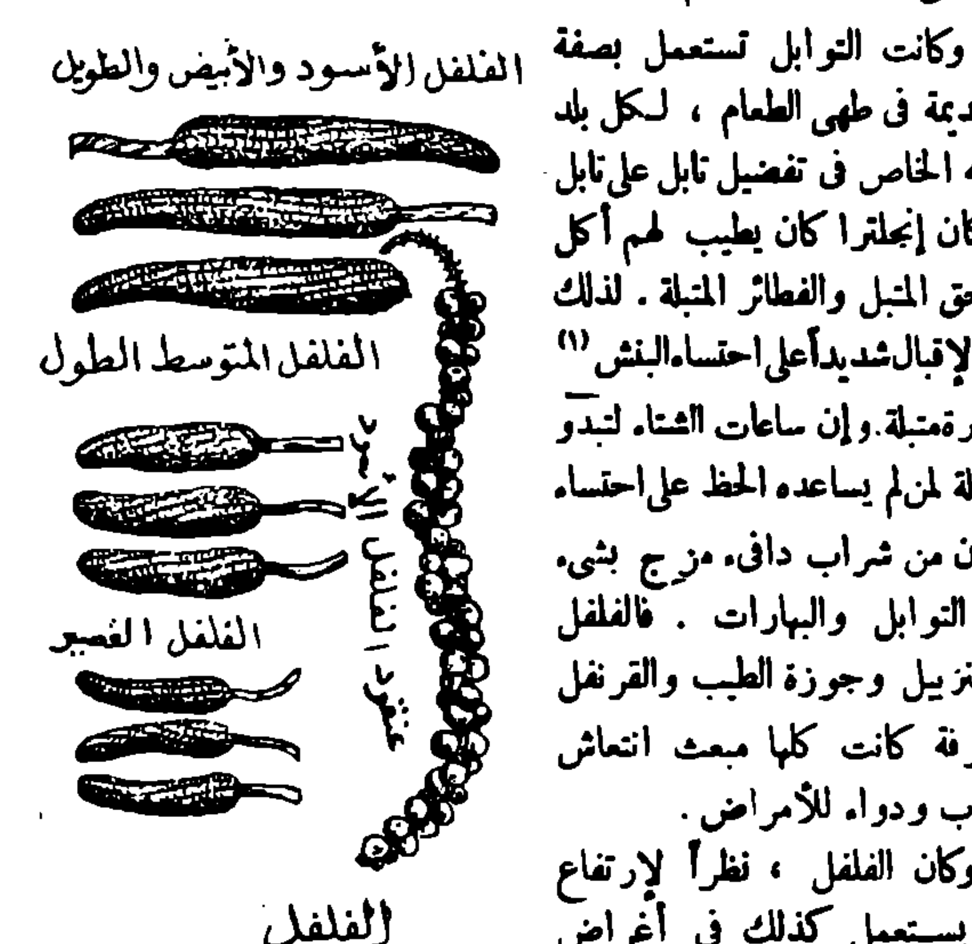
وكان للقرنفل فى العصور الوسطى أهمية كبرى فى نظر الصيادلة ـ لما له من الفوائد العلاجية إلى جانب فوائده فى تتبيل اللحوم والمشروبات . وتحت مادة القرنفل تقول دائرة المعارف بأنه ينبت فى الهند وأن فوائده كثيرة متعددة . فهذا التابل يصلح المعدة والكبد والقلب وهو يريح المخ ويشفى من الصداع . . . وإذا مزج بالنبيذ زاد قوة الإبصار حدّة . ويداوى به التهاب العيون واحمرارها كما يعالج به هبوط القلب وهو يلطف من حدة السخط والحنق . وكان الجنزبيل يعتبر جم الفائدة كعقار طبى إلى جانب منفعته فى طهى اللحوم وأصناف الطعام الأخرى . وكانت جوزة الطيب والبهار (البسباس) يمنعان من القيء وخفقان القلب . ومن خصائص زيت البهار أنه مُهدّئ للأعصاب . أما الفلفل فكانت الرغبة فى الحصول عليه أشد من أى تابل آخر على الرغم من ارتفاع ثمنه — ولقد نُسِجَ الشيء الكثير من الأساطير حول هذا التابل حتى أنه كان يسود الاعتقاد وبأنه ينبت فى جنوب القوقاز فى وهج الشمس وأن الثعابين والحيات كانت تقوم على حراسة الغابات التى ينبت فيها . وأنه عندما يتم نضجه تشعل النار فى أشجاره فيسودّ الفلفل بعد أن يكون أبيضا ، وأما ما كتبه عنه الأخ برثولوميوس فهو أن الفلفل يأتى من الهند وأنه على ثلاثة أنواع ، طويل ويكون حينئذ غير مستكمل النضوج ، وأبيض لم تصهره النار بعد ، ثم أسود — بعد أن يتم تحميصه — وأحسن أنواعه الأبيض : وهو أسود من الخارج وباطنه أبيض . وهو حارٌ حرّيف المذاق ذو رائحة طيبة . وليس للفلفل رونق يستوقف النظر ولكن فوائده عظيمة ، « بارد الملمس ولكنه حار المذاق » .

وللفلفل تأثير قوى نافذ كدواء يعالج به ولهذا التأثير عدة وجوه فهو عندما يمزج بورق الغار يكون دواءً ناجعا فى حالات لدغ الكائنات السامة وعندما يمزج بالنبيذ يفيد فى النزلات الشعبية والتهاب الرئة وعندما يمزج بالزيت يكون مرهما مفعوله بعيد الأثر .

وكان يفترض للفلفل بعض « خصائص خبيثة خفية » لذلك لم يكن

www.ibtesama.com Exclusive

من الحكمة الإسراف فى تعاطيه . فالكلاب إذا ما أعطيت شيئا من الفلفل كان موتها محققا . وأهم استعمال للفلفل — عدا تنشيط الشهية والجهاز الهضمى — حفظ اللحوم من التعفن .



الفلفل

وكانت التوابل تستعمل بصفة مستديمة فى طهى الطعام ، لكل بلد ذوقه الخاص فى تفضيل تابل على تابل فكان إنجلترا كان يطيب لهم أكل السجق المتبل والفطائر المتبلة . لذلك كان الإقبال شديداً على احتساء البنش [١] والبيرة متبلة . وإن ساعات الشتاء لتبدو طويلة لمن لم يساعده الحظ على احتساء فنجان من شراب دافىء مزج بشىء من التوابل والبهارات . فالفلفل والجنزبيل وجوزة الطيب والقرنفل والقرفة كانت كلها مبعث انتعاش للقلوب ودواء للأمراض .

وكان الفلفل ، نظراً لإرتفاع ثمنه يستعمل كذلك فى أغراض أخرى فالمثل الذى كان شائعا فى فرنسا أيام القرون الوسطى «غال كالفلفل» منشؤه أنه كانت للفلفل قوة شرائية يتعامل بها فى بعض ظروف معينة . فكان من العادات الشائعة بين رؤساء الكنيسة الفرنسية أن يتقاضوا نصيب الكنيسة من الخراج أو الزكاة ، توابلا ، فمثلا كان على الأرقاء أو الأتباع (فى مقاطعة برجندى Burgundy) من الذين يرغبون شراء حريتهم أن يدفعوا لرئيس دير نوتردام دى سيمير [٢] رطلا من الفلفل . وكان رئيس أساقفة إكس Aix يفرض على كل جالية من الجاليات اليهودية المقيمة فى منطقة أسقفيته

(١) مزيج من الأشربة .

(٢) Notre Dame de Semur

www.ibtesama.com Exclusive

ضرائب أو جزية قوامها الفلفل والجنزبيل والشمع نظير السماح لهم بحق حيازة مدافن لموتاهم ومدارس خاصة بهم .

وكان على تجار التوابل فى مدينة شالون أن يدفعوا سنوياً لراعى كنيسة سان فنسان ملء صاع فلفلا . كذلك كان للفلفل فى إنجلترا قوة شراء مثله مثل العملة المتداولة بين الناس نظراً لغلوه وندارته كسلعة . وفى العصر الاقطاعى كانت كميات معينة من الفلفل تدفع إيجاراً للأراضى الزراعية [1]

وهناك نوع آخر من الفلفل فى تلك الأزمان البعيدة لم يكن يجلب من الشرق الأقصى يعرف فى مدينتى نيم [2] ومونلييه [3] باسم مالاجِت [4] كان الإيطاليون يبتاعونه من موانىء شمال أفريقية . ولما لم يستطع أحد أن يخبرهم عن مصدره الأصلى أطلقوا عليه إسم « حب الجنة » وكان هذا النوع يعرف أيضا باسم « الفلفل ذى الذنب » لأن حبّاته كانت داخل قرون شفافة حمراء .

على أن قصص الشرق الشعبية قد أنبأتنا عن مصدر التوابل قبل أن يكتب عنها الأخ برثولوميوس بأجيال . وأقرب مثل لذلك قصص سندباد البحرى فهما يكن من التلفيق الخرافى الذى أحاط به هذا البحار المغوار قصة مغامراته إلا أن موضوعها فى حد ذاته يقوم على أساس واقعى فقد وصف لنا سندباد الأماكن التى وجد فيها التوابل وصفا مطابقا للحقيقة فنحن نرى سفينته فى سومطرا وقد شحنت بالقرنفل والزنجبيل والكافور لتحملها إلى الهند . وهو يرسم لنا صورة دقيقة للطريقة التى يستخرج بها الكافور . ثم هو يزور جزر مالاديف [5] حيث ينبت « الصبر » ويذكر

---

(١) فى ديسمبر ١٩٣٧ استلم الملك بوصفه دوق أوف كورنوول مائة شلن ورطل فلفل من عمدة لونستون فى صحفة كإيجار لأملاكه فى المدينة ولم يزل التعبير « إيجار الفلفل » مستمراً إلى اليوم .

(٢) Nîmes

(٣) Montpellier

(٤) Malaguette

(٥) Maladive

www.ibtesama.com Exclusive

لنا أنه زار « جزيرة الفلفل » بالقرب من ساحل مالابار . ثم هو يقارن جزر صندا[1] « بجنة عدن » فيها فاكهة من كل جنس .

بيد أنه إذا كانت رحلات السندباد البحرى قد امتزجت فيها ذرات الحقيقة بأقصى ما يصل إليه الخيال الجامح فى تحليقة إلا أن القصة التى كتبها بنيامين دى توديلا [2] عن رحلاته لا تعتبر من إيحاء الخيال . فقد ترك هذا الحاخام المثقف موطنه فى أسبانيا سنة ١١٦٠ ولم يعد إليها إلا بعد انقضاء ثلاثة عشر عاما .

ويذكر لنا هذا الحاخام أنه نزل بجزيرة قرب «هرمز» حيث التجار من الموصل وفارس واليمن يقايضون على سلعهم من الحرير والقطن والكتان والبقول والحبوب بالتوابل المجلوبة من الهند . ولقد زار مدينة من المدن تحيط بها حقول نبتت فيها شجيرات تحمل ثمار الفلفل . وبها أيضا أشجار القرفة والجنزبيل وغير ذلك من التوابل . وهو يصف مدينة أسوان القائمة على ضفاف النيل فيقول عنها أنها مدينة عظيمة مزدحمة بالسكان تخرج منها القوافل قاصدة مملكة بنين [3] فى الجانب الآخر من أفريقية وأن الذين استطاعوا تحمل مشاق هذه الرحلة وأهوالها وصمدوا أمام الزوابع الرملية التى تشبه أمواج البحار عادوا بربح وفير حاملين معهم ملح الطعام فى مقابل توابل الشرق التى حملوها إلى شواطىء المحيط الأطلسى .

وجاء بعد هذا التاريخ بثمانى وثلاثين سنة ومائة سنة ماركوبولو [4] من أهالى فينسيا [5] والذى قضى فى ربوع الشرق خمسا وعشرين عاما فلم يذكر الجنة كمصدر للتوابل والأحجار الكريمة ولكنه ذكر البلاد التى توجد بها هذه التوابل بالفعل . فذكر أن الفلفل والجنزبيل يأتيان من شاطىء

---

(١) Sunda
(٢) Benjamin de Tudela
(٣) Benin
(٤) Marce Polo
(٥) venice وهى التى تعرف عادة « بالبندقية »

www.ibtesama.com Exclusive

مالابار وأن الياقوت الأزرق يأتى من جزيرة سيلان وأن الماس يأتى من جلكندا[١] وأن الياقوت الأحمر يأتى من جبال التبت[٢] فما أقل ما كان يعرفه الناس عن الكون الواسع الفسيح وما أشد إصرارهم على الاعتقاد بوجود الفردوس الأرضى !! لقد برهن على كل هذا برونتو لاتينى[٣] فى كتابه « كنز كل شىء » فقد كتب عن آسيا فى سنة ١٢٩٠ أنها تضم نصف المعمور بما فى ذلك القطر المصرى وذكر أن مصب نهر النيل فى البحر هو بالاسكندرية فى المكان الذى يلتقى فيه نهر النيل بمياه البحر قرب سان جورج فى اتجاه المشرق وأن آسيا تضم كل المناطق إلى نهاية شاطىء المحيط والفردوس الأرضى.

وفى نفس هذا الوقت ذكر حاكم أرمينيا فى خطاب بعثه إلى شقيقته ملكة قبرص أنه عبر هو وجيشه « نهراً يجرى من الجنة » يقصد بذلك نهر الفرات . وبعد ذلك ببضع سنوات فى عام ١٣٠٥ روى السيد دى جوانفيل فى مؤلفه عن تاريخ سان لويس ما ترامى إلى علمه فى مصر عن مصدر التوابل وكيف أنها تصل « القاهرة مباشرة من جنة عدن » ومن ثم تحمل إلى جميع أنحاء المعمور وحتى إلى تنبكتو .

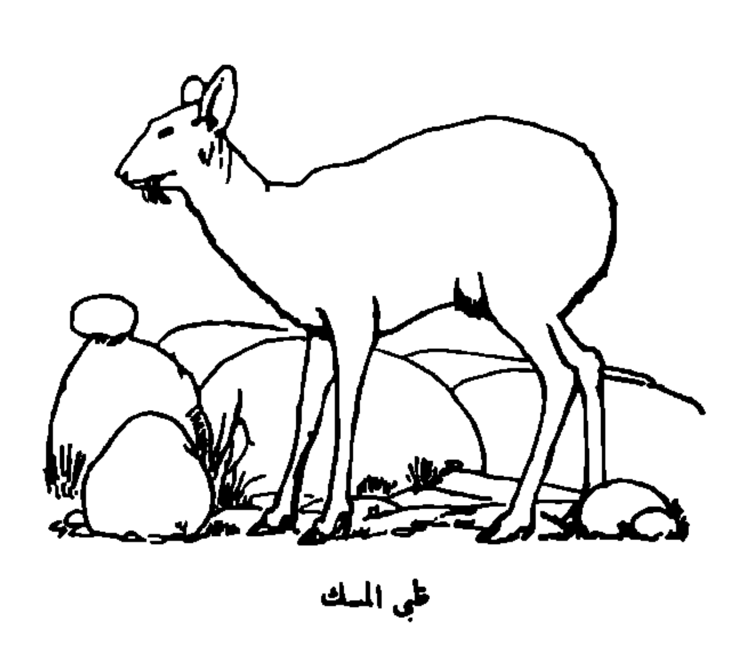
---

(١) Golconda = اسم حيدر أباد سابقا .
(٢) Thibet
(٣) Brunetto Latini

www.ibtesama.com Exclusive



غدة المسك فى الظبى المسكى



ظبى المسك

www.ibtesama.com Exclusive

الفصل الثاني

ليس فى طاقة البشر حصر جميع من جابوا أرجاء هذا الكون الفسيح الرحب .

فهذا ما تستطيعه الآلهة وحدها ، ولا أحد غير الآلهة ، فآلهة السماء لا تخفى عليهم خافية .

فليكتف الناس بأن يعلموا أن أولئك الجوابين كانوا أول بناة العالم ومؤسسيه .

لقد ابتنوا العواصم وأقاموا الدول العظام .

وشقوا الطرق يميناً وشمالا وسط بحار لم يكن للناس بها علم من قبل .

وحينما استبدت بنا الشكوك وخيم ظلام المجهول كانوا أول من أثبت للحياة وجوداً وجعل لها معنى .

« ديونيسيوس الاسكندرى » [1].

قامت الامبراطوريات وسقطت ، وازدهرت عواصم ومدن كانت كالملكات يأتمر بأمرها العالم ثم ما لبثت أن هوت عن عروشها ، واندثرت أمم كان لها السيادة من بين الأمم وخلفتها غيرها ، ولكن مهما يكن من أثر التقلبات فى المحيط السياسى العالمي ومهما يكن من تعددها وتشعبها ، ومهما يكن من تحول مراكز المدنية وانتقالها من مدينة إلى أخرى فإن شيئا لم يستطع شل حركة تجارة التوابل أو منع ازدهارها واطراد نموها .

كانت تجارة التوابل منشأ العلاقات بين الأمم . منها تكونت حلقات الاتصال بين فترات التاريخ ولها يرجع الفضل فى إيجاد الاتصال بين الشرق والغرب بصورة مستمرة .

---

(١) Dionnysius of Alexandria

www.ibtesama.com Exclusive

فالطرق التي سلكتها القوافل المحملة بتوابل الشرق لم تلبث أن أصبحت أهم شرايين الاتصال فى آسيا وأفريقية . وقد عُدل بعض الوقت ، فى بعض الأزمنة ، عن انتهاج بعض هذه الطرق، ولكن قدّر لها أن تستعيد ما كان لها من أهمية بعد عدة قرون .

وهناك طرق لم تنقطع القوافل عن سلوكها منذ آلاف السنين بينما فتحت طرق جديدة منها ما اقتضت فتحه أحداث معينة لها خطرها وأهميتها فى محيط السياسة الدولى . ومنها ما اقتضاه تزايد الطلب على توابل الشرق .

إن لتجار هذه التحف النفيسة التى تجود بها الطبيعة جاذبية وبهجة ليست لسواها ، فهى لا تروق للخيال فحسب ، ولكنها تروق للحواس أيضاً . فالمتع المبهجة التى تؤثر على الأحاسيس والمشاعر من رائحة طيبة ومذاق حلو إنما تشملها كلمة واحدة هى « التوابل » أو بمعنى أوسع « العطارة » . وليس جميع الناس يعلمون بأن هذه السلع التى تطيب لها النفوس ظلت مدى قرون عديدة أهم ما كان يتبادله الشرق والغرب من سلع .

فتاريخ التجارة ، ثم تاريخ الملاحة بعد عام ١٥٠٠ ميلادية مرتبطان إرتباطا حيويا بالعطارة والتوابل حتى ليمكن القول بأنه منذ الوقت الذى استدار فيه برثرولوميو دياز [١] حول أقصى نقطة من جنوب أفريقية بدأ عصر جديد فى تاريخ البشرية . ومنذ ذلك الحين أخذ أبناء الأمم الأوروبية يسافرون إلى البلاد التى تنبت فيها التوابل لجلبها بدلا من الانتظار حتى تجلب إليهم بطريق القوافل كما كانت الحال فى الزمن الأول، ومنذ ذلك الحين أيضاً أصبحت البحار تستخدم كطرق للتجارة إذ لم تعد حدّا فاصلا بين قارة وقارة بفضل السفن الشراعية التى أصبحت تحمل كنوز الهند إلى أسواق أوروبا .

ولم يعد فى استطاعة الجمل الذى كان خير وسيلة للنقل غير مدافع ـ

---

(١) Bartholomew Diaz

www.ibtesama.com Exclusive

أن يبارى السفن ،لا فى نقل البضائع ،ولا فى السرعة . وكانت النتيجة التى ترتبت على ذلك أن زادت كميات التوابل المستوردة فانخفضت أسعار التكلفة واتسع مجال استعمال التوابل حتى أصبحت فى متناول جميع الناس ، تستعمل فى البيوت المتواضعة وفى أفقرها كمواد عادية لا غنى للناس عنها فى أى يوم بعد أن كانت وقفا على الأغنياء باعتبارها من أخص الكماليات .

على أنه قبل أن يتم حدوث كل هذا كانت القوافل تقطع مراحل شاسعة فى البر مجتازة بلاداً كثيرة لتوصل حمولتها النفيسة إلى مدن وعواصم تعتبر من معالم التاريخ . وإن مجرد ذكر أسمائها ليعيد إلى الذاكرة مجد أمبراطوريات العالم العظيمة ابتداء من فجر التاريخ مستعرضة مجد يونان فروما فبيزنطه حتى تصل إلى تلك الأيام التى التحمت فيها قوات المسيحية بقوات المسلمين .

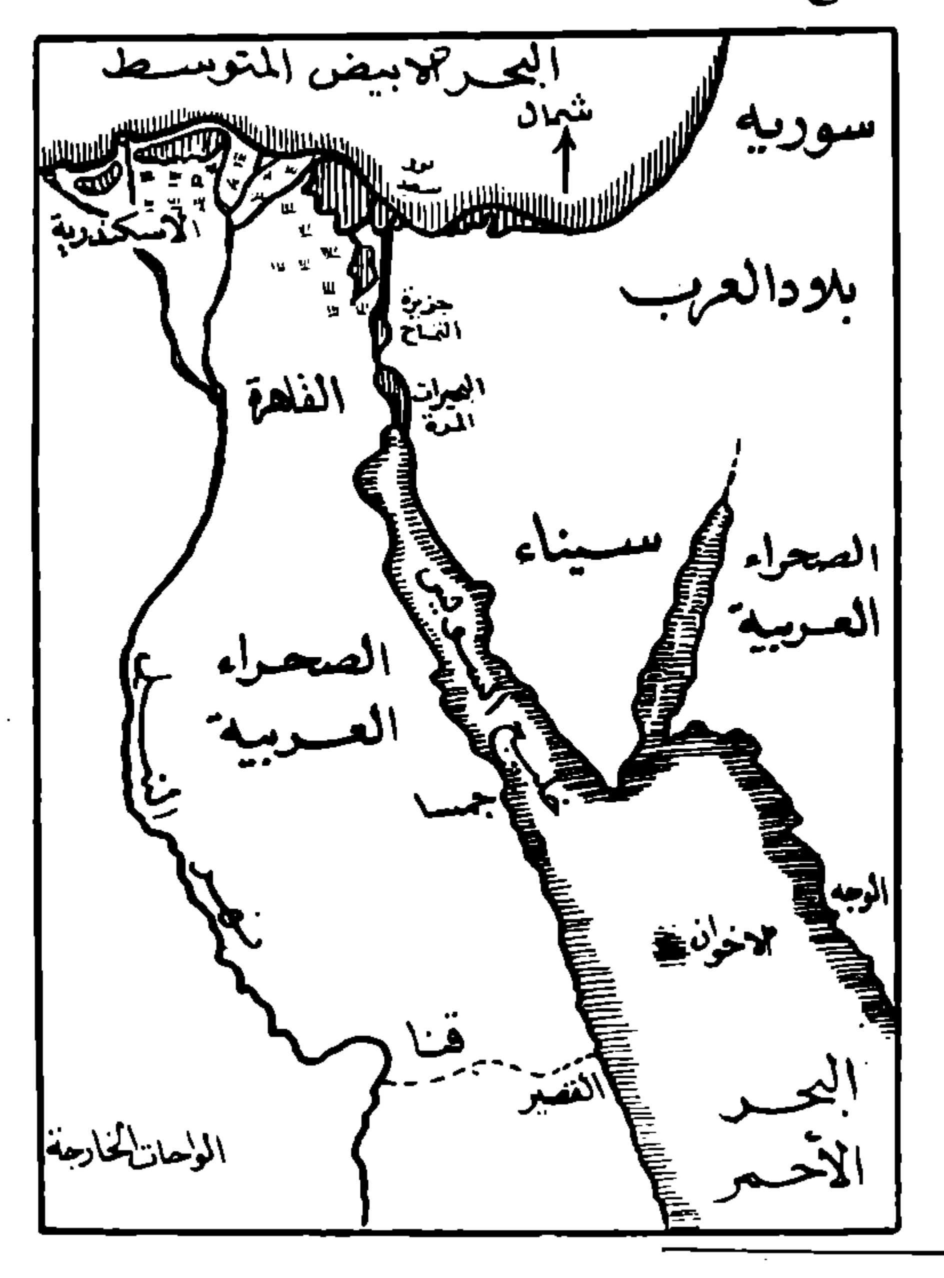
وهذه هى أسماء أهم المدن التى كان لها إتصال بتجارة التوابل واستهلاكها منذ أول سجل للتاريخ إلى الوقت الذى عاد فيه فاسكو دا جاما من شاطىء مالابار إلى لشبونة . نينوى وبابل ، ممفيس وطيبـــــة ، قرطجنة والاسكندرية وروما ، بيزنطة وبغداد والقاهرة ، دمشق وأنطاكية ، كفّيا واستراخان، بكين وكشجار، سمرقند وبُخارى ،ملقا وقلقوط وهرمز والبصره، مسقط وعدن ، السويس ومكة ، جدة وسواكن ، بربره وموجادوكسا ، مرسيليا وبرشلونه ، بروج ولندن ، لوبك ونوفوجورد العظمى .

وأقدم المدن التى ذكرت يربطها بقصص الانجيل رباط وثيق ففى الانجيل الشىء الكثير عن التوابل وكيفية استعمالها وشدة الرغبة فيها وفى الإتجار بها وأقرب مثل لذلك قصة سيدنا يوسف الذى بيع فى مصر لبعض التجار من أبناء إسماعيل كانوا يحملون معهم التوابل من الهند والمر من جزيرة العرب والبلسان الاسرائيلى من مكة لبيعها فى عاصمة فرعون . وفى عهد مملكة سليمان ابن داود كانت التوابل تأتيه من جزيرة العرب لا من مملكة سبأ فحسب .

www.ibtesama.com Exclusive

وعلى شاطىء البحر الأحمر صنع الفينيقيون أسطولا لسليمان لحمل الذهب من أوفير وحمل الكنوز الأخرى من الشرق أيضاً .

ولكن طروادة — كما يقال — لم تكن متخلفة عن بيت المقدس فى استهلاك التوابل والعقاقير وغيرها من منتجات الهند . فقد كانت تحمل من الهند إلى الجزء الشمالى من خليج العرب . وهنا فى ظل أرسنوى [١] «السويس» كانت تفرغ الشحنات لتحمل على ظهور الجمال والحمير والبغال حتى مدينة



(١) Arsinoe

www.ibtesama.com Exclusive

كاسون على شاطىء البحر الأبيض المتوسط، وكانت القوافل — نظراً لشدة الحر — تسير أثناء الليل مسترشدة بالنجوم، ولكن الصعوبات التي كانت تعترض هذه الوسيلة فى النقل دعت سيزوستريس، فرعون مصر إلى محاولة الاهتداء إلى سبل أخرى من شأنها أن تجعل استيراد البضائع من الهند أقل عسرا ومشقة. لذلك استقر رأيه على وصل النيل بالبحر الأحمر بواسطة قناة، فأمر ببناء سفن كبيرة فى مدينة سيريم تمهيداً لتنفيذ هذا المشروع.

انقضت أربعمائة سنة منذ فكر سيزوستريس فى وصل النيل بالبحر الأحمر حتى عزم دارايوس هستاسبس[1] فى عام ٥٢٠ قبل الميلاد على تنفيذ هذا المشروع ولكن عن طريق وصل البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط. ولكن دارايوس اضطر إلى العدول عن هذا المشروع بعد اقتناعه بأن اراضى مصر تنخفض كثيرا عن مستوى مياه البحر الأحمر وأنه من المحتمل أن تغطى المياه المالحة أرض مصر فتقضى على كل أمل فى زراعتها.

أما الطريق التى كان يسلكها التجار من نسل اسماعيل فقد ظلت مدى عصور طويلة كبرى طرق التجارة (الطريق الشمالية للقوافل). ولكن الاسكندر الأكبر المقدونى بعد توغله فى الهند وبعد أن استساغ طعم الفلفل قرر فتح طريقين أخريين لحمل كنوز الهند وتوابلها إلى ممتلكاته، إحداهما تمتد بحراً وبرا عن طريق البحر الأحمر إلى الاسكندرية ثم من الاسكندرية عبر البحر الأبيض المتوسط إلى اليونان. والطريق الثانية كانت بواسطة الخليج الفارسى لتموين ممتلكاته الآسيوية. ولكن الفاتح العظيم وافته منيته قبل أن يتسع له الوقت لتنظيم مشروعه ووضعه موضع التنفيذ، بيد أن بطليموس ملك مصر شرع فى تنفيذه فأمر بحفر قناة بين البحر الأحمر والبحر الأبيض

---

(١) Darius Hestaspis شاه إيران ولد سنة ٥٢١ وتوفى سنة ٤٨٥ ق.م. وحد امبراطوريته ونظمها وفتح الهند وأخضع تراقيا ومقدونيا ولكنه انهزم أمام الاغريق فى موقعة ماراثون.

www.ibtesama.com Exclusive

المتوسط . وبالرغم من أن عملية الحفر وصلت حتى البحيرات المرة إلا أن المشروع عُدل عنه بعد ذلك لأنه تبين أن الأراضي تنخفض عن مستوى البحر الأحمر بثلاث أذرع .

ولكن فى الوقت نفسه كان هنالك مائة وعشرون سفينة تبحر سنويا من الهند وإليها ، وكانت الميناء التى تبحر منها السفن وتعود إليها فى مدينه برنيس على شاطىء الحبشة . وكانت الرحلة تستغرق عامين .

أصبحت الاسكندرية أكبر مركز لتجارة التوابل حتى أن أحد أبواب المدينة سمى « باب الفلفل » . ولتجنب أخطار البحر الأحمر بسبب المياه الضحلة والجزر ، أمر بطليموس الثالث عشر والدكليوباطرة ببناء ميناء على الشاطىء الغربى عند نهايته الجنوبية قرب باب المندب اطلق عليها اسم « برنيس » ومن هنا كانت البضائع تصل إلى الاسكندرية فى شىء من اليسر وبذلك ازدادت حركة الملاحة إلى درجة عظيمة حتى أن البرتغاليين قدروا قيمة دخلها من الضرائب الجركية بسبعة ملايين ونصف مليون كروسادوس ذهبا أى بحوالى ٩٠٠,٠٠٠ جنيه

بدأت روما تستهلك بدورها كميات ضخمة من. التوابل فشيدت المخازن العظيمة لحفظ الفلفل والقرفة من تسرب الديدان إليها أو التعفن بسبب رطوبة الجو. وفرضت على هذه التوابل المستوردة ضرائب زادت فى دخل خزينة الدولة حتى قال الشاعر برسيوس Persius

أسرع التجار إلى الهند المحرقة حيث مطلع الشمس، يدفعهم الجشع والرغبة فى الربح الدنىء .

ومن ثم يعودون بالفلفل والعقاقير بعد أن بذلوا فى التوابل مقتنياتهم الإيطالية .

واستهلكت طقوس العبادة ودفن الموتى كميات هائلة من هذه العطور

www.ibtesama.com Exclusive

والتوابل فذرى النيران بأمر نيرون قد التهمت فى جنازة بوبيا[1] جميع القرفة المستوردة من جزيرة سيلان خلال عام بأكمله .

ويشير الشاعر عينه المتقدم الذكر فى هجاء لاذع إلى التوابل كمصدر من مصادر الثروة كما يذكر بعض وجوه استعمالها فيقول —

ماذا يهمك أنت إذا اهمل أناؤك الذى يوضع فيه رمادك .

ماذا يهمك لو تركت جثتك تحترق بغير توابل وبخور .

ماذا يهمك لو منعت عن رماد حطامك تلك العطور .

ماذا يهمك لو اشتُريت الكاسيه المتعفنة من رهط اليهود .

لو سألنا بستيوس[2] الحكيم لأجاب

كل هذا الترف هباء ، أبهة الموتى غرور

نحن لم نعرف مثل هذا الترف الباطل من قبل .

كل هذا جاءنا به الإغريق المخنثون .

كل هذه اللعب ، كل هذا العبث ، جاءنا من أثينا

الملح والفلفل قد شلا عضلات روما .

وشكا كاتب رومانى آخر[3] من أن الهند وبلاد العرب تستنفد من أموال الامبراطورية الرومانية (ماقيمته بعملتنا) ثلاثون مليونا من الجنيهات سنويا مقابل أشياء تافهة لا يمكن أن يحسبها العاقل حتى من مستلزمات الكماليات . وكان أهل روما يدفعون ثمنها ذهباً وفضة لذلك سن قانون يحرم ارسال الذهب خارج روما استنادا إلى أن الأموال التى تنفق على هذا النوع من التجارة لا يجنى من ورائها غير الكماليات — آفة الفضيلة والمعول الهدام للامبراطورية .

---

(١) كانت عشيقة نيرون قبل أن تكون زوجا له قتلها ركلا عام ٦٥

(٢) Bestius

(٣) بلينى

www.ibtesama.com Exclusive



تجار العرب من نسل اسماعيل يبتاعون يوسف بن يعقوب
(من مخطوط فارسي يرجع عهده إلى القرن الخامس عشر)

www.ibtesama.com Exclusive

وأعظم شاهد على مدى ما بلغته من الأهمية تجارة التوابل فى تلك الأيام ذلك الوصف الدقيق الواضح الذى جاء فى سفر الرؤيا [١] عن المدينة العظيمة[٢] « المدينة العظيمة التى فيها استغنى جميع الذين لهم سفن فى البحر من نفائسها [٣] بسبب ارتفاع أسعارها . . . . وتجار الأرض استغنوا من وفرة نعيمها[٤] » – « بضائع من الذهب والفضة والحجر الكريم واللؤلؤ والبَزّ والأرجوان والحرير والقرمز وكل عود ثينى وكل أناء من أثمن الخشب والنحاس والحديد والمرمر وقرفة وبخورا وطيباً ولبانا[٥] . . . »

فى الوقت الذى كتب فيه القديس يوحنا هذه الرؤيا طرأ تغيير عظيم على حركة النقل التقليدية التى كانت متبعة فى حمل توابل الهند وسيلان إلى الأسكندرية . ففى العام السابع عشر للميلاد قام ربان إغريقى فى خدمة الأسطول المصرى اسمه هبِولوس « Hipolus » بمغامرة ترتبت عليها نتائج كان لها أبعد الأثر فى تجارة التوابل وفى فنون الملاحة .

فقد كان الملاحون حتى ذلك العهد يقيدون أنفسهم دائماً بالسير قريباً من الشواطىء فى مخورهم إلى الهند لايجرؤون على الاندفاع إلى عرض البحار . ولكن حدث ذات يوم أن استقر رأى هذا الربان على ان يرى ما إذا كان فى الاستطاعة الانتفاع بالرياح الموسمية . ونجحت التجربة ودفعته الرياح من خليج باب المندب إلى شاطىء الهند فى زمن قصير يدعو إلى الدهشة . وترتب على هذه التجربة أن فتح الملاحون أعينهم وأخذوا يراقبون ويدرسون قوانين الطبيعة المسيطرة على هبوب الرياح الموسمية التى أصبحت منذ ذلك الحين خير عون للسفن فى مخورها إلى الهند والصين .

(١) رؤيا يوحنا اللاهوتى – الاصحاح الثامن عشر من العهد الجديد

(٢) مدينة بابل

(٣) الاصحاح الثامن عشر من العهد الجديد .

(٤) الاصحاح الثامن عشر من العهد الجديد .

(٥) الاصحاح الثامن عشر من العهد الجديد .

www.ibtesama.com Exclusive

وقد أطلق اسم هذا الربان المتواضع على الرياح الموسمية تمجيداً لشجاعته فقرن بذلك اسمه إلى أسماء الآلهة الذكور منهم والآناث . وأخذ هبولوس مكانه بين صفوف الآلهة أورنتوس[1] وسفيرس[2] وتيفيوس[3] وجميع آلهة الرياح الأخرى .

وبإتساع رقعة الامبراطورية الرومانية ازداد طلب الناس للتوابل . لحيث تقيم الفرق العسكرية الرومانية مخيماتها الشتوية أو حيث تُبنى المدن تظهر القرفة والفلفل ويحرق البخور سواء أكان ذلك فى بلاد الغال أو فى بريطانيا أو فى ألمانيا .

وبدأ البربر بدورهم يستسيغون الفلفل . فهذا ألاريك[4] قد قدر التوابل حق قدرها فطالب روما، بجزء من الفدية التى طالبها بها، ثلاثة آلاف رطل من الفلفل واضطر إمبراطور الرومان بعد ذلك بعامين عقب نهب روما سنة ٤١٠ ميلادية أن يدفع لملك القزيجوت المنتصر ثلاثمائة رطل من الفلفل جزية سنوية .

على أن ازدهار حركة الاتجار فى التوابل انتهى عقب الفوضى والاضطرابات العظيمة التى حدثت نتيجة نهب البرابرة لروما وغزوهم لإسبانيا وفتح شمال أفريقيا وما ترتب على ذلك من تقويض دعائم المدنية مضافاً إليها جميع الحوادث الأخرى التى أصبحت من معالم التاريخ فى العصور المظلمة .

فقد وقفت حركة التجارة مدة أربعمائة سنة لم تجرؤ خلالها أية أمة على التعامل مع غيرها من الأمم لا براً ولا بحراً .

كل شىء كان يتأرجح — : اكتُسحت الممالك والأديان والقوانين والفنون والعلوم والملاحة .

---

(١) Euronatus
(٢) Sephyrus
(٣) Typheus
(٤) Alaric ملك القزيجوت. غزا الشرق وانتهب روما . مات سنة ٤١٠

www.ibtesama.com Exclusive

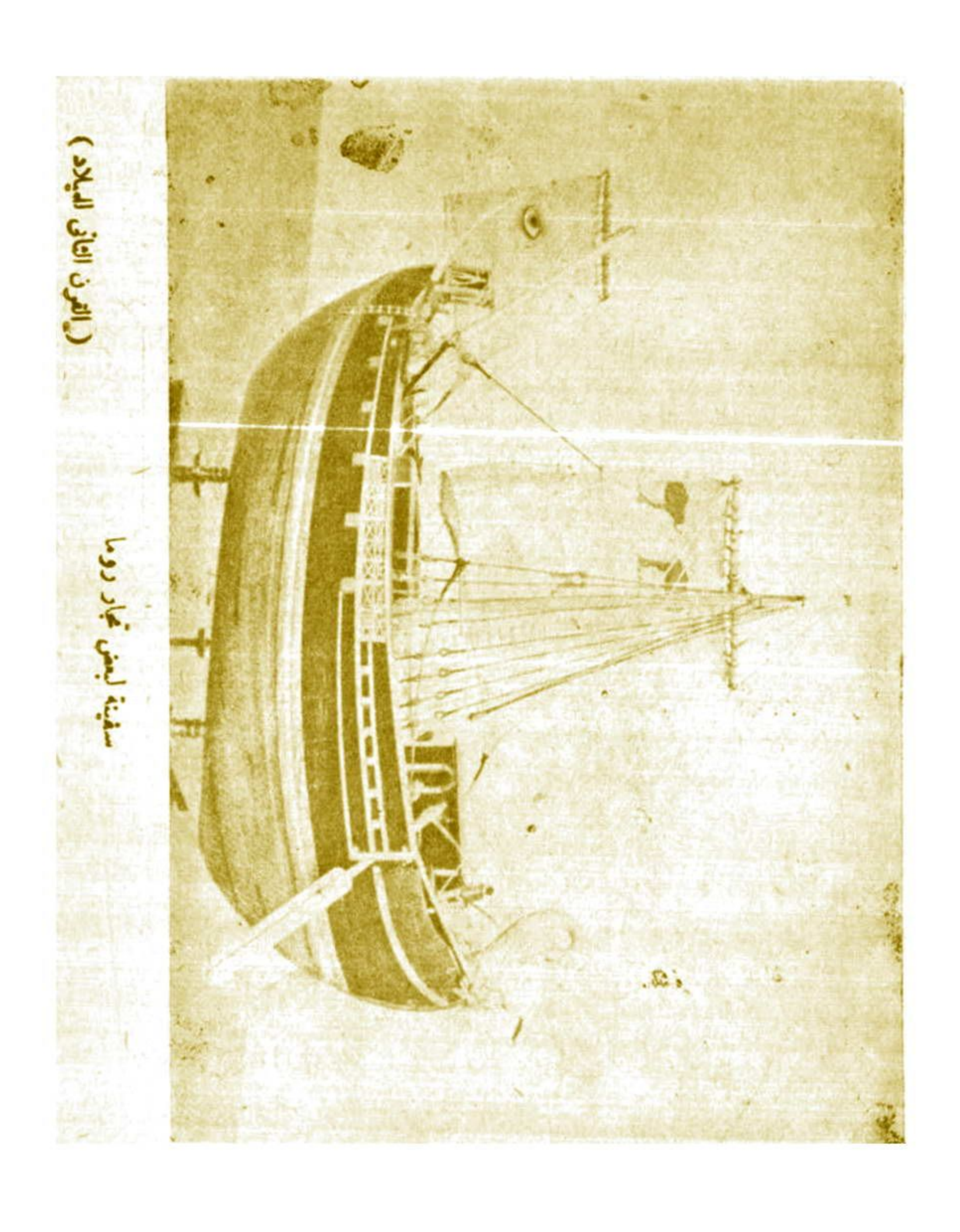
ثم بدأت حركة التجارة تنتعش مرة أخرى براً وبحراً بعد أن استبان الناس مضرة خمود حركة التجارة، لذلك استقر الرأى على محاولة استئناف التعامل من جديد. وأخذت الروابط — التى كانت قد انقطعت أسبابها بين الأمم، خلال العصور المظلمة — تؤدى إلى تكتل مجموعات جديدة من الأمم، استطاعت أن تنهض من تحت أنقاض الفوضى والاضطرابات القديمة. وعندما تركزت قواعد هذه الدول بدأ الإتصال بالمشرق من جديد.

ولكن الحركة التجارية لم تعد تسلك الطريق القديمة العتيدة من الهند إلى البحر الأحمر ثم النيل، بل أصبحت تجارة التوابل تسلك طريقا جديدة فى نهرى السند وجيحون، ثم عبر بحر الخزر، ثم تصعد فى نهر الفولجا، ثم تنحدر فى نهر الدون إلى بحر أزوف، ومن ثم إلى مدينة تيودوسيا. وحدث أن اعتقد أحد حكام أرمينيا، أنه قد اكتشف طريقا أصلح لنقل التوابل. وذلك باجتيازمدينة جورجيا إلى طرابزوند Trebizond على شاطىء البحر الأسود، على أن تشق قناة طولها مائة وعشرون ميلا لتربط بين بحر أزوف والبحر الأسود، تمخر فيها السفن بشحناتها من التوابل والعقاقير وغيرها من السلع، ولكن هذا المشروع الضخم، لم ينفذ لأن الأمبراطور قتل قبل الشروع فيه.



تترى يقود جملا

www.ibtesama.com Exclusive



سفينة لبعض تجار روما (القرن الثاني الميلادي)

www.ibtesama.com Exclusive

وبعد انقسام الأمبراطورية الرومانية إلى غربية وشرقية أصبحت القسطنطينية المركز الرئيسى ، وشهدت الإسكندرية تحول تجارة التوابل عنها وفقدت الطريق الممتدة على طول البحر الأحمر أهميتها، بينما ازدادت الحركة على شاطىء الخليج الفارسى ، ومنذ ذلك الوقت بدأ تجار الفرس يتعاملون مباشرة مع الهند ، وأصبحت القوافل تنقل التوابل من شبه جزيرة تشرسونيز[1] الذهبية إلى القرن الذهبى .

والتغيير الكبير الثانى الذى طرأ على طرق التجارة، وقع فى مستهل القرن السابع بظهور الإسلام، الذى كان صاحب الدعوة إليه راعيا من نسل إسماعيل، ثم مديراً لأعمال زوجه فى تجارة المر والطيب وغيرهما من التوابل والعطور. وقد كان لانتشار الإسلام أعظم الأثر فى تجارة الشرق، لأن كثيراً من العرب الذين دعوا إلى الإسلام (بحد السيف[2]) استقروا بشاطىء الهند كتجار للتوابل والعطور وكسماسرة لها . وتسهيلا لحركة التجارة بين فارس والهند أسس عمر بن الخطاب ، ثانى الخلفاء الراشدين مدينة البصرة سنة ٦٣٥ م عند ملتقى نهرى دجلة والفرات ، لم تلبث أن ازدهرت وأصبحت بعد مدة قصيرة من الزمن أهم مركز للملاحة كما يستدل من كتاب ألف ليلة وليلة . وقد بلغ عدد سكان البصرة فى عهد الخلفاء العباسيين مائتى ألف نسمة .

وفى عام ٩٦٩ ضم اسم مدينة جديدة إلى قائمة أسماء المدن التى اقترنت بتجارة التوابل . وكانت هذه المدينة الجديدة هى القاهرة . إذ ما تم لقائد[3] جيوش الخليفة الفاطمى فتح مصر حتى بنى مدينة بالقرب من موضع المدينة القديمة، بابل مصر[4] التى لم تكن تبعد عن موضع ممفيس عاصمة الفراعنة . وقد خطت هذه المدينة بمنتهى الدقة صدوعا بأمر الخليفة ، وسميت « القاهرة » وما فتىء التجار منذ ذلك الحين يبيعون العطور والتوابل فى شوارع القاهرة

(١) أو كرسونيز . اسم أطلقه اليونانيون على أربع أشباه جزائر ، الأولى كرسونيز « تراقيا» وهى الآن شبه جزيرة الدردنيل . والثانية كرسونيز «طوريق» وهى القرم . والثالثة كروسونيز « سمبريك » وهى الآن جتلاند الدانماركية . والرابعة كرسونيز « الذهبية » التى يحتمل أن تكون الهند الصينية الحالية

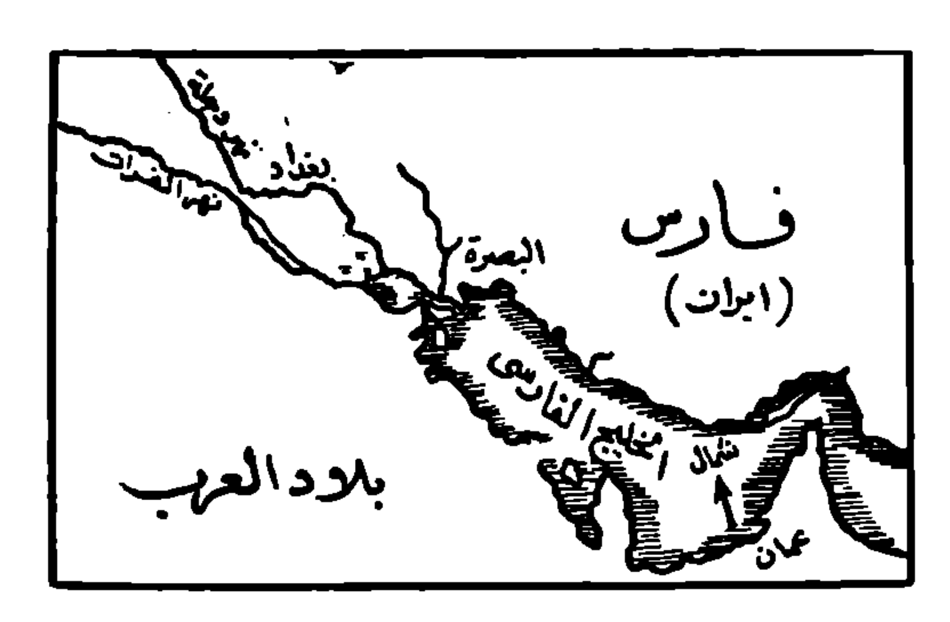
(٢) هكذا تقول الكاتبة وهو افتراء صارخ لايقوم على أساس من الصحة .

(٣) جوهر القائد

(٤) حصن بابليون

www.ibtesama.com Exclusive

الضيقة ، وفى أسواقها ، حتى أن جوها المشبع برائحة التوابل والعطور العبقة الحادة طيلة القرون المنصرمة ليبدو اليوم وكأنه يحمل بين طيات دوره خيال ذلك العهد البعيد عندما كان الشرق يخطر متألقاً فى حلل ثرائه ومجده .



وفى عام ١١٦٩ أى بعد انصرام مائتى عام ، أفرد السلطان صلاح الدين للتجار من الإفرنج حياً خاصاً فى القاهرة لسكناهم ولمزاولة تجارتهم فيه ، وفى عام ١١٧٥ أوفد سفارة إلى مصر رفعت إليه تقريراً عقب عودتها ذكرت فيه أن بمصر كميات ضخمة من التوابل وبخاصة من الفلفل .

***

وفى نفس الوقت كانت أسماء القرنفل وجوزة الطيب والبهار قد أضيفت إلى قائمة التوابل التى كانت معروفة للناس منذ القدم .

وفى عام ١٠١٢ كان الصينيون قد استولوا على جزر ملوك بعد أن تبين لهم عظيم أهمية هذه الجزر لما تغله من التوابل ، إذ كان الاعتقاد السائد فى ذلك الحين هو أن التوابل لم تكن تنبت إلا بها وليس بأى مكان آخر . وكان سكان جزر التوابل — وهو الاسم الذى أطلقه البرتغاليون على جزر ملوك فيما بعد — لا يجدون فى ثمار القرنفل وأشجار جوزة الطيب أى نفع لهم ، ولكن عندما عرفت منافعها أجلى أهلها الصينيين عنها ١٥٠٣ ميلادية .

www.ibtesama.com Exclusive

ولـكن حدث بعد ذلك أن سلاطين ملقا ، أقدم المدن فى تلك النواحى وأهمها مركزاً، بناها اسكندر شاه فى عام ١٢٥٢ — احتلوا جزائر ملوك .
وكان التجار من العرب والفرس قد شرعوا فى القرن الثامن يرحلون إلى ملقا لابتياع توابلها . وحمل التجار العرب خاصة هذه التوابل من بوغاز ملقا إلى بوغاز جبل طارق .
وكان تجار الملايو يقصرون جهودهم فى أول الأمر على جلب التوابل من سومطره وجاوا وبورنيو وجزر ملوك إلى ملقا ، ولـكنهم شرعوا بعد ذلك فى حملها بأنفسهم عبر البحار إلى هرمز ، وكانت تشمل ثمار القرنفل وجوزة الطيب والفلفل وزيت الكافور وخشـب الصندل ، وجاراهم الصينيون فى ذلك .

وما هى إلا مدة قصيرة حتى كان الطلب على هذه الأنواع الجديدة من التوابل قد ازداد زيادة كبيرة جداً حتى أن الضرائب المفروضة على أهالى مدينة سانت جان أكر St. Jean Acre أى عكا لعام ١١٨٠ سُددت كميات من جوزة الطيب .
على أن أحداً لم يكن يعلم شيئا عن مصدر هذه التوابل ولا عن أصلها . فقد كان التجار الصينيون إذا سئلوا عن ذلك أمعنوا فى الغموض ورووا عنها القصص الخيالية ليزيدوا من قيمتها . ولم يكشف عن سرها إلا فى أواخر القرن الثالث عشر حينما ذكرها مؤلف عربى فى بعض كتبه مشيراً إلى أنها تستورد من جزر ملوك .

وكانت الحروب الصليبيه أهم أداة لإعادة الإتصال من جديد بين الغرب والشرق لصالح تجار الفريقين ، فبزغت نجوم ثلاث مدن كبيرة فى المشرق كمراكز تجارية للتوابل ، هى القسطنطينية والقاهرة وبغداد . والواقع أن بغداد بلغت أوج مجدها فى تلك الأيام من ناحية التنعم والترف . وامتلأت أسـواقها بكميات وفيرة من السلع ، فكان فيها فراء الصين الناعم وخزفها ، وفيها المنسوجات الحريرية الغالية وفيها المسك والتوابل والعطور وما إلى ذلك .

www.ibtesama.com Exclusive

وكانت تأتيها هذه السلع من طرق شتّى . لجينا من كاثاى[1] إلى كاشغر فسمرقند فبخارى ثم عبر بحر قزوين إلى أسترخان ، ومنها تحمل فى نهرى الفولجا والدون إلى القرم حيث كان أهل جنوا قد أسسوا فيها إبان القرون الوسطى مستعمرة للإتجار . وما أن ازدهرت هذه المستعمرة ، حتى عمدوا إلى إعادة بناء مدينة تيودوسيا القديمة وأطلقوا عليها اسم « كافًا » وهى التى أصبحت فى ذلك العهد أهم المراكز الاوروبية لتجارة التوابل وكنوز الشرق الأخرى التى كانت تحمل منها إلى القسطنطينية . وثمة طريق آخر يوصل إلى « كافًا » من كامباى ، ثم إلى الخليج الفارسى فأرمينية فالبحر الأسود .

وكانت بضائع الهند ترد على القسطنطينية كذلك عن طريق نهر الجانجيز (الكنج) حتى أجرا ، ومن ثم إلى سمرقند ، عروس مدن آسيا الوسطى . ففيها يلتقى الشرق الأقصى والغرب ، ولقد بلغ عدد التراجمة فى هذه المدينة فى عهد من عهردها ثلاثة مترجمين ومائة مترجم يمثلون عدداً مماثلا من اللغات واللهجات ، يشهد بذلك ما نجله عقب عودتهما من سمرقند شخصان فرنسيان ، أحدهما من مقاطعة «بريتانيا» واسمه «مالرب Malherbe» ، والثانى من مدينة مرسيليا واسمه بلان Blanc . فهما يرويان أنهما شاهدا فى سمرقند هنودا وفُرساً وأتراكا وأجناساً أخرى من الناس لهم متاجر يتبادلون فيها العروض مع تجار الصين من أقمشة مزركشة بالذهب ، ومن منسوجات حريرية وأخشاب وأوبار الجمال ، نظير الفضة واللؤلؤ والأحجار الكريمة والحرير والمسك والراوند وما إلى ذلك من النفائس .

وفى تاريخ التجارة لعبت جمهوريتان كبيرتان من مدن إيطاليا الساحلية — هما فنيسيا (البندقية) وجنوا — دوراً هاما . فقد أدركتا كما أدركت « صور » فى عهد عظمتها أهمية إنشاء المستعمرات للتجارة ففعلا ذلك ، وحالفهما التوفيق . على أن أملفى «Amalfi» وبيزا — وبعدهما — فلورنسا لم تلبث أن أصبحت من أشد المنافسات لهما . والواقع أن مدن إيطاليا الساحلية أثرت وازدهرت بفضل الحروب الصليبية ، إذ كانت سفنها تنقل الفرسان

(١) الاسم القديم للصين

www.ibtesama.com Exclusive

الصليبيين وكل من استنهضته الغيرة على الدين للإبحار إلى سوريا . وسرعان ما أصبحت مدن برشلونة وناربون ومرسليا منافسات للمدن الإيطالية فى هذا المضمار .

ومما يستحق الذكر أن ملاحى مرسيليا كانوا قد غامروا قديماً فى الأطلسى فجابوه جنوباً حتى السنغال، وشمالا حتى النرويج، ولكنهم أصبحوا الآن أكثر إبحاراً صوب الشرق . وكانت التوابل التى ترد على مرسليا تباع فى فرنسا أو تشحن إلى فلاندرز ، فدرّت على التجار ربحا وفيراً وأثرت المدينة حتى أن باتنات العرائس فى عام ١٢٢٤ كانت تدفع بهاراً وجنزبيلا وكراويا برية وكانت لوائح الضرائب الجمركية تفرض حوالى ذلك العهد دِنيين [١] على كل كيس من أكياس الفلفل والجنزبيل .

وتحولت مونتبلييه ونيم كذلك إلى مركزين رئيسيين لتجارة التوابل .

على أن العلاقات التجارية مع المشرق كانت تتوقف إلى حد بعيد على الظروف الدولية — أو بالأحرى — الدينية ، فبينما نرى أمراء المسلمين وحكامهم يحرمون حيناً على المسلمين كل تعامل تجارى مع النصارى نرى البابوات كذلك أحيانا يحرمون على النصارى كل تعامل مباشر مع المسلمين . فحينما أعلن المجلس البابوى فى عام ١١٧٩ قراره بتحريم الاتجار مع العرب تحول سيل تجارة التوابل إلى القسطنطينية . وكان حظ تجار ڤينسيا وجنوا مرتبطا بحكام القسطنطينية ومتوقفاً على ما إذا كانت جنسيتهم الأصلية لاتينية أو أغريقيـــة . فبحسب جنسية الجالس على العرش إذا كانت أغريقية أو لاتينية تمتعت الواحدة أو الأخرى بامتيازات خاصة أو حرمت منها . وكان لكل من الجمهوريتين مستودعات لتجارتهما فى سوريا أهمها فى حلب وبيروت .

على أنه فى عام ١٢٥٨ ترتب على المنازعات التى استفحل أمرها بين أبناء ڤينسيا وبيزا وجنوا أن قفل فى وجهها جميعاً ميناءا عكا ودمياط .

(١) عملة رومانيا قديمة حوالى جزء من مائتين وأربعين جزءاً من الفرنك .
(٢) Flanders — اسم بلجيكا قديماً .

www.ibtesama.com Exclusive

ولم يكن تجار برشلونة أقل همة ونشاطا من تجار الجمهوريات الإيطالية . ولتجار كاتالونيا يرجع الفضل فى توسطهم عام ١٢٥٠ لدى جيمس الأول ملك أراجون لعقد معاهدة مع سلطان مصر .

ولما كانت هذه المعاهدة قد أجازت أموراً وحرّمت أموراً بسبب الفوارق بين عقائد الفريقين الدينية فقد انتهز التجار المحايدون ، وهم اليهود هذه الفرصة للاستغلال .

فنى بغداد كان جميع أصحاب البنوك الرسمية فى عهد الخلفاء من اليهود نظراً لأن الإسلام لا يبيح تحصيل فوائد على الأموال الموظفة . فأسسوا شركات لمزاولة الشئون التجارية ، وكان غالبية المساهمين فى رؤوس الأموال من اليهود . ولما كانت هذه الشركات تستهدف القيام بعمليات تجارية على نطاق واسع فقد بذلت القروض للتجار من يهود وفرس وعرب ونظمت القوافل ورتبت رحلاتها فى مواعيد ثابتة لربط المدن الكبرى بعضها إلى بعض وأرسلت إلى أفريقية العملاء لجلب الرقيق كما أرسلتهم إلى الهند والصين ليأتوا بالتوابل .

كان التجار اليهود سماسرة قبل كل شىء ولقد روى بنيامين من أهالى توديلا أنه أحصى عدد السماسرة اليهود فى جزيرة كش[١] بالقرب من هرمز فوجدهم خمسمائة . وكان اليهود يزاولون نفس العمل فى الاسكندرية وبرقة حيث كانت توجد جاليات يهودية كبيرة العدد .

وما أن أوفى القرن الثالث عشر على نهايته حتى كانت المنافسة بين الاسكندرية والقسطنطينية – كمركزين تجاريين – قد بلغت أشدها بالرغم من أنه كان لكل من المدينتين مناطق توزيع وأسواق خاصة .

كانت التوابل تحمل من مصر إلى الموانى الإيطالية ومن ثم تجتاز جبال

---

(١) Kish

www.ibtesama.com Exclusive

الألب ومنها تنحدر إلى وادى نهر الرين حتى تصل إلى هولندا . أما فى القسطنطينية فكان تيار الحركة التجارية متجهاً نحو مدن البلطيك كما أن البضائع كانت تحمل فى الدانوب إلى هولندا مجتازة فى طريقها بسوق نورمبورج وأوجزبورج . على أن جميع الطرق التى كان يسلكها التجار بتوابلهم كانت تؤدى فى النهاية إلى بروج« Bruges» أعظم المراكز التجارية أهمية فى غرب أوربا وشمالها، وبها يقيم أكبر تجار رابطة «الهَنْزا» الجبارة التى انتشرت مخازنها فى جميع أنحاء أوروبا ، فبينما كانت مستودعات مصانع الحديد فى لندن تعتبر أقصى مراكز للغرب كانت مستودعات نوفوجورود العظمى تعتبر أقصى المراكز فى الشرق .

كانت بروج ملتقى تجار انجلترا واسبانيا وفرنسا وألمانيا ففيها يقايض السماسرة على منتجات الغرب من الصوف بمنتجات الشرق من التوابل . وإليها كان يحمل صوف اسبانيا الناعم وصوف انجلترا الخشن . وكانت أسرة مديشيس« Medicis » خاصة — وهى أشهر أسر فلورنسا، تعنى بشراء هذا الصوف لتنسج منه الأقمشة الفاخرة . وكانت بدورها تمون السوق بالتوابل والعقاقير بينما كان تجار ڤينسيا يقايضون على توابلهم بالأقمشة الكتانية والصوفية من إنتاج فلاندرز . ولم تلبث أن أصبحت مدن چِنْت وأنتورب ولوڤان هى أيضا من المراكز التجارية الهامة وكذلك مدينتا بوردو وتولوز التى كانت تحمل منهما التوابل مباشرة إلى لندن حيث أسست فى عام ١١٧٩ رابطة تجار الفلفل بينما لعبت فى فرنسا كذلك رابطة تجار التوابل دوراً هامّا فى هذا الميدان .

احتلت التوابل بوجه عام فى أوربا مكانة فى المرتبة الأولى من الأهمية لأنها كانت تعتبر من الوسائل المفيدة للصحة — فهى بتحسينها نكهة الطعام تنشط الشهية وتجعل فى استطاعة الإنسان استساغة تلك الألوان التى كثيرا ما تكون تافهة . ومن هنا كانت أهمية ما يُعزَى إلى التوابل من الأثر الفعال فى المساعدة على عملية الهضم وتسهيلها . فنرى سان بونيفاس

www.ibtesama.com Exclusive

St. Boniface بعد أن أقتنع بفوائد التوابل للصحة ونظافة الجسم يدعو فى ألمانيا إلى استعمالها فى نفس الوقت الذى كان يدعو فيه إلى اعتناق المسيحية.

فكلما ازداد انتشار الفلفل والجنزبيل والقرفة والكراويا البرية ازدادت معرفة الناس بفوائد استعمالها ـ فمن ذلك أن الأديرة التى اعتادت أن توزع على الناس فى ألمانيا حتى ذلك العهد لونا من الخبز يسمى كعك المحبة Hebkuchen شرعت فى أضافة الفلفل إلى عجينته فسمى منذ ذلك . التاريخ بالكعك المفلفل (pfefkuchen)وحل محل كعك المحبة التقليدى .

ولقد أحكم تنظيم تجارة التوابل بعناية تامة فحسبت تكاليف النقل فى البحر والبر بكل دقة حتى ماتحـزم فى مليم واحد. فلا جرم أن أصبحت تجارة التوابل فى طليعة الأعمال المالية المربحة يتسع ميدانها لجميع الناس، فما كاد القرن الثالث عشر يوشك على الزوال حتى كان الحصول على التوابل أمرا ميسورا لاعتدال أثمانها، ولكن فجأة تغيّر كل ذلك .

فى عام ١٣٠٠ ميلادية استقر رأى سلطان مصر على أن تكون تجارة التوابل مصدر ربح خاص له وذلك بسد جميع الطرق فى وجهها إلا طريق مصر . فأمر بأن يحمل إلى القاهرة جميع التوابل التى ترد على هرمز .

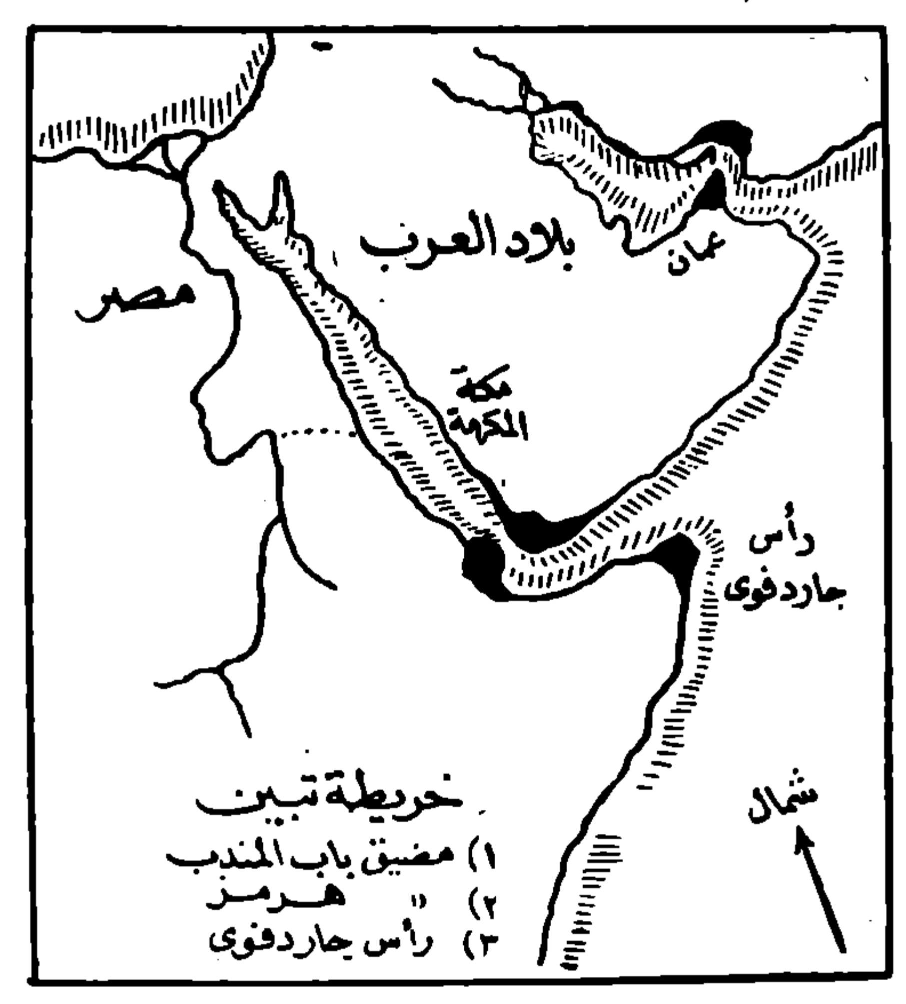
وفرض السلطان كذلك على جميع السفن القادمة بالحجاج من الشرق أن تأتى معها بالتوابل إلى جدة حيث كانت تقوم القوافل بنقلها إلى مكة ومن ثم إلى القاهرة . وبذلك أصبح السلطان ومن جاء بعده من السلاطين أعظم تجار للتوابل وأكثرهم ثروة بفضل ما كانوا يجنونه من حصيلة الضرائب التى فرضوها على هذه التوابل مما أدى إلى ارتفاع أسعارها فى الأسواق . وكانت هذه الضرائب تحصل فى عدن والسويس ومنهما تحمل البضائع إلى النيل فى تسعة أيام ثم إلى القاهرة بالقوافل فى خمسة عشر يوما. ومن القاهرة تحملها السفن فى النيل وقت فيضانه حتى الاسكندرية حيث تكون السفن الايطالية فى انتظارها بالميناء. فكانت التوابل تستغرق فى رحلتها من جزر ملوك إلى حارة الفرم « Mincing Hane » بلندن عامين كاملين .

www.ibtesama.com Exclusive

وفى عام ١٣٣٩ أذن السلطان لأهالى ڤينسيا بالإتجار فى القاهرة وداخل منطقة الاسكندرية ، وكان البابا بنيدكت الثالث عشر « Benedict XIII » قد أذن آنفاً لجمهورية ڤينسيا فى الإتجار مباشرة مع المسلمين .

وبذلك فتح باب التعامل التجارى على مصراعيه فاستقر ،ونزل بالاسكندرية كثيرمن تجار فنيسيا واستقروا بها وما لبث أن انضم إليهم تجار فلورنسا بعد أن حصلت أسرة مديشيس Medicis من السلطان على امتيازات خاصة ، مصرفية وتجارية . وحُرِمت جنوا من الحصول على امتيازات مماثلة ولكنها وجدت عوضاً عنها فى القسطنطينية التى كان لمركزها أهمية ملحوظة من الوجهة التجارية نظرا لازدياد حركة معاملاتها مع الشرق واطراد نموها .

ولكن سرعان ماصدم الإيطاليون وغيرهم من التجار المسيحيين صدمة شديدة بتحريم الأتراك كل تعامل مع النصارى عقب استيلائهم على القسطنطينية عام ١٤٥٣ .



خريطة تبين
١) مضيق باب المندب
٢) " هرمز
٣) رأس جاردفوى

www.ibtesama.com Exclusive

الفصل الثالث

الجوابون وقصصهم

كيف تتأتى للإنسان المعرفة إذا هو لم يسعَ للبحث عنها ؟ إن القوقعة لتنطوى على نفسها داخل صدفتها فيخيل إليها أن سكنها أطيب مسكن فى العالم .

« من أمثال الغجر »

وفارقت وطنى مفارقة الطيور للوكور

«ابن بطوطه» ١٣٢٥

كان طبيعيا أن يهتم الخليفة فى بغداد بطرق المواصلات فى ممتلكاته وأن يقف على دقائقها أمام سيل القوافل المتدفقة فيها بحمولاتها النفيسة من التوابل ، لذلك أصدر أمير المؤمنين المعتز بالله محمد بن المتوكل [1] أمره إلى عامله على البريد ابن خرداذبه [2] عام ٨٨٠ ميلادية بوضع مؤلف يحشد فيه جميع المعلومات بشأن هذه الطرق . وقد أنجز ابن خرداذبه مؤلفه فى أربع سنوات تحت عنوان المسالك والممالك ، أودعه المسافات التى بين البلدان وأحصى فيه الواردات .

وقد جاء هذا المؤلف أشبه بالتقرير منه بالكتاب ، وهو وان كان قد حقق الغرض الذى صنف من أجله وخدم علم الجغرافيا خدمة جليلة إلا أنه اقتصر على ذكر البلاد والأماكن التى تتعلق فقط بهدف الكتاب ، فهو مثلا حينما يتكلم عن عدن، يكتفى بالقول بأن عدن وإن لم ينبت بها شىء إلا أن الإنسان يستطيع أن يحصل فيها على كل مايرغب من التوابل والعنبر.

---

(١) فى الأصل الانجليزى « الخليفة محمد بالله » — لعل الكاتبة تقصد المكتفى بالله ٢٨٩ — ٢٩٥

(٢) هو أبو القاسم عبد الله بن عبد الله المؤرخ الجغرافى . توفى فى حدود سنة ٣٠٠ هـ وقد ترجم باربيير دى مينار (Barbier de Meynard) كتابه «المسالك والممالك» إلى اللغة الفرنسية وطبع فى باريس عام ١٨٦٥ .

www.ibtesama.com Exclusive

ولكن ما لم يذكره ابن خرداذبه قد ذكره إمام بغداد مؤدب أحد الأمراء فى كتابه « الفتوح والأمصار » . والكتاب يلقى كثيراً من النور على الجانب الإنسانى فى التجارة . وهو يفسر لنا سبب قيام اليهود خاصة بالإتجار فى كل مكان ويؤكد أنهم كانوا يتكلمون بالفارسية واللاتينية والإغريقية والعربية والإسبانية والسلافية . ويذكر أنهم كانوا يبدؤون رحلتهم من إسبانيا . فبعد أن يعبروا إلى طنجة يجتازون شمال أفريقية إلى مصر ومنها إلى دمشق فبغداد ثم إلى الهند فالصين . أما عن تجارتهم فيذكر لنا أن أهمّ ما كانوا يصدرونه من الغرب إلى الشرق هو الخصيان والإماء السلافية[1] والغلمان والحرير والفراء والسيوف . أما ما كانوا يعودون به من الشرق فأهمه المسك والصبر والكافور والقرفة وما إلى ذلك من منتجات تلك النواحى .

والتجارة وإن تكن الحافز الأساسى لجوب الآفاق وتحمل مشاق الأسفار إلا أن الشئون السياسية والورع الدينى كان لها أيضاً من الدوافع ما أتاح الفرص لمشاهدة العالم . فالسفارات الموفدة إلى الأقطار الغربية الأجنبية والحج إلى مكة المكرمة كانت فى معظم الأحيان منشأ الأسفار والإمعان فيها . فبدأ المثقفون من العرب يدرسون تدريجيا أحوال الشرق الأقصى ويلمون بشئونه . وكان الجوابون يروون القصص عما شاهدوه فى سياحاتهم ويدوّنون ملاحظاتهم عن أحوال الأمم التى خالطوها . ولقد استفاد الجغرافيون من معلوماتهم فأضافوا كثيراً من التفاصيل عن عادات الأمم الأجنبية وتقاليدهم إلى مؤلفاتهم بفضل هذه المعلومات .

ومن أشهر الجوابين العرب سليمان[2] وابن وهب[3] التاجران

(١) كان الناس من الجنس السلاف يبيعون أولادهم .

(٢) اسمه سليمان البصرى وكل ما يعرف عنه أنه وصف سياحة له فى الهند والصين ذكرها مؤلف من سيراف اسمه أبو زيد حسن فى مؤلف له كتبه عام ٢٣٧ هـ — ٨٥١ م اعتمد فيه على ما سمعه من رحالة العرب فى الهند والصين لا سيما من ابن وهب .

(٣) هو ابن وهب القرشى من ولد هبار بن الأسود . قام برحلة إلى الصين سنة ٢٥٦ هـ ٨٧٠ م . ترك البصرة عندما خربها الزّنج وأبحر من سيراف على بعض مراكب هندية وساح فى الهند إلى أن انتهى إلى خانفو = Canton وهو ربما لم يدون ما شاهده ولكنه روّاه للمؤلف السيرافى أبي زيد الحسن .

www.ibtesama.com Exclusive

البصريان اللذان دمغا القرون بطابعيهما . فقد زارا الصين فى أواخر القرن التاسع الميلادى وليس هذا فى حد ذاته بالشىء الخارق فقبلهما وفد كثير من تجار العرب على ميناء كانفو[١] لابتياع المنتجات الصينية وبخاصة المسك والكافور . إلا أن سليمان وابن وهب قد فعلا أكثر من ذلك لأنهما تجولا فى ربوع الصين لا لشىء سوى الاستمتاع بمشاهدة بلاد لم يرياها من قبل . ويروى لنا سليمان أن الفضول وحب الاستطلاع دفعاه إلى أن يستسلم إلى الرياح الموسمية التى اندفع معها من شاطىء عمان إلى شاطىء الهند ثم حول رأس كومورن ومن ثم إلى الصين . بينما يروى لنا ابن وهب أنه أجاب امبراطور الصين عندما سأله عن السبب الذى حمله على مغادرة وطنه بقوله: «شاهدت فى البصرة سفينة صينية على وشك أن تبحر فنازعتنى نفسى إلى ركوبها ففعلت وحضرت فيها إلى الصين» ثم أضاف التاجر العربى فى سذاجة — وكان صادقا فيما قال — بأنه كانت له رغبة ملحّة لمشاهدة الامبراطورية

كان سفر هذين التاجرين إلى الصين منفصلا إذ كان كل منها مستقلا عن الآخر، إلا أن كلا منهما استطاع أن يدرس عن كثب حياة الصينيين فى جميع مظاهرها . حياتهم الخاصة وحياتهم العامـــة . والمدنية منها والدينية والسياسية أيضا . ولقد كان لكشفهما عن سر المسك وحقيقة مصدره أكبر أثر فى أوساطنا التجارية . فهما يذكران أنهما شاهدا رجلا قدم إلى «كانفو» مشيا على الأقدام من سمرقند يحمل نافجة مسك من جلد استخرجه من الظباء المسكية التى تكثر فى الغابات القائمة حول سمرقند . بيد أن أحسن أنواعه وأطيبه رائحة ما يجلب من بلاد «التبت» وذلك لأن المراعى التى ترعاها الظباء المسكية بها أطيب أعشابا من أعشاب المراعى الصينية وكثيراً ما يخلط الصينيون المسك الذى يعرض للبيع فى أسواق «كانفو» .

وكتب سليمان عقب عودته إلى البصره أخبار رحلته فى كتاب تحت

(٣) اسمها الآن «كانتون»

www.ibtesama.com Exclusive

عنوان « قصص سائح » . وقد حمل هذا الكتاب بعد ذلك العهد بسنوات عديدة إلى أبي زيد السيرافي ليحقق وقائعه وليزكيه ويقدم له . وصادف وجود ابن وهب في ذلك الحين بسيراف فأفضى عن طيب خاطر إلى أبي زيد بمعلوماته الخاصة وبما شاهده بالهند والصين ، فنتج عن هذا التعاون كتاب عنوانه « سائحان » أودع قصص أسفارهما فكان لتلك القصص حظا عظيما من الانتشار وإقبال الناس عليها حتى أنها كانت المصدر الوحيد للمعلومات عن الصين وأهلها طيلة أربعة قرون وانتفع الجغرافيون بما ورد فيها وأمنوا على صحتها .

ولم يكن الجغرافيون وحدهم هم الذين انتفعوا بتجارب سليمان وابن وهب فقد أثرت كذلك قصص الخيال وزاد انتشارها . وليس من شك في أن قصة السندباد البحري التي يحتمل أن تكون قد ألفت في مستهل القرن الرابع عشر إنما بنيت وقائعها على تجارب السائحين المذكورين .

هذه القصة الخلابة تشبه خيوط النسيج في وقائعها وتعاريج السداة في وثبات خيال واضعها المجهول .

فهذا حمال مرهق مكدود ببغداد إسمه سندباد أيام خلافة هارون الرشيد قد أخذ يروي له السندباد البحري قصة رحلته العجيبة . ويجب أن أوضح هنا كما توضح القصة أن هذا الحمال التعس وجد نفسه ذات يوم أمام منزل في زقاق قد غمر بماء الورد وأنه استنشق نسمات معطرة برائحة المسك والعنبر والصبر ونفذت إلى أنفه كذلك رائحة لحوم تحمر على النار كما شنفت آذانه نغمات موسيقية ناعمة فرثى لنفسه وتحركت فيه عوامل الغيرة من صاحب الدار لثرائه وما هو فيه من نعيم لم يتكلف في سبيله مشقة عمل ولا عرق جبين فجأر إلى الله بشكواه لما هو فيه من شقاء وفاقة مع كده وكدحه .

وسمع صاحب الدار دعاء السندباد ونجواه فأرسل في إحضاره . وهنا يقص السندباد البحري صاحب الثراء العريض على سميه الحمال الفقير المكدود قصة رحلاته ومغامراته وثرائه ، وكيف أن أحدا لم يعان مثل ماعاناه من مشاق

www.ibtesama.com Exclusive

ووصب فقال « إن قصتى سوف تبهر المستمعين وتحدّ من أهواء الناس وأطماعهم لأنها سلسلة وقائع ومغامرات مذهلة وظروف خارقة .

ولنعد إلى موضوعنا .

فى السنوات الأولى من القرن الحادى عشر نشرّ على معاصريه تاجرٌ من أهالى خيوه اسمه البيرونى [1] مجموعة من القصص عن رحلاته . وكان البيرونى قد رافق جيش السلطان إلى الهند وكان مولعاً بالأسفار . ثم هو فيلسوف فلكى رياضى ، يعتبر من أعلم أهل زمانه كما تعتبر مؤلفاته كنوز معرفة وعلم . كان البيرونى تاجراً فكان طبيعيا أن يسترعى إهتمامه كل ما يمت إلى التجارة بسبب . وهو يذكر لنا فى سياق كلامه عن القرنفل أنه يسمى فى اللغة السنسكريتية « لافنكا » وأن هناك أساطير كثيرة عن جزيرة خرافية اسمها « لانكا » . وهو يزعم أن اللافنكا تأتى من هذه الجزيرة وهو يكرر علينا روايات الملاحين بشأن «لانكا» فيقول أنهم يروون جميعاً القصة التالية .

« عندما تقترب السفن من هذه الجزيرة ينزل بعض الملاحين إلى شاطئها حيث يتركون به نقوداً أو بعض ما ينقص أهالى الجزيرة من المواد ، كملح الطعام ، أو أقمشه مما تلف حول الخصر وينصرفون . ولكن عندما يعودون إلى الشاطىء فى اليوم التالى يجدون كميات من القرنفل تعادل قيمة ما تركوه بالأمس . ويعتقد بعض الناس أن الذين يعقدون معهم هذه الصفقات وإنما هم من الجن ولكن مهما يكن من اعتقاد الناس فإن الشىء الوحيد الذى لا يتطرق إليه الشك هو أن أحداً لم يتوغل داخل الجزيرة ثم عاد منها .

كان الناس مولعين بالسياحة فى تلك الأيام ، ولوع الناس بها فى عصرنا الذى نعيش فيه . فرؤية العالم متعة لا تعادلها متعة . وأشهر ما كتبه الجوابون

---

(١) هو أبو الريحان محمد البيرونى الفيلسوف الرياضى الفلكى الجواب ألف تاريخ الهند . ولد بخيوه عاصمة خوارزم وتوفى عام ١٠٤٨م

www.ibtesama.com Exclusive

عن سياحاتهم فى القرن الثانى عشر كتاب الشريف الادريسى[1] الذى أتمه عام ١١٦٥ «تحفة العقلاء ومعرفة أغرب الأشياء» وفى إحدى رحلاته زار هذا المغربى جزيرة صقلية حيث كان ملكها روجرز الثانى وهو من نسل الفيكنج Vikng من أكثر الناس ولوعا بالجغرافيا. وكان قد درس ما كتبه الجغرافيون من لاتينيين وإغريق وعرب عن المعمور فلم يجد فى كل ذلك شيئاً ذا غنى، «وساءه ما يكتنف رواياتهم من غموض» . وكان تواقا للتفاصيل الواضحة القاطعة فدأب على استشارة أصحاب الرأي ممن يعتقد فيهم الكفاية والقدرة على إجابة أسئلته وإزالة مايخامره من ريبة وشك ولكنهم عجزوا عن الإبانة والتوضيح . فاستقر رأيه فى النهاية على سلوك منهج آخر برهنت نتائجه على أنه كان أكثر توفيقاً ، وكان هذا المنهج الجديد هو أن يقوم شخصيا باستيضاح الجوابين عن مشاهداتهم وعن المسافات بين مختلف البلدان والأقطار ، فاستعمل لذلك التراجمة مستفسرا من كل رحالة على حدة ، ثم منهم كلهم مجتمعين ، حتى إذا اتفقت اقوالهم حول موضوع من الموضوعات ، قطع بصحته ؟

وقد دعا الملك الرحالةَ العلامة الشريف الادريسى إلى البقاء فى بلاطه ليساعده على استيضاح مزاعم الجوابين . ومثل هذه الدعوة المشفوعة بالوعود المادية يصعب رفضها .

وكانت مهمة الإدريسى تنحصر فى جمع الأدلة والشواهد الناتجة عن الاستجوابات . وقد استغرق هذ المنهج الجديد خمسة عشر عاما كتب الإدريسى بعدها مؤلفه المشهور «نزهة المشتاق فى معرفة الآفاق» والكتاب

---

(١) هو محمد أبو عبد الله الشريف الأدريسى من أبناء العلويين الذين ملكوا غرب أفريقية الشمالية فى أواخر القرن الثاني الهجرى . ساح فى شمال أفريقية وآسيا الصغرى والأندلس ثم استدعاه روجزر ملك صقلية إلى زيارته فلبي طلبه وألف فى صقلية كتابه المشهور نزهة المشتاق فى معرفة الآفاق . توفى سنة ٥٦٩ هـ أو «حوالى ذلك»

www.ibtesama.com Exclusive

يحوى الشيء الكثير مما تهم معرفته ثم هو يبين إلى جانب هذا ما استرعى إهتمام كل جواب نقل عنه فى مشاهداته الخاصة، وكان الذهب بطبيعة الحال من الأشياء التى استرعت الاهتمام، فذكر السودان، وحوض نهر النيجر والمناجم القائمة على شاطىء أفريقيا الشرق بأنها المواطن التى توجد فيها المعادن الثمينة بكميات وافرة.

وضمّن الأدريسى كتابه كثيراً من القصص والنوادر المسلية، التى لولاها لكان الكتاب من المؤلفات التى تبعث على الملل والسأم لكثرة ماحوى من المسافات والأبعاد بين البلدان والأماكن، فمن ذلك مثلاما يعلمنا بأن المسافة بين مناجم الذهب والفضه فى الحبشه وبين ميناء زيلع يقطعها المسافر فى خمسة عشر يوما وأن المسافة بين زيلع وبين اليمن ثلاثمائة ميل وكذلك ينبئنا بأن شجر الصبر بسومطرا قد زرعه الأغريق ببلادهم منذ عهد الاسكندر الأكبر. ويبدو أنه لولا العصير المستخرج من ورق الصبر لما تيسر تجهيز الأدوية الأساسية على الوجه الأكمل. ففى شهر يوليو تنقى أوراق الصبر ويجمع عصيره فى قدور نحاسية ثم يعرض لأشعة الشمس مدة شهر وبعد ذلك يعبأ فى جرار وتباع منه كميات ضخمة للتصدير.

وذكرت جدة على أنها سوق الرقيق يحملهم الأحباش إليها كما أنها الميناء التى تصدر منها التوابل والعطور.

واسترعت صهاريج المياه العجيبة بعدن اهتمام أحد الجوابين بصفة خاصة وقد رأى منها «جنوكا»[1] صينية وفدت على الميناء بعروض مختلفة بينها الفلفل، بعضه ذو رائحة قوية، والبعض لا رائحة له. ومنها خشب الصبر وعصير الصبر المر. وصدف السلحفاة والعاج وخشب الأبنوس والخيزران والفخار الصينى والسروج المصنوعة من الجلد والأقمشة المنسوجة من الألياف النباتية وغيرها من المخمل.

---

(١) ذكرها ابن بطوطة وجمعها على جُنك وهى بالانجليزية نقلا عن الصينية «Junk»

www.ibtesama.com Exclusive

الصبر

والمسافة من عدن إلى حضرموت يقطعها المسافر فى خمسة أيام . رمالها كثيرة وسكانها قليلون وحركة التجارة فيها ضعيفة ، وبشواطئها يوجد الند ، تقذفه إليها الأمواج عقب الأعاصير الهوجاء كما هى الحال مع العنبر . ويروى الرحالة المذكور أن أمير المؤمنين هارون الرشيد كان قد أرسل بعض خاصته ممن يثق بهم ليستطلعوا من سكان الشواطىء ما يعرفونه عن الند، فقد كثرت الشائعات حول ذلك الجوهر الزكى الرائحة مما جعل الخليفة يرغب فى معرفة أصله . ودلت المعلومات التى التقطت على أن هذا الجوهر يتسرب من عيون فى قاع البحر مثله فى ذلك مثل النفط المتفجر من العيون فى رحت « العراق ».

وكانت المكافأة التى نالها الشريف الإدريسى من الملك على مؤلفه العظيم شحنة كاملة لسفينة محملة بأنفس السلع . فى الوقت الذى كان فيه ملك صقلية قائما بعصر عقول الجوابين كان حاخام أسبانى اسمه بنيامين من مدينة توديلا (Tudela) بأسبانيا يقوم بزيارة بعض بلدان الشرق الأدنى والشرق الأقصى « ليرى بنفسه أحوال إخوانه فى الدين وعدد المقيمين منهم فى مختلف البلاد بتلك الربوع » . ويدل الكتاب الذى صنفه بعد عودته على أنه رجل مثقف قوى

www.ibtesama.com Exclusive

الملاحظة له ولع بالتاريخ والفن والجمال . ولم يكن له إهتمام بشئون التجارة إلا من حيث أهميتها فى حياة الأمم التى زارها ، وكان يقسم عادة أبناء عقيدته إلى طبقتين ، طبقة كرست نفسها لدراسة الحكمة ، وطبقة لاهم لها سوى جمع الثروة .

ويختلف ما رواه بنيامين هذا عن رحلته اختلافا كبيراً عن روايات زملائه من رحالة العرب والفرس لأن أسفاره امتدت إلى الأقطار الأوروبية . فهو يصور لنا ميناءى برشلونه ومرسيليا وقد ازدحتا بأساطيل السفن التجارية من جميع البلاد . كما يصور لنا ما بقى من آثار روما القديمة ، وتفاصيل بلاط البابا ، وحياة الترف البراقة فى القسطنطينية ، ويصف عرش الامبراطور المصنوع من الذهب الخالص وفوقه التاج المرصع بالماس واللؤلؤ مما لا يقدر بثمن ، وكيف أنها تتألق فى الضوء حتى إذا ما حل الظلام أغنت عن كل ماعداها من نور . وفى رأى هذا الجواب أن القسطنطينية لا تعادلها مدينة أخرى على وجه البسيطة إلا بغداد عاصمة الخلفاء . والحق أن هذه العاصمة الرائعة الشامخة بمبانيها الفخمة وقصورها ومساجدها ليزيد من روعتها وعظمتها أنها مجمع الفنون فيها يلتقى الفلاسفة والرياضيون وأقطاب العلوم الأخرى . وعُنى الرحالة بوصف الاسكندرية ومنارتها العجيبة وصفاً دقيقا كما وصف الميناء وازدحامها بالسفن فنقرأ فى كتابه عن التجار الذين يفدون عليها لشراء التوابل ، وكيف أن لكل أمة مخازن خاصة بها وأسواقا ومتاجر علقت فوقها لافتات تشير إلى أنواع السلع التى تباع فيها .

* * *

كانت ، أربعة قرون قد انقضت منذ عودة سليمان وابن وهب بأخبار الصين الموثوق بها حينما عاد إلى فينسيا من امبراطورية الصين العظيمة ثلاثة من أبناء فينسيا ، هم الاخوان پولو وابن أحدهما ، بعد أن مكثوا فى الصين سنوات عديدة حتى أن أصغر الثلاثة سنا كان له شرف العمل فى إحدى

www.ibtesama.com Exclusive

الوظائف الحكومية بالصين . وكثيرا ما كان يُرفض رجاؤهم للعودة لإيطاليا، إلى أن استجاب لهم الإمبراطور ذات يوم بمناسبة رغبته فى أن يرافقوا حفيدته فى سفرها إلى فارس لتتزج من أرغوم خان . وبما أن السفر براً كان يعتبر من المشاق المضنية ، استقر الرأى على أن تكون رحلة الأميرة فى البحر . وقد سر الامبراطور حينما ترامى إلى علمه أن الڤينسيين الثلاثة سيكونون من بين المرافقين لحفيدته لما كان يتوسم فيهم من الأمانة والخبرة بالأسفار. وكان عدد السفن التى حملت الأميرة وحاشيتها ثلاث عشرة سفينة بكل منها أربعة قلوع . وكان يقوم على أربع من هذه السفن مائتان وخمسون ملاحا بينما بلغ عدد ركابها — باستثناء الملاحين — ستمائة شخص .

وكان برفقة الأميرة الجميلة الفاتنة عدد من الوصيفات وحاشية كبيرة من بينها ثلاثة مبعوثين موفدين من قبل الخان ليرجوا امبراطور الصين أن يتكرم فيزوج الخان من احدى أميرات البيت الإمبراطورى لأن زوجه الملكة المتوفاة أوصته بذلك وهى تحتضر ، إذ كانت هى أيضا يجرى فى عروقها دم البيت الإمبراطورى الصينى .

استغرقت الرحلة ثمانية عشر شهرا تخلفوا ستة أشهر منها بسومطرا فى انتظار رياح مواتية .

وبعد أن أوصل الڤينيسيون الثلاثة حفيدة الإمبراطور إلى فارس بسلام ،واصلوا سفرهم إلى ڤينسيا مسقط رأسهم حيث وجدوا أقاربهم قد احتلوا دارهم ويرفضون التنازل عنها . فقد ساد الاعتقاد بانهم لابد وأن يكونوا قد لاقوا منيتهم منذ أمد بعيد، ولكن ها هم الآن يطلعون على الناس فى ملابس وأزياء غريبة ولهجة أجنبية ، وها اثنان منهم يدّعان بأنهما الأخوان پولو وأن الثالث ابن لأحدهما . وسيط للآخر .

على أن المجوهرات والأحجار الكريمة التى أبرزوها لم تلبث أن أقنعت أهلهم فى النهاية بصحة دعواهم .

www.ibtesama.com Exclusive

واضطر ماركو بولو إلى إعادة قصة الرحلة الصينية مرارا وتكرارا، ونظرا لما كان يردده فى سياق الكلام من الإشارة إلى وجود ملايين الذهب وملايين الناس فى ممتلكات الإمبراطور بالصين فقد أطلقوا عليه لقب « ماركو المليونير ».

ولما كثر إلحاح الناس عليه وعلى والده وعمه لقص أنباء رحلتهم إلى الصين وماشاهدوه خلال الخمسة وعشرين عاما التى قضوها فيها، ولما كثر إعادة القصة مرة بعد أخرى فقد وافق ماركو بولو على إملائها. وقد أملاها بالفعل أثناء وجوده بالسجن فى جنوا حيث كان قد أسر فى إحدى المواقع الحربية.

أخرج ماركو بولو كتابه عام ١٢٩٨ فكان لمعاصريه، ولعدة قرون بعد ذلك، مثلما كان كتاب السائحين مرجعا من المراجع التى يعول عليها، سردت فيه الوقائع فى اعتدال واتزان يدمغها طابع الحقيقة كما يشهد بذلك من جاء بعده من الرحالة، فجاءت مطابقة للحقيقة فى معظمها، ونال الكتاب ما هو جدير به من الشهرة والانتشار. وكان ذا أثر بعيد ترتب عليه تطور الملاحة وما تبع ذلك من الاستكشافات. وبعد ذلك العهد بخمسين سنة ظهر كتاب أسفار آخر. زاد فى تراث العلم والمعرفة، أملاه ابن بطوطه بعد أن جاب اقطارا أو قطع مسافات لم يقطع أبعد منها أحد قبله ولا قطعها أحد بعده بقرون عديدة. فهذا المغربى من مواليد طنجة قد ذرع ما بين بكين وتنبكتو، واجتاز أفريقية من شمالها إلى النيجر، ومن الأطلسى إلى البحر الأحمر. وكان يحصل على نفقاته من الاتجار فى الطيب والملح، فكان يحمل الأول إلى السودان ويحمل الثانى من السودان إلى أسوان. وفى دلهى بالهند شغل منصب القضاء. وعندما أوفد الإمبراطور سفارة إلى الصين رافقها ابن بطوطة. ولابن بطوطة ملاحظات وتقديرات من حقها أن تقرأ. فتصويره للسفن وهى تغدو وتروح على موانئ المحيط الهندى وبحر الصين يجعلها تنبض بالحياة وأنت تقرأ عن « الجنوك يخدم فى الواحدة منها ألف

www.ibtesama.com Exclusive

رجل . منهم ستمائة من البحارة أربعمائة من المقاتلة ويجتمع على الجذاف الواحد من عشرة إلى خمسة عشر رجلا .

وهو يتكلم عن عدن وصهاريجها وعن التجار وما لهم من الثراء والأموال العريضة حتى أن الواحد منهم ربما أمتلك المركب العظيم بجميع ما فيه . ويقول عن زيلع « إنها مدينة كبيرة إلا أنها أقذر مدينة فى المعمورة وأوحشها وأكثرها نتنا » ويتوغل ابن بطوطة جنوبا حتى موزمبيك فيزور « مقدشو » التى يقول عنها أنها مدينة كبيرة جدا ذات ثراء واسع. ولم يقتصر ابن بطوطة على زيارة الهند والصين وأفريقية ، ولكنه زار القرم والقسطنطينية كذلك .

ولما عاد ابن بطوطة إلى مدينة فاس من رحلته الأخيرة عام ١٣٤٩ طلب منه السلطان أن يضع كتابا عن مشاهداته فاعتذر بأن مذكراته التى دونها أثناء رحلاته الطويلة قد فقدت ، فاقترح عليه السلطان إملاء مايذكر منها على أحد رجال الحاشية فى بلاطه فعمل ذلك ، ونعم الناس بكتاب[1] من أعظم ما كتب عن الأسفار. فى الوقت الذى كان ابن بطوطة يجوب فيه ربوع آسيا وأفريقية أو قرابة ذلك العهد كان أحد الرهبان الإسبانيين من فرق الفرنسسكان قد شرع فى زيارة أهم البلاد فى أوربا وآسيا ومايقع منها على شاطىء أفريقيا الغربى والشرقى . وقدم غينيا فأدرك عن اختبار شخصى كثرة مابها من الذهب ، وسافر مع القوافل إلى جنوب مراكش ، فوقف على مدى الحركة التجارية بين المدن الواقعة على شاطىء أفريقية الشمالى وبين المناطق الواقعة بجنوب الصحراء .

وفى الجانب الشرقى من أفريقيا زار الراهب دنقلة والنوبة والحبشة ، وصنف بعد ذلك كتاباً عن أسفاره عنوانه « كتاب المعرفة بجميع الممالك والأقطار والأمراء فى العالم » . وقد ذكر الراهب فى سياق الكلام عن بلاد النوبه والحبشة «أن بطريق هذه الأقطار هو القس يوحنا الذى يحكم أقطارا

---

(١) Sracino

www.ibtesama.com Exclusive

عديدة وعواصم يدين أهلها بالمسيحية ، وأن رعاياه من الجنس الأسود وهم يرسمون الصليب على أجسادهم بالنار دليلا على أنهم قد تم تعميدهم »

وزار الراهب مدينة أسماها « ملسا » حيث يقيم القس يوحنا بصفة مستديمة . وهو يقول لنا أن لهذا الحاكم علم خاص أبيض اللون رسم عليه صليب أسود معكوف من جانبيه ، لأن بلاد النوبة والحبشة امبراطورين أحدهما أمبراطور على جراسينا (gracina) والآخر على مجداسر Magdaser ، ولكل منهما علم خاص يحمل صورة الصليب . ودون الرحالة كل ما سمعه عن نهر الفرات العظم أو النيل — على حد قوله — والذى يزعم أنه ينبع من مناطق القطب الشمالى بالفردوس لأرضى وأنه يطوق بلاد الحبشة. ويذكر الراهب أنه رأى أشياء غاية فى الروعة وأنه استفسر عن هيئة الفردوس الأرضى فأجابه العقلاء من الناس بأنه جبل شاهق إذا تسلقه الإنسان حتى القمة وجد نفسه داخل دائرة القمر . ويبدو أن أحداً لم تقع عينه أبداً على الفردوس الأرضى بأكمله ولا عرف مكانه على التحقيق. ففريق من الناس يزعمون أنهم رأوه من الشرق وفريق يزعمون أنهم رأوه من الغرب ،

وإذا كان الراهب لم ينجح فى الحصول على المعلومات الصحيحة بشأن الفردوس إلا أنه نجح فى أمور أخرى وكان أول من دون ذلك ، فقد رسم الراهب صوراً دقيقة للرموز المنقوشة على أعلام الممالك التى زارها بما فى ذلك غينيا وأرجانا ودنقلة وجميع الممالك التى يتملك عليها « القس يوحنا » . على أن الراهب لم يذكر لنا اسمه وإن كان قد ذكر أنه ولد عام ١٣٠٥ وأنه بدأ رحلته العظيمة من مدينة إشبيلية التى عاد إليها بسلام بعد أن توغل فى الشرق حتى الصين .

وهناك قصة أخرى لرحلة انتشرت تفاصيلها بين الناس حوالى ذلك العهد، قام بها راهب إيطالى آخر إسمه ادوريك[١] وكان هذا الراهب قد قطع جانباً منها فى رفقة السير جون ماندڤيل[٢] من أشراف الانجليز .

(١) Odorick.
(٢) Sir John Mandeville.

www.ibtesama.com Exclusive

ولا يسع من يقرأ قصة هذه الرحلة إلا أن يجزم بأن الراهب قد توخى الصدق فى وصف كل ما شاهده عيانا، ولكن ما ساقه فى كتابه نقلا عن الغير يدل على أنه افتتن عن سذاجة بما نقل إليه .

على أنه عند ما شاهد بحيرة سيلان التى يُزْعم أن ماءها من دموع آدم وحواء أعلن فى أصرار بأن ذلك غير صحيح وأنه قد رأى الماء يتدفق فى البحيرة .

وهو تصويرى فى وصفه ، وقد أوضح أشياء لم يذكرها قبله أحد من الجوابين . مثل ذلك وصفه عادة الصينيين فى حرق التوابل والأفاوية أمام منازلهم حين مرور موكب الامبراطور بها حتى يتنعم باستنشاق الروائح الزكية ، ويصف الراهب أدوريك كذلك نظام البريد فى الصين وطرقها الكبرى والنُزل القائمة على طول الطرق ويذكر أسعار السلع ويقارن بين ثمنها وثمن أمثالها فى إيطاليا .

ويبدى إهتماماً كبيراً بالفلفل وطريقة زراعته فى مالابار لأنها تشبه الطريقة المتبعة فى تهذيب الكروم بموطنه فيقول : —

« أنهم يزرعون شجيرات الفلفل قرب الأشجار (كما نفعل بالكروم) وهى تثمر عناقيد صغارا كما تثمر كرومنا ، وهى خضراء اللون فى حالة نضوجها وتقطف كما نقطف عناقيد الكروم ثم تفرش فوق الأرض فى الشمس لتجف وبعد ذلك يوضع الفلفل فى جرار من الفخار لبيعه .

وقصة الراهب اودوريك هذه املاها عام ١٣٣٣ على المدعو وليام سولانج[١] فى منزل بميدان القديس انطوان[٢] بمدينة « بادوا »[٣] وهى قصة رحالة مزجت فيها الوقائع بالخيال مزجا خفيفا . ولكن الأمر يختلف عن

(١) William Solange

(٢) St. Anthony

(٣) Pdua

www.ibtesama.com Exclusive

ذلك فى قصة السير جون ماندڤيل الشهيرة فتجاربه العجيبة وكل مايزعم أنه قد سمعه بأذنيه كان من نوع لا يقبله العقل ، حتى أن الإنسان ليتخيل كاتبه وقد تلعثم لسانه وانكمش بين فكيه وبرقت عيناه وهو يصور لنا الوحوش الضخمة الهائلة وينثر الجواهر والأحجار الكريمة نثرا فى كل جرة قلم .

وأتاحت له أسطورة الملك الخرافى المدعو القس يوحنا فرصة فريدة لاطلاق العنان لخياله يتقلب مرحا بين أكوام الذهب واللؤلؤ والأحجار الكريمة ، فهو مثلا يصف لنا سرير الملك بأنه مصنوع من زمردة واحدة مطوقة بالذهب الخالص .

وافتتن هذا النبيل الانجليزى بالفردوس الأرضى فكتب « كثير من الحكام والأعيان حاولوا عبور الأنهار المنبعثة من الجنة ولكن الأمواج العاتية الصاخبة حالت دون ذلك فلاقوا حتفهم نتيجة انهيار قواهم من وصب التجديف أو أصابتهم بالصمم من شدة خرير المياه » . والحق أن أحدا لا يستطيع عبور هذه الأنهار إلا إذا اقتضت ذلك مشيئة الخالق ، وبما أن الله لم يأذن للكاتب فى العبور فهو يقول فى كتابه « لا أستطيع الكلام عن الجنة بصورة صحيحة سليمة لأنه لم يؤذن لى فى الوصول إليها ولكنى سأخبر بما سمعت » .

كان السير جون ماندڤيل قد غادر انجلترا للقيام برحلاته فى عام ١٣٢٢ ولم يعد لأوروبا ثانية إلا بعد انقضاء أربعا وثلاثين عاما . وفى أثناء مروره بروما أطلع البابا على قصته . ويزيد الرحالة أن البابا صادق على ما جاء فى القصة لأنه مطابق لما فى خريطة العالم .

ولم يكتف السير جون ماندڤيل بتدوين هذه الأكاذيب المروعة والتخيلات الجامحة التى زعم بأنها نالت تأييد البابا وموافقته بل ذهب إلى أبعد من ذلك فوعد بان يصلى من أجل كل قارىء لكتابه هذا . على أنه إذا كان من بين القصص مايستحق أن يسمى بحق « أروع قصص الرحلات » فكتاب السير جون ماندفيل أجدر الكتب بذلك من غير شك . فقدشغف

www.ibtesama.com Exclusive

الناس بقراءته وافتتنوا بالقس يوحنا الذى أصبح فى نظرهم سلطانا من سلاطين الشرق وأن لم يكن أحد قد توصل إلى معرفة حدود مملكته بعد .

ولم يفت ماركو بولو والراهب أدوريك أن يذكرا هذه الشخصية الغامضة . فاصبحت مهمة العثور عليه هدف الملوك والفرسان النبلاء وبخاصة البرتغاليين منهم ، حتى لقد قيل « إن محاولات البرتغاليين للعثور على القس يوحنا ، الذى لا وجود له أصلا . كان لها من الأهمية للملاحة بقدر ما كان للملاحى الأنجليز من الفشل فى محاولاتهم استكشاف الطريق الشمالية الغربية إلى الهند .

---

www.ibtesama.com Exclusive

الفصل الرابع

مملكة القس يوحنا

والآن ،دعونا نذهب إلى « تندك » في مملكة القس يوحنا ، واعلموا أن في أقليمه هذا مقره المختار .

وهو الذى نسميه فى بلادنا ، اقليم حاجوج وماجوج « ماركو بولو »

* * *

مهما يكن من اسراف السير جون مانديفيل في تخيلاته فإن شخصية القس يوحنا لم تكن من اختراعه . فلقد كانت هذه الشخصية الغامضة الفاتنة في وقت من الأوقات موضوع حديث الناس فى جميع دول الغرب المسيحية . وكل مافعلته قصص السير جون مانديفيل هو أنهـــا أضفت على القصص والأساطير التى نسجت حول شخصية هذا الملك الفذ القس يوحنا شبه شعاع باهت من الواقعية .

فما من أحد ، حتى البابوات والأباطرة والملوك إلا وكان يعتقد ، طيلة قرنين كاملين ، بصحة هذه القصص التى كان القس يوحنا فارسها المعلم . فاكتشاف هذا الملك المسيحى الذى افترض وجوده حيثما بين شعوب وثنية يسيطر على عدد لا يحصى من ملوك أقل مرتبة منه ، كان فى نظر المسيحيين حدثا له أهميته وخطره .

وإن التحالف مع ملك بلغ من القوة والسلطان هذا المبلغ كفيل بأن يكون خير وسيلة للقضاء على زعامة المسلمين فى غرب آسيا وخاصة فى الأرض المقدسة .

www.ibtesama.com Exclusive

وليس فى الإمكان فهم الدور الذى لعبه هذا (الملك — القس) الخرافى دون أن نأخذ فى اعتبارنا مجريات الحوادث فى الشرق الأدنى لذلك العهد عندما تسامع الناس باسمه لأول مرة، فالظلام الذى كان يحيط بالموقف السياسى، والحالة التعسة اليائسة التى تدهورت إليها شئون البارونات الألمان الأشراف فى فلسطين، حتى لكأنهم سقطوا فى مستنقع عميق، كل هذه الأمور جعلت من هذا الملك المجازى الذى لا تعرف له صورة ولا مستقر، شعاعا من نور يستضاء به.

كانت المملكة اللاتينية فى القدس قد انقضى على تأسيسها أربعون عاما عقب الحملة الصليبية الأولى. وكان لدول الغرب المسيحية من المشاغل ما حال دون اهتمامها بما يجرى من الأحداث فى سوريا، وكانت ملكة القدس الشابة مليسند (Milissende) عاجزة عن نجدة البارونات، فسقطت إدسا عام ١١٤٤ على يدى أمير الموصل واستولت عليها جيوشه. وانخلعت قلوب السكان من هول المذابح. ولم يكن ثمت أمل فى أى نجده إلا إذا استقدمت من العالم المسيحى. فارسلت الرسل إلى بيزنطه وروما لاستجداء المعونة ومصارحة ملوك المسيحية وزعمائها بواقع الأمر وشرح ظروف النصارى وما يلقون من عنت وبلاء رهيب. وكانت جميع المظاهر تدل على أن لا سبيل لانقاذهم إلا بحملة صليبية أخرى.

وكان أسقف جبلة السورى من بين الذين أوفدوا إلى البابا أوجين الثالث[١] وما أن رفعوا إليه شكواهم حتى نهض بالأمر برنارد دى كليرفو[٢] ومنذ ذلك الحين شرع فى الدعوة للحملة الصليبية الثانية، ثم وضعت موضع التنفيذ. وكان الأسقف اوتودى فريزنجن[٣] من بين الذين اشتركوا فيها. وقد ذكر هذا الأسقف فى يومياته أن أسقف جبلة أخبره عند مقابلته له

---

(١) Eugene
(٢) Bernard de Clairvaux
(٣) Otto de Freisingen

www.ibtesama.com Exclusive

فى فتربو[١] عام ١١٤٤ عن انتصار عظيم أحرزه ضد المسلمين أحد ملوك المسيحية من سلالة الملك الساحر القس يوحنا

فمن بين ثنايا هذه السطور القليلة التى أشار فيها أوتو فى يومياته إلى اجتماعه بالأسقف السورى نشأت شخصية القس يوحنا الخلابة الغامضة .

ولولا ما جبلت عليه نفس أسقف ألمانى آخر من الشر والمكر لجر الزمان ذيل العفاء على تلك السطور كما جره على غيرها من سطور يومياته .

كان قد انقضى عشرون عاما على ذكر أسقف جبلة السورى لهذا العاهل الآسيوى القس يوحنا عندما وصل إلى امبراطور بيزنطه فى عام ١١٨٠ خطاب زُعم أن كاتبه هو القس يوحنا نفسه . وقد أثار هذا الخطاب الشىء الكثير من الاهتمام لأن القس يوحنا بسط فيه ، بلهجة المتكبر المتعالى وبأسلوب تكلف فيه الفصاحة ، ماله من عظيم القوة ووفرة المال مع كثرة عدد الملوك الذين يدينون له بالطاعة ؛ وفى الحــــال أرسلت نسخ من هذا الخطاب إلى البابا وإلى امبراطور ألمانيا[٢]

لم يحدث بسبب الخطاب وكاتبه شىء بعد ذلك إلا أن الرسالة الغريبة التى تضمنها أطلقت العنان للخيال بغير حساب ونسخ الخطاب مرات ومرات، وصار يتلى فى الأديرة وفى بلاط الملوك[٣] .

ويتجه الرأى بصفة عامة إلى الجزم بأن كرستيان أسقف مايانس[٤] هو كاتب الخطاب الذى يزعم أنه من القس يوحنا . وليس من شك فى أن الأسقف كرستيان قرأ ما كتبه الأسقف أوتو فى يومياته عن وجود ملك مسيحى قهر الكفار اسمه القس يوحنا ، فاتخذ من هذه الرواية مادة للسخرية من عواهل الممالك المسيحية بعد ما أضفى على هذه الشخصية الخرافية من الصفات والأساطير مثل مانسجته القرون الطويلة حول شخصية الاسكندر

(١) Viterbo

(٢) فى إحدى الروايات أن خطابات مماثلة أرسلت إلى البابا وإلى امبراطور ألمانيا وغيرهم من الملوك .

(٣) توجد حوالى مائة نسخة من هذا الكتاب فى وقتنا الحاضر .

(٤) Mayence

www.ibtesama.com Exclusive

الأكبر، وبهذا يكون قسنا الساحر قد أجرى قلم شخصية القس يوحنا الخرافية بمداد شخصية هى ملك التاريخ ومن معالمه :

اختلق الأسقف كرستيان بعمله هذا شخصية خيالية جديدة . ولكن الذى لم يتوقع حدوثه ولادار له فى خلد، هو قيام أسرتين حاكمتين نسطوريتى المذهب إحداهما فى آسيا الوسطى والأخرى فى الحبشة بعد فترة من الزمن، تنتسبان كلتاهما إلى القس يوحنا الذى اختلق شخصيته عقله المستهتر .

كلما ظهرت بين الناس خرافة جديدة، زادت أهمية المعلومات التى تؤيد موضوعها وتقر بحقيقتها . هكذا كانت الحال فى موضوع القس يوحنا . فقد حدث ذات يوم أن وصلت البابا اسكندر الثالث أنباء من أحد أطبائه ببيت المقدس مضمونها أنه التقى برسل من قبل ملك الحبشة أفضوا إليه برغبة الملك فى التفقه فى المذهب الكاثوليكى الحق . فسر البابا بهذا النبأ واعتقد فى نفسه أنه قد عثر على القس يوحنا . لذلك حمّل طبيبه كتابا إلى الحبشة خاطب الملك فيه « بعظمة ملك الهند، وبقدس الأقداس » وبالرغم من أن الطبيب البابوى لم يعد من بعثته فإن افتراض وجود مثل هذا «القس الملك» قد ازداد رسوخا بسبب زيارة قام بها إلى روما بطريق النصارى فى الهند من أتباع مذهب القديس توما الذى يرفعه الرأى العام فيها إلى مرتبة الملوك . ونظرا لما كان الناس يعتقدونه من أن الحبشة جزء من الهند فإن مشكلة القس يوحنا ازدادت تعقيدا . لذلك عندما وصلت البابا لأول مرة أنباء الفاتح العظيم جنكيز خان ساد الاعتقاد بأنه — لفرط عداوته للإسلام — لابد أن يكون هو بعينه القس يوحنا . ولكن لم يلبث هذا الاعتقاد أن تبخر . ثم جاء دور ملك الحبشة فى سلسلة الاعتقادات بأنه هو ذلك القس الملك . ففى عام ١٢٣٠ علم بعض الرهبان الإيطاليين من راهب حبشى بدير جبل الزيتون أن ملك الحبشة هو بعينه « القس يوحنا » . فبادروا بنقل الخبر إلى روما .

(١) « الحملة الاسيوية » يعتقد كونتى روسينى أن منشأ اسم القس يوحنا وعزوه إلى نجاشى الحبشة هو الجمع بين اللقب والوظيفة .

www.ibtesama.com Exclusive

ولما كان كل نجاشى يُعين شماسا للكنيسة بحكم منصبه ، ولما كانت لفظة « الجلالة الملكية » فى اللغة الأحمرية هى زان أو جان فمن المحتمل أن يكون قدالتبس عليهم الأمر لما فى هذين اللفظين من الشبه الصوتى بلفظ يتّى الذى هو اسم الملك — القس[1].

وبالرغم من أنه قد اتضح أن جنكيز خان ليس بالملك القس يوحنا إلا أن عددامن البابوات ظلوا يواصلون إيفاد السفارات إلى خانات المغول، وكان الباعث لهم على مراسلتهم وعلى الاتصال المباشر بهم أمور ثلاثة :

أولا : الإحتجاج على ما يُعامل به النصارى من القسوة وطلب الكف عن ذلك . ثانياً : محاولة منهم لحل هؤلاء الفاتحين الوثنيين على اعتناق الدين المسيحى ، ثالثاً : محاولة اكتسابهم إلى جانبهم كحلفاء لهم فى قتال العدو المشترك أمراء المسلمين .

لم تفتأ طلبات النجدة والوساطة تتدفق على البابا من سكان أوروبا الشرقية الذين ضاقوا ذرعا بجموع المغول الحاشدة وبما حل ببلادهم وزراعتهم من الدمار والخراب .

وقد أثيرت هذه المسألة فى المجلس المنعقد بمدينة ليون عام ١٢٤٤ وكانت نتيجة المداولة أن أوفد البابا أوجين الثالث بعض المندوبين المفوضين إلى باتو خان فى مقّره على نهر الفولجا فأرسلهم هذا الأخير إلى الخان الأعظم مانجو . بمركز قيادته العام فى كراكورَم . فأخذ الرهبان سمتهم فى رحلة طويلة محفوفة بالمخاطر وهم يُرعدون فرقا ورهبة ، وفى كراكورَم التقوا بكثير من المسيحيين الذين يسميهم العامة بالنسطوريين فى حين أنهم يلقبون أنفسهم بالمسيحيين الكلدانيين .

كانت المسيحية قد انتشرت فى طول آسيا وعرضها حتى الصين ، ولقد ذكر لنا سليمان وابن وهب نبأ المذبحة التى حلت بالمسيحيين عام ٨٧٧ بمدينة كُمدان (حسب تسميته) وقد أبدى الأمبراطور لابن وهب بصورة واضحة فى

(١) عن « المجلة الأسيوية » يعتقد كونتى روسينى أن منشأ اسم القس يوحنا وعزوه إلى نجاشى الحبشة هو الجمع بين اللقب والوظيفة .

www.ibtesama.com Exclusive

حديثه معه أنه عالم بأخبار المسيح وبأحداث حياته وموته ، وجميع النصارى في الصين يتبعون مذهب النسطورية .

ولما كان مبعوثوا البابا دائبي البحث عن القس يوحنا فقد اعتقدوا أنهم عثروا عليه في شخص جاهل . قس نسطورى المذهب . فنرى الراهب الدومونيكي جيوفاني بلانوكاربيني[١] يصف في أحد تقاريره إلى البابا كل مارآه المبعوثون وسمعوه في طريق رحلتهم الطويلة وفي بلاطي باتوخان ومانجوخان . ثم نراه بعد ذلك يتورط في رواية قصة معقدة مضمونها أن جنكيزخان أسس امبراطوريته في كاثاى بعد أن هزم القس يوحنا الذى يعيش في مقاطعة تندك .

ويعتبر تقرير بلانو كاربيني بفضل ماضمنه من أنباء النصارى النسطوريين عاملا من العوامل الهامة التي ساهمت في توضيح تاريخ النسطوريين وشرح الدور الذى قاموا به في آسيا الوسطى . وقد ترتب على هذا التقرير اعتبار القس يوحنا عاهلا نسطورى المذهب بصورة لا تقبل الشك . وهذا نفس ما أعتقده أيضا أمراء المؤمنين في بغداد. فقد اكتشف عالم يهودى في سجلاتهم ما يفيد أن القس يوحنا رأس النسطوريين في الهند وإنه كان على وشك اعتناق مذهب الرومان الكاثوليك ولكن الاشاعات الدائرة عن شح هذه الكنيسة واختلال نظامها ، صدته عن تحقيق ماكان يعتزمه .

وكان لظهور المبعوثين الأوروبيين في بلاط الخانات ما زين لهم فكرة الاتصال بعواهل المسيحية لعل أن يكون في ذلك نفعا لهم .

وفي عام ١٢٤٩ وصل جزيرة قبرص مبعوثون من قبل أحد الخانات ومعهم خطاب لسان لويس من عاهلهم الذى كان قد اعتنق المسيحية حديثا — على حد قولهم — وفي الخطاب يعرض الخان على سان لويس التحالف

---

(١) Giovanni Plano Carpini

www.ibtesama.com Exclusive

معه ويعده بالمساعدته على طرد الكفار من فلسطين وبخاصة من بيت المقدس . فسر سان لويس لذلك سروراً عظيما وتلطف كثيراً فى استقباله لمبعوثى الخان وأرسل من فوره صورة من الخطاب لأمه الملكة بلانش .

ذكر النبيل دى جوانفيل فى مؤلفة «حياة سان لويس» أن مبعوثى الخان — الذين تخلقوا بأحسن ما يكون عليه الخلق المسيحى — أفهموا الملك بأن الخان نسطورى المذهب وأنه من المتحمل تحويله إلى المذهب الكاثوليكى فيكون ذلك كسبا للكاثوليكية . وأمر سان لويس — نزولا على اقتراح المبعوثين — بصنع خيمة — لتكون بمثابة كنيسة نعلق على جوانبها صورة «محبة العذراء» وما إليها من الصور الرمزية للعقائد المسيحية . ويزيد النبيل دى جوانفيل على ما تقدم أن الخيمة صنعت من أجود أنواع الأقمشة وبلغت نفقاتها مبلغا كبيراً من المال .

بيد أن سان لويس — مع تصديقه لكل مارواه له المبعوثون — استقر رأيه على إيفاد سفارة إلى الخان العظيم . ولم تلبث الحوادث أن أثبتت على أن الملك كان مخدوعا إلى حد بعيد بمظهر المبعوثين الكاذب ونفاقهم .

كان الملك قد اختار لسفارته راهبين أحدهما من البلاد الواطئة ويدعى جيوم دبريكس والثانى بولندى المولد . وكلاهما يتكلم اللغة العربية بطلاقة، وأرسل الملك معهما كثيرا من الهدايا الفخمة إلى الخان وأوصاهما بوجوب تفقيهه فى الدين المسيحى وشرح تعاليمه له .

وفى عام ١٢٥٣ غادر الراهبان القسطنطينية فى صحبة جاويشين قاصدين كاراكورم وبعد مضى عامين عاد الراهب دبريكس من سفارته إلى عكا، منهوك القوى من مشاق الرحلة وقد عاد إليه صوابه وتبخر الحلم الجميل الذى كان يداعبه عن المغول والخان ومسألة تنصيره .

أما فيما يتعلق بالقس يوحنا فقد كان شرح صاحبنا الراهب معقدا كما يفهم من رواية النبيل دى جوانفيل . قال : عندما نقرأ ما كتبه روبريكس ندرك

www.ibtesama.com Exclusive

مبلغ دقته فى كل ما دونه عن اكتشافه حقيقة سر هذه الشخصية الغامضة ، نشأتها وأسرتها وموطنها .

وخلاصة كل هذا أنه كان هنالك فى عهد من العهود قسا نسطوريا قوى الشخصية يتملك على قوم يدينون بمذهبه، وأنه بعد موت مَلِكه خان الصين أعلن استقلاله بالمملكة ومنذ ذلك الحين والناس تتكلم عن وجود الملك القس جوهان . ويضيف الراهب إلى قوله هذا . أن الناس يروون عنه من العجائب أكثر من الواقع ، وللقس يوحنا شهرة فى كل مكان ولكننى عند ما اجتزت ذلك الاقليم لم أجد أحدا يعلم شيئا عنه سوى عدد قليل من النسطوريين .

عرفت أوروبا من رواية الراهبين روبريكس وبلان كاربينى أشياء لم تكن تعرفها من قبل و نسخت تقاريرهما مرارا وتكرارا وتليت فى الأديرة ، ومما زاد من قدرها وأهميتها إلى آخر الدهر أن رواية كل منهما جاءت مؤيدة ومطابقة للأخرى .

كان مجرد ذكر مانجوخان لاسم القس يوحنا كافيا لمضاعفة الاهتمام بهذا العاهل المسيحى .

كان الناس يتلهفون شوقاً لمعرفة القس يوحنا وفى عام ١٢٧٩ أعلن أسقف عكاء جاك دى ڤرتى[1] أن اسمه الصحيح داوود وأنه قائم بوضع خطة للهجوم على مكة . ومما زاد فى منطق هذه الأقوال ما أشيع من أن القس يوحنا كان ملكا نسطورى المذهب وأنه سليل الحكماء الثلاثة فى الشرق ، الذين حينما شاهدوا النّجم خفوا إلى حيث المسيح ليعبدوه

---

(١) Jaques de Virty

www.ibtesama.com Exclusive



وهكذا استقرت أسطورة القس يوحنا بصورة قاطعة ، ففى ألمانيا صادفت ذيوعا شعبيا بفضل ما نظمه الشاعر الغنائى الغزلى العظيم ولفرام فون أشنباخ [1] يمجد فيها القس يوأنس ويذكر أن برسفال عند ما كان يبحث عن الكأس المقدسة، قيل له بأنها لا توجد إلا فى مملكة القس يوحنا . وفى فرنسا كانوا يسمونه القس جوهان بينما كان يسميه الإيطاليون « القس ينى » مضيفين إلى اسمه لقب (صاحب مملكة التوابل) .

وبالرغم من أن رحلة الراهبين بلانو كاربينى وربريكس إلى الخان الأعظم جاءت نتائجها مخيبة للآمال ، إلا أن تبادل الرسائل والسفارات لم تنقطع سبلها بين الباباوات والخانات . إذ كان الخانات يطمعون من جانبهم فى الفوز بفوائد سياسية عن طريق عقد المحالفات . بينما لم يكن للباباوات من مطمع سوى حمل الخانات على ترك مذهبهم واعتناق المذهب الكاثوليكى . وقد أدى هذا الموقف فى النهاية إلى المغامرة بإرسال بعثة إلى الصين لبث الدعوة — فنرى جيوفانى دى مونتى كرفينا [2] — وهو أول من عين رئيساً لأساقفة بكين — يكتب فى عام ١٣٠٥ بأنه قد حول أحـــد ملوك تلك الناحية (من سلالة ملك الهند العظيم الذى كان يدعى القس يوحنا) من الراسخين فى المذهب النسطورى إلى مذهب الكاثوليكية القويمة .

وهكذا ظل اسم هذا العاهل الغامض يذكر فى الرسائل الواردة على روما من الشرق دائما مبهمة يُخلط فيها القس يوحنا صاحب الممتلكات الواسعة فى آسيا — كما وصف فى مبدأ الأمر — بالقس يوحنا الحبشى .

---

(١) Wolfrom Von Eschenbach

(٢) Giovanni de monte Carvina

www.ibtesama.com Exclusive

ولا جدال فى أن ماركو بولو قد ساهم فى تخليد أسطورة القس يوحنا الأسيوى بما كتبه عنه وعن علاقاته وحروبه مع أباطرة الصين. وهو يسميه عادة « القس يٰنى »

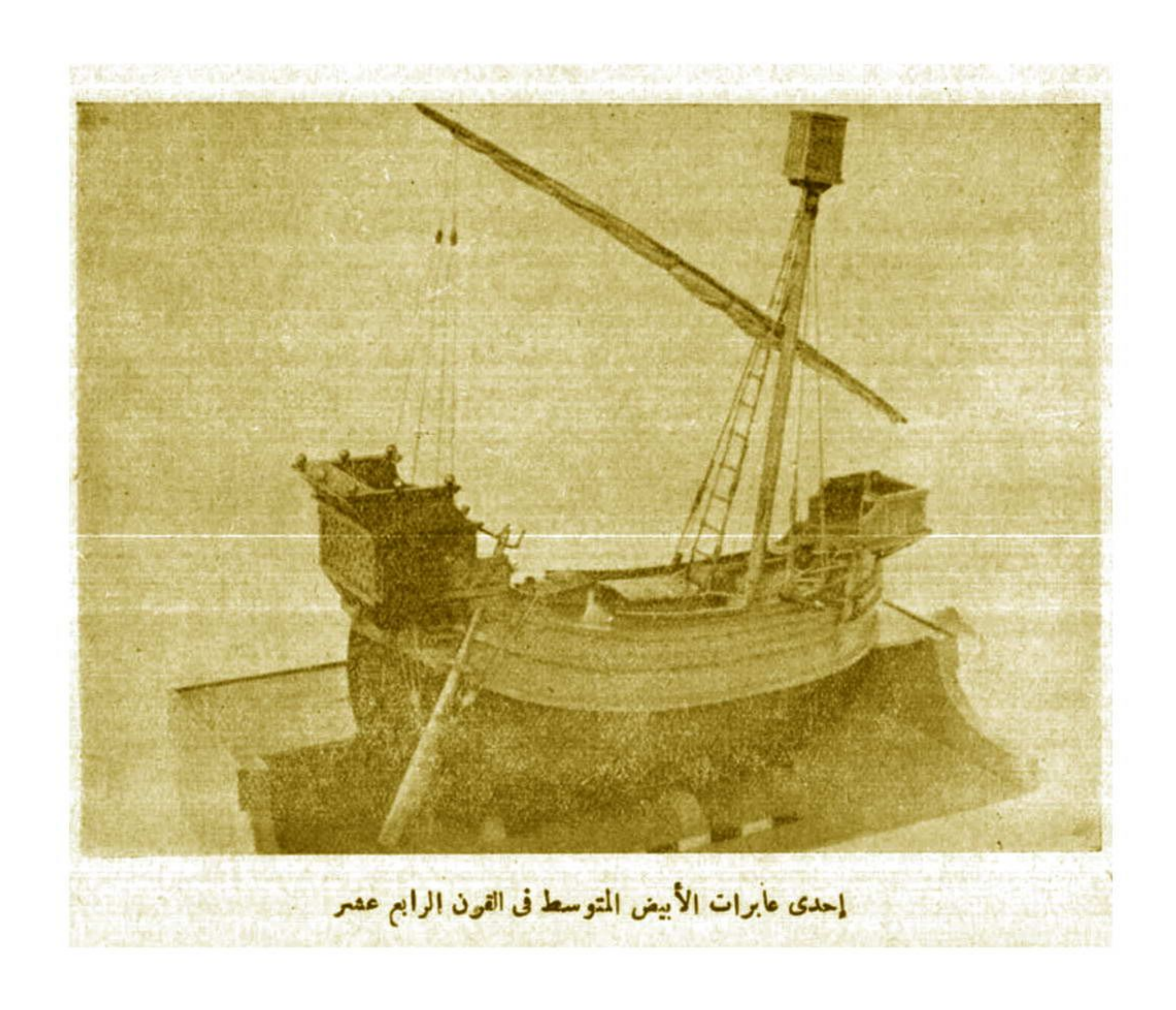
والواقع أن الاعتقاد بوجود القس يوحنا كان اعتقادا قويا راسخا فى فى عقول الناس بالرغم مما يكتنف شخصيته من غموض . أما مسألة تحديد مقره بالضبط فقد ظلت موضع شك وجدل حتى أن راسمى الخرائط الجغرافية فى العصور الوسطى حينما تعذر عليهم الاهتداء إلى وجود حل مقبول ، عمدوا إلى تعيين حدود مملكته على خرائطهم حيثما اتفق . وكتبوا لفظة أثيوبيا (الحبشة) بعرض خريطة أفريقيا ، وكذلك فعلوا بجزء من خريطة آسيا ، مطلقين على الأولى اثيوبيا الكبرى وعلى الثانية أثيوبيا الوسطى ، ورمزوا إلى القس يوحنا بصورة رجل جالس فى خيمه هنا وهناك وفى كل مكان .

وفى عام ١٣١٦ دخل البابا يوحنا الحادى عشر فى اتصال مباشر مع أثيوبيا موفدا إليها بعض الرهبان الدومنكان اعتقادا منه بأن أثيوبيا هى مملكة القس يوحنا الأصلية .

وتبين خريطة كتالونيا[1] المشهورة عام ١٣٧٥ ملكا عربيا وقد كتبت تحته هذه العبارة « هذا الملك العربى عاكف أبدا على مقاتلة المسيحيين فى بلاد النوبة التى تدين بالطاعة لإمبراطور أثيوبيا موطن القس يوحنا .

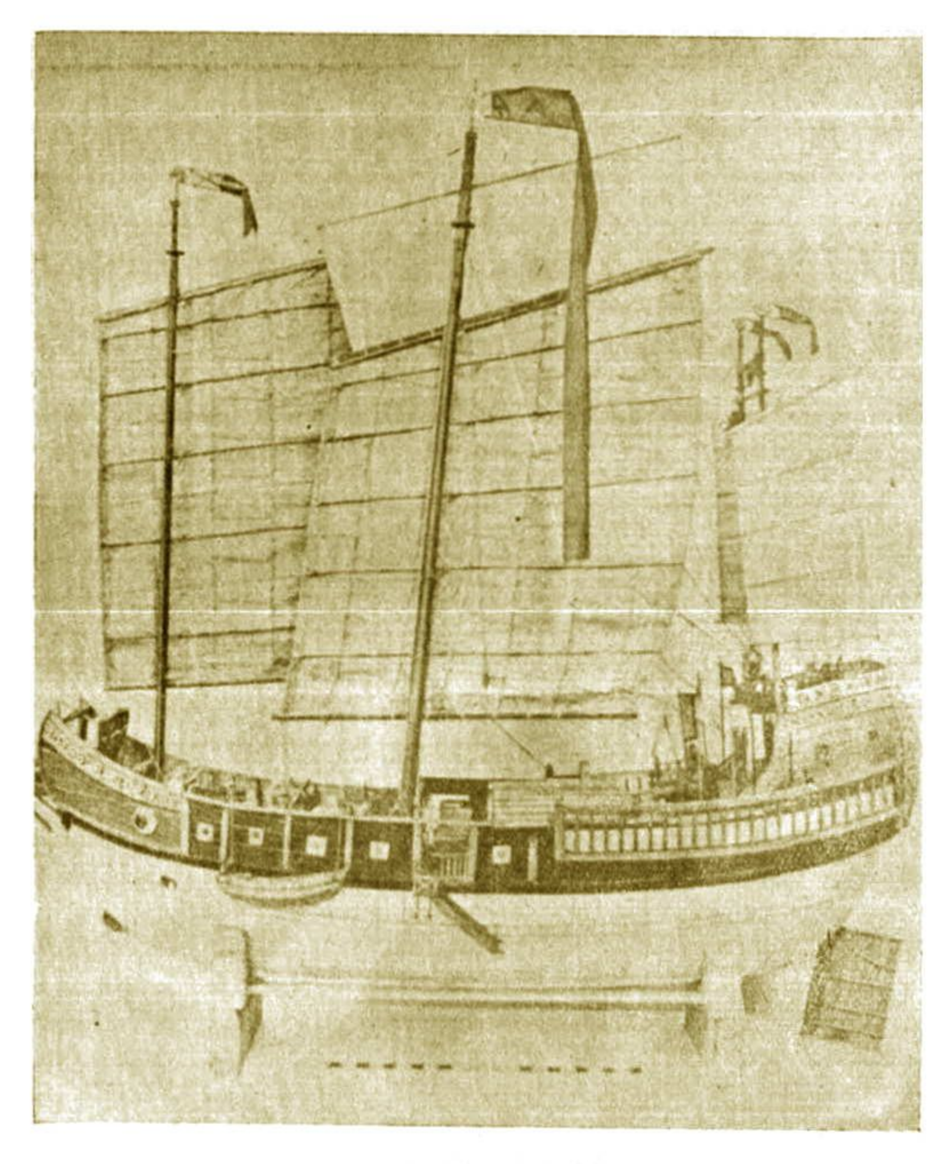
(١) Catalan مهداة إلى شارل الخامس ملك فرنسا وتوجد بدار الكتب الأهلية بباريس

www.ibtesama.com Exclusive



إحدى عابرات الأبيض المتوسط فى القرن الرابع عشر

www.ibtesama.com Exclusive



جُنوكٌ صيني كبير الحجم

www.ibtesama.com Exclusive

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

الجزء الثانى

اكتشاف الطريق البحرية إلى جزيرة التوابل وما ترتب على ذلك من نتائج

فى السنين السحيقة المقبلة سوف يأتى زمن يحطم فيه المحيط قيود المادة والأشياء وتنفرج البسيطة وتظهر عوالم أخرى ولا يكون للمعمور نهاية «سنكو» فى ميديا[1].

(1) «Seneco» in Medea

www.ibtesama.com Exclusive

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

الفصل الأول

الأمير هنرى الملاح

موهبة العمل الصالح .
شعار الأمير هنرى الملاح .
يسجل نشاط الأمير هنرى الملاح ابن جون الاول ملك البرتغال .
فاتحة عهد جديد فى تاريخ الملاحة الأوروبية.
هنرى العظيم ، أول من قام بوحى من السماء .
بأعمال جسام لم يسبق إليها فوق أمواج البحار . المقطع الثامن

للمؤرخ جومز إينزدى أزورارا [1] سفر صنفه بأمر مليكه الفونسو الخامس ، عنوانه « تاريخ اكتشاف غانا وفتحها » ويمجد المؤلف فى هذا السفر أعمال البطولة التى قام بها الأمير هنرى ويصفه بأنه عظيم وممتاز للغاية. ويؤكد بأن بطولته قد ورثها عن آبائه وأجداده العظام الأبطال .

والواقع أن قصة نسب الأمير هنرى تشبه الأساطير . فقد حدث ذات مرة بينما كان ملك قشطالة يقاتل بعض عرب إسبانيا أن نزلت بيلاطه كوكبة من الفرسان الفتيان بقيادة هنرى أمير برجونيا [2] . فانضموا إلى صفوفه ومعهم السيد [3] العظيم يقاتلون العرب . وقد زوجه الملك من إحدى بناته مكافأة له على حسن بلائه وبسالته وأقطعه بعض الأراضى فى البرتغال نظير ما قد يطلبه منه من المساعدات العسكرية عند الحاجة ، كما وعده بمنحه كل شبر من أرض البرتغال ينتزعه من العرب ليحتفظ به لنفسه .

وما أن وافت سنة ١١٠٩ حتى كان الفتى الفارس قد اكتسح البقية الباقية من أراضى البرتغال فاتخذ لنفسه لقب كونت البرتغال ولكن المنية عاجلته بعد ثلاث سنوات من ذلك الحين تاركا وراءه ولى عهد لم يدرج بعد من

---

(١) Gomes Eannes de Azurara

(٢) Burgundy

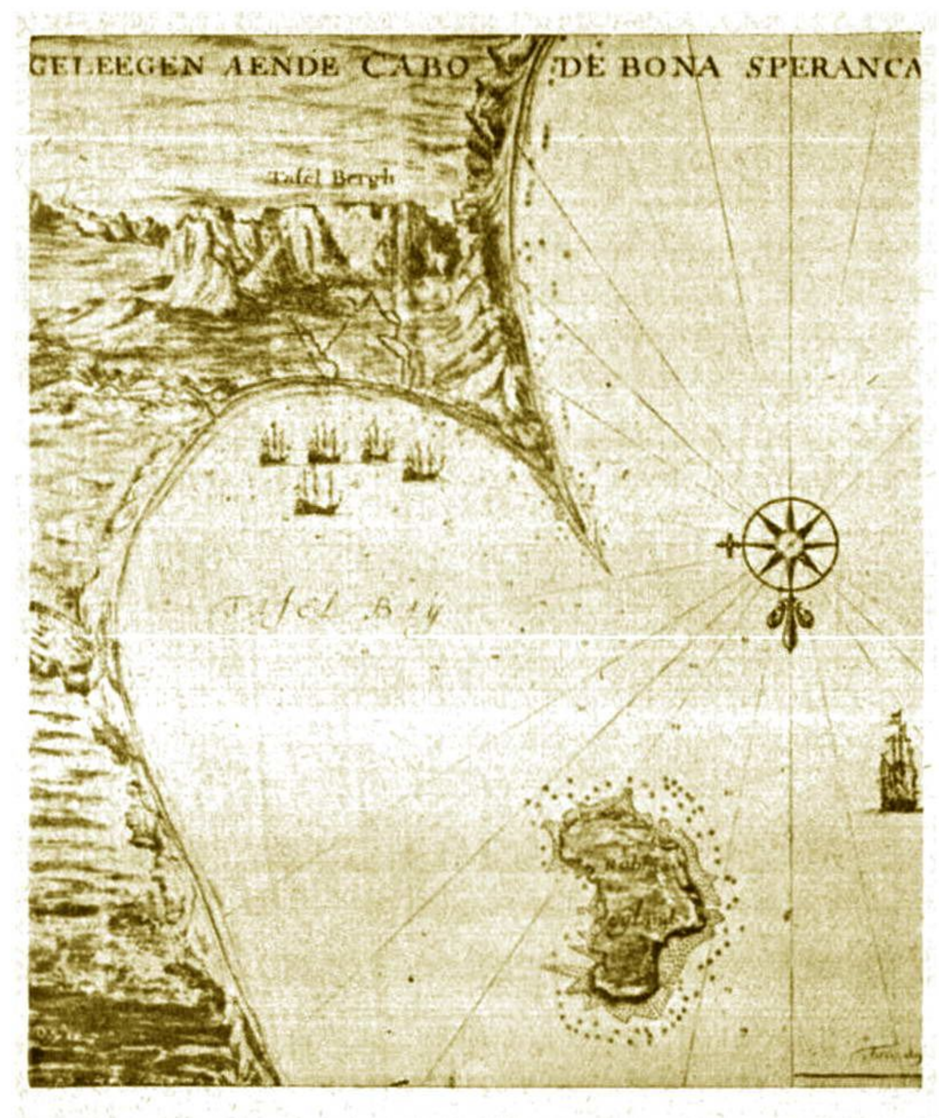
(٣) هورودريج دياز دى بيمار فارس اسبانى اشتهر بمقاتلته لعرب اسبانيا والمغرب مات سنة ١٠٩٩ .

www.ibtesama.com Exclusive



الامير إهنرى الملاح

www.ibtesama.com Exclusive



رأس الرجاء الصالح عند اول احتلال الهولنديين له

www.ibtesama.com Exclusive

حجر أمه التى اعتلت عرش المملكة منفردة بالوصاية على ابنها الطفل إلى أن يبلغ سن الرشد .

وهكذا جلست على عرش البرتغال إمرأة قبل أن يجلس عليه ملك .

ولقد انقضت ثلاثة وعشرون عاما على ذلك التاريخ قبل أن يعتلى ابنها العرش بإسم الفونسو الأول وخاض خلال الجزء الأخير منها عدة مواقع فى قشطالة ضد العرب كان النصر فيها حليفه. أما فى مواقعه البحرية ضد العرب فقد خف إلى مؤازرته أسطول من أساطيل الصليبيين كان فى طريقه إلى بيت المقدس .

أدرك الملك أهمية الأساطيل وعظيم نفعها بعد النصر الذى أحرزه بفضل مساعدة الأسطول الصليبى ، فشرع من وقته فى بناء السفن وحشد لها بحارة من المرتزقة الغرباء إذ لم يكن للبرتغال خبرة بملاحة الأساطيل قبل ذلك العهد .

ولعل متاخمة البرتغال للمحيط الأطلسى كان الباعث الأساسى لمن تعاقب من الملوك بعد الفونسو الأول على عدم إغفال ما للبرتغال من الحاجة إلى أسطول قوى ، فساهم كل منهم بدوره فى سبيل التمهيد لإنشاء الأسطول واستكمال قطعه تحقيقا للهدف المنشود . فنرى مثلا الملك دينيز الأول [1] يأمر بغرس الأشجار ليستمد منها الأخشاب اللازمة لبناء السفن ، كما نراه يعين أحد مشاهير الملاحين من أبناء جنوا أميرا لأسطوله يخلفه على أمارته أعقابه من بعده، وكان على أمير البحر هذا أن يصطحب معه عشرين ضابطا ومرشداً من مواطنيه من ذوى الخبرة بشئون الملاحة .

وكان من بين هوايات هذا الملك جمع قصص السواح ومغامراتهم ، وفى خلال حكم إبنه الفونسو الرابع زادت حركة التجارة البحرية زيادة عظيمة

---

(١) Diniz I

www.ibtesama.com Exclusive

حتى أن حصيلة الضرائب الجمركية بلغت خمس مجموع الضرائب المحصلة من جميع مرافق الدولة .

والواقع أن الألقاب التى ُنعت بها ملوك البرتغال تؤيد صحة ما ذهب إليه أزورارا من نبل سلالة بطله الأمير هنرى ، فالفونسو لقب «بالشجاع» كما لقب بعده بدرو[١] « بالعادل » ولقد أحبه رعاياه حبا جما حتى أنهم قالوا يوم وفاته . كان الأفضل لو أن دون بدرو لم يولد أبداً أو أنه إذ ولد لم يمت أبدا .

وقد أنعم هذا الملك قبل وفاته بعامين على ابنه غير الشرعى البالغ من العمر ثمان سنوات بوسام أفيز[٢] من رتبة السيد الأعظم ، وكان هذا الوسام قد أنشىء عام ١١٨١ لحماية المدن المسيحية من غزو المسلمين .

وبعد وفاة الملك بدرو خلفه على العرش ، إبنه الأكبر فردناند الأول[٣] فاعتنى بأمر الأسطول والتجارة البحرية أكثر ممن سبقوه .

ولتشجيع الناس على بناء السفن أمر الملك بأن كل من يرغب فى بناء سفينة لا تقل حمولتها عن مائة طن ُيعطى الأخشاب اللازمة لبنائها من الغابات الملكية بدون مقابل مع أعفائه من الضرائب الجمركية على المواد المستوردة من الخارج والتى لا غنى عنها فى بناء هذه السفن مثل الحديد والقطران وما إلى ذلك . وأعفى كذلك من ضريبة التسجيل وانتقال الملكية كل من يشترى سفينة من الخارج . وزيادة على كل هذا أعفيت من الضريبة المتحصلة على الصادر كل سفينة جديدة تقوم برحلتها الأولى . ومدد سريان هذا الإعفاء لثلاث سنوات لكل من فقدت سفينته أبان رحلتها البكر .

وعين الملك لجنة لوضع سجل خاص للسفن التى تزيد حمولتها على خمسين طنا ُيقيد فيه أسماؤها وأعمارها وأثمانها الخ .

---

(١) Pedro (٢) Aviz (٣) Ferdinand I

www.ibtesama.com Exclusive

وأنشأ الملك شركة تأمين ألزم أصحاب السفن بأن يدفعوا لها حصة تعادل جزءً من خمسين من أرباحهم .

ومنح الملك تجار البلاد الأجنبية امتيازات خاصة رغبة منه في جعل لشبونة سوقا عالمية فاجتذب بذلك إلى عاصمته القائمة على نهر التاجوس سيلا لا ينقطع من سفن إيطاليا وقطالونا .

وبعد وفاة الملك فى عام ١٣٨٥ نادى مجلس الأمة بأخيه الحدث (لأبيه) ملكا باسم جون الأول سليل أسرة أفيز . وبعد تتويجه بقليل قدم عليه جون أوف جونت [1] دوق أوف لانكاستر عن طريق البحر مصطحبا زوجه وابنتيه وجيشاً .

التمس الدوق الانكليزى مساعدة الملك الفتى فى الحرب التى يزمع شنها على قشطاله بغية الحصول على عرش هذه المملكة لزوجه التى هى بنت ملك قشطاله أو لابنتهما كاترين إذا لم يوفق فى الحصول عليه لزوجه . وفى مقابل هذه المساعدة وعد الملكَ جون الأول بالتخلى له عن بعض مدن الحدود الإسبانية وأن يزوجه من إحدى ابنتيه .

كان الزواج من كاترين — لو أنه تم — أصلح للمُلك وللمملكة من الناحية السياسية ، ولكن الملك هام حباً بأختها الكبرى فليبا [2] إبنة الدوق من زوج سابقه .

وبذل وزراء الملك كل ما فى وسعهم لحمله على الزواج من كاترين وريثه عرش كاستيل ولكن عاطفة الحب تغلبت على حكمة السياسة .

ولما كان الملك من حملة وسام أفيز الدينى تعين عليه قبل الأقدام على الزواج أن يتحلل من العهد الذى قطعه على نفسه بالتزام العزوبة . وقد استجاب له البابا فحله من يمينه . وفى زواج الملك من فليبا قال الناس «لقد قرنت العبقرية التجارية الانجليزية إلى البطولة القومية البرتغالية» .

---

(١) Gohn of Gaunt

(٢) Philippa

www.ibtesama.com Exclusive

وإذا كان لزيجة من الزيجات أن تتسم بميسم السعادة ، يباركها الحب المتبادل والنسل الموهوب فهى هذه الزيجة التى ربطت بين الملك جون البرتغالى وعروسه الانجليزية . التى أنجبت له خمسة أولاد ذكور وأنثيين . سمت ابنها الأول دوارد[1] تيمناً باسم جده ادوارد الثالث ملك إنجلترا وسمت الثانى بدرو ، أى باسم جده — لأبيه . وسمت الثالث ، المولود عام ١٣٩٩ هنريكس وهو الذى خلده التاريخ تحت اسم الأمير هنرى الملاح .

ساهمت الملكة مساهمة فعلية فى تربية أبنائها وتثقيفهم وقد كان من حسن حظهم أنهم نشأوا فى بلاط ما فتىء يشجع على طلب العلم ، ولم يكن الورع والتقوى فيه مجرد مظهر من المظاهر ، فقد دأب الملك فى بلاطه على الترحيب بالسياح والعلماء ولم يكن نصيب الفرسان من ذوى المروءة والشهامة بأقل من نصيب العلماء والسياح . ولما بلغ أبناء الملك الثلاثة أشدهم رغب فى أن يغنموا لأنفسهم أكاليل المجد فى ميدان الفروسية . ولكن مملكته كانت فى حالة سلم مع الممالك الأخرى فليس ثمّت ميدان قتال يظهرون فيه مواهبهم ومبلغ بسالتهم وحنكتهم وحار كيف يحتال لذلك فهداه التفكير إلى إقامة مباريات استعراضية للفروسية تستمر عاما بأكمله يدعو إليها الفرسان من جميع البلاد للاشتراك فيها .

ولكن هذه الفكرة لم ترق لأبنائه ولا ارتاح لها وزير ماليته لما سوف يترتب عليه إقامة هذه المباريات لمثل هذه المدة الطويلة والاحتفاء بالمدعوين إليها من ارهاق للخزانة العامة واستنفاد لإيرادات الدولة . فراح يناشد مولاه أن يعدل عن هذا الرأى قائلا له فى سياق التخذيل . « إن مثل هذه المباريات قد تليق بأبناء التجار الذى يتطلعون إلى وسام أو رتبة شرف يُمنحونها ولكنها لا تليق بأبناء الملوك . فلم لا تغزو سبتة[2]

(١) Duarte

(٢) ميناء فى افريقية تقع شمالى مراكش على البحر الأبيض المتوسط.

www.ibtesama.com Exclusive

لشدما كان ارتياح الملك لاقتراح وزيره وسرعان ما نزل من نفسه منزل القبول والترحيب. خاصة وأنها سوف تكون أول حملة ضد المغاربة فى بلادهم .

إغتبط للفكرة الأمراء الاحداث واغتبطت أمهم مشاركة منها لأبنائها فيما يسرهم ويسعدهم .

وشُرع فى اتخاذ العدة فوراً لهذه المغامرة العظيمة التى أثارت كثيرا من القلق لملكى قشطالة وغرناطه ولكن ملك البرتغال أرسل إليهما من يهدئ من روعهما مؤكداً لهما بأنه أنما يعتزم غزو سبته لا أكثر ولا أقل ، ليتيح لأبنائه فرصة أحراز شرف الفروسية فى ميدان القتال .

كان الأسطول الذى أعد للغزوة مكونا من اثنتين وأربعين ومائتى قطعة كلها برتغالية الجنسية إلا عددا قليلا منها .

كل شىء كان على أتم الاستعداد حينما بلغ الملك وأبناءه عشية الإبحار المزمع أن الملكة قد أصيبت بالطاعون .

سجل المؤرخ فى يومياته أن الملك وأبناءه الأمراء حينما بلغوا إلى حيث ترقد الملكة والتفوا بسريرها استجمعت قواها وناولت كل واحد من أبنائها الثلاث سيفا من الذهب مرصعا بالأحجار الكريمة كانت تعتزم إهداءها إليهم بعد عودتهم منتصرين من حومة القتال

وكان مما قالته الملكة لإبنها الأكبر دوارت وهى تودعه الوداع الأخير « أى بنى . أن الله قد اختارك لتكون ملكا فوجب عليك أن تحمى رعاياك وأن تدافع عنهم وأن تسوسهم بالتى هى أحسن وأن تسير بينهم بالعدل . أما دون بدروا فأوصته برعاية العذارى والأرامل . وأوصت دون هنريكس برعاية حُماة المملكة والذائدين عن حياضها — رجال القوات المسلحة — وناشدتهم أن يتخذوا الاتحاد شعارا لهم وأن يتذكروا دائما أبدا أنهم ولدوا من رحم واحد وأن المهد الذى دُلِّلُوا فيه واحد .

www.ibtesama.com Exclusive

وتكلمت معهم وهى تجود بنفسها عن رحلتهم المقبلة إلى ساحل أفريقية معبرة عن اغتباطها بأن الرياح مابرحت تهب من ناحية الشمال .



افترض الناس بوجه عام أن مراسيم الحداد على الملكة الراحلة سوف يترتب عليها تأجيل المسير إلى الميدان ولكن الملك صرح بأن البدأ فى الرحيل عقب الإنتهاء من دفن جثة الملكة يتفق تماما مع رغبة زوجه الراحلة وأمنيتها .

سقطت سبته فى سنة ١٤١٥ .

كان من نتائج إقامة الجيش البرتغالى على أرض أفريقية — وإن لم تطل مدتها — أن تغيرت آراء الأمير هنرى تغيرا كليا بصورة لم تكن لتخطر له على بال . هنا زرعت أول بذرة لسياسة الاستعمار البرتغالية التى لم يكن ليحلم بها أحد حتى ذلك الحين،فقد استبدت بالأمير هنرى رغبة ملحّة لاستكشاف مجاهل أفريقية التى يكتنفها الغموض ولم يكن ثمت ما يحول بينه وبين رغبته أو يثنيه عن عزمه شىء .

سمع فى سبته عن المناجم الغنية بالذهب والتى يقال أنها توجد فى غانة بينما روى له الأسرى السودانيون الشىء الكثير عن وطنهم ، فتحقق لديه مما سمع فى سبته أن فى الاتجار مع أهل ذلك الجزء من أفريقية الذى يقع جنوبى موريتانيا ربح وغنم وفير . وترامى إلى مسامعه أيضا أن ملك الحبشة

www.ibtesama.com Exclusive

يدين بالمسيحية وأن الحبشة تقع فى أفريقية — فى جهة ما . كل هذه الأقوال التى أيد صحتها تجار العرب والمغاربة حدت بالأمير هنرى إلى الأمعان فى التفكير .

وما أن عاد الملك إلى البرتغال حتى رفع ابنه الثانى دون بدرو إلى رتبة دوق أوف كوامبرا(١) ورفع ابنه الأمير هنرى إلى رتبة دوق أوف فيزى(٢) ولورد أوف كوفلهام(٣) . ولما كان أبناء الملك قد بلغوا مبلغ الرجال أسند إليهم مناصب تحمل مسئوليات جسام . فعين ابنه الأكبر دون دوارت رئيسا لمجلس القضاء الأعلى ، وعين الأمير هنرى حاكما لسبته كما أسند إليه تصريف الشئون التى تتعلق بأفريقية ، وبعد ذلك بقليل عينه فى منصب الأستاذ الأعظم لجماعة المسيح التى تأسست عام ١٣١٩ عقب حل جمعية الفرسان الداوية(٤) وكان كثير من أعضائها قد التجأوا إلى البرتغال حيث بسط عليهم الملك حمايته . ومن ثم أسس الملك « جماعة المسيح » التى انضم إليها هؤلاء اللاجئون . وكان الفوز بعضويتها يعتبر شرفا عظيما . أما الغاية التى كانت تستهدفها فهى مواصلة محاربة المسلمين .

ولقد برهن الأمير هنرى على كفاءة ممتازة فى منصبه الجديد، منصب الأستاذ الأعظم .

استغل الأمير هنرى إيرادات الجمعية الوفيرة فى تنفيذ مشروعاته الخطيرة التى كان يحلم بها فى سبته .

فى أقصى الجنوب الغربى من البرتغال تقوم دولة المغرب الصغيرة المنتزعة من عرب المغرب والتى يسميها البرتغاليون « الجرف » . هذه المملكة

---

(١) Duke of Coimbra
(٢) Duke of Viseu
(٣) Lord of Covilham
(٤) Templars

www.ibtesama.com Exclusive

وهبها الملك لابنه الأمير هنرى لتكون من بين ممتلكاته وفى هذه المنطقة تمتد فى الأطلسى صخرتان . الغربية منهما تسمى رأس سان فنسان وهى التى سماها الرومان بالمقدسة . وأما الشرقية فقد شيد عليها الأمير دارا ريفية لسكناه خاصة سماها ساجرس[1]. وعلى شاطىء الخليج الصغير الرملى وضع أساس مدينة جديدة .

ومن هذه الدار المشيدة على الصخرة العظيمة المطلة على المحيط كثيرا ما كان الأمير يسرح البصر فى الأفق بينما كانت الأمواج العاتية تتكسر على الصخور . كان الأمير يسبح بفكره إلى ما وراء هذه الأمواج ، إلى أفريقية الغامضة . ثم عكف على دراسة الخرائط والرسومات ليقف على كل ما كان معروفا لأهل عصره. ومن المسلم به أنه كان على علم بجميع الخرائط التى وضعها الإيطاليون والماجوركيون[2]. إذ أن رسامى الخرائط فى ذلك العهد كانوا قد قطعوا شوطا بعيدا فى هذا المضمار وخاصة علماء أوروبا الذين جعلوا من الملاحة علما بفضل القواعد والأسس التى وضعها الصينيون والعرب .

وكان من أكثر المؤلفات العلمية ذيوعاً فى العصر الذى نحن بصدده مؤلّف وضعه عالم إنجليزى من مقاطعة يوركشير[3] فى شمال إنجلترا تُوفى فى باريس عام ١٢٥٠ حيث كان يشغل منصب أستاذ للرياضة وعلم الفلك . وكان هذا السفر يحوى رسالة عن الاسطرلاب وهو آلة كان يستعملها جميع رجال البحر فى أيامه ، كما كانوا يستعملون البوصلة وربع الدائرة وهى جميعا مستحدثة من الاسطرلاب . وفى عام ١٢٧٦ كتب المدرس روبرت أنجلز[4] من مونبلييه رسالة عن هذه الآلة القيمة . ولقى فن الملاحة

---

(١) Sagres
(٢) نسبة إلى جزيرة Majorca
(٣) Yorkshire
(٤) Robert Anglès

www.ibtesama.com Exclusive

فى أرغون[1] بنوع خاص رعاية فائقة حتى أنه صدر فى عام ١٣٤٠ قانون يحرم على السفن مخور البحار بدون وجود خريطة فى حيازتها .

وكان الإيطاليون والماجركيون والقطالونيون أول من رسم الخرائط فى أوروبا للبر والبحر على السواء . كما كان لواضعى الخرائط مكانة مرموقة . وأشهر أسرة زاولت مهنة رسم الخرائط فى القرن الرابع عشر هى أسرة من سكان مايوركا تعرف باسم كرسك[2]. وقد وضع أحد أفرادها للملك أرجون خريطة للعالم[3] أهداها الملك فيما بعد إلى ملك فرنسا شارل الخامس. وتبين هذه الخريطة كل ما كان معروفا فى ذلك العهد عن صورة المعمور والأفلاك ، وكانت إلى جانب هذا كله مزينة برسوم فنية وشروح مستفيضة لأهم البلاد وأوصافها . وكان الغرض من هذه الخريطة — حسب ما نص فيها . تعريف الربابنة والملاحين بمواضعهم من البحر ليهتدوا بها .

وعلى هذه الخريطة المسماة « بخريطة قطالونا » عين مكان جزر الأزور مع ذكر أسمائها كما عين أماكن ست جزر من جزر الكنارى . ويقال أن تسميتها بالكنارى يرجع إلى كثرة عدد ما فيها من الكلاب كما أن اسم كابرى يرجع لكثرة ما فى هذه الجزيرة من الماعز . وكتب فوق هذه الجزر « جزر السعداء » التى يجىء إليها الوثنيون من الهند بعد مماتهم ليعيشوا على أرج الفاكهة وشذاها. ويضيف واضع الخريطة إلى ذلك رأيه الشخصى « بأن هذا خرافة» وتحت جزر الكنارى رسمت سفينة على ظهرها أربعة ركاب ويرفرف فوقها شعار مملكة أراجون وجاء فى النص المكتوب « أبحر جيمس فرر »[4] قاصداً ريو دورو[5] فى اليوم العاشر من أغسطس سنة ١٣٤٦ وهو يوم عيد القديس سنت لورنز[6] وعلى رقعة شمال أفريقية الواقعة إلى جنوب أسبانيا مباشرة

---

(١) أرغون من مقاطعات الأندلس (٢) Cresques
(٣) عرفت باسم Mappa Mundi
(٤) Games Ferrer (٥) Rio d'Oro
(٦) St. Lorenz

www.ibtesama.com Exclusive

رُسمت جبال الأطلس يخترق عرضها خط كتب فى تفسيره « هنا يمر التجار القادمون من غانة بلاد الزنوج وهذا الممر يسمى درا[١] وفى أسفل جبال الأطلس ذكرت أسماء ثلاثة بلاد. جوزولا[٢] وأسّارا (الصحراء) وغانة. وإلى جانب هذه الأخيرة كتبت هذه الأسطورة «أن ملك زنوج غانة أعظم ملوك هذه الجهات وأغناهم لكثرة ما يملكه من الذهب» ولم يكتف واضع الخريطة بما ملأها به من نصوص ولكنه ذهب إلى أبعد من هذا فقرن إلى النصوص صوراً من كل لون. فترى بها صور ملوك فى أبهى الحلل وأفخمها وعلى الأخص صورة واحد من هؤلاء الملوك وصف بأنه قد دأب على مقاتلة المسيحيين فى بلاد النوبة من رعايا القس يوحنا.

ورسمت صورة ملكة سبأ (بلقيس) وعلى رأسها تاج من الذهب فوقه تفاحة من الذهب أيضاً. كذلك جاء فى النصوص المدونة بالخريطة ذكر الطيب والعطور والمر والبخور وطير السمندل.

وبقرب جزيرة سوكوترا[٣] رسمت صورة جنوك وإلى جانبها هذه العبارة « اعلم أن هذه السفن تسمى جنوك وطولها عند سطح الماء ستون ذراعا وطول ظهرها أربع وثلاثون. وبكل منها من أربع إلى عشرة صَوَارٍ وأشرعتها مصنوعة من الغاب وأوراق النخيل ».

وتنص الخريطة على أن الهند تبدأ عند مدينة هرمز. وذكرت التوابل والأحجار الكريمة ومصادرها المختلفة فى شتى أجزاء الهند حسب الأساطير المنتشرة بين الناس. ويرى فى الخريطة أيضاً صور الملوك الثلاثة من ملوك الشرق وهم يجدون السير إلى بيت لحم قادمين من أرض ويجورز[٤] وهم الذين عبدوا المسيح ودفنوا فى مدينة كولون[٥] على مسافة يومين من مدينة بروج (Bruges). وبالقرب من جبال الهملايا أثبتت مدينة كراكورم وإلى جانبها

---

(١) Draa
(٢) Gozola
(٣) Sokotra
(٤) Ouigours
(٥) Cologne

www.ibtesama.com Exclusive

كتبت هذه الأسطورة « هنا يحكم الملك المسيحى استيفن[1] » . وهنا ضريح الحوارى توماس .

ولم يستطع واضع الخريطة أن يثبت فيها جميع جزر البحر الأحمر التى ينص على أن عددها سبعة آلاف وخمسمائة وثمان وأربعين ، فتحاشى تدوين تفاصيل ثرواتها من ذهب وفضة وتوابل وأحجار كريمة ، ولكن وصف ماركوبولو للصين احتوى أسماء المدن القائمة فى تلك الامبراطورية .

وأثبت فى الخريطة مواقع جزر صندا على هيئة أوراق الشجر والأحجار الكريمة . وإلى جانبها هذه الأسطورة « هذا بحر الهنـــد الذى توجد فيه التوابل . فى هذا البحر تمخر سفن عديدة لمختلف الأمم ، وهنا يصادف الإنسان فصيلتين من السمك ، إحداهما وتسمى غانية البحر — نصفها امرأة ونصفها سمكة — والأخرى نصفها امرأة ونصفها طائر » .

أما عن سومطره فيذكر النص أن اسمها كان تبروبان[2] عند القدماء وهى آخر جزيرة يصادفها الإنسان فى الشرق . ولم يكن أحد قد اهتم بعد بما يوجد وراء سومطره ولا كانت جنيات البحر قد بدأت فى اغراء الملاحين إلى مملكتها — المحيط الهادى .

والواقع أن عادة إهداء الخرائط كانت شائعة بين أفراد البيت المالك فى أراغون لأننا نجد عادة خريطة أخرى من خرائط العالم قد أهديت إلى ملك فرنسا فى سنة ١٣٨١ . وفى عام ١٣٩٠ أهديت خريطة أخرى إلى أحد أصدقاء ملك أرغون ومعها اسطرلاب ، وتقويم يشمل حساب ثلاث سنوات ، وساعة رملية فى مقابل كلبين من كلاب الصيد طويلى الشعر طلبها الملك من صديقه .

ويبدو أن الخرائط الثلاث الأخيرة كانت من صنع السيد جاكومو[3]

---

(١) Stephen

(٢) Taprobane هذا الاسم أطلق فى القديم كذلك على جزيرة سيلان.

(٣) Jacomo

www.ibtesama.com Exclusive

وهو من العلماء فى فن الملاحة وفى وضع الخرائط وله معرفة بصنع الآلات كان فلكيا ببلاط ملك أرجون وكان اسمه فى الأصل كرسك لى جيهى (Cresque Le Oeheu) ولكنه اضطر كما اضطر كثير غيره من اليهود — أمام موجة الاضطهاد فى ذلك العصر إلى اعتناق المسيحية وتغيير اسمه بعد إجراء مراسم التعميد إلى اسم جاكومو . وقد نزح بعد وفاة مولاه العاهل الملكى إلى جزيرة ماجوركا لتدريس فن الملاحة للضباط البرتغاليين بمدرسة ساجرس .

كان السكون والضباب لا يزالان يخيمان فى ذلك العهد فوق المحيط الأطلسى الذى يسميه القدماء بحر الظلام وهو الذى كتب فى وصفه جغرافيو العرب . توجد فى هذا البحر مواضع تنبعث منها دائما أبدا ألسنة من اللهب تصل إلى ارتفاع مائة ذراع فى الجو ، وفيه توجد أيضا أسماك عظيمة الجرم وحيتان ووحوش بحرية غريبة الخلقة والتكوين ، وفيه مدن تسبح فى الفضاء ، وفى هذا البحر جزيرة يقوم فوقها قصر بديع الحسن والتنسيق يحوى جثمان الملك سليمان بن داود .

وكتب ابن خلدون[1] مؤرخ المغرب عن المحيط الأطلسى . أنه بحر لا تعرف له حدود حتى أن الملاحين لا يجرؤون على الابتعاد عن الشاطىء خشية أن تدفعهم الرياح إلى مجاهله ، ولا يوجد وراء هذا البحر معمور .

وكتب الجغرافيان أبو الفداء[1] والادريسى فى عصرهما — لا يعرف أحد ماوراء المحيط الأطلسى فلم يستطع أحد اكتشاف شىء معين لصعوبة الملاحة فيه بسبب ما يخيم عليه من ظلمات وبسبب أمواجه العاتية العالية وكثرة أعاصيره وشدة رياحه الهوجاء . على أنه يوجد بهذا المحيط عدد من

---

(١) هو عبد الرحمن بن محمد ولد بتونس سنة ٧٣٢ هـ كان من أعظم مؤرخى العرب له كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر وهو مطبوع فى سبعة مجلدات كبيرة يعرف جزؤه الأول بمقدمة ابن خلدون.

(١) هو الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء بن الأفضل بن المظفر بن المنصور صاحب حماه . نظم كتاب الحاوى فى الفقه وله تاريخ كبير مشهور وكتاب الكناش وكتاب تقويم البلدان توفى سنة ٧٣٢ م ١٣٦ م

www.ibtesama.com Exclusive

الجزر بعضها مسكون وبعضها غير مسكون ولكن أحدا من الملاحين لا يجرأ على التعمق فى مياهه وهم يكتفون بالسير قرب الساحل لكى لا تغيب عنهم معالمه .

على أن الأمير هنرى كان يعلم بفضل بعض حقائق ثابتة موضحة على الخرائط أن فى أواخر القرن الثالث عشر (١٢٩١) أبحر بعض تجار جنوا من أسرة فيفالدى (Vivaldi) ومعهم أحد القسس فى سفينتين للتوغل جنوبا إلى أقصى نقطة يمكن الوصول إليها على ساحل أفريقية الغربية . وكان من المعروف أنهم مروا برأس جوبى « Cape Juby » ولكن شيئاً لم يسمع عنهم بعد ذلك .

وعلى خريطة مسترو جاكومو كتبت هذه الكلمات التى تنذر بالسوء إلى جانب رأس « نام » أو « نون » . « هنا آخر المعمور المعروف » . وبذلك يكون قد عبّر عن نفس الاعتقاد الذى اراده بطليموس نقلا عن بلينى Pliny وهو أنه لا يوجد شىء وراء هذا الموضع سوى الصحارى القفر المجدبة ، التى روى عنها فى الأساطير . وفى عام ١٤١٨ عاد الأمير هنرى إلى سبته لنجدة حامية المدينة التى حاصرها ملوك غرناطة وفاس ومراكش وتونس على رأس جيش قوامه مائة ألف مقاتل .

أغراه الانتصار العظيم الذى أحرزه فى هذه الموقعة على محاولة إحتلال جبل طارق ولكن الموسم لم يكن مناسبا كما أن العواصف العاتية والتيارات الشديدة لم تكن فى صالحه . ومهما يكن من أمر ، فقد اضطر للتخلى عن مشروعه وخاصة لأن أباه نهاه عن المضى فيه . كان الأمير هنرى جنديا بسجيته وكان صيته قد طبق الآفاق طولا وعرضاً لما أبداه من البسالة والإقدام فى القتال بسبته والذى انتهى باستيلائه عليها . وكان من نتائج هذا الفوز أن دعاه البابا مارتن الخامس (Martin V)[1] لقيادة جيوشه ضد الأتراك كما دعاه

---

(١) Marin 5

www.ibtesama.com Exclusive

امبراطور ألمانيا وملك قشطالة ، وملك انجلترا للقتال باسمهم وبالنيابة عنهم . ولـكنه فضل استغلال وقته وجهوده فى فتح بلاد لم تزل مجهولة من الناس .

ففكرة الاستكشاف لم تزايل مخيلة الأمير هنرى لحظة واحدة ولقد شغل بها عن كل شىء. وأخذ يعد لها العدة على أن تتاح لها فى مستقبل الأيام فرصة تخرجها إلى حيز التنفيذ العملى .

وقد كان للجهود الجيدة التى سبق أن بذلها أسلافه فى بناء أسطول بحرى خير عون له فيما كان يعتزمه فعلى الأساس الذى وضعوه شيد بناءه . ورغما من أن ميناء لاجوس (Lagos) البديعة كانت الميناء المستعملة بصورة منتظمة فى الجرف (الغرب) فقد استقر رأى الأمير هنرى على بناء ميناء أخرى فى أقصى حدود المملكة تجاه المحيط الأطلسى لتكون — على حد قول المؤرخ — سوقا للتجار ، ولتسهل كذلك على السفن المارة من الشرق إلى الغرب أن تستنير بها على تعرف مواضعها ولتأخذ منها ماتحتاجه من المؤن والأدلاء .

كان الأمير هنرى دائم التفكير وإنعام النظر فى مشكلة هذا المحيط الذى لم تكشف مجاهله ، وفى الثروة التى ينتظر وجودها فيما وراء الصحراء الكبرى من جنوبها ، وفى أمر أولئك الذين يعيشون فى تلك المناطق من وثنيين ومسلمين — على حد ما كان شائعا بين الناس فى ذلك العصر — كذلك مابرح يفكر فى أمر ذلك الملك المسيحى الذى يزعم أنه يعيش بين أولئك القوم .

وليس من شك فى أنه قد قرأ كتاب الراهب الإسبانى الذى أطال فيه الكلام عما يوجد وراء جنوب الصحراء وأسهب فى ذكر ملك الحبشة المسيحى — أما القول بأن الحبشة تقع فى أفريقية فأمر قد قطع بصحته .

اختلج صدره بعد ذلك بأمر استقر عليه رأيه . فمهما يكن مبلغ المجازفة ومهما يكن مبلغ الأخطار ، فلا بد لسفنه من أن تمخر عباب هذا المحيط رافعة علم جماعة « المسيح »

www.ibtesama.com Exclusive

وهكذا أبحرت السفن ناشرة أشرعتها البيضاء كأنها أجنحة عقبان عمالقة حاملة إلى شعوب أفريقية جماعة من الرسل يبشرون بأنجيل المسيح ويعودون منها بكنوزها من الذهب والعاج والفلفل كا قدر لفرسانه أن يزيحوا النقاب عن حقيقة القس يوحنا الذى كتب عنه ماركو پولو والراهب الإسبانى والسير جون ماندفيل .

وقيل إلى الأمير هنرى أن فى العثور على هذا الملك العظيم القوى تحقيق لجميع رغباته وأمانيه كما اعتقد اعتقادا جازما بأن التوابل تنبت فى مملكة هذا الملك . لذلك لابد وأن يكون الأمير هنرى قد استطير فرحا حينما تطوع سيدان من رجال حاشيته للقيام برحلة استكشافية على طول ساحل أفريقية الغربى إذا هو أعد لهم السفن وأمدهم بالبحارة .

كتب المؤرخ أنطونيو جلفانو[١] عن هذه المغامرة بعد مرور مائة وثلاثين عاما على حدوثها فذكر أنه بعد أن حصل السيدان على إذن الأمير هنرى فى عام ١٤١٨ للقيام برحلة استكشافية حول العالم أبحرا إلى ساحل أفريقية وسرعان مادهمتهما أعاصير وأنواء شديدة دفعتهما إلى عرض البحر ، غير أن الله تداركهما برحمته فقيض لهما الوصول إلى إحدى الجزر بسلام فأطلقا عليها اسم بورتو سانتو[٢] .

فشلت محاولة السيدين البرتغاليين فى رحلتهما الاستكشافية الأولى فيما يتعلق بشاطىء أفريقية . ولكنْ مهما يكن من أمر هذا الفشل فإن هذه الرحلة التى قاما بها كانت نقطة البداية للتوسع الاستعمارى

فى سنة ١٤٢٩ أرسل الأمير صاحبينا السابقين إلى پورتو سانتو مرة أخرى فى صحبة ملاح ماهر من أبناء جنوا يسمى برستر للو[٣] وأمرهما بمحاولة استكشافات جديدة . وفى ذات يوم بينما كانا يمخران بالقرب من الجزيرة الصغيرة وصلت بهما السفينة إلى جزيرة ملتفة الأشجار كثيفتها أطلقا عليها اسم ماديرا (Madeira) أى جزيرة « الخشب » .

---

(١) Antonio Galvano

(٢) Porto Santo

(٣) Perestrello

www.ibtesama.com Exclusive

وفى مديرا يقول أعظم شعراء البرتغال ، فى عهد لاحق

« شـــاطىء غمرته الورود
ونسيم من شذا العرف عليل
حتى كنوز فينوس لو أنهـا
شيدت فوقه معبدها المحبوب»

كان لاكتشاف هذه الجزيرة أثر كبير فى حياة البرتغال، فبفضل ما استجلبته من أخشابها الوفيرة استطاعت أن تشرع فى تشييد منازلها على طراز جديد.

كان القدماء يعلمون بوجود هذه الجزيرة ولكنهم لم يكونوا يعرفون مكانها على وجه التحديد. فقد وصلت أنباءها إلى إسبانيا والبرتغال بطريق غير مباشر نقلا عن أحد مرشدى السفن، كان أسيرا فى مدينة فاس وسمع عن هذه الجزيره من بعض زملائه فى الأسر من الانجليز.

حركت هذه المكتشفات عوامل الطمع فى نفس الأمير هنرى لحول نظره نحو جزر الكنارى وكانت قد أثارت كثيرا من الاهتمام قبل ذلك بعدة سنوات. عكف الأمير هنرى على دراسة الخرائط وموقع هذه الجزر التى كان يطلق عليها اسم الجزر « المجدودة أو السعيدة » فقد زارها فى عام ١٢٧٠ رجل من أبناء جنوا يدعى لانسلوت ملفوـ ملو [1] وشيد بها قصرا لسكناه.

ووصل إليها مصادفة بعد ذلك التاريخ بستين عاما أميرال من أبناء جنوا دفعت به العواصف إليها.

وفى عام ١٤٠٢ كانت هذه الجزر مثار اهتمام نبيل فرنسى يدعى جان دى بثنكور [2]، ضاق ذرعا بالمنازعات الداخلية وبالحروب فى الخارج فبات ينشد السلام والسكينة، وتاقت نفسه إلى نشر الدين المسيحى فأبحر من مدينة لاروشيل [3] إلى عرض المحيط الأطلسى وبصحبته زمرة من رجال فرنسيين من ذوى المروءة والإقدام نخص بالذكر منهم، جاديفير دى لاسال [4].

(١) Lancelot Malvocello
(٢) Jean de Bethencourt
(٣) La Rochelle
(٤) Jadifer de la salle

www.ibtesama.com Exclusive

والحق أن قصة هذه الرحلة تبعث على الإعجاب والتقدير ، فقد ذكر المؤرخ بأن جان دى بثنكور كان ورعا ويمتاز بشجاعة فذة . لم يغامر بالخروج إلى عرض المحيط طمعا فى غنم أو فى العثور على كنز من الكنوز كغيره من الناس ، ولكن كان همه الوحيد نشر الدين المسيحى بين ربوع تلك الجزر.

زار جان دى بثنكور ومعه صديقه الوفى جاديفير دى لاسال ساحل أفريقية ، ولكنه — على حد رواية المؤرخ — لم يلق أية مساعدة لا من أمراء فرنسا ولا من أمراء أسبانيا . لذلك لم يفلح فى فتح أفريقية الغربية وحمل أهلها على اعتناق المسيحية. ويضيف الراوى تفسيراً لذلك أن النبيل الفرنسى قال : أن الشغب والاضطرابات تسود فرنسا إلى حد يجعل من العسير عليها أن تفكر فيما يحدث فى الخارج فبحسبها ماتعانيه داخل البلاد .

وبعد مضى اثنتى وعشرين سنة من ذلك التاريخ أرسل الأمير هنرى أسطولا لفتح تلك الجزر ولكنه فشل فى ذلك .

* * *

على أن رغبته الأساسية وهدفه الأول من ارسال هذه الحملة البحرية كان للكشف عما يقع وراء رأس بوجادور . فيسجل الراوى فى هذا الصدد « ما أكثر المرات التى أرسل فيها الأمير كتائبه إلى عرض البحر وفيها الرجال المجربون من أولى البأس والإقدام والخبرة بأساليب الحرب ممن تألقت أسماؤهم فى ميادين القتال ولكن أحدا منهم لما يجرؤ على اجتياز المحيط إلى ما وراء رأس وجادور لا عن جبن ولا عن خور — كما يقول الراوى — ولكن لكثرة ما أذاعه بحارة إسبانيا جيلا بعد جيل عن الأخطار التى تكتنف مثل هذه المحاولات » .

بيد أن الأمير لم يبرح يجرد الحملة بعد الحملة ويرسل السفن بعد السفن متكبدا فى سبيل ذلك نفقات باهظة ولكن لغير طائل . وأراد ربابنته وقواد جنوده أن يكفروا عن فشلهم فراحوا يغيرون على ساحل غرناطة حتى سواحل شرق البحر الأبيض المتوسط .

www.ibtesama.com Exclusive



لم يكن هذا كل ما كان يصبو إليه الأمير ، على أنه - كما يقول الراوى - لم يوجه إلى ربابنته لوما ولا تثريبا على فشلهم وإنما تبسط معهم واستمع إلى روايتهم فى صبر وأناة ، وكافأهم على حسن خدماتهم . وبالرغم من أن محاولات الأمير هنرى باءت كلها بالفشل خلال أثنى عشر عاما ، إلا أن عزمه لم يضعف ولا تسرب إليه وهن أو خور . وكان والده وأخواته يواسونه فى جميع محاولاته ويحيطونه بعطفهم ، حتى أن أخوته بذلوا له كل مساعدة مستطاعة فى مختلف الظروف والأحوال . فوافاه أخوه الأصغر دون فرناندو بأنباء رحلات عثر عليها بين مجموعة من الوثائق وقصص الجوابين ، كان سلفهم الملكى دنيز الأول Diniz I قد جمعها قبل مائة وعشرين عاما . وكانت عودة أخيه دون بدور من سياحاته التى استغرقت عشرين عاما من العوامل التى زادت فى تنشيطه وشحذ همته .

كانت غزوة سبتة قد أثارت فى نفس الأمير رغبة ملحة لرؤية العالم والسياحة فى أقطاره ، فبدأ رحلته بعد أن باركه والده وزوده بالمال وبنخبة صالحة ممتازة من الفرسان : ولقد زار خلال رحلته فلسطين ومصر وقاتل فى صفوف جيوش إمبراطور ألمانيا ، كما زار بلاط كثير من ملوك أوروبا . وحينما كان فى انجلترا أنعم عليه بوسام ربطة الساق من رتبة فارس . وفى فينسيا أهدى إليه الدوق مخطوطا نفيسا ، فريدا فى بابه ، وخريطة جغرافية رمزا لعطفه وتقديرا منه لشخصه .

www.ibtesama.com Exclusive

أما المخطوط فكان نسخة من كتاب ماركو بولو ، ويغلب على الظن أن الخريطة كانت من صنعه أيضاً . كل هذه الوثائق والنفائس وهبها دون پدور لأخيه الأمير هنرى الذى وجد فيها تفاصيل عديدة تتصل بالقس يوحنا مما ضاعف من عزمه فى المضى بتنفيذ مشروع مغامراته البحرية لأنه كان يأمل أن يجد فى هذا الملك المسيحى حليفا له فى مقاتلة المسلمين[١] .

لم يكن الأمير هنرى أقرب اليوم إلى تحقيق رغبته فى معرفة ما وراء رأس بوجادور[٢] منه فى عام ١٤١٨ حينما أبحر فرسانه لأول مرة إرضاء له . فكم مرة أرسل رجاله فى السفن إلى عرض البحر ولكن بغير طائل .

حار الأمير هنرى فى تأويل إحجام فرسانه ، حتى الشجعان منهم ، عن المخاطرة رغم ما منّاهم به من مكافأة وتكريم . انقضت سبع عشرة سنة على ذلك المنوال إلى أن أرسل رئيس ركائبه جل أينز[٣] بأوامر محددة ليدور حول رأس بوجادور . ولكن للأسف ، كان هو أيضا قد استولى عليه الرعب كما استولى على من سبقوه من قبل — هكذا يقول الراوى — فعاد ولمّا يتجاوز فى رحلته جزر الكنارى .

ولكن الأمير هنرى عاود الكرة وأرسل رئيس ركائبه مرة أخرى لتحقيق الهدف عينه متلطفاً معه فى القول ، محذرا ومشجعاً ومتوسلا إليه ألا يأخذ بقصص الملاحين ، وأن يتجلد ويشد من عزائمه ويسير إلى الهدف مباشرة . وكان أن قرر رئيس الركائب فيما بينه وبين نفسه ألا يخيب أمل أميره مرة ثانية بحال من الأحوال نظرا لما كان يكنه له من محبة وإخلاص . لذلك ازدرى الأخطار واستهان بها وأبحر صوب الجنوب مستديرا برأس بوجادور ، وماكان أعظم دهشته عندما وجد أن كل ماسمعه

---

(١) فى الأصل الكفار . وقد سبق الاشارة إلى مدى تعصب المسيحيين ضد المسلمين فى تلك العصور الغابرة .

(٢) Cap Bogador

(٣) Gil Eannes

www.ibtesama.com Exclusive

حتى وقته هذا بشأن الأراضى الواقعة خلف رأس بوجادور لا أساس له من الصحة ؛ ولكن ساءه أنه لم ير أحدا من السكان فى تلك الجهات .

كان سرور الأمير هنرى بعودة جل أينز عظيما جدا وراح يستمع إلى روايته فى اهتمام وغبطة وختم رئيس الركائب روايته بهذه العبارة . ولما كنت أرى أن من واجبى يامولاى أن أهدى إليك شيئا من أرض تلك البلاد التى نزلت بها فقد جمعت هذه الأعشاب لأقدمها لسموكم وهى التى نسميها فى بلادنا هذه « حصَلبان » [1] (أوراق إكليل الجبل) .

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

(١) حصى لبان أخضر

www.ibtesama.com Exclusive

الفصل الثانى

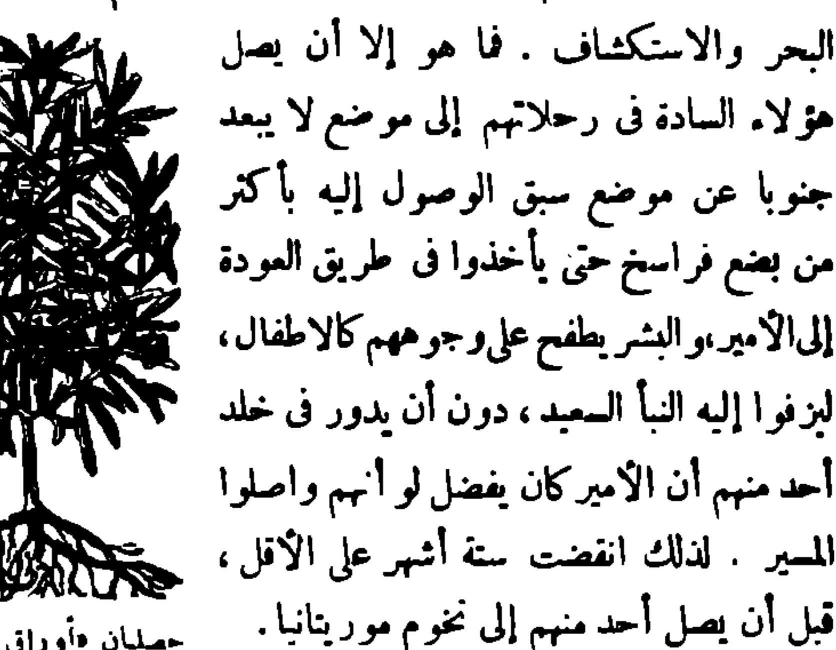
الخروج للاستكشاف

ما يزال بريق نجم القطب يقترب منا رويدا رويدا
إلى أن اجتاز الحد حيث عربة النهار تمر فوق رؤسنا
مرسلة من عل أشعته المضيئة على الأرض

(المقطع الخامس)

اغتبط الأمير هنرى بعسلوج ورق الغار اغتباط نوح عليه السلام بورقة الزيتون فى منقار الحمامة . إذ كانت رمز الأمل والحياة . كان فى هذا العسلوج تفنيدا للزعم السائد بأن خلف رأس بوجادور لا توجد غير الصحراء ، مجدبة قاحلة لا ماء فيها ولا أشجار ولا أعشاب خضراء .

فمنذ هذه اللحظة لم يعد أحد من حاشية الأمير يحجم عن التطوع لركوب البحر والاستكشاف . فما هو إلا أن يصل هؤلاء السادة فى رحلاتهم إلى موضع لا يبعد جنوبا عن موضع سبق الوصول إليه بأكثر من بضع فراسخ حتى يأخذوا فى طريق العودة إلى الأمير ، والبشر يطفح على وجوههم كالاطفال ، ليزفوا إليه النبأ السعيد ، دون أن يدور فى خلد أحد منهم أن الأمير كان يفضل لو أنهم واصلوا المسير . لذلك انقضت ستة أشهر على الأقل ، قبل أن يصل أحد منهم إلى تخوم موريتانيا .



حصلبان «أوراق أكاليل الجبل»

لم يغب عن الأمير هنرى أن يضع لبحارته قواعد يتبعونها فى معاملاتهم للأهالى . فلا يعادونهم ، وحتم عليهم أن يعملوا على اكتساب ودهم تمشيا

www.ibtesama.com Exclusive

مع شماره ، موهبة صنع الجيل ، وأصدر إليهم الأوامر كذلك بإقامة صليب كبير الحجم من الخشب فى كل بلد جديد يكتشفونه على الساحل وأن تحفر فيه هذه العبارة (شماره) .

كانت البواعث التى حفزت هؤلاء الشبان لمواجهة الأخطار عن طيبة خاطر، كثيرة مختلفة الأغراض. فبعضهم كان يهدف إلى إرضاء مولاه وبعضهم كان يدفعه إلى ذلك حب المغامرة ونشوة الاستكشاف أو فتنة المغانم . أما الأمير هنرى فكان يستهدف خمسة أغراض، الرغبة فى معرفة ما يوجد خلف رأس بوجادور لأن عدم المعرفة به كان حائلا يمنع البحارة والتجار عن متابعة السير . ثم الرغبة فى معرفة ما إذا كان هنالك بلاد يسكنها مسيحيون يمكن الاتجار معهم . وهناك غرضان آخران يصطبغان بصبغة سياسية أحدهما الوقوف على مدى قوة المسلمين فى أفريقية ، وثانيهما البحث فى تلك الأنحاء عن أمراء مسيحيين يمكن الاستعانة بهم — بدافع من محبتهم للمسيح — على إبادة أعداء المسيحية . أما الغرض الخامس والأخير فرغبة الأمير هنرى الملحة فى حمل الأهالى على اعتناق الدين المسيحى .

* * *

كثيرا ما تناول الناس نشاط الأمير هنرى فى البحر بالنقد اللاذع الصارم وقطعوا بأن مصيره الفشل لا محالة، وأنه مجرد إسراف لا مبرر له، بيد أن هؤلاء النقاد سرعان ما تحولوا عن فكرتهم ونقضوا حكمهم عندما لمسوا مبلغ الزيادة المطردة فى ثروة البرتغال نتيجة الإتجار مع الأهالى فى أفريقية، وكان وصول التبر لأول مرة إلى لشبونة حدثا من الأحداث .

وعندما طلب بعض أعيان مدينة لاجوس[1] أن يؤذن لهم فى القيام بتجريد حملات لحسابهم الخاص ، استجاب الأمير لطلبهم ومنحهم رخصة بذلك كانت فيما بعد نموذجا للرخص التى كان لها شأن كبير فى توسع

---

(١) Lagos

www.ibtesama.com Exclusive

هولندا وانجلترا الاستعمارى . ثم هنالك تجارة الرقيق التى كانت محرمة فى بادىء الأمر تحريما باتا بأمر الأمير هنرى ولكنها لم تلبث أن أصبحت مصدر ثراء عريض .

لم يكد أول فوج من الأسرى البربر يصلون إلى البرتغال حتى أمر الأمير هنرى بإعادتهم إلى وطنهم . غير أن سيل الأسرى لم ينقطع رغم أوامر التحريم وكان الأسرى يعرضون على آسريهم أموالا طائلة يفتدون بها أنفسهم، فيقبل العرض ويرافق البرتغاليون أسراهم من المسلمين الى بلادهم حيث يقبضون الفدية ذهبا وزنوجا . وعندما حمل الزنوج لأول مرة إلى البرتغال كانوا موضع اعتبار مزدوج إذ هم أرقاء وبشر فى وقت واحد . (وثنيون يمكن كسبهم وتحويلهم إلى مسيحيين) . أما المسلمون فيجب أن يقهروا ثم يقتلوا .

وفى عام ١٤٤٤ حملت إلى لاجوس أول شحنة كبيرة من الرقيق قوامها مائتان وثلاث وخمسون رقيقا .

بقلب يتفطر من الحزن للمناظر البشعة التى تمثل على مسرح الألم والحسرة من تمزيق شمل الأسرة وفصل أفرادها الواحد عن الآخر، يكتب فى تفجع بقلم الواقف على أسرار النفس البشرية وما يختلج فيها من شعور الكمد وهو لم يزل فى طور طفولة الزمن، ولكنه يسرح النظر فيما وراء العذاب الوقتى إلى الخلاص الأبدى الذى أصبح لأولئك الذين سماهم « بأبناء آدم السود » حق التطلع إليه ، صور الراوى الأمير هنرى ممتطيا صهوة جواده القوى المطهم ومن حوله رجال حاشيته وهو يشرف على عملية تقسيم الرقيق إلى خمسة أقسام ، ويوزع على ربابنته وفرسانه المنح والهبات . بلغ نصيب الأمير هنرى من هذه الغنائم البشرية ستا وأربعين عبدا ولكنه أهداهم جميعا إذ كان همه فى تحقيق غرضه لا فى المغانم وهو مغتبط أشد الاغتباط بخلاص هذه الأرواح من وهدة الكفر والوثنية .

www.ibtesama.com Exclusive

توفى جون الأول عام ١٤٣٣ فجلس على العرش ابنه الملك دوارت، فسار سيرة أبيه فى مد يد المساعدة بسخاء لأخيه الأمير هنرى الذى أخذت شهرته تزيد فى بريق تاج البرتغال، ولا غرو، فقد ذاع صيته طولا وعرضا مجتذبا إليه الفرسان والملاحين والتجار، فأخذوا يتقاطرون على ساجرس Sagres ولا جوس من كل صوب وحدب. وكان الأمير هنرى كثيرا ما يقضى لياليه وهو يراقب النجوم من المرصد الذى شيده فى لاجوس بينما هو يتوافر بالنهار على دراسته إلا إذا شغلته عن ذلك واجباته الرسمية بوصفه حاكما على سبتة أو شئون الدولة فى البرتغال.

جبل الأمير هنرى على الكرم فكانت داره مفتوحة للجميع يؤمها الغرباء الوافدون بسفنهم على الميناء فلا يترفع الأمير عن الاختلاط بهم والاستماع إلى أحاديثهم حرصا منه على الانتفاع من معلوماتهم وتجاربهم. وبذلك أصبحت ساجرس مركزا لدراسة أحوال الملاحة، وماهى إلا عشية أو ضحاها حتى أصبح ربابنة البرتغال أخطر المنافسين لربابنة جنوا.

لم يحالف التوفيق الأمير هنرى فيما كان يعتزمه من الاستيلاء على جزر كناريا ولكنه استعاض عنها بامتلاك مجموعة أخرى من جزر الأطلسى فى عام ١٤٣٥ أطلق عليها رجال أسطوله اسم «آزور» لكثرة ما فيها من الصقور والشواهين وكان الأمير هنرى قد عقد النية من زمن غير قصير على الوصول إلى «الجزائر الخالدة» كما عبر عنها على الخرائط التى وهبها له أخوه دون پدرو. وما أن إستولى الأمير على جزائر الأزور حتى برهن على نبوغ فائق فى إدارة المستعمرات، وسرعان ما شرع فى استغلال موارد هذه الجزر الطبيعية بتعميم زراعة القصب والكروم والحبوب مما عاد بالخير العميم على البرتغال.

على أن أسبانيا — فى الوقت نفسه — لم يكن حظها فى جزائر الكناريا أقل من حظ جارتها البرتغال فى جزائر آزور.

www.ibtesama.com Exclusive

عاجلت المنية الملك دوارث عام ١٤٣٨ أى بعد خمس سنوات من جلوسه على عرش البرتغال فأثرت وفاته المبكرة على نشاط الأمير هنرى تأثيرا عميقاً وحدّت من حركته، فقد اضطر الأمير إلى إهمال شئون الملاحة لمعالجة شئون الدولة المستعجلة ، نظراً لأن ابن الملك الراحل وولى عهده لم يكن قد تخطى السادسة من عمره بعد ، وكان عمه الوصى على العرش دون پدرو قد نشبت بينه وبين أرملة أخيه لسوء الحظ — بعض المنازعات ، فتعين على الأمير هنرى أن يتدخل فى الأمر ناصحا ومشيرا .

كانت المغامرات والعلاقات التجارية مع أفريقية قد تركّزت خلال هذه السنوات على أساس متين وشعر الأمير هنرى بأنه قد أصبح لزاما عليه أن يوفد سفارة إلى البابا يطلب منه الموافقة على اعتبار كل البلاد التى يستكشفها رجال أسطوله داخلة ضمن نطاق النفوذ البرتغالى . لم يستجب البابا مارتن الخامس من فوره لرجاء الأمير هنرى فحسب، بل ذهب إلى أبعد من هذا فوهبه هذه الممالك لتكون ممتلكات مستديمة للتاج البرتغالى ثم أمعن البابا الكرم والسخاء فأحل من الأوزار والخطايا أرواح من يلقون حتفهم فى تلك المغامرات من أعوانه وأجناده .



طائر الجنة الذى لا أرجل له

وبذلك أصبح لهذه المغامرات الاستكشافية الاستعمارية مثل ما كان

www.ibtesama.com Exclusive

للحروب الصليبية سابقا من الاعتبار . ونهج البابا أوجينيوس الرابع منهج سلفه فأصدر أمرا مماثلا . وكان هذا الأخير ينتمى إلى أسرة من سر أعيان فينسيا النبيلة لذلك كان له اهتمام عظيم خاص بتجارة الفلفل وجوزة الطيب والقرفة والأحجار الكريمة التى كانت مصدر ثراء عريض لأسر فينسيا .

كان الترف فى ذلك الوقت قد بلغ ذروته فلا عجب أن رصع التاج الذى يكلل هامة هذا البندقى ، رأس العالم المسيحى ، بكمية من أنفس الجواهر وأغلاها ثمنا، تفوق ما رصعت به تيجان من سبقوه من زملائه ، باستثناء ابن أخيه البابا بول الثانى وهو بندقى مثله .



شجرة القرفة

حدث ذات يوم من عام ١٤٤٠ أن نمى إلى علم البابا أوجينيوس أن أحد الجوابين ممن ساحوا فى الأرض طولا وعرضا اسمه نيكولو دى كونتى [١] من فلورنسا يلتمس المثول بين يدى قداسته ، وأضاف رافع الالتماس للأب المقدس بأن الجواب قضى خمسة وعشرين سنة سائحا فى ربوع الشرق وقد زار الصين والهند .

أثار هذا النبأ اهتمام البابا فى الحال . فالهند والتوابل لم تفقد أهميتهما من حسبانه . لاسيما وأن شرابه المفضل كان — على حد رواية المؤرخين — ماء

(١) Nicolo di Conti

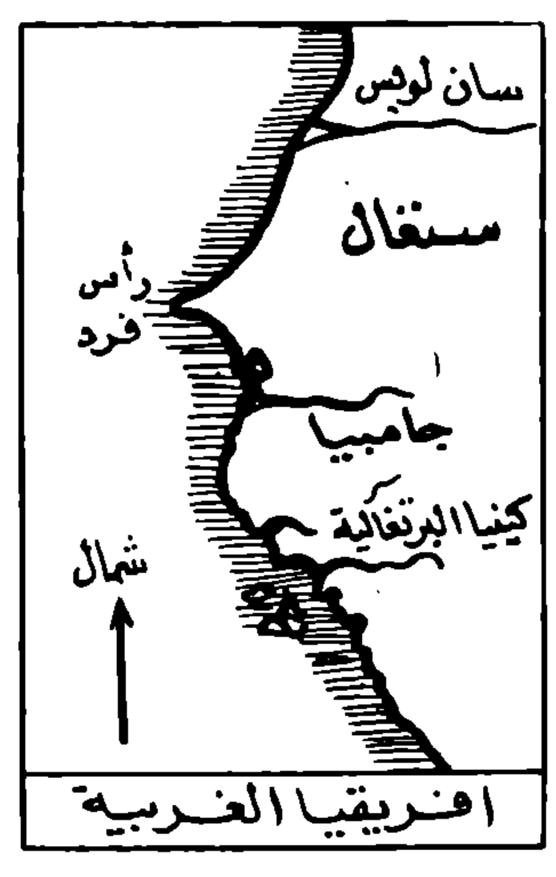
www.ibtesama.com Exclusive

ساخنا متوبلا بالفرقة . وها اليوم بالباب أحد العائدين من منبت هذا التابل يلتمس المقابلة فى خشوع ! فليؤذن له فى الحال .

كان الرجل مفعم القلب حزنا تبدو عليه الكآبة . جاء يلتمس المغفرة من نائب المسيح على الأرض لما ارتكبه من الخطيئة العظمى بارتداده عن النصرانية . وأخذ نيكولو دى كونتى يشرح للبابا كيف أنه اعتنق الإسلام لأنه لم يجد وسيلة غير ذلك لإنقاذ زوجه وأبنائه الأربعة . ولكن للأسف حتى هذه التضحية لم تنقذ جميع أسرته لأن امرأته واثنين من أبنائه ماتوا بالطاعون فى مصر ، فقرر الزوج الحزين المثكل السفر إلى روما لالتماس الغفران .

وبالرغم من أن قصة نيكولو دى كونتى حركت فى البابا عوامل الرثاء له والعطف عليه إلا أن البابا أبى أن يعد التاجر باغتفار خطيئته وقبول توبته إلا على شريطة أن يملى كل ما سمعه وما شاهده طيلة سنوات الرحلة على سكرتيره .

لم يكن بوجيو براشيولينى[1] سكرتير البابا فى ذلك العهد من رجال الكنيسة بل كان مدنياً من قادة إحياء الدراسات التقليدية[2] . وبلغ من نفوذه فى ذلك العهد أن الناس كانوا يطلقون عليه « عصر بوجيو » .



اغتبط السكرتير بالمهمة التى كلفه بها البابا وارتاح إلى كتابة ما أملاه عليه دى كونتى عن تفاصيل رحلته ، ولقد صرح بأن الرحالة رزين يعتمد على شهادته . « يتكلم فى وقار وحذر وإخلاص » . وأن أقواله تطابق ما جاء فى « كتاب » ماركو بولو .

(١) Poggio Bracciolini
(٢) Classical

www.ibtesama.com Exclusive

وزاد من قيمة ما أملاه دى كونتى دقته فى تحديد المسافات بين مختلف الأماكن الهامة والوقت الذى استغرقه فى قطعها .

أملى التاجر أنه سافر ومعه أسرته وبعض الأقارب وأربعة من الخدم ، إلى ربوع الشرق فذرعها طولا وعرضا ، وأنه كان قد تعلم العربية فى صباه حينما أرسل إلى دمشق لأمور تتعلق بتجارة بعض السلع الشرقية . وأنه تعلم الفارسية بعد ذلك ، ثم انتحل شخصية فارسية بارتداء زى فارسى وسافر إلى أقصى الأماكن فى آسيا . ولم يكن يجهد نفسه فى سفره حتى أنه كان يقضى عدة شهور فى مكان بعينه فاستطاع بذلك اختبار أحوال الأهالى وعاداتهم وزراعتهم وتجارتهم فى كثير من البلاد .

حمل سكرتير البابا نيكولا دى كونتى على أن يملى تقريرين أحدهما عن تجاربه الشخصية والثانى عن عادات الشعوب المختلفة التى عاش بينهم .

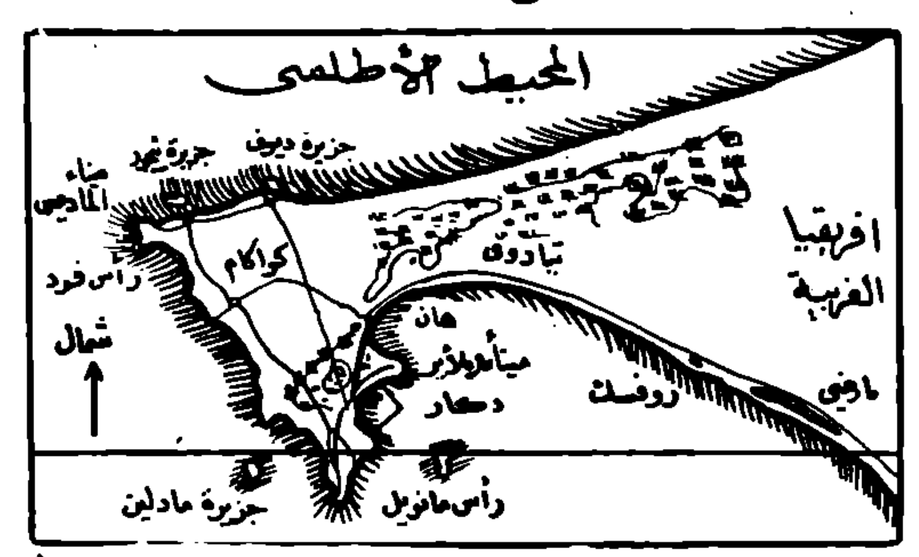
وقد أسهب دى كونتى فى وصف زراعة الفاكهة والتوابل تفصيليا وفى طريقة إعداد الأفاويه ، فروى أن الفلفل والكافور تكثر مزارعها فى سومطرا التى سافر منها وقت هبوب رياح مواتية إلى جزيرة تسمى «جزيرة الذهب» مستغرقا عشرين يوما فى الرحلة . وأنه قد استرعى اهتمامه بنوع خاص فى جاوه الكبرى نوع من الطيور تسمى «عصافير الجنة» وهى فى حجم الحمام ، طويلة الذيل ولكن ليس لها أرجل . وهى تطلب لجلودها وذيولها التى تتخذ أدوات للزينة . فجلودها كثيرا ما تملأ بالتوابل ثم تصدر إلى الخارج على هذه الصورة .

وبعد رحلة استغرقت خمسة عشر يوما وصلت الأسرة إلى جزيرة «صندل» حيث توجد جوزة الطيب والبهار بينما يوجد القرنفل فى جزيرة «بندا» فقط . وفى بندا يوجد أيضا ثلاثة أنواع من الببغاء تسر بها المسافرون كثيرا . بعضها أحمر مصفر المناقر والبعض الآخر ذو ألوان مختلفة متعددة والنوع الثالث أبيض فى حجم الدجاج وهو باهظ الثمن لأنه يستطيع الكلام بسهولة عجيبة ويجيب عن كل سؤال . والبحر فيما وراء هذه الجزر غير صالح للملاحة بسبب الرياح .

www.ibtesama.com Exclusive

وأما جزيرة سيلان « النبيلة » وهى فى حجم سومطرا فتكثر فيهاأشجار القرفة .

وتشبه شجرة القرفة شجرة الصفصاف إلا أنها تفوقها ارتفاعا وأغصانها تنمو أفقيا لا عموديا وأجود ما فيهـا لحاء أغصانها ، أما لحاء الساق فسميك ونكهته أقل جودة وأوراقها تشبه أوراق شجر الغار ولكن أكبر حجما . وثمرتها تشبه حبات الغار يستخرج منها زيت قوى الرائحة يستعمل فى مراهم



لها عند الهنود مكانة مرموقة . ومتى جردت الشجرة من لحائها وثمرتها استعملت للوقود . ومن سوكوترا حيث ينبت الصبر الجيد الممتاز والتى تبعد نحو مائة ميل من ساحل جزيرة العرب ، رحلنا إلى عدن فوصلناها بعدخمسةأيام . ومن هذه المدينة «الغنية النبيلة ذات الأبنية الجميلة» عبرالسواحل إلى أثيوبيا . وقضوا بعد ذلك شهرين فى بربرة .

ونظرا لصعوبة الملاحة فى البحر الأحمر استغرقت الرحلة إلى ميناء سماها « جدم »[1] « شهرين ومن ثم واصلوا السفر برا إلى سيناء ومنها إلى القاهرة حيث حلت بهم المصائب وقد كانوا قبل ذلك فى أتم سرور وسعادة . وقعوا فى الأسر وخيروا بين الموت وبين إعتناق الإسلام — وهو عمل سائغ ، حيث أن معظم وظائف الدولة الهامة على عهد المماليك كان يشغلها أوروبيون اعتنقوا الإسلام .

(١) يقصد جده .

www.ibtesama.com Exclusive

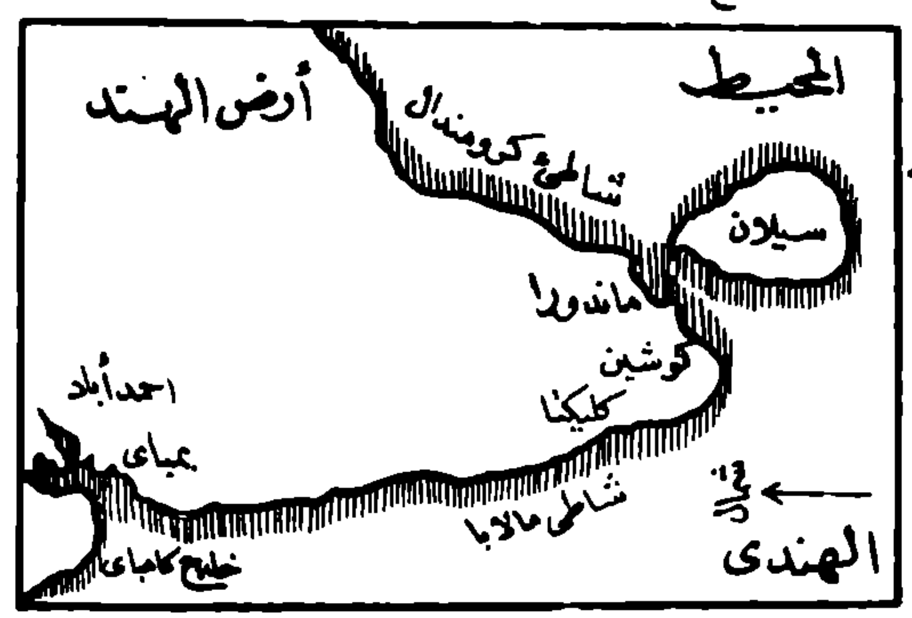
وختم سكرتير البابا قصة نيكولادي كونتي بهذه الكلمات «كل هذا قصه على نيكولا بأمر البابا وقد دونته أنا بوجيو الفلورنسي سكرتير قداسته ولم أضف إلى القصة شيئا ولا أسقطت منها شيئا .

وقد ضمن بوجيو براسيولوني كتابه (تاريخ مختلف الأطوار التي مرت بها مدينة روما) هذه القصة ، ولم تلبث أن احتلت قصة الرحالة والتاجر الفلورنسي المكانة الأولى باستثناء كتاب ماركو بولو .

* * *

ظل الأمير هنري يواصل إرسال البعثات البحرية للاكتشاف ولم يغفل الإفضاء إليهم بما سمعه في سبته من الأسرى الموريتانيين عن وجود نهر عظيم جنوبي بلادهم وحددوا له موضع العلامات التي يمكن الاسترشاد بها إلى موضع مصبه وهي عبارة عن نخلتين تنبتان على الشاطىء . فإذا اجتاز المسافر موضعهما إلى الجنوب بمسافة عشرين فرسخا وصل إلى حيث يصب النهر في البحر .

وليس بعسير أن يتصور الإنسان مبلغ اغتباط الأمير هنري عندما أنبأه رجال بعثته البحرية عقب عودتهم من رحلتهم الطويلة بصدق المعلومات التي نقلها إليهم وأنهم قد اكتشفوا نهر سنغال الذي تقع إلى جنوبه مملكة غانه ، بلاد الزنوج .



وفى ذات يوم رست بميناء لاجوس سفينة كانت فى طريقها إلى فلاندرز يمتلكها تاجر فنيسى اسمه ألويز كادا موستو[١] وقد دهش مما شاهده بها وما سمعه عن احتمال الاتجار مع إفريقية — فسأل عما إذا كان يسمح لأجنبي أن ينضم إلى بعثات الأمير ، ولما جاءه الرد بالإيجاب طلب إلى قنصل فينيسيا أن يقدمه إلى الأمير ففعل . وكان معروفاً عن الأمير حبه لمقابلة أبناء فينيسيا لما لهم من المعرفة التامة بتجارة التوابل، لذلك سر بمقابلة كادا موستو ورحب بمقدمه وبالغ فى إكرامه ، وبلغ من اغتباط الفنيسى بهذه المقابلة أن ترك سفينته تواصل إبحارها إلى فلاندرز بينما تخلف هو فى لاجوس أملا فى الإنضمام إلى إحدى بعثات الأمير المبحرة صوب الجنوب. وفى النهاية أقلع فى مركب شراعية حمولتها خمسون طنا بعد أن وقرت بشحنة طيبة من السلع .

وهو ينبئنا فى يومياته عن جزيرة صغيرة تسمى أرجوين[٢] تعتبر أهم المراكز بشاطىء موريتانيا لتبادل السلع . وهو ينبئنا أيضاً بأنه قام برحلة على ظهر جمل استغرقت ستة أيام داخل الجزيرة حتى وصل إلى مدينة تسمى هودن[٣] تؤمها القوافل القادمة من تنبكتو لابتياع النحاس الأصفر والفضة المجلوبة من بلاد البربر[٤] لتستبدل بالذهب والملاجت[٥] . وعلم التاجر الفنيسى مدى اتساع الصحراء وكيف أنه لا يتيسر لأحد اجتيازها حتى على صهوات الخيل فى أقل من ستين يوماً . ومر فى طريقه برأس سماه رأس فردى واكتشف الجزر التى سميت باسم هذا الرأس . وكانت هذه أطول رحلة قام بها رحالة حتى ذلك الحين فقد بلغت مسافتها ١٥١٠ ميلا من البرتغال .

(١) Aloise Cadamosto

(٢) Arguin

(٣) Hoden

(٤) اسم كان يطلق فيما سبق على منطقة أفريقية الشمالية — مراكش والجزائر وتونس وطرابلس الغرب.

(٥) الفلفل الذى ينبت فى جزيرة غانه (Malaguette) .

www.ibtesama.com Exclusive

وعند نهر جامبيا التقى كادا موستو بملاح من أبناء جنوا اسمه أنطونيو دى نولى كان هو أيضاً ملحقاً بخدمة الأمير وقد اكتشف الإثنان معاً أن نهر سنغال ونهر النيجر إنما هما فى الحقيقة نهران مستقل أحدهما عن الآخر وليسا نهراً واحداً كما توهما فى مبدأ الأمر . ثم واصلا السير معاً حتى سيراليون حيث شاهدا نوعاً من الفلفل وصفاه بالفلفل ذى الذنب .

ويذكر المؤرخ باروس[١] أنه ، إلى أن اتصل البرتغاليون بجزيرة غانه، كان أهل المغرب يحملون هذا الفلفل من موطنه فى جزيرة غانه مجتازين به أراضى أمبراطورية مانديج[٢] المترامية الأطراف ثم صحراء ليبيا حتى مندى برقة[٣] على ابتياع هذه التوابل النادرة الغاليه التى كانوا يسمونها حبوب الجنة . فقد ذكر بيجا لونى الإيطالى فى عام ١٢٣١ فى كتابه عن التجارة أن عناقيد الفلفل الطويلة كانت من بين التوابل التى تعرض فى أسواق نيم ومونتبليه .

ومنذ ذلك الحين شرع البرتغاليون فى استيراد هذا التوبل مباشرة من إفريقية الغربية إلى لشبونة . وبما أنه كان من الصنف الجيد، قوى حريف يفوق كل أنواع التوابل الأخرى ، فإنه لم يلبث أن أصبح من السلع المربحة فى الأسواق التجارية .

دهش كادا موستو لكونه لم ير نجم القطب إلا مرة واحدة، وكان إرتفاعه وقتئذ من سطح البحر لا يتجاوز طول ساق رمح — على حد قوله — وأنه رأى ناحية الجنوب — هكذا كتب فى يومياته — « ستة نجوم براقة متالقة كبيرة الحجم على هيئة هذا الشكل ∴ ⁘ ∴ »[٤] .

وتركنا خلفنا الآن بحر الشمال تجرى مياهه

ونجم القطب المتألق يهبط وئيدا

---

(١) Barros

(٢) الصحراء الكبرى Mandigue

(٣) لعل المقصود سرانيكا (Cyrennica)

(٤) يرى الصليب الجنوبى وقتما يكون الفرع الأطول أفقياً .

www.ibtesama.com Exclusive

وها أمامنا الآن نجم قطب آخر قد تألق
وإلى الشمال يبدو صليب يشع منه النور
ومن كواكب سبعة براقة تكوّن الصليب المقدس

المقطع الخامس

دون كادا موستو فى يومياته أنه علم بوجود مدينة تسمى تجهز (Teghazza)[1] ومعناها (صندوق الذهب) وأنه توجد بقرب هذه المدينة مناجم ملح يحمل الملح منها إلى تنبكتو حيث يبتاعه الأهالى ويدفعون ثمنه تبرا . ثم يرسل هذا الملح إلى القاهرة عن طريق تونس كما يرسل إلى مراكش وحوران حيث يبتاعه التجار الإيطاليون .

وفى هذا الكلام مصداق لما ذكره الرحالة اليهودى الحاخام بنيامين دى توديلا قبل هذا التاريخ بمائتى وخمسين عاما، فقد ذكر أن القوافل كانت تفد على أسوان حاملة معها الملح يقايضون عليه مقابل التوابل المستوردة من الشرق .

كان كادا موستو أول أوروبى شاهد أفراس الماء[2] والفيلة فى هذه الجهات وقد حمل إلى الأمير هنرى بعض لحوم الفيلة المملحة ليذوقها كما حمل إليه أقدام بعضها وأنيابها وقد اعتبرها الأمير من أنفس العجائب حتى أنه أهدى عمته دوقة برجندى قدما ونابا .

وعثر رجال البعثات البرتغالية أثناء رحلة من رحلاتهم إلى السنغال على آثار الأخوين فيفالدى فى سلالة خلاسية يزعم أفرادها أنهم من نسل بعض الإيطاليين الذين أسرهم الأهالى منذ مائة وسبعين سنة قبل ذلك التاريخ .

ويقول المؤرخ باروس بأن اكتشاف البرتغاليين لغانا أحدث دويا فى جميع أنحاء القارة الأوروبية حتى أنه لم يكن للمجتمعات من حديث إلا عن

---

(١) لعلها تكده وقد ذكرها ابن بطوطه فى سياق الكلام من هذه المنطقة وبها مناجم نحاس

(٢) Diego Fomez

www.ibtesama.com Exclusive

هـذا الكشف وعن أولئك الأبطال الشجعان الذين كان لهم الفضل فى ذلك .

أرسل الأمير هنرى كاداموستو للقيام برحلة ثانية . ولكن لم يكن هو الذى توغل إلى الداخل فى هذه المرة بل كان رفيقه ديجو جومير (Diego Gomez) هو الذى فعل ذلك ، فسار متتبعا نهر جامبيا فى تعاريجه إلى مدى خمسمائة ميل حتى وصل كانتور[1] محققا بذلك ما سمعه الأمير هنرى عندما كان فى سبتة عن ثراء هذه الأقاليم. وعندما تسامع الناس عن وصول رجال من البيض إلى كانتور هرع الناس من تنبكتو لمشاهدتهم . وقد علم البرتغاليون من الأهالى هناك عن وجود مناجم الذهب فى المنطقة الواقعة إلى شمال سيراليون كما سمعوا عن ملك من ملوك تلك المنطقة وضع أمام بيته كتلة من الذهب[2] بلغ من ضخامتها أن عشرين رجلا يعجزون متضافرين عن زحزحتها من موضعها إلا قليلا .

وعندما أنبىء الأمير بذلك ، إلى جانب ما أخبر به عن وقوع حروب بين ملوك تلك النواحى أظهر أنه كان على علم بذلك كله عن طريق مراسل له يتجر فى حوران .

وعاد كاداموستو ورفيقه حاملين معهما مائة وثمانين رطلا من الذهب حصلا عليها فى مقابل بضاعتهم الرخيصة .

تقاطر على ساجرس كثير من الأجانب على أمل أن يرخص لهم فى مرافقة رجال الأمير هنرى فى إبحارهم إلى أفريقية ، أما الدوافع لهم على ذلك فمختلفة متفاوتة . فمثلا كان هناك واحد من هؤلاء — موطنه فينا — كان الدافع له رغبته فى إظهار بسالته فى المغامرات الأفريقية ولكنه كان تواقا كذلك إلى مشاهدة العواصف فى المحيط وتجربتها بنفسه ليستطيع أن يتباهى بذلك ويقص تفاصيلها على الذين — لا يحتمل — أن تتاح لهم مثل ما أتيح له من الفرص للوجود وسط عاصفة من عواصف المحيط الأطلسى .

---

(١) Cantor

(٢) يوجد بدار آثار سوث كنسنجتون بلندن نموذج لكتلة من الذهب زنتها ١٠٤ رطلا

www.ibtesama.com Exclusive

وكان هناك فتيان من فتيان بلاط الملوك أحدهما من الدانمارك والآخر من النمسا أذن لكل منهما ملكه فى التوجه إلى الأمير هنرى لمرافقة رجال أسطوله . وعندما كانت الحملة على وشك الإبحار إلى رأس فرد أعطى الأمير هنرى الفتى الدانماركى - واسمه ڤلارت[1] - خطابا إلى ملك معين تقع مملكته تجاه الساحل كان يعتقد الأمير أنه مسيحى فالتمس منه المساعدة ضد الكفار .

ولسوء الحظ حلت الكوارث بهذه الحملة فقد انقلب فى الماء زورق ڤلارت فقتل هو وبعض رفقته بينما أسر الآخرون وحملوا إلى داخل المنطقة .

أبدى الملك الشاب ألفونسو الخامس اهتماما كبيرا بمغامرات عمه البحرية . فكلما كشف عن مكان جديد على الساحل أرسل الملك تفاصيل المكتشفات إلى فنيسيا لتصنع له خريطة بمعرفة الخبير الكسمغرافى[2] فرا مورو[3] وقد أرسلت إلى لشبونة فى عام ١٤٥٩ «خريطة العالم المشهورة» التى رسمها كما أرسلت نسخة منها إلى فنيسيا .

فى عام ١٤٦٣ توفى الأمير هنرى قبل أن يتم كل ما كانت تصبو إليه نفسه من أعمال جسام . على أنه بفضل مثابرته وعزمه الذى لم يلين ولا تطرق إليه وهن قد مهد الطريق لكل من يأنس فى نفسه الرغبة فى سلوكه واقتفاء خطواته . وإذا كان فى لقب « الملاح » الذى أطلق عليه شيء من المغالاة نظرا لأنه لم يبحر إلى أبعد من ساحل مراكش الشمالى إلا أنه كان القوة الدافعة الحافزة للمغامرات التى كان من نتائجها ما طرأ على أسلوب التجارة القديم فى التوابل بين الشرق والغرب من تجديد وسرعة . ومن هنا كان بلقب الملاح جديرا وله مستحقا .

---

(١) Vallarte

(٢) Cosmography هو علم نظام الكون وتركيبه .

(٣) Fra Mouro

www.ibtesama.com Exclusive

ولقد كتب بعد ذلك التاريخ بمائة عام رجل انجليزى[1] كثير الإعجاب بما أمتاز به الأمير هنرى من الجلد والمثابرة « إنه لم يكف أبدا عن محاولاته للإستكشاف حتى اكتشف « بيت مقدس السماوات » .

لم يكشف ملاحوا الأمير هنرى سوى ما كان بالساحل من بوجادور إلى سبيرا ليون وهى مسافة لاتزيد على ألف ومائةميل وعشرة أميال استنفذت خمسين عاما أو نحو ذلك من جهود ونفقات . فليس الاستكشاف بالأمر الهين .

أما النفقات فكانت باهظة حقا . فقد توفى الأمير هنرى وهو مدين بمبالغ ضخمة . بالرغم مما كان يدخل خزينته من جعبة المسيح وما كانت تدره عليه حركة التجارة مع إفريقية الغربية من أرباح وفيرة . ولكن ابن أخيه وابنه بالتبنى سددا كل ديونه .

سجل أزورارا فى تاريخه تقديره العظيم لشخصية الأمير هنرى فى كلمة هادئة رزينة : فذكر ذكاءه المتوقد وذاكرته القوية الممتازة : وحصافة رأيه ورجاحة عقله وتعمق فكره وهدوء طبعه وسموه مقرونا إلى رقة الحديث ووداعة المعاملة حتى مع أقل الناس منزلة . كل هذه الصفات حببت الأمير إلى قلوب الناس جميعا . وأضاف المؤرخ « خيره شمل الجميع ولم يأذ أحدا أبدا »

كانت جهود الأمير وقفاً على الصالح العام فى المملكة وكان يلذ له ابتكار المشاريع التى تعود بالخير على عامة الشعب متحملا نفقات ذلك من صلب ماله . وكان يغتبط كل الاغتباط بأعمال الفروسية ومقاتلة أعداء المسيحية على حين أنه كان ينشد السلام مع جميع النصارى . كان جلدا فى الشدائد والخطوب، متواضعا فى اليسر والرخاء، لم يعرف قلبه معنى الخوف أبدا إلا ماكان من ارتكاب وزر أو خطيئة فى جانب الله .

أثر موت الأمير هنرى تأثيرا كبيرا على حركة السياحات الاستكشافية

---

(١) اسمه صمويل بيرشاس (Samuel Purches) فى كتابه « الحج » الجزء الأول طبع فى لندن عام ١٦١٩.

www.ibtesama.com Exclusive

لان أهم ما كان يعنى به الملك الفونسو هو فتح مراكش ، أما مسألة أمتلاك أراضى أفريقية الغربية واستغلالها فقد ترك امرها إلى شركة رُخص لها فى ذلك على شريطة أن يجوب ربابنة سفنها مسافة تزيد خمسمائة ميل كل عام على العام المنصرم فى اتجاه الجنوب .

واحتكرت الدولة الفلفل والعاج .

وكانت ترسل بين الفينة والفينة حملات أستكشافية بأمر الملك أهمها الحملة المرسلة إلى ساحل الذهب عام ١٤٦٩ . على أن خط الاستواء لم يتم أجتيازه إلا عام ١٤٧١ لأول مرة ، اجتازه أولئك البرتغاليون الذين خاضوا مياه المحيط الأطلسى الرهيب لأول مرة قبل اجتياز خط الاستواء بثلاث وخمسين سنة أكراما لأميرهم وحبا منهم فى إرضائه .

www.ibtesama.com Exclusive

الفصل الثالث

فوق أمواج الأطلسى

إلى حيث تنادى الفضيلة ويدعو المجد يذهبون لا يثنى
عزائمهم هول الأخطار ولا من العمل يكلون فمن القدم
جبل على البسالة ملوك لوزيتانيا (١) نسل المغاوير
الشجعان وجابوا أقصى حدود الأرض فى وضح النهار
وركبوا فى الضحى متون أبعد الأمواج والأخطار
واخترقوا أقصى شواطىء تطفو فوقها البحار

المعلم الثامن

كانت فكرة احتمال الوصول إلى الهند بالإبحار فى اتجاه غربى قد شغلت الأذهان بعض الأوقات. وطال الجدل فى اهتمام بالغ حول الموضوع حتى رأى الملك الفونس الخامس أن يحسم النزاع، فدعا باولو توسكانللى الطبيب الفلكى الفلورنسى الجنسية، وهو العقل المتزعم لهذه الفكرة وطالبه بإثبات ماذهب إليه من إمكان الوصول إلى الهند، وأن يدعم أقواله بالبراهين.



(١) اسم البرتغال القديم.

كان هذا الطبيب المولع بالجغرافيا قد درس ما سجله ماركو بولو فى وصف ساحل الصين وما كتبه هذا الجوّاب الفنيني عن جزيرة سيبانجو Sypango [١].

وكان توسكانللى قد درس كذلك تقرير نيكولودى كونتى الذى أيد فيه كل ما قصه ماركو بولو ، وكان هذا العالم الفلورنسى يشارك الكردينال الفرنسى بيير دبى [٢] مؤلف «صورة الكون» رأيه فيما يتعلق بحجم الكرة الأرضية . فكل من الرجلين يزعم أن العالم أصغر بكثير مما كان يفترض ، وأن المسافة بين سيبانجو وشاطىء أوروبا الغربى لا يمكن أن يزيد على مائة درجة «طول» .

ألف الكردينال كتابه صورة الكون عام ١٤١٠ عندما كان رئيساً لكلية نافار اللاهوتية بباريس وقد نهج فى كتابه منهجا مغايراً لمعظم معاصريه فعمد إلى إحياء النظريات التى كان يأخذ بها الكتاب المسيحيون الأوّل من أمثال مارتن أوف تير [٣] من علماء الجغرافيا فى القرن الاول ، كما اقتبس كثيراً من الإنجيل ومما ورد فى نصوصه عن حملات الملك سليمان التى بعثها إلى أوفير لحمل الذهب إليه منها . كذلك استمد غير قليل من نظريات بلينى وسنيكا وسيرجون ماندفيل .

* * *

إغتبط باولو توسكانللى بالفرصة التى أتيحت له لإمداد الملك الفونسو بالمعلومات التى ينشدها فقد جاء فى خطاب أرسله إلى القس فرناندومارتنز [٤] «إن الملك قد طلب منى بعض الإيضاحات بشأن طريق إلى موطن التوابل تكون أقصر من طريق غانه التى تسلكها أنت فى الوقت الحاضر» . ولتوضيح الطريق الجديدة وجعلها أقرب إلى الفهم ، أرسل الطبيب الفلورنسى خريطة ملاحية رسمها بنفسه مبيّنا فيها الجزر الواقعة إلى غرب الساحل الإفريقى وهى التى يوصى بأن تبدأ منها الرحلة فى اتجاه غربى ، وتبين الخريطة كذلك -على حد قوله- الأبعاد (على الترتيب) من القطب أو خط الاستواء ، وعدد الأميال

---

(١) اسم اليابان .

(٢) Pierre d'Ailly

(٣) Martin of Tyre

(٤) Fernando Martinzz

www.ibtesama.com Exclusive

التى لابد من قطعها قبل الوصول إلى البلاد التى ينبت فى أراضيها الخصبة كل نوع من التوابل والأفاويه ، إلى جانب غناها بالأحجار الكريمة ... وخص بعلامة معينة جميع الأماكن التى تستحق الزيارة منوّها بميناء زيتون[1] التى تفد عليها كل عام مائة سفينة موسوقة بالفلفل إلى جانب مئات أخرى محملة بمختلف التوابل ، وهو يشير كذلك إلى الثروات الضخمة فى تلك البلاد وكثرة عدد سكانها من رعايا الخان الأعظم .

وصرح توسكانللى بأنه حصل مباشرة على هذه المعلومات عن كاثاى (الصين) من مبعوث الخان الأعظم إلى البابا أوجينوس الرابع .

ووضح توسكانللى على خريطته المسافات بين لشبونة وميناء كوزاى[2] فى إقليم « مانجى » عن طريق البحر الغربية مقسمة إلى ست وعشرين عقدة بين كل عقدة والأخرى مائتان وخمسون ميلا . وهذا يساوى ثلث محيط دائرة الكرة الأرضية .

أما جزيرة سيبانجو الحافلة بالذهب واللؤلؤ والأحجار الكريمة والمعابد والقصور الملكية المكسوة بالذهب الخالص فإنها تبعد مسافة مائتين وخمسين ميلا من جزيرة أنتيليا وهى المسماة جزيرة البحار السبع ، وليست المسافة إلى تلك الشواطىء المجهولة بالمسافة الشاسعة .

وبالرغم من هذه الرسائل فإن شيئا لم ينجم عنها لأنه لا يوجد فى السجلات مايدل على أية محاولة للقيام بسياحات بحرية فى الاتجاه الغربى ، ولكن التكتم كان من طابع هذا العصر ، لذلك لا يمكن الجزم بأن البرتغاليين لم يحاولوا تنفيذ مشروع توسكانللى — لمجرد عدم وجود شىء عن تلك المحاولات فى السجلات .

وفى عام ١٤٨١ توفى الملك ألفونسو وهو وان يكن قد قعد به الفتور عن متابعة الرحلات الاستكشافية بعض الشىء إلا أن ابنه الذى أخلفه على العرش أعاد سيرة الأمير هنرى فى هذا الميدان حتى لكأنه قد تقمص روحه فكانت

(١) لشانجتشا وبمقاطعة فوكين (٢) هانجشاو Hang Chau

www.ibtesama.com Exclusive

مكتشفاته فى البر والبحر بعيدة الأثر ، ولا غرو فقد درب فى صباه وأعد للقيام بمثل هذه الأعمال منذ نعومة أظفاره ، فنرى والده يسند إليه وهو فى التاسعة عشر من عمره مهمة الإشراف على جميع شئون البحرية والمستعمرات.

ونحن نرى أيضا هذا الوزير الحدث للمستعمرات يرسل عيونه ورسله إلى داخل أراضى فورت أرجوين[١] حتى لا تخفى عليه خافية مما يجرى فيها من الأمور .

وكان وهو ولى للعهد شديد الإهتمام بما يقوم به الرياضيون من دراسات وكانوا قد ألفوا — صدوعا بأوامر أبيه — مجلسا لوضع قواعد جديدة يستعين بها الملاحون على قياس خط العرض عندما يتعذر رصد نجم القطب مباشرة لاسيما وأن ما عاناه كادا موستو من احتجاب نجم القطب أثناء سياحاته جعلت من الضرورى قطع الشك باليقين لما لهذه المشكلة من أهمية حيوية لكل ماخر جنوب خط الاستواء .

وكان المجلس أو الا (جنتا)[٢] يتكون من طبيبى الملك اليهوديين وعدد من الرياضيين ، وأحيانا ينضم إليهم بعض الأجانب من الفلكيين ولكن بصورة مؤقتة . وفى ذلك الحين نشر الأستاذ زاكوث[٣] اليهودى أستاذ علم الفلك بجامعة سلمنكا كتابا هاما بالعبرية يعرف (بالتقويم الدائم) كان خير عون للفلكيين والتقويم البحرى وخاصة بعد أن قام بترجمته إلى اللاتينية أحد أعضاء الجنتا . وكانت عقدة المسألة . هى ما الذى يمكن عمله للاستغناء عن رصد النجم القطبى مباشرة ؟ كان الجواب على هذا قياس إرتفاع الشمس ظهراً بواسطة الاسطرلاب حتى يستطاع تعيين خط العرض ، وقد أرسل أحد طبيبى الملك إلى أفريقية الغربية لتجربة الإبتكار الجديد فنجحت التجربة على أتم وجه . ومنذ ذلك الحين شرع أعضاء المجلس فى تدريب جميع الربابنة على طريقة استعمال الاسطرلاب .

---

(١) Fort Arguin أى حصن أرجوين

(٢) كلمة أسبانية معناها (المجلس الأعلى) أو مجلس الملك .

(٣) Zacouth

www.ibtesama.com Exclusive

انضم إلى أعضاء مجلس العلماء جغرافى ألمانى الجنسية اسمه مارتن بهايم[١] من مواليد نورمبرج[٢] منجذبا إلى البرتغال بفضل شهرتها المنتشرة فى كل مكان . ولما كان من تلامذة الفلكى الشهير رجيومنتانس[٣] الأستاذ بجامعة ميونخ فقد ساعده ذلك على تبوأ مكانة مرموقة فى لشبونة .

بينما كان علماء الفلك ماضين بأمر الملك جون الثانى فى ضبط وسائل الاستعانة بهذا العلم فى البحر، نشط الملاحون للتعمق بسفنهم فى اتجاه الجنوب .

كان الغرض الذى يهدف إليه الملك من وراء الإستكشاف مزدوجا — العثور على القس يوحنا واكتشاف مواطن التوابل التى يبيعها الايطاليون للأسواق الأوروبية . وكان الفلفل يسترعى إهتمام الملك بنوع خاص ويسعى لإيجاد سوق رائجة للفلفل المستورد من مزارع غانه والذى أرسل عينات منه إلى بروج (Bruges) وغيرها من مراكز التجارة الرئيسية — ولكن عندما تبين له أن هذا النوع من الفلفل يقل الثمن الذى يبذل فيه بالأسواق عن ثمن الفلفل المستورد من الهند ، أرسل عاملا من عملائه إلى القاهرة ليتحرى له السر فى ذلك ومعرفة الفرق بين الصنفين ، وكلف الملك مبعوثه فى الوقت نفسه بدراسة سوق التوابل عامة ، بمنتهى الدقة . وعندما وقف الملك من تقرير مبعوثه على ضخامة الأرباح التى يجنيها الوسطاء الإيطاليون من تجارة الفلفل



إحدى فصائل الفلفل

(١) Martin Behaim (٢) Nurembarg
(٣) Regumontanus

لهندى قرر أن يجعل البرتغال مستقلة عن المستوردين الفنيسيين وغيرهم حتى يتيح لرعاياه فرصة للغنم والثراء .

على أنه لم يكن يعتزم استبعاد الأجانب من المساهمة فى جولاته الإستكشافية . والواقع أنه دعا غيره من الملوك إلى تأييده ومعاونته . ولكن احدا لم يستجب له لأن مصالح الشعوب التى دعاها كانت تتركز فى التعامل مع الإيطاليين .

إعتزم الملك — أمام فشله فى حمل الدول الأخرى على التعاون معه — أن يضمن لأمته حقوق كل ما قد يتوصل إلى اكتشافه فطلب من البابا ، كما طلب الأمير هنرى من قبل ، أن يهب له جميع ما قد يكتشفه من الأراضى ، وأن يحرم على غيره من الأمم استعمال سفنها للمياه التابعة لتلك الأراضى . استجاب البابا لطلباته ولكن تخوفه من محاولة الدول الاستيلاء على تجارة أفريقية الغربيه ، وبخاصة من إنجلترا دفعه إلى إيفاد سفيره إلى بلاط الملك ادوارد الرابع ليعلمه بأنه قد نصّب نفسه عاهلا على غانه وأنه يرجو من ملك إنجلترا أن ينشر هذا النبأ على الناس فى جميع أنحاء مملكته . وأن يحرم على رعاياه المخور فى مياه غانة بسفنهم ، وزاد على هذا بأن طلب إلى الملك أن يأمر التاجرين الإنجليزيين ، الذين كان يعرف اعتزامهما الإبحار إلى غانة ، بالعدول عن ذلك .

استجاب الملك إدوارد الرابع لجميع هذه المطالب فعاد السفير إلى مليكه قرير العين منشرح الصدر .

ولكن الملك كان ما يزال يخشى الخديعة رغم هذه التحفظات الدبلوماسية فعمد إلى إتخاذ وسائل أخرى يأمن بها عدم تسرب الأجانب إلى ممتلكاته التى يجهد فى المحافظة عليها . لذلك بث عيونه وجواسيسه فى شتى البلاد ليفضوا إليه عن أى مشروع يوضع للاتجار مع أهالى أفريقية الغربيه . ولم يكتف بذلك بل شدد على رجال أسطوله بالتزام السرية وعدم

www.ibtesama.com Exclusive

ذكر الأماكن التى يزورونها إلى أحد . وقد برهنت الأيام على أن هذا التكتم الشديد عاد بالخير العميم على البرتغال .

فى عام ١٤٨٤ أرسل الملك القبطان ديبجو كام[١] إلى ملك بنين[٢] فوقف القبطان منه على بعض حقائق كان يعلم بأنها ستكون مصدر غبطة المليك.

كان سرور الملك عظيما حقاً عندما أفضى إليه ديبجو كام عقب عودته بما سمعه فى بنين عن ملك أفريقى يبدو أنه القس يوحنا الذى طال البحث عنه .

وكان ملك بنين قد لاحظ باهتمام طريقة البرتغالى وهو يتعبد فسأله عن معنى كل هذا . ولما شرح له البرتغالى بأنه مسيحى وبأن الصليب رمز للعقيدة المسيحية هتف الملك بأن مولاه وسلطانه الذى يدين له بالطاعة لابد وأن يكون مسيحياً هو أيضاً . اهتم البرتغالى بقول ملك بنين اهتماماً بالغاً وعلم منه أنه يوجد على بعد مائتين وخمسين ميلا ملك عظيم قوى مرهوب الجانب يسمى أوجان[٣] وأن على كل ملك يرتقى عرش بنين أن يرسل إليه الهدايا العظيمة وأن يطلب إليه الإعتراف بحقه فى العرش . وكان المبعوثون يعودون من لدنه حاملين رمز شعاره الملكى وهو عبارة عن عصا فى طرفها صليب .

لم تقع عين أحد من المبعوثين على شخص هذا الملك لأنه كان يكلمهم على الدوام من وراء ستار، ولكنه كان عندما يُخاطب وعندما ينتهى الحديث يخرج من وراء الستار إحدى قدميه دلالة على أنه قد استجاب لما طُلب منه .

ألهبت هذه الأنباء مخيلة الملك ألفونس .

واكتشف ديبجو كام أقليم الكونغو أيضاً .

وتوثقت عرى الصداقه بين ملك تلك الجهات وبين الملاحين البرتغاليين

(١) Diego Cam — (٢) Benin

(٣) Ogan

www.ibtesama.com Exclusive

إلى حد أنه رغب فى اعتناق المسيحية وفعلا أرسل بعض أبنائه وعدداً من أعيان مملكته إلى البرتغال حيث تلقنوا تعاليم المسيحية وعُمدوا وقام الملك جون الثانى وزوجه الملكة بدور الكفلاء فى عملية التعميد .

أعيد دييجو كام إلى إفريقيا من جديد للقيام باستكشافات جديدة مصطحباً معه فى هذه المرة مارتن بهايم الألمانى الذى عهد إليه إتمام الخرائط الموجوده وتنقيحها وتوطدت علاقات المودة بين رجال البعثة البرتغالية وبين الأهالى على طول ساحل غانة (اعتاد البرتغاليون أن يسموا جميع ساحل أفريقيا الغربى بساحل غانة) فكان مما قاله الراوى فى ذلك . « إننا لانحتاج إلى رماح أوسيوف فممتلكاتنا سلمية ، زودنا بالذهب والعاج والشمع والجلود والسكر والفلفل » .

وعند مصب نهر الكونغو أقام دييجو كام عموداً من الحجارة حفر فيه شعار ملك البرتغال ، ففى ذاك العهد كانت الصلبان المتخذة من الرخام قد نصبت محل صلبان الخشب التى أقيمت فى عهد الأمير هنرى .

فى نفس هذا العام الذى جرت فيه هذه الحوادث وهو عام ١٤٨٤ بالذات عرض رجل من جنوا اسمه خرستفر كولومبس[١] على ملك البرتغال أن يرشده إلى طريق توصل إلى الهند، موطن التوابل ، أقصر من سواها، على شريطة أن يضع الملك تحت تصرفه السفن اللازمة لهذه الحملة .

كان هذا القبطان واثقاً من نجاح مشروعه كل الوثوق إلى حد أنه اعتبر نفسه محقاً فى أن يشترط على الملك أن يعده بتعينه نائباً عنه فى جميع البلاد التى يكتشفها وأن يعينه أميرالا على أسطوله وأن يمنحه لقب نبالة يتوارثه خلفاؤه وأن يكون له عشر ما ينتج عن مكتشفاته من غنم وربح .

وأطلع الملك أيضاً على الأسباب التى حدت به إلى الاعتقاد فى إمكان الوصول إلى الهند بطريق أقل طولا إذا هو أبحر من جزر الأزور فى

---

(١) Christopher Colompbus

www.ibtesama.com Exclusive

اتجاه جنوبي غربي . ولا بد أن يكون هذا القبطان قد ذكر الملك جون الثاني بما كان من اهتمام سلفه بهذا الموضوع وبالخطاب الذى كان باولو توسكانللى قد أرسله إليه .

كان هناك بالفعل مراسلات بين كولومبس وبين الطبيب الفلورنسى الذى كان قد أرسل إليه نسخة من خطابه إلى الفونسو الخامس مضيفاً إليها بأن من دواعي سروره أن يعلم بأن لكولومبس رغبة نبيلة فى السفر. إلى حيث تنبت التوابل مؤكداً له ما ينتظر من وراء مثل هـذا السفر من شهرة وشرف وربح لمن يحققه . وكذلك أرسل إليه خريطة تبين الطريق إلى الهند ثم أضاف إلى ذلك قوله « غير أن رؤية الطريق على وجه الأرض خير من رؤيتها على الخريطة » .

لم يذكر كولومبس للملك معلومات توسكانللى وحسابه للأبعاد لحسب بل ذهب إلى أبعد من هذا ، فذكر له من الدلائل ما يثبت بأن الأراضى الواقعة إلى غرب جزر الآزور عامرة بالسكان فعلا . وكان مما أخبره به أن البحر قذف بجثتين إلى شواطىء إحدى تلك الجزر لها وجهان يختلفان عن منظر ما ألفه الناس، وأن هناك أشجاراً من نوع غير معروف ارتطمت بتلك الشواطىء عينها، وتكلم أيضا عن غاب قذفه البحر بلغ من ضخامة حجمه أن الأنبوبة منه فيما بين عقدة وأخرى تتسع لحمل تسع زجاجات من الخمر . ونقل إليه كذلك ما كان قد أخبره به قبطان برتغالى من عثوره على بعد خمسين فرسخاً من رأس سنت فنسنت على قطعة من الخشب منحوتة بلا أثر فيها للنحت بالحديد ويغلب على الظن أن رياحاً غربية دفعتها إلى حيث التقطها القبطان .

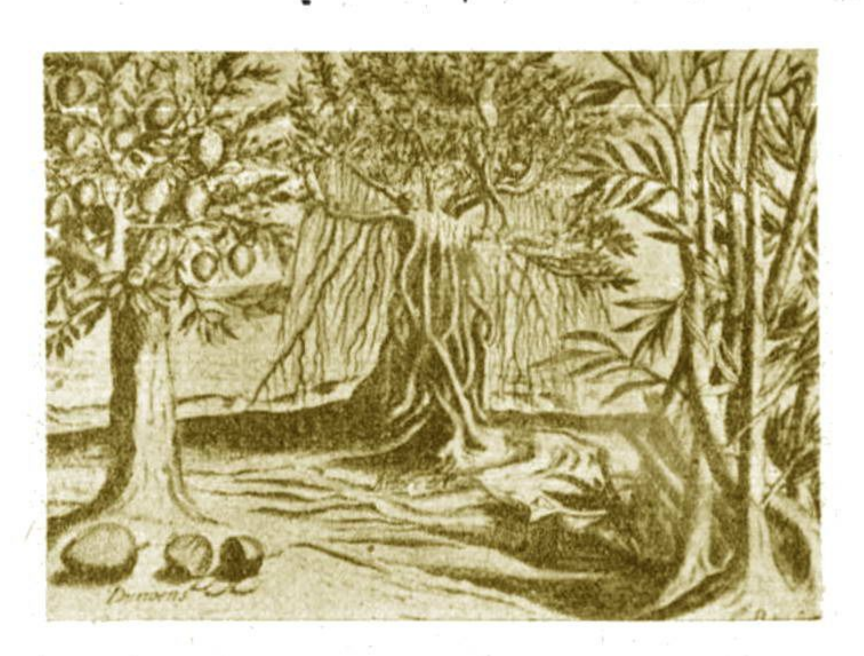
وأفضى إلى الملك كذلك بأنه قد درس عدداً غير قليل من خرائط الملاحة التى يمتلكها حموه حاكم ميناء سانتو سابقاً ويدعى برسترللو وأن هناك طائفة أخرى من الأدلة التى يستطيع أن يقنع بها الملك ، فمثلا يمكن رؤية أراضى بعض الجزر من شواطىء الآزور فى وقت معين من السنة . فكثير

www.ibtesama.com Exclusive

من الملاحين رأوا أرضاً من مسافة بعيدة ولابد أن تكون هذه الأرض جزيرة أنتيليا وسان براندون [١] اللتين كتب عنهما الجغرافيون القدامى و اللتين تروى عنهما الأساطير . وأكد كولومبس بأنه من اليسير الوصول إلى الهند وخيراتها من تلك الجزر .

وصرح كولومبس أيضاً بأنه وصلته مباشرة معلومات من بحار على عهد الأمير هنرى دفعت سفينته العواصف إلى جزيرة فى الغرب فوجد لدهشته أنها مأهولة . ولكنه بادر هو ورفاقه إلى الإبتعاد عن الشاطىء بسفينتهم خشية أن يحرقها أهل الجزيرة، وكانت رحلتهم فى العودة شاقة مضنية فوصلوا البرتغال وهم أقرب إلى الموت منهم إلى الحياة .

تملك الأمير هنرى غضب شديد لعودة أولئك البحارة دون أن يقفوا على نبأ تلك الجزيرة وأهلها وأمرهم بالعودة إليها فى الحال ففعلوا ولكن



خيزران ـ الغاب الهندى

ما كاد البحارة التعساء يصلون إلى جزر الآزور حتى ماتوا جميعاً من الجهد والإعياء ما عدا البحار الذى روى القصة لكولومبس . وأكد هذا الأخير للملك أن الجزيرة المشار إليها لا بد وأن تكون جزيرة أنتيليا على التحقيق

(١) Sy. Brandon

www.ibtesama.com Exclusive

وضع الملك اقتراح كولومبس أمام المجلس لبحثه وإبداء رأيهم بشأنه ولكنهم بعد مناقشة موضوعه وبحث المشروع بمنتهى الدقة ، أشاروا على الملك برفضه . ويقال أن أهم مادفعهم إلى رفض المشروع أمران : أولهما جسامة المكافأة المطلوبة . وثانيهما أن كولومبس قد بنى إعتقاده فى نجاح مشروعه على ماجاء فى كتاب ماركو بولو عن جزيرة سيبنخو فى حين أن ماركو بولو لم تطأ أرضها قدمه .

على أن هذا الرفض لم يزعزع من عقيدة كولومبس فى إمكان العثور على الطريق القصير للهند وإذا كان ملك البرتغال فى غنى عن خدماته لمثل هذه المغامرة التى تبشر بنتائج عظيمة فان غيره من الملوك قد يسعدهم الحصول على خدماته : ولكن لسوء حظ كولومبس رفض الرياضيون والفلكيون فى أسبانيا كذلك أن يقتنعوا بإمكان الوصول إلى الهند عن طريق الإبحار غربا وأخذ صاحبا الجلالة الكاثوليكية فرناند ملك أرغون وزوجه إزابللا ملكة قشطاله برأى مستشاريهما الذين إعتبروا مشروع كولومبس ضربا من الوهم والتخريف

وكانت هناك عقبة أخرى تحول دون الاستعداد لإنفاق المال والمجهود الفكرى على مشروع ليس إلا ضغث أحلام ، هذه العقبة هى الانشغال بقتال المغاربة فى غرناطة .

بينما كان كولومبوس يحاول عبثا أن يجد متبنيا لمشروعه كان الملك جون الثانى ماضياً فى تؤدة وأناة وراء خطته التى اختطها بنفسه لاكتشاف الهند ، وكان الملك يعتقد بأن كل ما على رجال سفنه أن يعملوه هو أن يتابعوا السير على طول الساحل الافريقى فيصلون إلى الهند .

وكان لغرب افريقية فى نظره أهمية أخرى إلى جانب أهميتها من الناحية التجارية ، أهمية نشر الدين المسيحى . لذلك أوفد إليها بعثات التبشير ، وقد اختار للقيام بعمليات التبشير هذه رجالا متضلعين فى العلوم الرياضية ليستطيعوا

www.ibtesama.com Exclusive

درس المسائل الفلكية إلى جانب تدريس التعاليم المسيحية ، وطلب إليهم الملك أن يصرفوا أوقات فراغهم فى الاستقصاء والبحث عن « ملك الحبشة العظيم الذى يشار إليه فى أحاديث الناس باسم القس يوحنا » إذ كان الملك ينتظر من هذا الملك القس مساعدات عظيمة لمشروعه المتعلق بالهند ، وبما أنه تعذر حتى الآن الوصول إلى مملكته عن طريق ساحل أفريقيا الشمالى حيث ترسم الحبشة على الخرائط متاخمة له ، فقد اصبح الملك يرجو إمكان الوصول إليها عن طريق الساحل الغربى ، وكان الملك قد اعتمد فى وقت من الأوقات — لتحقيق رغبته — على مساعدة حاكم جولوف[1] الذى وعد باعتناق المسيحية إذا أعانته البرتغال فى حربه ضد أخ من أخوته . سر الملك بذلك واستجاب لطلب الإفريقى . ويقول الراوى أنه بلغ من رغبة الأمير الإفريقى فى التعميد أن سحب قواته من الميدان للظهور فى موكب الاحتفال فتمت بذلك هزيمته فى حربه مع أخيه .

التجأ الحاكم المهزوم إلى البرتغال ومكث بها فترة من الزمن إلى أن أرسل ومعه عشرون سفينة بسلاحها لاستعادة ملكه . ولكن لسوء حظه خشى قائد الحملة من أن يلقى حتفه نتيجة رداءة الجو الإفريقى فقتل الحاكم وعاد بالسفن إلى البرتغال دون أن يقوم بالمهمة التى انتدب لها .

ومهما يكن من أمر فإن الملك جون الثانى اتخذ خطوة جديدة فى سبيل تحقيق هدفه الذى لم يحدعنه فأنشأ صلات جديدة بينه وبين حكام التوكولير[2] Toucouleurs وملك تنبكتو . وأسست مستعمرة تجارية تبعد سبعين ميلا إلى شرق مدينة هودن Hoden ولم يكن الغرض من تأسيسها للتجارة وحدها ولكن لمعرفة أحوال النجاشى قبل كل شىء . فقد كان القول الدائر على الألسن خلال عهد الملك جون الثانى أن أهم مايصبو إليه فى حياته هو جمع مايمكن جمعه من المعلومات عن مملكة هذا العاهل أى « النجاشى » .

---

(١) Golof

(٢) Toucouleurs ومعناها «جميع الألوان»

www.ibtesama.com Exclusive

شرعت بعض الدول فى ذلك الحين تتجر خلسة مع أفريقية الغربية فعمد الملك إلى اصطناع الحيلة ليضع حدا لهذا التعامل ، فعمل على ترويج إشاعة مضمونها أن السفن ذات الهياكل المستديرة لم تستطيع العودة من غانة بسبب التيارات العنيفة وأن السفن الصغيرة ذات الصوارى الأربعة والأشرعة المثلثة هى أصلح ما يمكن استعماله فى هذه السياحات ، وقرن الملك القول بالفعل تمويها على الناس فأرسل بعض سفن هولندية عتيقة من الطراز الأول موسوقة بالجير والآجر وشتى المؤن إلى إفريقيا الغربية . هذه السفن لم تعد ثانية لأنها حطمت عقب وصولها إلى إفريقيا وفقا للخطة المدبرة . وأخذت العهود على البحارة ألا يفشوا السر . وقتل بعض الذين شوهدوا وهم يتجهون نحو قشطالة لإفشاء السر وهكذا نجحت الحيلة .

قرر الملك أن يواصل العمل على تحقيق أهدافه فأرسل برثولو ميو دياز أحد رجال حاشيته ومعه أحد ربابنة أسطوله لمتابعة عمليات الكشف بالإبحار جنوبا إلى حيث مطلع الشمس وبمواصلة السير إلى أقصى حد مستطاع .

أبحر برثولوميو دياز بسفينتين حمولة كل منهما خمسون طنا ومعه ثالثة أصغر منهما لحمل مؤونة ثلاثة أعوام . واصطحب معه عينات التوابل ليطلع الأهالى عليها فى البلاد التى ينزل بها علها تكون مما ينبت فى بلادهم فيتعرفون عليها أو يرشدونه إلى مواطنها كما اصطحب معه عددا غير قليل من الزنوج ذكورا وإناثا ليترك فى كل مكان جديد يكتشفه جماعة منهم لينبئوا الأهالى عن علم وخبرة شخصية بعظمة البرتغال وليستفسروا فى الوقت نفسه عن القس يوحنا وعن الهند .

وسلم الملك قبطانه ثمانية عشر فرسا مطهمين بسروجها وأكسيتها المزركشة ليهدى منها إلى ملوك البلاد التى قد ينزل بها أثناء الرحلة .

أبحر الأسطول الصغير عام ١٤٨٦ موغلا فى الخضم المجهول ، ومرت عليه سنة طويلة شاقة مضنية وهو يمخر فوق العباب إلى أن تذمر البحارة

www.ibtesama.com Exclusive

من هذه الرحلة التى كانت تبدو بلا نهاية ، فاكتشاف البلدان لا يعنيهم من الأمر شىء ، وقد دخلوا فى مناطق آذتهم برودتها وأذهلتهم عواصفها عن معرفة مركزهم من المحيط ونفد ما معهم من المؤونة أو كاد . فقد خلفوا سفينة المؤونة عند نهر البرتغال ليتمكنوا من الخروج إلى عرض البحر بكركوريهما دون عائق . واستولى اليأس على البحارة فراحوا يطالبون الربان بالكف عن هذه المحاولة الفاشلة وأن يأخذ فى طريق العودة إلى الوطن . ولكن برثولوميو دياز راح يناشد الجماعة بأن يتذرعوا بالصبر ثلاثة ايام أخرى فإذا لم يظهر لهم أثر من يابسة بعدها ولىّ شطره نحو الوطن ولكن لحسن الحظ لاحت لهم الأرض بعد ذلك بقليل فوصلوا إلى مكان أطلقوا عليه اسم (لوس ڤاسكيروس)[1] لكثرة ما شوهد فيه من البقر . وواصلت السفينتان المسير حتى وصلتا إلى مصب نهر نصبوا عنده عمودا كتب عليه « إلى هنا وصل برثولوميو » .

من هنا أخذ برثولوميو دياز فى طريق العودة وهو يكاد يغص بمرارة الخيبة لعدم الاستدارة حول طرف أفريقية الجنوبى الموضح على خريطة مورو تحت اسم رأس ديال (Dial) واشتد به الغم والكرب لاعتقاده بأنه لم يكن فى مياه البحر الشرقى . وكان يعتقد بما ذهب إليه فرا مورو بصفة قاطعة من أن بحر الهند ليس بحرا مغلقا على نفسه — كما كان يفترض بوجه عام فى ذلك الوقت — وأنه يتصل بالأطلسى .

لم يطل شعور برثولوميو بالاستياء والغم إذ لم يلبث أن تحول كل هذا إلى غبطة وحبور ولنقتبس قولُ الشاعر كاموينز

وبدأ تجاه للعيان رأس المارد الجبار .
ناشراً فى البحر ساقيه بينما شق الفضاء عاتقاه .

ونظرا لما صادفوه من الأنواء والأعاصير المرعبة أطلقوا عليه اسم « رأس الأهوال » ولقد ترتب على إقدامهم الطائش واجترائهم على البحر

---

(١) Las Vasqucros

www.ibtesama.com Exclusive

المجهول مآسى تنبأ بها الشاعر على لسان روح أهل تلك المملكة .
أنا ذلك الرأس الجبار فى الأرض المستتر عن العيان
أنا رأس العواصف كما سميتمونى عن جدارة واستحقاق .
أنا الذى لم يهتد إلى مكانى أحد من بنى الإنسان
لا ولا بطليموس[1] ولا ميلا[2] ولا استرابو [3]
ولا أنا قد خطرت يوما ليلينى على بال .
ولا لغيره من حكماء العصور والأجيال .
هنا فى محيط الجنوب مكانى ! أنا أفريقية ! هنا أقيم .
وهذا رأسى المحجوب عن الأنظار كشفتم عنه النقاب
رأسى الذى يمتد بعيدا إلى قطب الجنوب
سوف تلقون جزاء طيشكم الجرىء قصاصا مريعا

* * * * *

المقطع الرابع

إيه أنت يا أشجع أمة بين الأمم
عزة النفس وشهوة الشهرة شحذت فيك الهمم
فازدريت الحياة ناعمة فى ظل أشجار البساتين
واقتحمت علىّ أمواجى فى جرأة بحيزوم السفين
غير هيابة ولا عابئة بطول الطريق فى الماء
ولا بالعواصف التى أسيطر عليها ، ولا بهذه الأنواء
وأتيت تنقبين بين الصخور حولى وفى أحضانى
حيث قبلك لم يجترىء على حصنى بطل أو تحدانى
إيه بنى لوسيوس . قد انتهكت عيونكم الدنسة حرمتى وجوارى

---

(١) جغرافى لاتينى عاش فى القرن الأول للميلاد .
(٢) جغرافى يونانى قديم توفى فى عهد الامبراطور (تيبريوس) Tiberius
(٣) كاتب رومانى وكان صديقا للأمبراطور «تراجان» Trajan

www.ibtesama.com Exclusive

ودلفتم إلى تخوم ملكى وكشفتم للعيون سرى وأطوارى
وتخطيتم الحدود التى أقامتها الطبيعة الغيور
لتخفى معبدها المقدس عن عيون العصور.
إسمعوا من شفتى ماسوف يأتيكم من شقاء وبلاء
وما سوف يصيب ذريتكم من صروف القضاء .
وهكذا قال «أدمستون»[1] «إعلموا أن كل سفينة تمخر فوق هذا العباب
مجترئة فى اليم مثل مااجترأتم اليوم فى سفر أو إياب
سوف تكون هدفا لحقدى فى هذا المحيط وانتقامى
وسوف تلقى مالا تطيق من ريح صرصر وأنواء جسام .
وإن أول أسطول يمخر بين هذه الأمواه
سوف يلقى من سطوتى ومن بأسى منتهاه طعنات يتلقاها من قريب وبعيد
وعذاب انكى من عبارات الوعيد هنا سوف يحلو لى الانتقام
ممن أزاح عن حر وجهى اللثام ولن يكون جزاء تهوركم محدودا
بل سوف تلقون من العذاب شديدا وترون أنفسكم بين براثن الموت الزؤام
وترون السفين حطاما عاما بعد عام حتى ليبدو الموت أخف من هذه الآلام

المقطع الخامس

كان فرح الملك عظيما بعودة برثولوميودياز وطابت نفسه للنبأ الذى أفضى إليه، من أن الطريق إلى الهند قد أصبحت الآن مفتوحة على مصراعيها .
«أيها الرأس فى أقصى الجنوب» صاح الملك المسرور
ليكن اسمك رأس الرجاء الصالح على مر العصور
فهو الرجاء الصالح لتيسير الحصول منذ اليوم على توابل الهند .

---

(١) Adamston مارد العواصف ، شخصية خيالية ابتكرها الشاعر فى ملحمته تمجيداً لفاسكوداجاما .

www.ibtesama.com Exclusive

الفصل الرابع

رسل الملك

أوامر الملك

«اكتشاف مملكة القس يوحنا، وتتبّع تجارة فنيسيا فى العقاقير والتوابل حتى مصادرها والتأكد مما إذا كان فى استطاعة السفن السير حول أقصى طرف أفريقيا الجنوبى على أن تدون بمنتهى الدقة فى الهند جميع التفاصيل التى تتصل بتلك السياحة الهامة».



فى خلال السنة التى كان برثولوميو دياز ماضيا فيها بسفنه فى اتجاه الجنوب استبد القلق بالملك جون الثانى لتلهفه على أخبار القس يوحنا فلم يطق الانتظار حتى يعود برثولوميو من رحلته واستقر رأيه على إيفاد رجلين بطريق البر، أحدهما راهب والآخر مدنى، ليحاولا اكتشاف ما كُلِّف باكتشافه برثولوميو دياز عن طريق البحر.

والواقع أن الملك أصبح أشد رغبة عن ذى قبل فى طلب القس يوحنا وخاصة بعد زيارة بعض أمراء الحبشة لبلاطه، ولقد استقبلهم الملك ووجه إليهم الأسئلة التالية: أسلطانكم ملك أو بابا كما يقال؟ هل اسمه القس يوحنا؟ هل مملكته فى آسيا؟

www.ibtesama.com Exclusive

ولما كان الأمراء الأحباش يهمهم أن يدخلوا السرور على الملك ، ولما كانوا يعلمون بما يفترض فى أوروبا بوجه عام بشأن القس يوحنا ، فقد أدركوا أن من الكياسة السياسية أن يردوا على الأسئلة بالإيجاب . وكان الدافع لهم على ذلك عامل الأنانية إذ كانوا يأملون من وراء ردهم هذا أن يلقوا مزيداً من الحفاوة والترحيب .

أخذ رسولا الملك سمتهما شطر الحبشة ولكنهما لم يصلا إلى أبعد من بيت المقدس فقد حذرهما رهبان الدير فى سينا من محاولة المحال لاسيما وأن جهلهما باللغة العربية عقبة كأداء تحول دون تحقيق غرضهما ، فعادا من حيث قدما لينهوا الملك سبب فشلهما

فكر الملك فى أن ما عجز هذان الرجلان عن عمله قد يستطيعه آخران غيرهما يتقنان اللغة العربية ويمكن الاعتماد على إخلاصهما وولائهما وإقدامهما ، لذلك استقر رأيه على اختيار الفونسو دى بايفا[1] وبدرو دى كوفلهام . كان هذا الأخير مازال متغيبا فى فاس فأرجىء المشروع لحين عودته ، وهو خادم أمين قضى أيام صباه فى قشطاله ولكن عندما نشبت الحرب مع البرتغال فضل العودة إلى وطنه بتوصية حارة إلى دون مانويل[2] صهر الملك ، وابن عمه فى نفس الوقت ، وبعد فترة من الزمن عين رئيساً لأركان حرب دون مانويل . وأرسل الضابط الشاب فى مهمة دبلوماسية إلى شمال أفريقية ليوقع معاهدة صلح مع ملك تلمسان . كان بدرو جنديا وسياسيا ورجل أعمال بارعا أيضاً ، لذلك فوضه دون مانويل فى شراء عباءات صوفية وخيول من بلاد المغرب .

وبمجرد عودته إلى لشبونه أفضى إليه الملك بعزمه على إرساله إلى الهند لتنفيذ الأوامر التالية .

البحث فى الهند عن موطن التوابل التى يبتاعها الإيطاليون من مصر ،

---

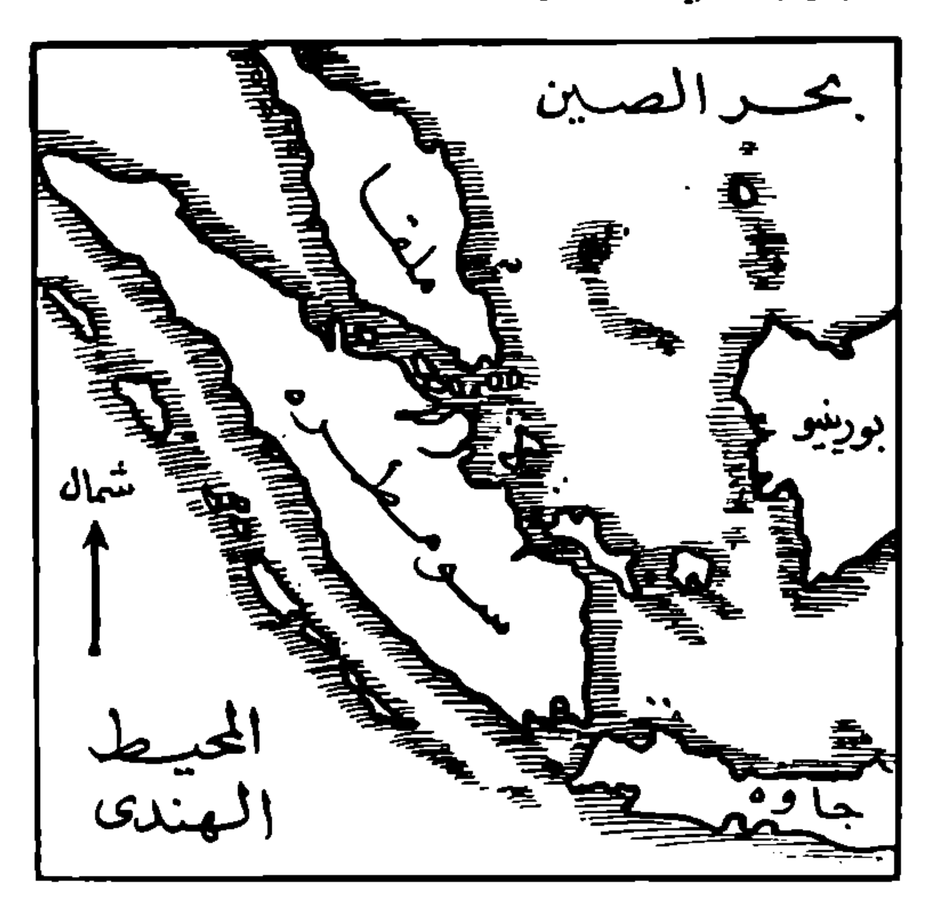
(١) Alfonso payva

(٢) Don Manuel

www.ibtesama.com Exclusive

وأن يبحث عما إذا كانت مملكة القس يوحنا تصل إلى البحر. وجمع كل ما يمكن جمعه من المعلومات بشأن مملكته

ويقال أن الملك جون الثانى توسل إلى كوفاهام ألا يرفض القيام بهذه المهمة ، وأن يرافق ألفونسو دا بايفا واعدا إياه بأعلى المراتب والمكافآت التى تضمن لخلفه السعادة والثروة إلى الأبد . ما الذى يستطيع أن يقوله فى مثل هذا الظرف فارس مخلص سوى أن يؤكد للملك أنه رهن إشارته فى كل ما يأمر به ؟ اغتبط الملك برد بدرو وأصدر أمره من فوره بأعداد العدة لرحلة المبعوثين وتجهيزهما للسفر



والواقع أن دون مانويل أصبح يتطلع لهذه الرحلة مثل تطلع الملك إليها وراح يحضر الاجتماعات السريه التى كانت تعقد فى منزل أحد أصدقائه حيث كان أطباء الملك المتبحرون فى علم الفلك وغيرهم من كبار العلماء يتشاورون للوصول إلى أصلح الوسائل التى تضمن أوفر قسط من النجاح للبعثة، وأخذ

www.ibtesama.com Exclusive

كل واحد من المجتمعين يفضى إلى المبعوثين بكل ما عنده من معلومات قد تكون ذات فائدة لهما أثناء الرحلة ، فاقتبست الفقرات الهامة من كتب ماركو بولو وسيرجون ماندفيل ومن تقارير بلانودى كاريني[١] وربريكوس[٢] وكذلك من قصة نيكولو دى كونتى (Nicolo di Conti) ودرست خريطة ماركو بولو دراسة مستفيضة إلى جانب خريطة فرامورو وهى أكثر أهمية ، وقد عمل نسخة منها الأسقف فيزو بنفسه موضحاً فيها مواقع مصر وجزيرة العرب والحبشة .

وبرهن فرامورو أنه قد استطاع عمل خريطة دقيقة للحبشة لأن بعض الرهبان ممن زاروا الحبشة قاموا بعمل خرائط لها أثناء اقامتهم بها ، وقد أعاروه هذه الخرائط لعمل خريطته الجامعة الدقيقة مسترشداً بخرائط الرهبان . ولكن ضيق المساحة قد حال دون تدوين أسماء كثير من البلدان والأماكن ، لذلك عهد إلى مبعوثى الملك السريين فى التأكد من صحة الخرائط التى أعطيت لهما وتصحيح ما قد يكون بها من أخطاء .

* * *

وأعدت لهما بأمر الملك خطابات اعتماد لإبرازها كلما استدعت الظروف إلى ذلك ، كما سلمهم الملك أقراصا نحاسية نقش عليها بشتى اللغات بأن كوفلهام وبايفا مبعوثان من قبل ملك البرتغال جون الثانى الذى يعتبر نفسه ، أخا لجميع الملوك المسيحيين . وكان على المبعوثين أن يكشفا عن شخصيتهما الرسمية للنجاشى بفضل هذه الوثائق النحاسية .

ولم يُسقط من الحسبان احتمال وقوع المبعوثين فى الأسر لذلك زودهما الملك بقطع من الأحجار الكريمة لافتداء شخصيهما واستعادة حريتهما عند مساس الحاجة ، وزُودا كذلك بخطاب اعتماد لاستعماله حينما يكونان فى خطر من الموت أو فى حاجة إلى المال . وسلم الملك إلى كوفلهام مبلغ أربعمائة

---

(١) Plano di Carpini (٢) Rubriquis

www.ibtesama.com Exclusive

«كروزاده أى حوالى مائة وخمسة وعشرين جنيها ليأخذ هو ورفيقه منها قدر حاجتهما لنفقات المرحلة الأولى من الرحلة بينما سلم ما تبقى إلى ممثل أسرة مديسيش ليدفعها إليهما أثناء مرورهم بإيطاليا .

وبعد أن باركهما الملك ، ببركاته الشخصية وببركات الخالق ، أخذ مبعوثا جلالته فى طريق رحلتهما الخطيرة فى اليوم السابع من مايو عام ١٤٨٧ .

* * *

هبط لشبونة بعد رحيل المبعوثين بفترة وجيزة رسول موفد من قبل النجاشى إلى البابا . فاغتبط الملك جون بهذه الفرصة التى أتيحت له لبحث مشروعاته مع رجل عليم بمجريات الأمور كرسول النجاشى ، فراح يفضى إليه برغبته فى اكتشاف أقصر الطرق إلى الهند مؤكدا له بأنه ليس له مطامع استعمارية وإنما الذى يطمع فيه حقا ، هو الوصول إلى التوابل والذهب والأحجار الكريمة .

عندئذ كتب القس إلى النجاشى بكل ما أفضى إليه به الملك جون الثانى كما كتب إليه بكل مانزامى إلى علمه مما حققته البرتغال فى ميادين التجارة والملاحة والاكتشاف . وقد كُتب هذا الخطاب من عدة نسخ أرسلها الملك إلى بيت المقدس لتوجه من هناك إلى القس يوحنا بصحبة أى راهب من الرهبان الأحباش يكون فى طريق العودة إلى وطنه .

عاد برثولوميو دياز إلى لشبونة بعد مغادرة بايشا وكوفيلهام لها بستة أشهر ، وكانت عودته عقب غيبة طالت ستة عشر شهرا وسبعة عشر يوما قطع خلالها ٥١٧٠ فرسخا .

كان القبطان الهمام مهموما يرين على قلبه الحزن لأنه لم يكن يحمل للملك شيئا مما يتعلق بأنباء الهند أو بالقس يوحنا والسبب فى ذلك — نقلا عن الراوى — أن سكان الشاطىء كان معظمهم من المتوحشين .

وعندما مثل بين يدى الملك قدم إليه برثولو ميودياز خريطة ملونة .

www.ibtesama.com Exclusive

ذكر لنا هذا الخبر صانع الخرائط برثولوميو كولومبس[1] الذى اشترك فى الرحلة ، على مايقال . وكان القبطان قد سجل على خرائط مستقلة كل جزيرة وشاطىء مربهما ، فأمر الملك برسم خريطة تشمل الخريطة الملونة والخرائط الأخرى على أن يوضح فيها شاطىء أفريقية الغربية بأجمعه والشاطىء الجنوبى إلى نهاية النقطة التى وصل إليها دياز . وهى الخريطة التى تقرر استعمالها بعد ذلك

وقد قدم لهذه الخريطة فى أعلاها بهذه الكلمة ، هذا هو الشكل الحقيقى لأفريقية الحديثة حسب وصف البرتغاليين لها ،

ومهما يكن من استياء الملك لعدم وقوف القبطان على شىء من أنباء ملك أثيوبيا الا أن سروره بالرحلة كان يشعر بتقديره لأهميتها ، ولاغرو فقد نتج عنها اكتشاف الطريق إلى الهند . وبالرغم من هذا النجاح الذى أحرزته البرتغال فأن الملك كان لايزال يتطلع إلى اكتشاف طريق آخر إلى المحيط الهندى عبر أفريقية عن طريق السنغال ومالندى[2] التى قرأ عنها فى كتاب ماركو بولو بأنها تضارع تنبكتو كسوق للذهب ، فشرع يمهد لذلك بأن ارسل بدرو فازدى كنها[3] إلى افريقية الغربية لبناء حصن عند مدخل نهر سنغال . وكان يعتقد فى ذلك الحين أن نهر سنغال هو بعينه نهر النيجر ، نيل أفريقية . وكان يظن كذلك إمكان الوصول إلى تنبكتو بالسفر فيه صعوداً ، ومن ثم إلى مالندى .

أبحر بدرو دى كوفلهام والفونسو دا بايفا من برشلونة قاصدين إيطاليا . وفى نابولى سحبا نقودهما من بنك المديشيين ثم واصلا السفر إلى جزيرة رودس حيث التقيا ببعض مواطنيهما الذين دعوهما إلى الإقامة معهم . وهنا تحت سقف مضيفيهما شرعا فى عملية التنكر ، فخلعا عنهما لباس البلاط واتشحا بزى التجار واصطحبا معهما جرارا كبيرة ملأى بالعسل إمعانا منهما فى إتقان شخصيتهما الجديدتين .

---

(١) شقيق خرستفر كولومبس مكتشف أمريكا ..

(٢) Malindi

(٣) Pedro vas de Cunha

www.ibtesama.com Exclusive

كانت تجاربهما فى الإسكندرية غير سعيدة فقد انتابهما المرض وخيل للشرطى المصرى أنهما فارقا الحياة فاستولى على جرارهما بما فيها من العسل.
ولما كان كوفلهام وبايفا قد لجئا إلى التنكر فى سفرهما فقد تجنبا النزول فى الفنادق أو وكالات الجاليات الأوروبية حيث يكونان بمأمن من عبث المصريين . ولكن كان التنكر شعارهما فى تلك الظروف وخاصة إذ كان الغرض من رحلتهما اكتشاف الوسائل التى تمكن ملك البرتغال من أن يصبح بفضلها منافسا للأمم التى تتجر فى التوابل .
كان تجار جنوا وفلورنسا وفينسيا وقطالونيا وناربونيا المقيمين بالأسكندرية لشراء التوابل يمتلكون فيها الفنادق وهى وكالات مسورة خاصة بهؤلاء النزلاء تضم مساكنهم ومخازنهم وكنائسهم ، وفى كل ليلة كانت تقفل أبواب هــــذه الوكالات بأمر السلطان . وكانت إقامة الجاليات الأوروبية بالأسكندرية محدودة المدة فلا يسمح بهــا إلا لفترة ورود شحن التوابل من الشرق .
وكان لـكل جالية فندق خاص بها يعهد فى الإشراف عليه وعلى نزلائه إلى موظف من مواطنى أصحابه لمراقبة المكوس والضرائب الجركية كما كان لـكل أمة من الأمم التى تتجر فى التوابل قنصل ، وظيفته الفصل فى الدعاوى ورفع الطلبات إلى أولى الشأن فى القاهرة . وإذاً فنظام الامتيازات الأجنبية كان قائما فى ذلك العهد وكان من حق القنصل أن يتقدم إلى السلطان بالشكاوى عدداً محدداً من المرات فى العام .

ومن أسباب الاحتكاك ، بين التجار العرب والمصدرين الإيطاليين رفض البيوت التجارية فى ألمـــانيا شراء التوابل غير المفروزة رغما من أن الإسكندرية كانت المدينة الوحيدة التى تباع فيها التوابل . وكان على المصدرين أن يقبلوها كما هى وبنفس التعبئة التى وصلت بها من جزائر ملوك وسيلان والهند

لم تكن إقامة الأوروبى فى مصر بالأمر الذى ترتاح إليه النفس غير

www.ibtesama.com Exclusive

أن الأرباح الباهظة التى كان يجنيها التجار من وراء ابتياع التوابل وتصديرها جعلتهم يصبرون على الإهانات وكل ضرب من ضروب الذل .

ولقد وصف كل هذا بعض الحجاج أثناء مرورهم بالإسكندرية والقاهرة فى طريقهم إلى بيت المقدس ودونوه فى تقاريرهم كما احتج على هذه المعاملة لدى السلطان سفراء الدول . فقبل أن يسمح لأى سفينة أجنبية فى الاتصال بالشاطىء يقوم موظفو الجمارك المصرية بتفتيش المسافرين والبضائع تفتيشاً دقيقاً دون أن يكتبوا قائمة ، لا بأسماء المسافرين ، ولا بالبضائع . بعد ذلك ينزعون الأشرعة والصوارى ويحملونها معهم إلى الشاطىء. ثم يصعد إلى السفينة بعد ذلك مندوبو السلطان من الخبراء. والقنصل الفرنسى فيأخذون الركاب إلى الميناء حيث يقوم الموظفون المختصون بعدهم وتدوين المجموع فى سجلاتهم كما لو كانوا بعض السائمة . وبعد أن يفتشوا بمنتهى الدقة ، حتى الجلد ، يسلمون إلى القنصل الفرنسى ليكونوا فى عهدته . وفى هذه الأثناء تكون البضائع قد نقلت إلى الجمارك حيث تفحص بدقة . ويقول أحد الفلورنسيين فى وصف هذه العملية بأنه يفرض على كل مسافر دفع اثنين فى المائة من جميع ما يحمله معه من النقود والذهب والأمتعة إلى جانب « دوكت » واحد عن كل شخص بمثابة خراج . بعد ذلك يصحب القنصل الفرنسى الركاب كلا إلى قنصل بلده حيث يقومون بتقديم ما معهم من خطابات التوصية .

* * *

ولنعد إلى صاحبينا البرتغاليين، فقد انتهى أمرهما بسلام، لأنه بمجرد أن اقتنع الموظف المصرى بأنهما لم يقضيا نحبهما بل على العكس قد أبلا من مرضهما رد عليهما جرار العسل .

سافر المبعوثان من الإسكندرية إلى القاهرة فى قارب عن طريق النهر ، فوصلاها بعد خمسة أيام ، وفى القاهرة باعا مامعهما من العسل وابتاعا بثمنه سلعاً أخرى . كانت القاهرة ، وما زالت تبهر السواح الأوروبيين بشوارعها المزدحمة وبألوف حمالى المياه وهم يهرولون بقربهم الجلدية ، وبمطابخ

www.ibtesama.com Exclusive

الهواء الطلق المنتشرة فيها لبيع الطعام المطهى والتى لا يحصرها العد، وبقطارات الإبل التى لا تنتهى وبحرس السلطان المكون من عشرة ألف مملوك . فلا عجب أن يتفق جميع من زاروا القاهرة خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر على وصفها بالعاصمة النابضة بالحياة . فهنا مركز تجارة التوابل وهو فى قبضة السلطان . وهنا الأسواق تموج بالسلع وينبعث من أزقتها الضيقة أرج العطور والأفاوية والبخور .

وكان للتجار الأجانب المسلمين من أتراك ويمنيين ومغاربة وهنود وفرس وكالاتهم وخاناتهم الخاصة كما كان لهم حق الإقامة الدائمة . وكان بالقاهرة أيضا عشرة آلاف يهودى وعشرة آلاف من المسيحيين بين سوريين وأقباط .

ولم يفت الوافد على مصر أن يركب — كما يفعل السواح اليوم — إلى الهرم وأبي الهول لمشاهدتهما وما من حاج إلى بيت المقدس إلا وقد زار أثناء مروره بالقاهرة ذلك البستان المسور الحافل بأشجار البلسان . وكانت تقوم على جانبي الطريق من القاهرة إلى البستان أشجار البرتقال والليمون والرمان والنخيل فكان بهجة للأعين ومسرة للأنفس .

وفى القاهرة التقى كوفلهام وبايفا بجماعة من المغاربة قادمين من فاس وتلمسان فى طريقهم إلى عدن فانضما إليهم وقطعا الطريق معهم حتى الطور على ظهور الجمال .

وفى سواكن أبحرا على سفينة غريبة الشكل والتكوين عما يستعمل فى تلك النواحى ، شُدت ألواحها بعضها إلى بعض بحبال فتلت من ليف أشجار جوز الهند فليس بها شيء من المسامير بتاتا، بينما طلى الهيكل بليف النخيل بعد نقعه فى زيت السمك أو زيت الخروع .

وكانت الأشرعة مصنوعة من حصير متخذ من ألياف أعشاب المستنقعات ولكنهما ما كادا يصلان جده حتى انتقلا إلى سفينة أخرى قدمت من الهند ببعض السلع .

www.ibtesama.com Exclusive

لم تكن السفن تسير شمالا إلى أبعد من جدة نظرا لصعوبة الملاحة بسبب الصخور التى لم تكن ترتفع فوق سطح الماء إلا بقدر يسير جدا . يضاف إلى هذه الأخطار أن الشاطىء كان غير مأهول إلا من اللصوص، لذلك كانت السفن الماخرة فى البحر الأحمر تلجأ ليلا إلى أماكن تعتصم بها من عدوان البشر والطبيعة معاً مما زاد من مشاق الرحلة إلى أقصى حد وخاصة لأن حرارة الجو فى هذه المنطقة تكفى « لإذابة الإنسان حيا » . ولقد تعرض صاحبانا لمثل هذا القيظ المميت فى عدن أيضا حيث كانت الأسواق تقام أثناء الليل تجنبا لحرارة الشمس المحرقة . وفى أسواق عدن شاهدا كثيرا من الرقيق — رعايا النجاشى — تعرض للبيع .



البرجين (سنبلة الطيب)

علم صاحبانا البرتغاليان فى عدن مما ترامى إلى سمعهما بأنه يوجد إلى جنوب مصر ملك مسيحى يسيطر على عدد غير قليل من الملوك، وأن مملكته عظيمة شاسعة الأرجاء مترامية الأطراف . فرجح البرتغاليان أنه لابد وأن يكون هذا الملك هو « القس يوحنا » أو الذى قيل بأنه إمبراطور أثيوبيا وأنه مسيحى يسيطر على شعوب مسيحية؟

ولكن الذى حير الصديقين هو أن الملك أرسلهما للبحث عن ذلك الملك فى الهند بينما أن القطر المقابل لجزيرة العرب ليس بالهند . ومما زاد الأمور تعقيدا أنه قد أصبح من المحقق بعد ما وقفا عليه من المعلومات فى عدن أن إمبراطور أثيوبيا لم يكن قسا ولا كان اسمه يوحنا . فكر الرفيقان فى الأمر مليا إلى أن استقر رأيهما على أنه من الحكمة أن يفترقا هنا فيأخذ الفونسو دا بايفا طريقه صوب الحبشة بينما يرحل پدرو دى كوفلهام إلى الهند للبحث عن هذا الملك

www.ibtesama.com Exclusive

وليتقضى فى الوقت نفسه مسألة التوابل ، وقبل أن يفترق الصديقان تواعدا على اللقاء بمدينة « طيبة » قرب القاهرة .

* * *

انتظر كوفلهام إلى أن اعتدلت الرياح الموسمية فى النهاية ثم أبحر إلى الهند فى سفينة لنقل الخيول .

قامت على طول الشاطىء الشرقى منذ قرون عديدة مستعمرات عربية ، ولا غرو ، فالعرب كانوا هم الوسطاء لمنتجات الشرق وتجارته ، وكانت سفنهم دائبة الرواح والغدو بين عدن وشاطىء الهند . وكانت هى أيضا مصنوعة من ألواح ضم بعضها إلى بعض بالحبال إلا أن أشرعتها كانت من القطن .

وصل كوفلهام بعد شهر من مغادرة عدن مدينة غنية منتعشة الحركة اسمها كانانور[1] ومن ثم واصل السفر فى السفينة إلى كلكتا[2] — التى تعتبر للهند بمثابة الاسكندرية لمصر — حيث شاهد فيها نحوا من ألف سفينة راسية بمينائها . وعن هذه الميناء كتب سفير فارسى تصادف وجوده بها حوالى العهد الذى نحن بصدده فكان مما كتبه : « أن الأمن والعدالة يسودان هذه الميناء حتى أن التجار الأجانب ليتركون بضائعهم فى السوق بدون أن يكلفوا أنفسهم عناء إعلان قيمتها المادية ، لأن موظفى الجرك مسئولون عن حمايتها وصيانتها ، فإذا بيعت البضاعة تقاضوا من صاحبها قيمة ربع الثمن وإذا لم تبع لم يتقاضوا شيئا اطلاقا .

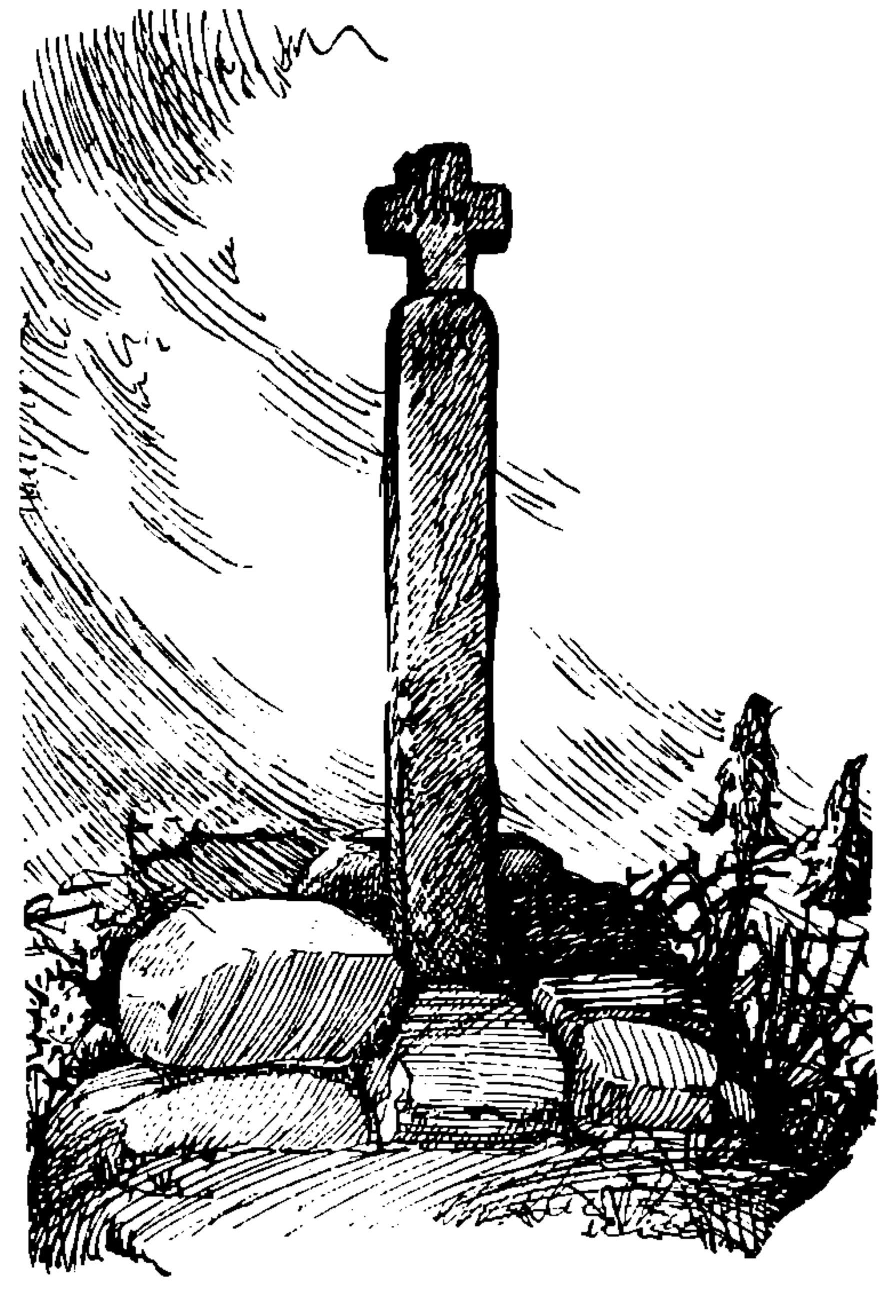
ومن كالكتا أبحر كوفلهام شمالا إلى جوا[3] مستقصيا أينما حل عن التوابل .

كان مايهمه معرفته بصفة خاصة هو — أى أنواع التوابل تنبت فى الهند وأيها ينبت فى غيرها من الأصقاع — وما اسمها ؟ فمصدر التوابل بأنواعها المختلفة كان لا يزال حتى ذلك العهد سرا من الأسرار يكتنفه الغموض

---

(1) Cananor (2) Calicut (3) Soa

www.ibtesama.com Exclusive



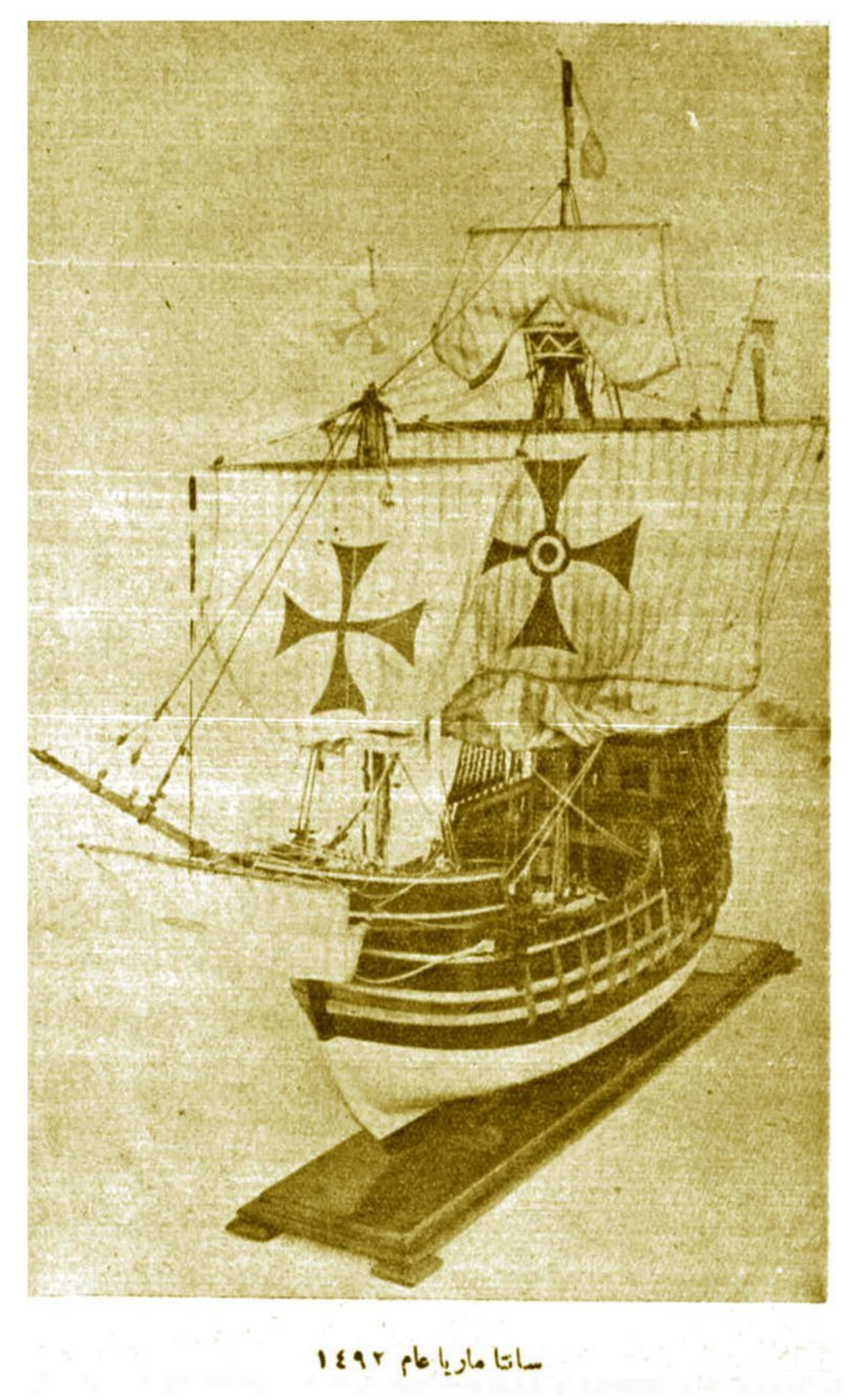
صليب أقامه بارتولوميو دياز على شاطىء أفريقية الجنوبية

www.ibtesama.com Exclusive



خريطة كاتالونيا عام ١٣٧٠ المهداة إلى شارل الخامس ملك فرنسا

www.ibtesama.com Exclusive



سانتا ماريا عام ١٤٩٢

www.ibtesama.com Exclusive

ولكن كوفلهام توصل بعد لأى إلى معرفة مصدر الفلفل والجنزبيل والنيلة والبردين، وهى جميعا تنبت فى «ملابار»، أما القرفة فتستورد من سيلان. وسمع أيضا عن جزائر ملوك وسومطرا وبورنيو وجاوة بأنها موطن القرنفل وجوزة الطيب والبهار والكافور والفلفل . وعلم أيضا أن من الصين يأتى الكافور والمسك والراوند وخشب الصبر وأن من هذه البلاد البعيدة تأتى منها كذلك الألوان والأصباغ والراتينج الصمغى ذو الرائحة الحلوة وخشب الصندل والتلاكيه[1] «الورنيش».

وعرف كوفلهام من أين تأتى الأحجار الكريمة ومن أين يأتى اللؤلؤ والماس . وكان الذهب فى تلك النواحى من المعادن العادية حتى أن التجار كانوا لا يقبلونه ثمنا لسلعهم فى كلكتا حيث كان التعامل وقفا على عملية التبادل والمقايضة . أما فيما يتعلق بالقس يوحنا فلم يكتشف كوفلهام شيئا ذا غنى عن شخصيته وكل ما استطاع أن يجمعه نتيجة محادثاته مع الهنود المسيحيين أنه كان يوجد فى عهد من العهود المندثرة قس ـ ملك كالذى يستفسر عنه ، تقوضت دعائم مملكته على أيدى التتر ، وفيما عدا ذلك لم يذكر له أحد شيئا عن هذا الملك بتاتا ـ غير أنه وجد كثيرا من المسيحيين النسطوريين فى الهند وخاصة فى ترافنكور[2] يأخذون بتعاليم الحوارى توما الذى كان يدعو إلى إنجيله فى تلك النواحى ، وإليه ينتسبون فيطلقون على أنفسهم اسم «مسيحيى توما» .

أدرك كوفلهام فى النهاية أن البحث عن القس يوحنا فى آسيا مضيعة للوقت ليس إلا ووهم باطل .

ولما كان يعلم أن الفونسو دا بايفا موجود بأثيوبيا لم يجد ما يدعو إلى ذهابه إليها هو أيضاً ، ومن ثم استقر رأيه على أن يبحر جنوبا إلى أقصى ما يستطيع بمحاذاة شاطىء إفريقية الشرقى لما سمعه عن وجود الذهب والعنبر والبخور بتلك المنطقة ، ثم هو يستطيع أن يزور فى طريقه موجادكسا[3] إذ كانت من البلاد التى كلف بزيارتها ورفع تقرير عنها .

(١) Lacquer
(٢) Travancore
(٣) Mogadoxa

www.ibtesama.com Exclusive

سافر كوفلهام من شاطىء مالابار مع طائفة من التجار العرب حتى هرمز كبرى المستودعات لتجارة الشرق .

كتب رحالة انجليزى يصف أهمية هذا المركز التجارى العظيم فقال :

« لو أن جميع العالم صيغ خاتماً لكانت هرمز ماسه وجواهره »

فهنا تجد تجار القاهرة والإسكندرية قدموا لابتياع التوابل وكنوز الصين والهند التى يبيعونها للإيطاليين والمغاربة .

وكانت هرمز مركزاً لتجارة الخيول أيضاً ، وكان المغاربة المقيمون بها أغنياء يرتدون القمصان البيض والأقبية الحريرية ويتمنطقون بأحزمة مزركشة بالذهب ولكن تكاليف المعيشة فيها مرتفعة لأنه ليس بها مياه وإنما تحمل المياه إليها من مكان يبعد عنها مسافة اثنى عشر ميلا .

وتقوم خارج أسوار هرمز تلال من الملح الصخرى خالص ناصع البياض يصدر منه إلى الحبشة حيث يتداوله الناس فيما بينهم وفى الأسواق، مثله فى ذلك مثل العملة النقدية وكذلك الحال بالفلفل .

ومن هرمز واصل كوفلهام السفر إلى عدن ثم عبر منها إلى زيلع وهى سوق كبيرة للرقيق ومن ثم واصل السفر جنوبا بمحاذاة الساحل الإفريقى ماخراً فى البحر الاخضر، وهو الاسم الذى كان يطلقه العرب على هذا الجزء من المحيط الهندى .

وفى الطريق زار مقديشو وممبسا وزنجبار وسوفالا من بلاد الزنج . وأما أبعد من هذا فلم يسافر أحد مطلقاً .

وهنا ترامى إلى سمعه وجود جزيرة كبيرة تسمى « جزيرة القمر » يقال أنها لاتبعد كثيرا من بلاد الزنج وأن بساحليها الغربى والشمالى منازل أقوام من العرب بينهم وبين الهند معاملات تجارية

كل هذا استرعى اهتمام كوفلهام إلى حد بعيد وخاصة ما نبينه من أن سكان سوفولا من الجنس الأسود كسكان غانة . وقد استنتج من هذا بعد التأمل والتفكير العميق أنه لابد وأن يكون البلدان بلد واحد، فلو أن مواطنيه

www.ibtesama.com Exclusive

المنحدرين بمراكبهم جنوبا بمحاذاة شاطىء أفريقية الغربى استمروا فى طريقهم لوصلوا فى النهاية ، بلا أدنى ريب إلى سوفالا ، ومن ثم استطاعوا الوصول إلى الهند. ولم يغفل كوفلهام أبدا تدوين كل ما اكتشفه على الخريطة التى أعطاه إياها الملك .

على الساحل الأفريقى الذى اقتضت مشيئة الله أن يخضع لسيطرة لوزيتانيا[1].
انظروا هذه الجزائر فيها الصخور القائمة المغبرة
يحمل البحر فى سخاء إليها ، من كل مكان مجهول .
هداياه إلى شواطئها الرملية من شذا العنبر والعطور .

اغتبط كوفلهام بالنتيجة التى حصل عليها واستبد به الشوق إلى لقاء زميله، ليطلعه على ما وصل إليه من نتائج وما استفاد من معلومات وليقف هو أيضا على ما فعل زميله، فاستقر عزمه على العودة إلى مصر ولكنه وجد نفسه مضطرا إلى الإبحار إلى الهند أولا ، ففعل ، ومن ثم أبحر إلى هرمز وعدن مرة أخرى حتى إذا ما وصل إلى مصر فى النهاية وجد زميله دا بايفا قد وافاه أجله المحتوم منذ فترة غير طويلة .

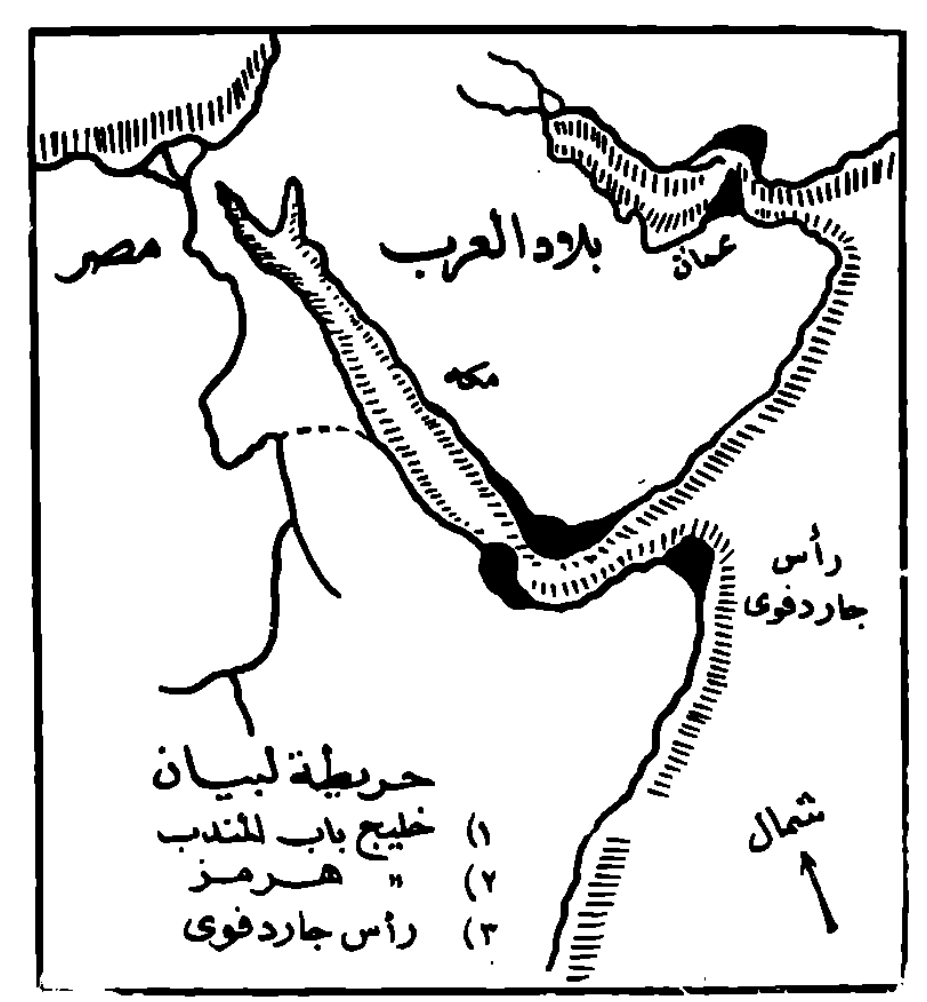
وبينما كان يفكر كوفلهام فى العودة إلى البرتغال توجه لمقابلته يهوديان أحدهما حاخام والثانى إسكاف يبدو أن الحاخام كان قد أخبر الملك جون الثانى بما ترامى إلى سمعه عن هرمز وعن حركة تجارتها العريضة مع الهند . سلم اليهوديان كوفلهام خطابا من الملك جون الثانى يعبّر فيه عن أمله فى أن يكون كوفلهام وزميله دا بايفا قد توصلا إلى اكتشاف مقر القس يوحنا فإذا كانا قد وفقا إلى ذلك فعليهما أن يعودا فى الحال إلى البرتغال حتى ينالا ما ينتظرهما من المكافأة العظيمة ، وإذا كان مسعاهما لم يكلل بعد بالنجاح فعليهما مواصلة البحث والاستقراء كما عليهما فى الوقت نفسه أن يرسلا عن طريق الإسكافى تقريرا عن كل ما شاهداه وكشفا عنه .
فقرر كوفلهام مرافقة الحاخام إلى هرمز .

www.ibtesama.com Exclusive

كان كوفلهام يعتقد أن برثولوميو دياز لايزال ماضيا فى البحث عن الطريق إلى المحيط الهندى ، لذلك طلب إلى الملك فى رسالته أن يكلف أى سفينة تكون فى طريقها إلى الشاطىء الغربى بنقل الرسالة الآتية إلى دياز . إذا واصلت السفر فى البحر جنوبا فلا بد لك من أن تصل إلى نهاية القارة ، وحينئذ تكون قد أشرفت على المحيط الهندى ، وفى هذه الحال مر رجالك أن يسألوا عن بلدة سوفالا وعن جزيرة القمر فسوف يجدون فيهما ربابنة يقودون سفنك إلى الهند .

* * *

أخذ كوفلهام والحاخام طريقهما إلى هرمز ومن ثم إلى بغداد وإلى كثير



غيرها من البلاد ، ينقلان ويدرسان كل ما من شأنه أن يكون موضع اهتمام

www.ibtesama.com Exclusive

ملكهما . انقضت ثلاثة أعوام أو قريب من ذلك منذ مغادرة كوفلهام للبرتغال دون أن يكون قد وقف على شيء ذى غنى بشأن القس يوحنا . وفى النهاية استقر رأيه على رد الحاخام إلى البرتغال بتقرير يرفعه إلى الملك عن تفاصيل رحلاتهما الأخيرة معا، بينما يتوجه هو إلى أثيوبيا ليتبين بنفسه ما إذا كان امبراطورها هو الشخص الذى يبحث عنه .

على أنه قبل أن يشرع فى تنفيذ الخطة التى اعتزمها سافر لقضاء فريضة الحج إلى بيت المقدس ومنه إلى سيناء حيث زار ضريح القديسة كاترينا . وعندما وصل الطور أبحر منها إلى عدن زائرا مكة والمدينة فى طريقه إلى أن وصل زيلع حيث أنبئ بأن النجاشى موجود فى الوقت الحالى غير بعيد من الشاطئ .

وفى عام ١٤٩٠ حصل رسول ملك البرتغال الأمين ، فى آخر الأمر على الأذن بالمثول بين يدى إمبراطور الحبشة فطاب لذلك نفسا وقر عينا .

سر النجاشى اسكندر غاية السرور لما تبين له من اهتمام ملك البرتغال كل هذا الاهتمام بأمره حتى أوفد إلى الحبشة أحد ضباطه .

وسر النجاشى كذلك بكوفلهام وأعجب بشخصيته وحسن شارته وتوقد ذهنه واتساع خبرته بالرجال والأحوال ورغب فى استبقاء مثل هذا الرجل الشهم ببلاطه فعرض عليه المناصب والممتلكات ترغيبا له فى البقاء عنده لفترة من الزمن كما عرض عليه إهداءه زوجة تلد له الأبناء ، حتى إذا ما عاد إلى وطنه خلف وراءه ذرية صالحة تخلد ذكراه . ولكن كوفلهام لم يكن له هم سوى العودة على جناح السرعة إلى لشبونة ليفضى إلى الملك جون الثانى بجميع مكتشفاته . لذلك رفض كل ما عرضه عليه النجاشى من هبات وممتلكات ورئاسة وموالى وخدم ودخل سنوى يضارع دخل الملوك .

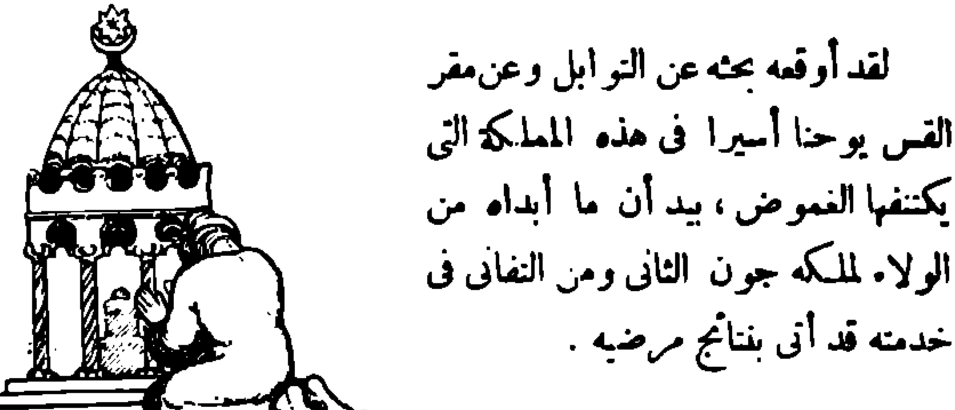
ولكن النجاشى لم يتركه ينصرف ، متعللا بشتى الأعذار والحجج مماطلة وتسويفا ، فكان توسل كوفلهام بأن عليه أن يرفع لمليكه تقريرا

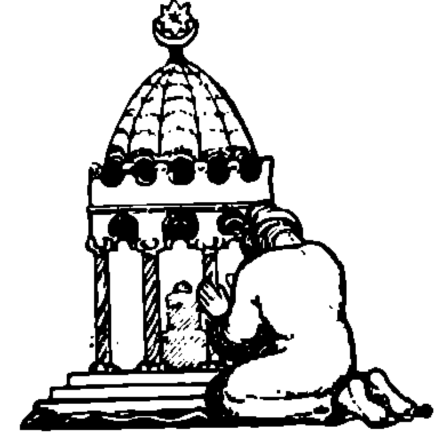
www.ibtesama.com Exclusive

عن رحلته يقابل بالرفض وبعرض من النجاشى فى أن يعهد إلى أحد خدمه المسافرين إلى روما بإيصال أية رسالة إلى ملكه فى لشبونة بعد انصرافه من روما .

تضايق كوفلهام أشد الضيق من كل هذا ولكن لم يكن له فيما عدا ذلك مايشكو منه سوى أن أمله فى الرحيل قد أرجىء ليس إلا . ولسوء حظه توفى النجاشى اسكندر فجلس على العرش أخوه ناحوم وكان يبغض كوفلهام ويتهمه بالجاسوسية لذلك رفض أن يأذن له فى العودة إلى وطنه رفضا باتا . وكذلك رفض النجاشى داود الذى خلف ناحوم على العرش أن يأذن له فى العودة إلى البرتغال ولكن لسبب يختلف كل الاختلاف عن سبب الجاسوسية الذى بنى عليه سلفه رفض الإذن له بالعودة إلى وطنه . فالنجاشى الجديد كان شديد التقدير لذكاء كوفلهام وصفاء ذهنه ولحسن صفاته الخلقية ، فأغدق عليه الهبات من أراضى زراعية ومناصب عالية كما أهداه زوجة ولكن على الرغم من كل هذه المنح والهبات وماتشعر به من عظيم تقدير النجاشى لكوفلهام فإن هذا الأخير قد تأكد لديه بأنه أسير مافى ذلك شك ، وأنه قد حرم من رؤية وطنه إلى الأبد .

وكثيرا ما أرسل كوفلهام عددا غير قليل من الخطابات بصحبه اليهود المسافرين من الحبشة إلى مصر رجاء تسليمها لأحد المسافرين إلى البرتغال لإيصالها ، فكانوا يعدون بتنفيذ رغبته ولكنه لم يعلم شيئا أبداً عن مصير هذه الخطابات إذ لم يصل إليه أى رد عليها .





لقد أوقعه بحثه عن التوابل وعن مقر القس يوحنا أسيرا فى هذه المملكة التى يكتنفها الغموض ، بيد أن ما أبداه من الولاء لملكه جون الثانى ومن التفانى فى خدمته قد أتى بنتائج مرضيه .

www.ibtesama.com Exclusive

الفصل الخامس

خرستفر كولومبس والتوابل

«أنى أشعر بأن لديك الرغبة الشديدة النبيلة لجوب البلاد التى تنضج فيها التوابل» — من كتاب أرسله توسكانللى إلى خرستفر كولومبس —

بينما كان بدرو كوفلهام ماضياً فى البحث عن طلبته كان برثولوميو دياز قد بلغ مكانة مرموقة من الشهرة . أما خرستفر كولومبس فلم تكن الأمور قد جرت بعد بما يحب ويهوى . انقضت أربعة أعوام على يوم خروجه من قاعة المجلس الملكى فى بلاط جون ملك البرتغال حزيناً غارقاً فى بحار من الأفكار ولكن دون أن يفقد الأمل أو يستبد به اليأس أو يعتوره الوهن وفقدان الثقة بالنفس . أربعة أعوام داعبته فيها الآمال الكبار وذاق فيها مرارة الخيبة العميقة ، أمّ خلالها بلاط الملك فردناند وزوجه الملكة إزابللا مترقباً تحسن الأحوال وإقبال الأيام .

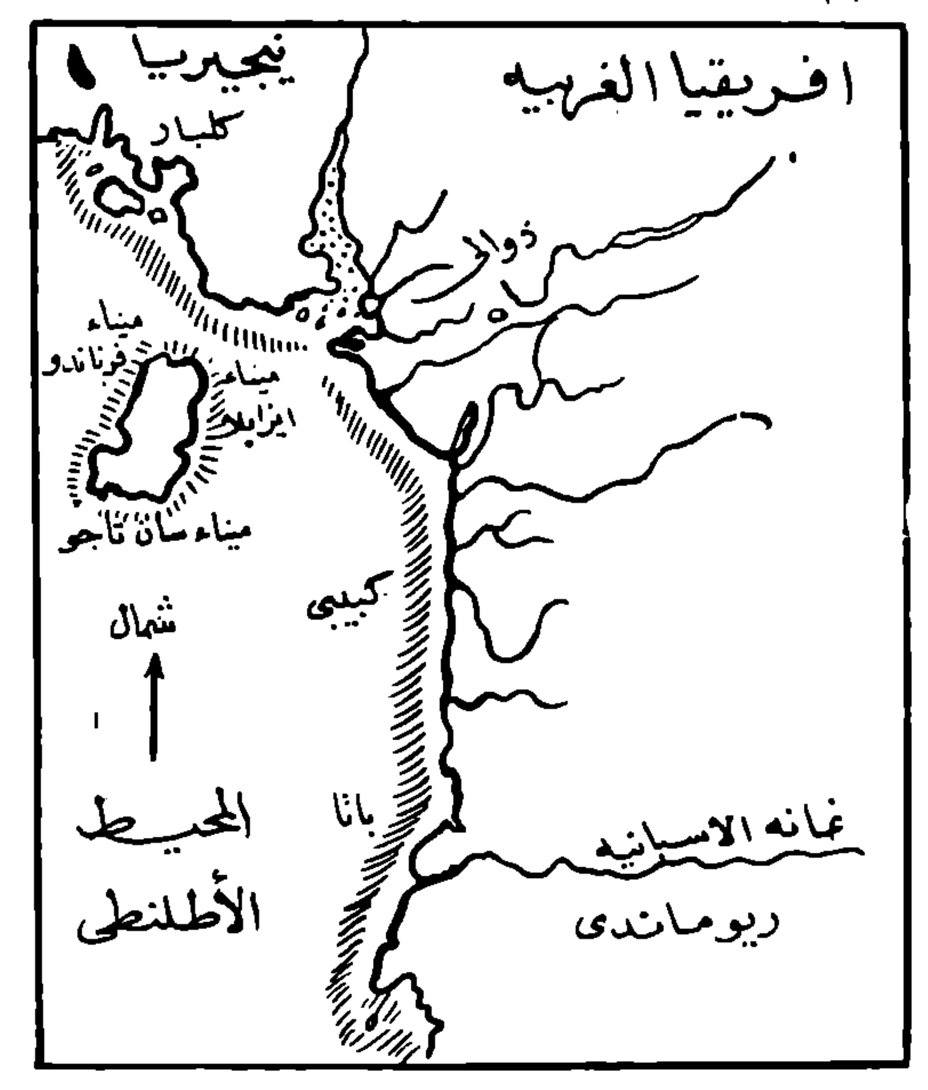
وقد أبدى جلالتهما شيئاً من العطف على هذا الجنوى الملحاح وأفهماه بأنهما قد يدرسان مشروعه جدياً بمجرد إنتهاء الحرب مع غرناطة . على أن الجنتا (Junta) مجلس الملك فى سلامنكا ، كان صريح العداوة له لأن أعضاءه كانوا يناهضون فى ذلك الوقت النظرية القائلة باستدارة الأرض وهى النظرية التى بنى عليها كولومبس مشروعه . بيد أن بعض أصحاب النفوذ فى الدولة استعطفوا عليه الملك والملكة .

ولكن كولومبس لم يلبث أن استولى عليه الملل من طول ما انتظر وقرر فيما بينه وبين نفسه الاتصال بملك البرتغال مرة أخرى . فكتب إليه معتذراً عن مغادرة مملكته مجدداً فى الوقت نفسه عرضه للسفر إلى الهند مستكشفاً لحساب جلالته .

www.ibtesama.com Exclusive

رد الملك على خطابه بعبارة رقيقة مرحباً بعودته إلى البرتغال ولكنه لم يزد على ذلك شيئاً فجلسه الاستشارى (الجنتا) لم يكن قد غير رأيه بعد ولا تنازل عن فكرته ، بأنه لا يوجد ذهب ولا ثروة تستفاد فى الغرب ، ولما كانت المغامرات فى أفريقية كثيرة التكاليف والأعباء فقد تحاشى الملك أن يضيف ، إليها بالإنفاق على رحلة يرى مستشاروه أن مآلها للفشل .

ولم يكن إعراض الملك ناجماً عن عدم تقدير لأهمية الاستكشاف فطالما منح المستكشفين ، ملكية ما قد يكتشفونه ، فى شتى المناسبات عندما تقدموا إليه بمقترحات مماثلة ، فمثلا فى الأعوام ١٤٧٥ و ١٤٨٥ و ١٤٨٦ منح بعض الربابنة المقيمين بجزيرة « الآزور » حق ملكية ما قد يكتشفونه ولكنهم لم يوفقوا إلى شىء .



www.ibtesama.com Exclusive

كان كولومبس يختلف عن أولئك جميعاً اختلافا بيناً لجسامة مشاريعه واتساع نطاقها وللرغبة الملحة التى كانت تستبد به لتحقيق ما كان يحلم به قدماء الجغرافيين والفلاسفة . بل إن رغبته كانت تذهب به إلى أبعد من هذا فيتطلع حتى إلى اكتشاف الفردوس الأرضى .

كانت روح هذا الملاح الجنوى ورجل الأعمال المتزن تحترق بلهب الثانى[٢] الطموح الدينى . وكان ماقرأه من كتب الكردينال بيير دَيِّى[١] والبابا بيوس وقودا يؤجج من نيران خياله . أما ما كتبه ماركو بولو وسير جون ماندفيل ونيكولو دى كونتى عن كنوز الشرق فكان الأساسَ الذى بنى عليه كولومبس محرابا متين القواعد يطلق فيه العنان لأمانيه ومطامحه السامية النبيلة . لقد كان يتحرق لهفة للوصول إلى الهند علّه يصيب من الذهب ما يكفل نفقات تجريد حملة صليبية أخرى . أما الجوابون الآخرون الذين اتصلوا بملك البرتغال فلم تكن تسمو بهم آمالهم لغير الحصول على مركب كبيرة توضع تحت تصرفهم ووعد من الملك يضمن لهم ملكية مايكتشفوه لأنفسهم .

* * *

رأى كولومبس بثاقب فكره أنه لا أمل له فى إقناع لا الملك جون الثانى ولا ملك أسبانيا بقبول عرضه فاستقر عزمه على الاتصال بملكى فرنسا وإنجلترا ، وأن يعهد إلى شقيقه برثولوميو فى التوسط لتمهيد الطريق لهذه الغاية . فقد سبق له الإقامة بفرنسا ، بل لقد نزل مرة من المرات ضيفاً على الوصية على العرش آن دى بوجو (Anne de Beaujeu) .

ولكن للأسف لم يلق برثولوميو قبولا لدى ولاة الأمر بفرنسا لمشروع شقيقه فقرر أن يولى وجهه شطر انجلترا ، غير أن المصائب حلت به أثناء عبوره المانش إذ وقع أسيراً فى أيدى القراصنة الذين أبوا إطلاق سراحه حتى يدفع الفدية . فلبث فى الأسر مدة طويلة قبل أن يقيض له الله الوصول إلى لندن .

---

(١) Pierre d'Ailly (٢) Pius II

www.ibtesama.com Exclusive

ولما كان قد جرد من كل ما كان يحمله معه من مال ومتاع فقد اضطر إلى أن يعمل رساماً وواضعا لتصميمات خرائط الملاحة ليحصل على قوت يومه، واستمر يعمل بهمة ونشاط إلى أن ادخر ما يكفى لشراء ملابس مناسبة للظهور بها فى البلاط . وما أن تم له ذلك حتى التمس الإذن بمقابلة الملك ادوارد الرابع ، فأجيب إلى سؤله وما أن مثل بين يدى الملك حتى أخذ يشرح له المشروع العظيم الذى وضع أخوه خطته .

اختلف المؤرخون فى وصف ماحدث أثناء هذه المقابلة فمن قائل بأن أدوارد الرابع اغتبط بالمشروع وطلب إلى رسام الخرائط أن يحضر إليه أخاه على جناح السرعة بينما يقول فريق آخر بأن الملك رفض المشروع على أن الأمر الذى لاشك فيه ولا يقبل الجدل هو أن برثولوميو كولومبس ما كاد يعود إلى فرنسا حتى فاجأه الملك شارل السابع بنفسه بنبأ اكتشاف أخيه خرستفر للهند فعلا وفى نفس المكان الذى ذكر أن الهند تقع فيه

فى استطاعة القارىء تصور الشعور الذى تلقى به الأخ الأصغر هذا النبأ العظيم ، فها هو خرستفر بعد سبع سنوات قضاها فى كفاح مرير ومثابرة وصبر قد كللت جهوده فى النهاية بالنجاح وارتقى إلى قمة الشهرة بفضل سقوط غرناطة .

* * *

إن قصة خرستفر كولومبس ملكُ التاريخ ولكن التاريخ لا ينبئنا عما إذا كان قد دار فى خلده ما سوف يترتب عليه من أحداث جسام — قيام ملك غرناطة المنهزم بتقبيل يدى الجالسين على عرش أرغون وقشطاله المنتصرين فردناند وزوجه إزابللا .

فهذه القبلة . رمز هزيمة ملك غرناطة كانت السبب فى تحقيق كولومبس لمشروعه . فقد كان فى المعسكر الأسبانى أثناء المعركة وشاهد بنفسه تسليم غرناطة سنة ١٤٩٢ .

www.ibtesama.com Exclusive

فمنذ ذلك اليوم اتسع الوقت أمام الملك فرديناندو والملكة إزابللالدرس مشروع « ذلك الملاح الجنوى اللحوح الذى استبقياه يبلاطهما طيلة مدة إنشغالهما بمعركة غرناطة كأسير للأمل الذى كان يداعب خيالهما . وأخيرا حانت الساعة التى كان يترقبها ويشرئبّ إليها فقد خلت الخزائن الملكية من الأموال بسبب الحرب مما حدا بوزير مالية جلالتهما إلى التوكيد لهما بأن نفقات البعثة التى يقترحها كولومبس لن تكون فادحة على حين أنه لو قدّر لها النجاح كان المغنم عظيما والربح وفيرا . وهكذا مكن خرستفر كولومبس من الإبحار بإسم أسبانيا مكلفاً من الملك بأن يحمل إليه توابلا وذهبا . حمل كولومبس معه عينات من جميع النفائس التى أمر بجلبها ، فبإظهارها لسكان أنتيليا وسيبانجو قد يستدل منهم على مواطنها إذ كان لا هو ولا أحد من ملاحيه يعرف حرفا واحدا من لغة أولئك القوم . أما عينات النفائس التى حملها معه فكانت من الذهب والفضة والنحاس والأحجار الكريمة واللؤلؤ والتوابل . وفى يوم ٣٠ أبريل ١٤٩٢ وقع الملك والملكة أمر التكليف باكتشاف « تلك الجزائر التى يعرف سرها » .

وسلم جلالتهما لكولومبس ، بعد أن أنعما عليه برتبة الشرف وبعد أن عيناه أميرالا ، خطابا ليوصله إلى خان الصين الأعظم وفى اليوم الثالث من أغسطس ١٤٩٢ غادر الأميرال شواطىء اسبانيا معتزما سلوك بحار لم تكن قد سلكت بعد مستعينا بخريطة توسكانللى التى لم يكن له من مرشد سواها .

عندما أخذ خرستفر كولومبس فى طريق العودة كان مقتنعا كل الإقتناع بأنه عائد من الهند ، حتى أنه كثيرا ما ذكر التوابل فى مذكراته التى كتبها فيما بعد عن زيارته إلى الهند . وهى التى أمر بأن يعود بها إلى اسبانيا ، فكان طبيعيا أن ينظر إلى النباتات والأشجار التى تنمو فى الجزائر التى اكتشفها بعين الجد والاهتمام . وقد حمل معه فى طريق العودة عينات من الفاكهة وغصون أشجار وأوراقها ليثبت بها نجاح بعثته ، على أنه لم يكن مقتنعا فى نفسه بصورة

www.ibtesama.com Exclusive

قاطعة بأن هذه العينات التى أتى بها معه هى المطلوبة على وجه التحقيق، وشدّ ما كان أسفه لتسرب التعفن إلى معظم الفاكهة مما اضطره إلى إلقائها فى اليم وأن يكن قد بقى لديه شىء منها .

فى غضون شتاء سنة ١٤٩٢ وسنة ١٤٩٣ ألحقت العواصف والأنواء أضرارا بليغة بحركة الملاحة على طول شاطىء أوروبا الغربى لم يشهد الملاحون حتى أكبرهم سنا موسما أشد هولا . وفاجأت إحدى هذه العواصف مركب كولومبس فى الرابع من شهر مارس ، بينما كانت الأعاصير تهب عاتية فوق البحر وقعت أعين الناس فى ميناء كاسكاس[1] الصغيرة — الواقعـــة إلى غرب لشبونة ببضعة أميال — سفينة شراعية تحاول عبثا دخول الميناء . ظل الناس يراقبون السفينة فى محاولتها اليائسة لدخول الميناء بقلوب والهة تعصرها الشفقة على أولئك الأشقياء التعساء بينما ركع فريق منهم وأخذ يبتهل إلى الله أن ينعم على ركاب السفينة بالنجاة والكل يتوقع حلول الكارثة من لحظة لأخرى . وفجأة عدلت السفينة عن محاولة اللجوء إلى ميناء كاسكاس وراحت تشق طريقها بين الأمواج الصاخبة المتلاطمة والريح الثائرة العاتية صوب مصب نهر تاج حتى وصلت راستيلوا فألقت مرساها وفى الحال صعد إلى ظهرها موظفوا الجمارك وما كان أعظم دهشتهم عند ما أعرض عن طلبهم فحص الوثائق كما تقضى به العادة المتبعة وعندما تجاهل الربان النزول معهم إلى البر حسب نص اللوائح ، وما لبثوا أن تضاعفت دهشتهم عندما شرح الربان سبب رفضه التسليم بمطالبهم وهو أن دون خرستفر كولومبس أميرال المحيط لا يسأل أسوة بزملائه من أمراء البحار عن أوراق أو يطلب إليه النزول إلى الشاطىء .

غادر موظفوا الجمرك السفينة وعليهم سيماء الإرتباك ليرفعوا الأمر

---

(١) Cascaes

www.ibtesama.com Exclusive

إلى قائد ثغر لشبونة برثولوميو دياز الذى أسرع إلى السفينة بنفسه بمجرد وقوفه على جليه الأمر .

كانت المقابلة بين هذين الرجلين فذة فريدة فى بابها فهنا قبطان برتغالى خلد التاريخ اسمه للأجيال القادمة كأول من وصل إلى أقصى زاوية من جنوب القارة الأفريقية ودار حولها . وهنا ملاح جنوى يزعم أنه وصل إلى الهند عبر المحيط الأطلسى . أحدهما فتح الطريق إلى حيث التوابل ، والآخر فتح الطريق إلى حيث الذهب . أطلع كولومبس برثولوميو دياز على أوراقه ومستنداته عن طيبة خاطر ولم تكن فى الواقع سوى خطابات التكليف ممهورة بإمضاء ملك وملكة اسبانيا . وما أن انتهت المراسيم الجمركية بسلام حتى شُرع فى إستقبال الأميرال استقبالا حافلا اختلطت فيه المزامير بالأبواق والصنج وخرجت جميع لشبونة على بكرة أبيها لرؤية أولئك الهنود الذين أتى بهم معه وليسمعوا قصص البحارة عن مشاهداتهم وتجاربهم .

* * *

وفى الحال أوفد بروثولوميو دياز الرسل إلى قصر الفردوس لينبئوا الملك بوصول خرستفر كولومبس .

رحب الملك بمقدم الملاح الناجح ودعاه لزيارته فى قصره وهناك احتفى به حفاوة لا تصدر إلا من عظيم لعظيم .وكان طبيعيا أن تستبد بالملك جون الثانى الرغبة فى الوقوف على تفاصيل الرحلة فأطلق نفسه على سجيتها وراح يمطر ضيفه بوابل من الأسئلة ذاكرا له فى معرض المحادثة كما لو كان عن غير تعمد أن الجزيرة التى اكتشفها قد يكون من حقه — أى الملك — أن يضيفها إلى ممتلكاته بموجب المعاهدات المعقودة . فأجاب الأميرال بأنه شخصيا لا علم له بشىء عن هذه المعاهدات وكل ما هنالك أنه قام برحلته صدوعا بأوامر ملك وملكة أسبانيا ثم هو قد تجنب الذهاب إلى غانة لكونها تحت سيطرة البرتغال .

www.ibtesama.com Exclusive

كانت المقابلة بين الملك جون الثانى وبين الرجل الذى ساد الاعتقاد بأنه عائد من الهند،ودية أهملت فيها الرسميات تقديراً للضيف العظيم وعرفانا بعمله الجليل الخطير . ولما كان خرستفر كولومبس مقتنعا كل الاقتناع بأنه وصل الهند فى رحلته — وهى التى كانت تعرف باسم « أوفير » فى أيام سليمان بن داود — فقد راح يسهب فى الكلام عن الذهب والتوابل واللؤلؤ والأحجار الكريمة .

وكان يأمل أن يصل فى رحلة قادمة إلى القارة نفسها ومن ثم إلى اكتشاف الجنة التى وضعها الله فى الشرق .

وفى الرحلة القادمة أيضاً كان يفترض أنه سوف يدخل تلك الثغور الغنية التى كتب عنها ماركوبولو ويذهب لزيارة الخان الأعظم .

أما فى الوقت الحاضر فقد كفاه فخاراً ومجداً أنه وصل إلى الهند فى بضعة شهور . أوَلم يُقِمْ الحجة والبرهان القاطع على صحة ما ذهب إليه من أن الوصول إلى الهند من أسبانيا ليس بالأمر العسير ؟

أبحر « الأميرال » — كما كان يلقب كرستفر كولومبس دائماً — من لشبونة إلى پالوس[1] حيث خرج الناس فى نشوة من الفرح تقرب من الهذيان بمجرد سماعهم أنه اكتشف الهند ، وما أن انقضى أسبوعان على ذلك حتى جاءه الإذن بالمثول بين يدى الملك والملكة الذين استقبلاه فى برشلونة بحفاوة وتكريم ملكيين .

أفعم قلب كولومبس سروراً بما أبداه الملكان الأسبانيان نحوه من عطف وما أظهراه من شديد الاهتمام بأخبار رحلته،فانطلق لسانه عن طيبة خاطر بتفاصيل تجاربه حتى تركهما فى ذهول مما سمعا وقد غمراه بكل ما يمكن أن يغمراه به من حسن التقدير ونبيل الشعور فأغدقا عليه النعم والرتب بكرم وسخاء .

---

(١) Palos

www.ibtesama.com Exclusive

ومما يستحق الذكر أنه كان من بين الذين شاهدوا هذا الحدث العظيم وكتبوا عنه فورا إلى روما رجل يدعى بيتر مارتيردى أنغيير (١) من أهل ميلانو ومن رجال الكردينال أسكانيوس سفرزا (٢) ووكلاء أعماله، كما كان مؤدبا لأبناء الملك.

اشتهر بيتر مارتير بخطاباته الفكاهية الحديثة المسامرة التى كان يتهافت عليها الناس فى روما حتى البابا اسكندر السادس بورجيا الذى وإن يكن يحمل اسما إيطاليا الا إنه اسبانى بحكم مولده، فكان حريا أن يعنى بكل مايحدث فى وطنه الأصلى اسبانيا . وكان الكردينال سفرزا قد طلب إلى صديقه هذا الذى كان له طابع مراسلى الأنباء الخارجية من الطبقة الأولى، ومواهبهم، أن يوافيه دائما بأحدث الأنباء من اسبانيا . فلا جرم كانت أنباء حصار غرناطة مادة كافية لتقارير لها أهميتها . وفى أثناء هذا الحصار توثقت عرى المودة والصداقة بينه وبين كولومبس . وبينما كان هذا الأخير يقطع الساعات الطويلة عاكفا على رسم خريطة للعالم الذى يأمل اكتشافه كان صاحبنا الميلانى يرصد الحوادث ويتتبع مجريات الأمور ثم يكتب عنها لصديقه الكردينال — كثر اللقاء بين الرجلين وتكررت المقابلات بينهما فى برشلونة حتى أصبحت أطماح كولومبس وخططه ومشروعاته معروفة لبيتر مارتير تمام المعرفة، فكان فى خطاباته للكردينال يتحدث عن الملاح الجنوى كما لو كان يتحدث عن « صديق حميم » .

والآن تقابل الرجلان مرة أخرى، ولكن لم يكن كولومبس فى هذه المرة ذلك الحالم بما لا أمل فى تحقيقه، بل كان الممثل الأول على مسرح تمثيلية عظيمة، تمثيلية اكتشاف الهند . أفضى بيتر مارتير إلى صديقه بكل ماحدث ولا غرو فهاهى طائفة من الأنباء تستحق أن يكتب عنها إلى روما من فوره . وكأنما

---

(١) Peter Martyr d'Anghiera

(٢) Ascanius Sforza

www.ibtesama.com Exclusive

أحس بيتر بصديقه الكردينال يسأل ! هل من جديد فى اسبانيا ؟ فسبق بالجواب قبل السؤال ! أنباء عظيمة ! أحدثها، عودة خرستفر كولومبس أمير البحر ، أمير المحيط من بلد يزعم أنه الهند . لقد اكتشف جزيرة تسمى جواديلوب[١] وأخرى أطلق عليها اسم هسبانيولا[٢] ، وقد أتى معه بأربعة ببغاوات أكبر حجما من الدراج .

وفى الخطاب أخبار عن وجود الذهب فى كوبا (Cuba) وعن أشجار تحمل ثمار التوابل ، وعن حمل أمير البحار معه لطائفة من العينات يظن أنها للقرفة ولخشب الصبر ولجوزة الطيب وللراوند وللراتينج ولبعض الأعشاب العطرية . ثم أضاف مرسل الخطاب . أما الذهب فقد رأيته كما رأيت قطعة ضخمة من مزيج الذهب والفضة تزن ثلاثمائة وثلاثين رطلا ولكننى لم أر شيئا من التوابل لأن جميع ما جلب منها من تلك الجزائر التى فى البحر لما أصابه من التعفن خلال الرحلة .

ويبدو أن موضوع التوابل كان له أهمية خاصة لدى الكردينال ومراسله فنراه فى إحدى المناسبات يرسل للكردينال عينات من لحاء شجرة ومن خشبها ومن بذورها يتجه الظن إلى أنها جميعا لشجرة القرفة . ثم يخبره بأن هذه العينات أعطاها له صيدلى فى إشبيليه مؤكدا له بأنه لا ضرر منها البتة ، إلا أن البذور — نظرا لشدة حرارتها تحدث بثورا فى اللسان لذلك يستحسن شرب ماء بارد بعد تذوقها مباشرة . أما فيما يتعلق « بخشب الصبر » — وقد كان أرسل إليه قطعة منه فى نفس الوقت — فالأفضل أن تجزأ إلى قطع صغيرة عند أكلها فتصير حلوة المذاق طيبة الرائحة .

* * *

حدث كل هذا بينما كان خرستفر كولومبس قد انتهى من إعداد تقرير رفعه إلى خازن الملك عن تفاصيل رحلته التى ذكر أنها استغرقت مائة وواحد

(١) Guadelupe
(٢) Hispaniola

www.ibtesama.com Exclusive

وسبعين يوما كما عدد فى التقرير منتجات الجزائر التى اكتشفها من توابل وذهب ومعادن ورقيق وراوند وقرفة وراتينج وألف مادة أخرى من المواد القيمة من بينها القطن. أما الفلفل الأحمر الذى عثر عليه رجاله فسرعان ما أدرك أمير البحار بأنه يختلف كل الاختلاف عن الفلفل المجلوب من الهند ولكنه قريب من فصيلة الفلفل المستورد من غانه .

وتكلم الملاح الموفق بلهجة الواثق عن التوابل والأفاوية التى يعتقد أنه عثر عليها وحتى عن جوزة الطيب . ولكن بما أن ثمار هذه الشجرة لم تكن قد نضجت بعد فهو لا يستطيع الجزم بأمرها . وأما فيما يتعلق بالقرنفل فهو وإن لم يرسل منه شيئا إلا أنه عثر على شجرة لأوراقها رائحة القرنفل تماما . وقد عثر على كميات كبيرة من الشمع يؤخذ من شجر معين لامن النخل ، وهو يحترق تماما مثل الشمع المتخذ من النخل ، وأن من دواعى الأسف عدم استطاعته تقديم عينات جميع هذه المواد . ومهما يكن من أمر فقد سُلم بصحة كل ما قاله كولومبس دون أى تحفظ .

ولما كانت رحلته الأولى قد بلغت كل هذا المبلغ من التوفيق والنجاح فقد طلب الملك والملكة من أمير البحار أن يبادر بالعودة إلى الهند جهد المستطاع لاكتشاف بلاد أخرى وجلب التوابل .

* * *

www.ibtesama.com Exclusive

الفصل السادس

فلتقذف السماء باللهب والنـــار
ولتأتمر على الحروب ولتجمد البحار
أننى أتحـــداها جميعــاً
ليت لى بدل الحياة حياتين فأبذلهما جميعاً

«المقطع الخامس»

أصبح الملك جون الثانى يدرك الآن عظيم أهمية اكتشاف كولومبس كما أصبح يخشى على الممالك التى اكتشفها رجاله فيما وراء البحار، والتى يطمع فى أن تكون له، من مزاحمة أبناء عمومته الاسبانيين خشية أن يدّعوها لأنفسهم. أما الملك فرديناند والملكة أزابللا فراحا يحلمان من جانبهما بممتلكات لا حد لها وراء المحيط الأطلسى ورغبا فى تثبيت شرعية ملكيتهما لتلك الآفاق الجديدة بمقتضى مرسوم باباوى يمنحهما حق الملكية.

فكتبا فورا إلى البابا يلتمسان اعتبار جميع ما اكتشف وماقد يكتشف من الأراضى ملكا حلالا لهما، وجاءهما الرد وفيه يعرب البابا عن استعداده لجعل وطنه أسبانيا يستفيد من هذه المكتشفات جميعا وكانت استجابة البابا فى أسلوب بسيط موجز، فبجرة قلم ألغى جميع القرارات البابوية التى أصدرها من سبقوه لصالح البرتغال وبجرة قلم أخرى، وقع على قرار جديد لصالح أسبانيا.



على أن هذه المنحة البابوية كانت مشروطة بشرط واحد هو تحطيم الوثنية أينما وجدت وبذل أقصى الجهود لنشر تعاليم المسيحية. فهذا القرار

www.ibtesama.com Exclusive

البابوى الصادر فى الرابع من مايو سنة ١٤٩٣ ضمن لإسبانيا ملكية ، جميع الأراضى التى قد تكتشف فى الغرب إلى مدى نقطة الالتقاء بشرقى ممتلكات أى عاهل مسيحى كان يملكها قبل عام ١٤٩٣ .

لم يكن ملك البرتغال ليرضى بهذا القرار دون أن يحتج عليه ، فأصدر تعليماته إلى سفيره ليحتج لدى البابا ولكن لغير طائل . وهنا سنحت الفرصة أمام الملك لاستخدام فطنته وذكائه فقرر فيما بينه وبين نفسه أن يرغم منافسه بالمكر والدهاء السياسى على الاتفاق معه . وكان الملك فرديناندو والملكة إزابللا يحسبان كل حساب لدهاء الملك جون ويخشيانه، لذلك ما كادا يعلمان بشروع الملك جون فى تجهيز اسطول قوى لانتزاع جزر الهند الغربية منهما حتى أسرعا بإيفاد ثلاثة من مستشاريهما إليه لمباحثته فى الأمر . وكان على هؤلاء المستشارين أن يهدئوا خاطر الملك جون جهد طاقتهم وأن يبددا مخاوفه بأن يؤكدوا له بأن ممتلكات اسبانيا الجديدة ليست قريبة من غانه الجديدة . اقترح المستشارون الثلاثة عقد مؤتمر للوصول إلى حل لهذه المسألة الحيوية للمملكتين عن طريق الاتفاق الودى المتبادل . وفى حالة تعذر الوصول إلى حل يرضاه الطرفان ، يُعرض الموضوع برمته على روما لتحكيم البابا .

ولكن هذا العرض الأخير لم يرق للملك جون وخاصة اذ كان البابا اسكندر السادس قد أصدر قرارا آخر فى شهر سبتمبر لصالح أسبانيا قبل قيام خرستفر كولومبس برحلته الثانية .

ولم يقبل المستشارون الإسبانيون من جانبهم ماعرضه الملك جون من أن الأراضى التى قد تكتشف شمالى جزائر كناريا تكون ملكا لأسبانيا وما يقع جنوبيها يكون ملكا للبرتغال .

كانت نتيجة هذه المفاوضات أن استقر الرأى على عقد مؤتمر لفض النزاع ينوب فيه عن كل طرف من الطرفين ثلاثة مستشارين. ووقع الاختيار

www.ibtesama.com Exclusive

على ورديسيلاس[1] لعقد المؤتمر فيها وهى مدينة قرب فلادوليد[2] التى للملكى ليون وقشطالة قصور فيها . هنا على ضفاف نهر دورو[3] المرتفعة دارت المناقشة شهورا عديدة حول تقسيم مالم يُكتشف بعد من الأراضى قسمة عادلة . وكانت نقطة البداية فى المناقشة الحد الذى قرره الباباوات فى أيام الأمير هنرى الملاح وهو خط يقع على مسافة مائة فرسخ إلى غرب جزائر أزور . لجميع الأراضى التى تقع شرق هذا الحد تعتبر من ممتلكات البرتغال .

رجحت براعة الملك جون الدبلوماسية كفة الميزان لصالحه . فقد كان الاحتفاظ لنفسه بالطريق إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح أحب أمانيه وأعزها عليه لذلك شدد على مندوبيه أن يتظاهروا بالتمسك بالطريق الغربيه فأثار هذا بطبيعة الحال من اهتمام مندوبى إسبانيا ومن رغبتهم فى التمسك بتلك الطريق .

كان وجود أعضاء المؤتمر فى ورديسيلاس وأسباب عقد المؤتمر مثار اهتمام السكان كبيرهم وصغيرهم . فيروى أنه بينما كان المندوبون الستة يتنزهون ذات يوم إذ استوقفهم صبى صغير على الجسر ثم رفع إليهم بصره فى شىء من السخرية متسائلا وعلى وجهه ابتسامة عريضة . أأنتم الرجال القائمون بتقسيم العالم ؟

كان مكسمليان يحمل لقب ملك الرومان بوصفه الإبن الأكبر لفردريك الثالث إمبراطور ألمانيا ، وهو ابن عمة ملك البرتغال أو ابن خالته ، وقد كان من أعز أمانيه أن يكون للملك جون الثانى ملك البرتغال نصيب متعادل متساو مع الملوك الآخرين فى سباقهم للسيطرة على ثروة العالم الجديد . لذلك كلف طبيبا وفلكيا ألمانيا اسمه هير ونمس منتزر[4] أن يكتب باسمه وبالنيابة عنه خطابا للملك جون الثانى يحثه بكل الأدلة المنطقية على متابعة عملياته

(١) Tordesillas

(٢) Valladolid

(٣) Duro

(٤) Hieronymus Muntzer

www.ibtesama.com Exclusive

الاستكشافية ، وخاصّة فى الصين ، ذلك البلد الغنىّ ، معددا المؤلفات التى تأثر بها خرستفر كولومبس وأن يحث الملك كذلك على ألا يدع الفرصة تفلت من يده لمضاعفة شهرته التى وكّد له أنها انتشرت وذاعت فى جميع دول أوروبا بمـا فى ذلك بلاط أرشدوق المسكوف[1] .

وذكّر مكسيمليان الملك جون بأنه « الملك الوحيد الذى توجد تحت تصرفه ثروة ضخمة وملاحون مجربون محنكون يتطلعون إلى ارتقاء درجات المجد وتخليد أعمالهم .

ورغبة من مكسيمليان فى مساعدة الملك جون على الاضطلاع بما حثه على القيام به ، عرض أن يرسل إليه مارتن بهايم ليعلم الملاحين البرتغاليين وخاصة المقيمين منهم بجزائر آزور كيفية الملاحة عبر الأطلسى « بواسطة المزولة (ربع دائرة) والاسطوانة والاسطرلاب وغيرها من الآلات » .

لم يكن هنالك فى الواقع أى داع لتقديم مارتن بهايم إذ سبق للملك استخدامه فى الجنتا (المجلس الاستشارى) وفى بعثة دبلوماسية إلى فلاندرز (بلجيكا) الخ .

وقد رقى هذا العالم الجغرافى إلى مرتبة فارس فى جماعة المسيح البرتغالية وبعث إليه الملك عقب عودة برثولوميو دياز بالخرائط الذى رسمها هذا الأخير ليدرجها جميعا فى خريطة رئيسية كان قائما بعملها . وفى عام ١٤٩٠ أتم بهايم جميع عناصر الخريطة الطريفة مثبتا فيها بأحجام صغيرة وبألوان زاهية أشجار التوابل بثمارها الناضجة والأشخاص والحيوانات وما إلى ذلك . فكانت حدثا فى تاريخ فن الخرائط وفى عالم الجغرافيا .

وفى عام ١٤٩٤ زار هيرونمس منتزر الملك جون الثانى فى إفورا[2] حيث راحا يتناقشان — وكلاهما من عشاق الاستكشاف — حول احتمال القيام برحلات جديدة وماقد يتيحه الاتجار مع الشرق من فرص للربح

---

(١) الروسيا
(٢) Evora

www.ibtesama.com Exclusive

والغنم . ثم قال الدكتور للملك جرب هذه المغامرة وسوف يقرنك الناس بهرقل [١] .

* * *

وفى هذا العام بالذات وُقعت اتفاقية تور ديسيلاس، [٢] وقعها ملك إسبانيا فى شهر يونيو ١٤٩٤ ووقعها ملك البرتغال فى فبراير سنة ١٤٩٥. رضى كل من الفريقين بنصوص الاتفاقية ولكنها للأسف كانت تحمل فى ثناياها جراثيم الشقاق والخلاف وذلك بسبب الفرق بين مقياس الفرسخ، فالإسبانيون يحسبون كل درجة ارتفاع بستة عشر فرسخا وثلى فرسخ بينما يحسبها البرتغاليون بسبعة عشر فرسخا ونصف فرسخ .

منذ عودة برتولوميو دياز والملك لم تبرح مخيلته ضرورة القيام برحلات استكشافية أدق تفاصيلا . فأخذ تاجر إيطالى على عاتقه — تلبية لطلب الملك — أن يبحر بتجارته جنوبا إلى أقصى نقطة مستطاعة . فشلت المحاولة ولكنها لم تخلُ من بعض المنفعة ، فقد أفضى الإيطالى إلى الملك بأن مراكبه الشراعية من النوع الخفيف لا تستطيع الصمود فى وجه عواصف المحيط الجنوبى الشديدة ونصح الملك ببناء مراكب خاصة تصلح لمثل هذه الأسفار فأخذ الملك بنصيحة الإيطالى وأصدر أوامره فورا بقطع الأخشاب اللازمة وشرع النجارون وبناؤو السفن فى صنع سفن من نوع جديد وقد ساهم برتوولوميو دياز بنصائحه فى بنائها .

ولكن للأسف حالت طائفة من الظروف المعاكسة دون تجريد الملك أية حملة جديدة فعودة خرستفر كولومبس ترتب عليها إصدار البابا لقراره المشئوم وتلك المناقشات الطويلة بشأن تقسيم العالم ، والشهور العديدة التى استغرقها المؤتمر فى تورد يسيلاس لحل المسألة الحيوية كل هذه الأمور كانت عوائق غير هينة حالت دون تنفيذ الملك جون لخطته .

---

(١) Hercules

(٢) Tordesillas

www.ibtesama.com Exclusive

أضف إلى ذلك أن تدهور حالة الملك الصحية زادت الأمور تعقيدا . فالملك جون الثانى كان قد أحال تنفيذ مشروعه الكبير الذى كان يحلم به على ولى عهده دون ألفونسو ــ الذى أنعم عليه بصورة الكرة الأرضية لتكون شعارا له ــ ولكن للأسف توفى ولى العهد وهو فى السادسة عشرة من سنه عقب سقوطه عن ظهر جواده عام ١٤٩٢ تاركا خلفه أرملة شابة هى إزابللا كبرى بنات الملك فرديناند والملكة أزابللا دون أن يعقب منها . وكان الذى أخلفه فى ولاية العهد ابن عم الملك دون مانويل، ولابد أن الملك كان يشعر بالارتياح لولايته للعرش لما كان يأنس فيه من رغبة مماثلة فى مواصلة السعى لاكتشاف الطريق إلى الهند، ولما كان يشعر به من الاطمئنان كذلك إلى أنه سوف يعمل على تنفيذ مشروعاته جميعا عند سنوح الفرصة .

مات الملك جون الثانى بعد مصادقته على اتفاقية توردسيلاس بزمن قليل مأسوفاً عليه من رعاياه الذين أطلقوا عليه اسم « الأمير الكامل » . حتى أن أحد الذين وقعوا الاتفاقية ـ واسمه دورت باتشيكو [١] كتب عن الملك الراحل « كادعر فانه ونصائحه أن تكون سماوية وكان حكمه على الأشياء وذكاؤه لا نظير لهما فى عصرنا » . كان دون مانويل فى السادسة والعشرين من عمره حينما ارتقى العرش وحينما ورث مالا يقدر ولا يحصى من الاحتمالات والفرص لتدعيم امبراطورية فيما وراء البحار مهد لها الطريق وعبده سلفه الراحل .

وفى ذات يوم بينما كان يفحص أوراق سلفه الراحل عثر الملك مانويل على خطاب استرعى التفاته . إذ ظهر من سياق الخطاب أنه رد من تاجر فينيسى على خطاب مرسل إليه من الملك جون يكشف فيه عن قلقه لعدم ورود أنباء منذ فترة طويلة من الزمن من بدرو دى كوفلهام وألفونسو دابايفا . ويستنتج من رد التاجر الفينيسى أن الملك كان قد طلب إليه أن يكلف وكلاءه فى الإسكندرية بأن يستعلموا عن أمر هذين المبعوثين ومصيرهما .

---

(١) Duerte Pacheco

www.ibtesama.com Exclusive

ويستدل من سياق الخطاب كذلك على أن تبادل المراسلات كان متواصلا بين الاثنين اذ كان روح الخطاب وأسلوبه يدلان على مكاتبة صديق لصديق. وبعد أن وعد التاجر الملك جون فى الخطاب بأن يبذل كل ما فى وسعه للوقوف على أنباء المبعوثين، إنتقل إلى موضوع التوابل فوصف فى عبارات خلابة وفرة الربح الذى تدره هذه التجارة ، وأبدى أسفه لأن هناك مسألة لا يعلم من أمرها شيئا فهو لذلك عاجز عن الإخبار عنها وهذه المسألة هى « أين تقع الهند؟» بيد أنه استحث الملك على الاضطلاع بعبء الكشف عنها . «بإرسال سفنه لفتحها حتى ولو كان فى هذا تعريض عرشه وسلطانه للضياع ، إذ أن فى فتح الهند المجد والثروة » .

* * *

لو أن للعالم أبوابا تفتح أمام أحد من الملوك فى عصره فقد انفتحت أمام هذا الملك الشاب صاحب عرش البرتغال . فلم يكن عليه لولوجها سوى مواصلة سياسة من سبقوه من ملوك دولته . على أنه لحسن الحظ كان لديه المؤهلات اللازمة للاضطلاع بعبء المشروعات الجسيمة وكان لديه رجال ثقفوا فى خدمة الملك جون الثانى ليكونوا أهلا لكل عمل يتطلب البسالة والإقدام .

اعتزم الملك إرسال أسطول لاجتياز المحيط الشرقى المجهول . ولكنه قبل أن يفصح عما أضمره استدعى المنجم الملكى زاكوت الفلكى الأستاذ بجامعة سلامنكا سابقا

كان الملك شديد الاعتقاد فى قدرة المنجمين على التنبؤ بالأحداث .

وفى سكون الليل عكف الملك والمنجم على دراسة مصير الحملة التى اعتزم تسييرها .

كانت أوضاع النجوم والكواكب تشير إلى حسن طالع ما اعتزمه الملك فاغتبط الملك والمنجم معا بالنتيجة . وما أن شعر الملك بالاطمئنان إلى ما اعتزمه حتى أسرع بالمضى فى إعداد المشروع مستشيرا برثولوميو دياز

www.ibtesama.com Exclusive

عن عدد السفن التي تلزم لهذه الرحلة مفوضا إليه تصميمها بصورة تضمن مقاومة ثورة البحر وهياجه عند رأس الرجاء الصالح .

* * *

لم يعد للناس من حديث فى دوائر البلاط إلا الحملة المزمع تجريدها . وبدا لكثير منهم أنها مشروع لا يقبله العقل . واعترض عدد غير قليل من مستشارى الملك على المشروع وعلى إقدام الملك على القيام بمغامرة مقضى عليها بالفشل لا محالة وجادلوا الملك بكل أحكام المنطق ليثنوه عن عزمه وعن انتهاج خطة ، هى من نسج الخيال وتصوير الأوهام ، وذكره المستشارون وقد استبد بهم القلق بالأخطار التى سوف تقوم فى سبيله وببعد الطريق الشاسع إلى الهند وبالعمل الجبار المضنى الذى ينتظر الملاحين وما يحتمل من اضطرار قواده إلى الدخول فى حرب مع سلطان مصر « وهناك قد تطور الحال إلى متاعب مع الملوك المسيحيين » .

فإذا كان الملك يطمح إلى ما يكسبه المجد والشهرة فيستطيع أن يعمل هذا بالقتال فى أفريقية . وإذا كان المغنم والثروة مايريد — كالفلفل والذهب والرقيق — فهذه توجد فى إثيوبيا[1] التى يمتلك جزءا منها بينما تدين له الأجزاء الأخرى بالتبعية .

ليس بعسير على الإنسان أن يتصور ابتسامة السخرية التى ارتسمت على وجهه وهو يستمع لتحذير أولئك المتعاقلين . فتركهم يسكبون مخاوفهم كما يشاءون ولكنه ظل كالصخرة التى تتكسر عليها صغار الأمواج الملحاحة اللجوج .

ولا جدال فى أن الملك كان لا يزال يذكر تلك النتائج المشئومة التى ترتبت على رضوخ الملك جون لما أشاروا به من رفض العرض الذى تقدم به كولومبس كانت الخطوة الثانية أن يجد الملك من يسند إليه قيادة الحملة

---

(١) كانت جميع أفريقية جنوب الصحراء توضح على الخرائط باسم أثيوبيا .

www.ibtesama.com Exclusive

الخطيرة . فوقع اختياره على فاسكو دا جاما وهو قبطان محنك ملحق ببلاطه وكان كما كان أبوه من قبل من أكثر ملاحى الملك جون موضع تقدير وثقة. فكان فيما عرضه على الابن لفتة وفية إلى ما كان يختلج فى صدر الملك جون من نية إسناد هذا العمل إلى والد فاسكو .

كان يجرى فى عروق الملك وفى عروق قبطانه دم من أصل واحد فهما ينحدران من سلف واحد هو الملك الفونسو الثانى وقد مضى على عهده قرابة مائتى عام . فقد انتقل الدم الملكى إلى أسرة دا جاما عن طريق ابنة غير شرعية لذلك الملك .

***

أسقط الملك مانويل جميع الرسميات فى تصرفاته مع فاسكو دا جاما حينما دعاه للاضطلاع بعبء قيادة الحملة . وقد نقل إلينا المؤرخون وصف الجو الذى تمت فيه هذه المقابلة والروح التى سادته . فالملك والقبطان كانا فى سن الثامنة والعشرين ، تلك السن التى يتقد فيها التحمس للعمل النبيل بلهب متدرزين ، وكان الاحترام والتقدير متبادلا بين الطرفين، الملك وتابعه، فمن جانب الأول الثقة التامة ومن جانب الثانى الولاء الخالص — وهى اعتبارات ضرورية لضمان التعاطف وحسن التفاهم وانسجام العمل .

سجل المؤرخ وصف المشهد الخطير حين عبر الملك عن رغبته ، والرغبة من الملوك أمر . قال الملك لفاسكو دا جاما : « يسرنى لو أنك قمت بتأدية خدمة أتطلبها منك . ولكنها شاقة تقتضى جهودا جبارة » .

وها نحن نرى رجل الحاشية الملكية الشهم يتقدم فيقبل يد مليكه . وها نحن نسمعه يرد فى غير تردد « مولاى . أنا خادم على أتم استعداد لأداء أى عمل قد ترغب فى أن تعهد إلى به وبما أنك ترمى القيام بخدمتك فسوف أبذلها طالما أنا على قيد الحياة »

www.ibtesama.com Exclusive

وما أن تم الأمر على هذه الصورة حتى أخذ الملك يباحث قائده المختار فى موضوع الرجال الذين يرغب فى اتخاذهم زملاءً له . كانت المشاورة من القلب إلى القلب فى جو من الصراحة التامة والمودة . وكان من المشاهد التى ينشرح لها الصدر وتطيب لها النفس ذلك المشهد الذى مثل فيه فاسكو بين يدى الملك وبصحبته أخوه الأكبر باولو، كل منهما يتوسل إلى الملك أن يعقد قيادة الحملة للآخر . وأصر فاسكو على أفضلية باولو فى حمل العلم الملكى والاضطلاع بمنصب القائد .

ولكن الملك يقطع العقدة (الجورديانيه)[1] حين التفت إلى باولو وعلى وجهه ابتسامة هادئة قائلا : « أنى اخترت أخاك لهذا الأمر واخترتك لمعاونته ولكنه كالأخ الوفى الأمين الذى يشعر أنه يدين لك بالطاعة أراد أن يتنحى لك عن القيادة . ولكننى أرغب فى أن يكون هو القائد . أما من يحمل منكما العلم فأنتما وشأنكما . سأرضى بما تتفقان عليه »

وتعطف الملك فقبل تعيين نكولا كويلها[2] فى منصب القائد الثالث للحملة إذ كان الأخوان داجاما قد قدّما هذا الشاب الشهم للملك كصديق حميم لهما عزيز عليهما كما لو كان شقيقا لهما .

ولما كانت ثقة الملك بقائده الذى اختاره لا حد لها فقد أطلق يده فى أمر إعداد العدة للحملة . فكل طلب له مجاب .

وكان لفاسكو مطلق الحق فى مقابلة الملك كلما أراد، وكان الملك من جانبه يسر بمثل هذه المقابلات لما تتيحه من الفرص لدراسة تفاصيل الحملة وبحثها معه وخاصة إذ كان مرجع الأمر والنهى فى أمر هذه الحملة والاستعداد لها من حق فاسكو وحده ولكنه كان عاقلا ذكيا فلم يستأثر برأيه فى كل شى وإنما دعا زملاءه

---

(١) Gordian knot = معناها عقدة عسيرة الحل إشارة إلى عقدة كانت بمركبة جورديوس أحد ملوك فريجيا « phyrgia » قطعها الإسكندر الأكبر بضربة من سيفه عندما سمع العراف يقول أن من يحلها يسيطر على قارة آسيا كلها .

(٢) Nicoloa Coelha

www.ibtesama.com Exclusive

وذوى الخبرة للاشتراك معه فى الرأى ومعاونته فترك لبرثولوميو دياز مهمة الإشراف على بناء السفن التى كان هو واضع تصميمها مستبدلا السفن الشراعية الخفيفة باخرى مربعة الأشرعة، مفرطحة القاع حولتها أكثر من الأولى، مربعة المؤخرة، عريضة المقدمة ولها أبراج فى المقدمة والمؤخرة تمكن البحارة من الاحتماء بها كآخر مراكز للدفاع أمام العدو إذا ما استطاع الوثوب إلى ظهرها. وكانت سلامة البحارة وتوفير الراحة لهم أهم الاعتبارات، وقد روعى ذلك فى تصميم هذه السفن، على أنها كانت بطبيعة الحال أقل سرعة من الأولى. ووضعت على جدران السفن الجانبية ألواح أضافية من الخشب تقلل من تأرجحها عند مخورها أمام الرياح.

وبنيت السفن الثلاث على نسق واحد وزودت بقطع غيار مماثلة حتى إذا اضطرت الحالة إلى تحطيم إحداها استطاعت استعمال قطع الغيار للسفينتين الأخريين. وكان بكل سفينة ما يلزمها من قطع الغيار كالسكان والسارية والهلب الخ.

وزودت السفن بالسلاح كذلك لمواجهة أى اعتداء. وإن لم يكن هدفها القتال أو الفتح فكان بها النبل والنشاب والرماح والفؤوس والسيوف والقنابل الخ.

* * *

اختار فاسكو بحارة سفنه بمنتهى العناية واعتبر كل من وقع عليه الاختيار جنداً فى خدمة الملك. ومنحهم القائد مرتبات إضافية على شريطة أن يتعلم كل منهم حرفة خلال فترة الانتظار إلى أن يتم إعداد السفن وقد اغتبط البحارة بهذه الفكرة وراحوا يتعلمون عن طيبة خاطر حرف النجارة والطلاء وفتل الحبال والحدادة، واختير مرشدو السفن من بين أكثر رجال البحر مهارة وتجربة. وكان من بين من وقع عليهم الاختيار مرشد زامل برثولوميو دياز فى رحلته الخالدة.

www.ibtesama.com Exclusive

ودُعى الأستاذ الفلكى العجوز زاكوت لتدريب مرشدى السفن ومساعديهم على استعمال الاسطرلاب ليكونوا أكثر استعدادا من الوجهة الفنيه لمواجهة ماقد يطرأ على الحملة من التقلبات الجوية أثناء الرحلة وأعطى زاكوت لكل مرشد خريطة كبيرة بها خطوط بألوان مختلفة تبين أسماء الرياح واتجاهها . ولا يخفى أن هذا العالم الفلكى كان أستاذا لفاسكو داجاما فلا عجب أن يهتم كل هذا الاهتمام بمثل هذه الحملة الخطيرة التى يقودها تلميذه وأهدى إليه نسخة من كتابه المشهور التقويم الدائم .

وزُود المرشدون بكل أنواع الآلات التى لا يستغنى عنها فى الملاحة ومن بينها بوصلة تعرف ببوصلة التغيرات ، وهى بوصلة وساعة شمسية فى وقت واحد ولها عقرب ممغطس .

وساهم كل عضو من أعضاء الجنتاف التبرع بشىء أو آخر مما قد يلزم الحملة فى سياحتها فنيا وعلميا .

وزُود فاسكو داجاما بنسخة من مؤلف بطليموس فى الجغرافيا وبفقرات مقتبسة من مؤلفات وتقارير بنيامين دى توديلا وماركو بولو ونيكولا دى كونتى .

وكان من أهم مازُود به نسخة من تقرير بدرو دى كوفلهام وخرائطه التى رسمها للأماكن التى زارها على الشواطئ.

وبالاختصار وُضع تحت تصرف قائد هذه الحملة المسافرة إلى الهند جميع مايحتاج إليه مما اكتشفه الجغرافيون ومما تمخضت عنه الاستكشافات من معلومات ومقترحات وما يمكن أن يفترض علميا .

فرغ فاسكو داجاما من استكمال رجال حملته باختيارديا جوديباز مشرفا على حسابات سفينته ومرشدا له وهو الذى رافق برثولوميو دياز فى رحلته ، كما ضم إلى رجاله بعض القسس والحلاقين والصيادلة . وكان هناك مجموعة خاصة من الرجال ، لهم أهميتهم، ضموا إلى الحملة للقيام على خدمة أفرادها . وأعضاء هذه المجموعة من الرجال الذين سبق الحكم عليهم بالإعدام ، فكلما احتاج

www.ibtesama.com Exclusive

الأمر إلى الاتصال بالمتوحشين فى الشواطىء . أُرسل واحد من أولئك المجرمين للاتصال بهم أولا فإذا ما قتل لم تكن هناك أية خسارة تذكر إذ كان قد سبق الحكم عليه بالإعدام من قبل ، فكان عليه لاستعادة حريته أن يدعو للبرتغال والحملة ويمجد أعمال وطنه وينوه بعلو مركزه إلى أن تعود السفينة لحمله معها إذا بقى على قيد الحياة ونجح فى اكتساب صداقة سكان الشاطىء الذى أنزل إليه . فبهذا وحده يلغى حكم الإعدام الذى سبق أن حكم به عليه .

وبعد استجابة الملك اطلب فاسكو داجاما فى اصطحاب ثمانية عشر شخصا من هؤلاء المحتقرين ، كما كانو يسمون ، روعى فى اختيارهم أن يكونوا من بين الذين لهم شىء من المعرفة باللغة العربية أو بلغة من لغات أفريقية الغربية وأن يكون لهم ما يؤهلهم لما قد يلزم الحملة من خدمات نافعة .

أما فيما يختص بالموظفين عامة فقد عين لكل سفينة مرشد ومساعد مرشد ورئيس للبحارة ومشرف وعشرون بحارا ممتازا وعشرة من العاديين ، وصبيان وثمانية من قاذفى القنابل وأربعة رجال للأبواق وضباط لفض المنازعات وأمين حسابات ، وحلاق يعمل جراحا فى نفس الوقت وترجمانان ، وقس ، وستة من مهرة العمال ، وعشرة من الخدم من بينهم ستة من المحتقرين الذين سبق الاشارة إليهم .

وكان من المسائل الهامة تموين هذه الحملة المؤلفة من مئة وثمانين رجلا بما يكفيهم لمدة ثلاث سنوات ، وكان حساب تموين كل شخص فى اليوم كالآتى رطل ونصف رطل من البسكوت ، رطل من اللحم البقرى أو نصف رطل من لحم الخنزير ، ولتران من الماء ، ولتر وربع لتر من النبيذ وقليل من الخل ونصف رطل من الزيت . وفى أيام الصيام يعطى كل رجل نصف رطل من الأرز أو من السمك أو الجبن بدلا من اللحم وجملة مؤن اضافية تعتبر ضرورية لاحتفاظ رجال الحملة بصحة جيدة طوال الرحلة . واحتُفظ بهذه المؤن على ظهر سفينة صغيرة صنعت لهذا الغرض خاصة والحقت بسفن الحملة الثلاث وتتكون هذه المؤن من الدقيق ، والعدس ، والسردين ، والبصل

www.ibtesama.com Exclusive

والثوم ، والبرقوق المجفف واللوز والمستردا ، والسكر ، العسل ، والملح . واشتملت المؤن أيضا على أنواع من الفاكهة المحفوظة فى محلول السكر والعنب المجفف والحلوى لاستهلاك قواد السفن الثلاثة خاصة ، كما سمح لهؤلاء الثلاثة بحمل مايحتاجون إليه من منازلهم كالأدوات الفضية والصحاف والملاعق والشوك والأكواب البللورية المذهبة والملاءات والمفارش والسجاجيد وكل ما يضمن وسائل الراحة لهؤلاء الملاحين الشجعان أثناء إقامتهم فى هذه القصور العائمة .

واهتم باولو داجاما بالمسائل الصحية بصفة خاصة فأشرف بنفسه على حمل كل مايحتاج إليه من أصناف العقاقير والأدوات الطبية والأجهزة وكل مايصلح لعلاج البحارة فى حالة المرض .

* * *

وكان من بين المسائل الحيوية الأخرى مسألة اختيار السلع التى تصلح للتبادل مع سكان الشواطئ أو المدن إذ لم تكن للبرتغاليين معاملات حتى الآن سوى مع سكان شاطئ أفريقيا الغربى ، وليس كل مايقبله سكان هذه الشواطئ يقبله سكان الشواطئ الأخرى فى الشرق وفى الهند، لذلك رُوعيت الدقة فى اختيار مجموعة من السلع الرخيصة التى تصلح للهبة والاهداء كالمرايا والأجراس والطرابيش المراكشية والأقمشة التى تنتج فى « فلاندرز » (بلجيكا الآن) « وروون[1] » وبعض الأقمشة المخملية الغالية الثمن .

وأمر الملك بأن تسجل أسماء زوجات البحارة وذويهم ومحل اقامتهم فى سجل خاص حتى إذا مات أحد منهم أثناء الرحلة دُفع إلى أهله أو أقاربه ماكان يستحقه من الأجر وأودع هذا السجل فى « دار المنجم » أى وزارة البرتغال للمستعمرات . وفى هذه الوزارة حفظت حسابات تكاليف الحملة المقبلة من انشاء وتموين وآلات وسلع ومرتبات الخ .

* * *

وأخيرا استكملت جميع المعدات واستأذن فاسكو داجاما الملك فى الإبحار

---

(١) Rouen

www.ibtesama.com Exclusive

أول ما تهب رياح الشمال ، وكلف برثولوميو دياز بمرافقة الحملة حتى « منجم القديس چورج » على ساحل غانة حيث كان قد عين حاكما لها مكافأة له على رحلته الاكتشافية المشهورة .

توترت أعصاب الناس فى لشبونة إلى أقصى حد ، فكل واحد فيها من الملك إلى أحقر شخص لم يكن يفكر إلا فى شيء واحد خفقت له القلوب والتهبت الأخيلة . فطائفة من الناس كانت تنظر بعين الحسد إلى أولئك الذين قد يبتسم لهم الحظ فيجمعون الثروة ويرتقون أدراج المجد ، وطائفة راحت تهز رؤوسها راثية لأولئك الذين دفعهم الجشع وحطام الدنيا الزائل إلى المساهمة فى مثل هذه المغامرة الجنونية ، فخير المرء أن يموت ميتة هادئة فوق سريره من أن يقبر تحت مياه هذا البحر الرهيب الذى روى برثولوميو دياز وزملاؤه ماصادفوه فيه من أهوال تنخلع لها القلوب وترعد الفرائص .

* * *

وفى اليوم السابق على مغادرة الحملة استقبل الملك قوادها استقبالا رسميا .

وليس من شك فى أن منظر هذا الحشد الحافل كان رائعا يبعث على الرهبة فقد احتشد جميع رجال الدولة وهيئة كبار القسس والكهنوت بملابسهم الرسمية مصطفين حول الملك وكان هو أيضا بملابسه الملكية وأمامه فاسكو وپاولو دا جاما والشاب نيكولاو كويلها وعليهم الدروع والزرد والحديد .

هاهم يقفون أمامه تملأ الثقة قلوبهم ويغمرهم السرور ولكن منظرهم يشعر بخطر المهمة العظيمة التى أسندت إليهم والمسئولية التى ألقيت على كواهلهم ولكن دون أن يبدو على وجوههم أثر لخشية أو فزع . وخطب الملك مانويل فى هذا الجمع المتألق فكانت نبرات صوته تدل على أن كلامه صادر من قلبه فشرح الغرض من « هذه المغامرة النبيلة والمنافع التى تُرجى من ورائها مرضاة الله . . . » فما هو إلا أن تفتح الهند حتى تبلغ رسالة سيدنا وآلهنا يسوع إلى أولئك اللذين لا يعلمون عنه شيئا ، على أن تبليغ الرسالة المسيحية وإن تكن هدف الملك الأول إلا أن ذلك لم يمنعه من توصية قواده بضرورة

www.ibtesama.com Exclusive

البحث فى الوقت نفسه عن أحسن الوسائل وأصلحها للحصول على ثروة الشرق وذكر لهم ما كتبه ماركو پولو ومن تقدموه عن تلك البلاد الوفيرة الغنى والتى كانت السبب فى رفع ڤينيسيا وجنوا وفلورنسا إلى مرتبة القوة والعظمة .

وشرح الملك بمنتهى الوضوح كيف أن الجمهوريات الإيطالية إنما تدين بعظمتها وغناها لتجارة التوابل وأنه لمن الجحود والكفران بنعمة الله أن يتقاعد عن تنفيذ الخطة التي رسمها أسلافه والتى أصبحت وديعة فى عنقة .

كان الناس يسمعون كلمات الملك تخرج من بيت شفتيه فى نبراتها رنة العزة والفرح وكانوى يرون وجه يتألق نورا وهو يقول هذه الكلمات « لقد جهزت أربع سفن هى اليوم على وشك الرحيل واخترت لقيادتها رجلا مجربا من رجالى الأوفياء قد برهن على شجاعة وإقدام فى كل ما اسندته إليه من الأعمال فى الماضى فهو جدير بأن تسند إليه مسئولية هذه المغامرة النبيلة الشريفة

ثم نظر الملك إلى الرجال الثلاثة الواقفين أمامه فى حنان وعطف قائلا لهم فى لهجة عميقة النبرات . وصيكم بالتضامن والاتحاد والمحبة فمنها تتولد القوة وبها تستطيعون مواجهة جميع الأخطار والتغلب عليها وبها تستطيعون النهوض بعبء العمل الذى ألقى على كواهلكم وهى خير عون لكم فى رحلتكم هذه التى أرجو من الله ألا تكون كثيرة الأخطار والمشاق وما أن فرغ الملك من خطابه حتى تقدم أحد كبار رجال الحاشية وهو يحمل لواء جماعة المسيح فسلّمه إلى فاسكو دا جاما الذى تناوله ولفه حول ذراعه ثم نطق بهذا القسم « أنا فاسكو دا جاما المكلف من مليكى باكتشاف بحار الشرق وبلاد الهند الشرقية اقسم برمز هذا الصليب الذى أضع يدى عليه بأن أرفعه عاليا مطويا

www.ibtesama.com Exclusive

أو منشورا فى سبيل خدمة الله وخدمتكم أينما حللت سواء فى بلاد المغرب أو فى بلاد الشعوب الأخرى من أى جنس ولون . واقسم أننى سأدافع عنه حتى الموت لا تمنعنى عن ذلك الأخطار مهما يكن مبلغها وأينما كانت فى البحر أو البر ومهما أصلى بنار الحروب ، وإننى سأصدع بجميع الأوامر الصادرة إلى وأطيع جميع التعليمات فى جميع الظروف .

وهنا سلم الملك فاسكو دا جاما نسخة من الأوامر المكلف بتنفيذها خطاب اعتماد رسمى كما سلمه رسالة موجهة إلى «القس يوحنا» ملك كلكتا . وما أن إنتهت هذه الرسميات حتى أخذ الملك سمته صوب الميناء وخلفه جميع من شهد الحفلة .

كان الساحل يموج بالجماهير وكانت السفن مزينة بالأعلام ما أن وصل الملك إلى الميناء حتى رفع العلم الملكى على سفينة پولو داجاما لأن فاسكو داجاما كان قد قرر أن تكون سفينة أخيه الأكبر هى حاملة العلم بالرغم من أنه هو شخصيا كان مسئولا عن قيادة الحملة .

وما أن أطلقت المدافع حتى أقلعت السفن الأربعة قاصدة بِلِمْ (Belem) بينما ذهب الملك عن طريق البر إلى الدير الموجود بها .

وهنا أيضا احتشد أقارب هؤلاء المسافرين إلى الشرق الأقصى وأصدقاءهم وازدحمت بلم (Belem) بالغادين والرائحين لأنها كانت تقع غير بعيد من لشبونة .

وفى كنيسة بلم التى بناها الأمير هنرى الملاح لاستعمال البحارة خاصة قضى فاسكو داجاما وزميلاه طيلة الليل يصلون لله ويضرعون إليه . أما الذى قالوه فى صلاتهم وتضرعوا به إلى الله فقد سجله الشاعر فى العبارة الآتية .

نجنا اللهم وسط هذه المياه العميقة من هول العبور
حيث يبدو لعين البحار فى ثنايا الأمواج قاع القبور

www.ibtesama.com Exclusive

وكن لنا اللهم من عواصف اليم حاميا وكفيلا
وارعنا اللهم بعينك وكن لنا مرشدا ودليلا

* * *

نحن أقلعنا عن شاطئ الوطن الحبيب
وتحدين من البحار كل مجهول رهيب
ولقد يدهمنا قضاء الله فى البلد الغريب

وفى مطلع الفجر وصل الملك يحف به رجال حاشيته وجاء القسس فى موكب رهيب انضم إليه أصدقاء البحارة وأقاربهم ، والتفت الجماهير الحاشدة حول موكب القواد الثلاثة عند الشاطئ لا فرق بين كبيرهم وصغيرهم وقد اختلجت فى صدورهم شتى العواطف والمشاعر ثم ركعوا وقد أمسك كل واحد منهم مشعلا فى يده .

ولم يعكر سكون هذه اللحظة الرهيبة غير صوت البكاء ، وأخذ رئيس القسس يرتل بصوت مُدَوٍّ قداسا الاعتراف العام : ثم نطق بالمغفرة وفقا للعهد الذى قطعه البابا على نفسه للأمير هنرى الملاح بأن يمنحها كل أولئك الذين هلكوا أو قتلوا فى الفتوح أو فى الكشف عن البلاد النائية السحيقة وأن يعتبروا من الوجهة الروحية كما لو كانوا من بين رجال الحروب الصليبية وأن يمنحوا مثل ما منحوا من الغفران .

* * *

ثم نهض الجميع وبأيديهم الشموع وأخذوا فى السير نحو المرسى ، وكان يخيل للرائى أنه موكب جنازى ولا غرو ، فكثير من الحاضرين كانوا يشعرون فى قرارة نفوسهم بأن هناك فى ثنايا الامواج قبور تنتظر أولئك البواسل الشجعان الذين أوشكوا على السير فى الطريق المجهول .

ويصف كوين المشهد بالكلمات الآتية

تألقت الرمال كاللجين من كثرة الدموع
فالجبال والشواطىء حزينة لمصيرنا المنتظر
ولكننا نسير بقدم ثابتة لانلق نظرة يمينا أو يسارا

www.ibtesama.com Exclusive

على أب باك وأمّ تقطعت أوصالا
فنحن وإن شغفت قلوبنا بحب المجد إلّا أننا
نعرف الحب والعطف وما تخفق به القلوب

وحان وقت الرحيل . فودع المسافرون ذويهم وصعد القواد الثلاثة إلى سفنهم وعليهم الزّرد والدّروع وتبعهم البحارة وعلى اكتافهم وظهورهم التروس وعلى صدورهم صفائح الحديد ونشرت القلوع وأخذت ا لرياح تداعب العلم الملكى فوق سفينة القيادة ، ثم سارت السفن الأربع تشق المياه وقد بدت أشرعتها البيضاء كأجنحة طيور ماردة جبارة [1]

وكانت السفن قد سميت بأسماء الملائكة الثلاثة جبريل ورفائل وميكائيل تيمنًا بها ، بينما أخذت عيون المحتشدين على الشاطئ تتبعها إلى أن توارت عن الأنظار

وظل الملك يراقب اسطوله الصغير من قاربه الملكى حتى اختفى وراء الأفق .

(١) كان مسطح الأشرعة أربعة آلاف قدم مربعة من القماش .

www.ibtesama.com Exclusive

الفصل السابع

الطريق المفتوحة إلى الهند

من شاطىء أوروبا تنبت الطريق المزينة
بحثاً عن المناطق التي سوف يتمخض عنها النهار في مهده
«المقطع الخامس»

نفخت أبواقها ربة الليل خمس مرات
أبواقها اللامعة في ضوء القمر الفضي
وفجأة دوت صرخة من فوق برج السفينة
الأرض . الأرض . وردد البرصداها
«المقطع الخامس»

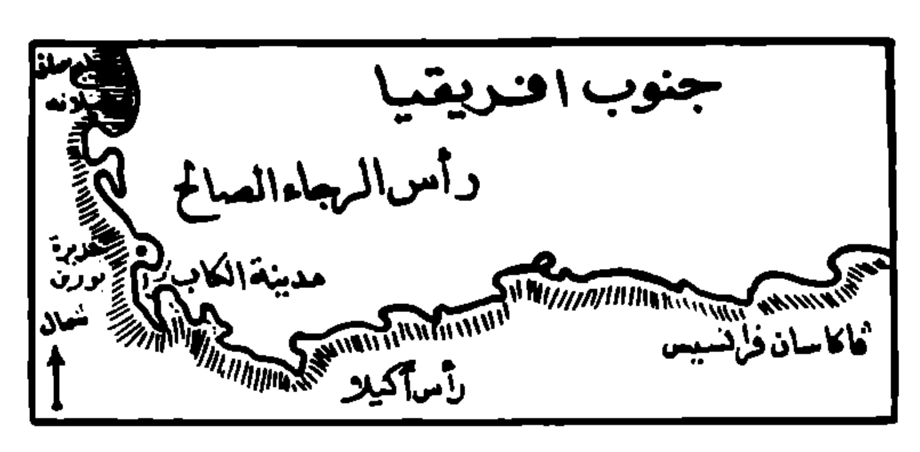
انقضت خمسة أشهر على مغادرة فاسكوداجاما للشبونة حينما قرر الارساء عند الشاطىء ليستوضح الجهة التي بلغها ، فقد حال تأرجح السفن دون إمكان الاستفادة من الاسطرلاب الذي زُود به . ولما كان يريد أن يقيس ارتفاع الشمس بالاسطرلاب فقد وجد نفسه مضطراً للجوء إلى البر في خليج اطلق عليه إسم « مرسى سانت هيلينا » فأمر بعض رجاله بحمل الآلة الخشبية (الاسطرلاب) وحمالته المثلثة الأرجل إلى تل ليقوم بالرصد اللازم لتحقيق درجة خط العرض ، وهنا رأى بعض الأهالي منهمكين في جمع « الشهد » فأمر واحد منهم وحمل إلى ظهر السفينة حيث أطعم طعاما فخما وكسي كساءا حسنا ثم أعيد إلى الشاطىء . وقد تمخضت هذه المعاملة الطيبة عن النتيجة المنشودة فما بزغت شمس اليوم التالي حتى هرع إلى الشاطىء ومعه آخرون فقدمت الهدايا إلى الجميع ثم أطلعوا على عينات الذهب واللؤلؤ وبذور التوابل فانكروا معرفتها .

* * *

كان السؤال الدائم على ألسنة الملاحين والذي لم يبرح رؤوسهم هو « كم بقي من المسافة بينهم وبين رأس الرجاء الصالح » . وخيل إلى المرشد أن المسافة لا تزيد على ثلاثين ميلا .

www.ibtesama.com Exclusive

ولكن ما كادت السفن تخرج إلى عرض البحر مرة أخرى حتى ذاق الملاحون شيئا مماسوف يتعرضون له من المشاق إذا ساءت الأحوال الجوية .



وماهى إلا فترة قصيرة حتى هبت عليهم عاصفة هوجاء ظهرت لهم فيها الأمواج وكأنها الجبال الشامخة وشعروا كما لو أن السفن ترتفع إلى السحاب لتهبط بعد ذلك إلى الحضيض وسط الدوامات فيمتصها البحر ويجذبها إلى قاعه . وزاد الظلام شعور الخوف فى قلوبهم وكانت الرياح تهب عليهم باردة كالثلج فيغرق أزيزها أصوات المرشدين فلا يسمعها البحارة .

عندما يلتقى البحر والسماء تؤلف العاصفات دوامات
تكتسح المحيط فيدوى قاعه المترنح وتثور الأعاصير
ولكننا واصلنا طريقنا قدماً فنجونا من الأنواء
بيد أن أخطارا جديدة كانت تهددنا من جميع الجهات

° ° °

فتخاذلت سفننا مغلوبة على أمرها
وأطلقت الرياح الهوجاء من كهوفها الجنوبية
فالتحمت بالأمواج العاتية فى صراع رهيب
وباتت تئن تحت لطمات العواصف ساريات السفين
ويمرق فوق التيار الجارف أسطولنا الصغير

« المقطع الخامس »

www.ibtesama.com Exclusive

ركع البحارة وقد استولى عليهم الفزع وكأنما فتح الجحيم أبوابه ليلتهمهم وراحوا يضرعون إلى الله ويطلبون منه الرحمة وينذرون النذور إذا هم نجوا من الموت وتجمعوا حول فاسكو داجاما يتوسلون إليه أن يعود بهم إلى الوطن . وذكروه بأنه قد أمرّ عليهم لراحتهم والسهر على حياتهم لا ليعرضهم لمثل هذه الميتة الشنيعة .

ولكن القائد رفض أن يتحول عن هدفه وصاح فيهم وهو كالصخرة الصماء ، رسوخا ، بأنه سوف يستمر فى مسيره حتى يبلغ رأس الرجاء الصالح ويدور حوله ولو اضطر إلى تكرير المحاولة مرة بعد أخرى . لذلك ما كادت تبدو للعيان قمة الرأس من بعيد حتى انقلب شعور الخوف الذى استبدّ بهم إلى ارتياح عظيم كاد يخرجهم عن طورهم فنفخوا فى الأبواق وراحوا يرقصون ويهللون والغبطة تملأ قلوبهم .

لم يبق معهم من الماء إلا قليل ، فقرر فاسكو دا جاما أن ينزلوا إلى البر فى جزيرة لوس فاسكيروس ولكن المرشد حذر القائد من احتمال عدوان الأهالى كما حدث لبرثولوميو دياز عندما حاول أن يتموّن من الماء وكيف أمطر الأهالى رجاله وابلا من الحجارة ، ولكن ما كان أشد فرحهم حينما أحسن الأهالى مقابلتهم .

ويرجع السبب فى ذلك إلى أن الأنباء تنتشر فى أفريقيا بسرعة البرق ، وكان قد ترامى إلى سمع هؤلاء ما كان من كرم البرتغاليين عندما نزلوا بالخليج الذى أبحروا عنه منذ قليل ، وعلم الأهالى بأن البيض لم ينالوا أحدا بسوء البتة ، بل أنهم راحوا يغدقون عليهم مما كان معهم ومنذ ذلك الحين أصبح البحارة يلقون كل مودة حيثما أرست السفن حتى لكأن رحلتهم أنشودة من الأناشيد . وكان فرح قبائل الهوتنتوت بما قدمه لهم البرتغاليون من الأجراس والطرابيش المراكشية عظيما وأرادوا أن يكافئوهم على كرمهم

www.ibtesama.com Exclusive

فقدموا لهم الخراف والفاكهة عوضا عنها ثم راحوا يرقصون على نغمات الناي والمزمار ولم يشأ البرتغاليون أن يكونوا من المتخلفين فى هذا الميدان فراحوا يرقصون بدورهم على نغمات الابواق وكان فاسكو دا جاما قد أصدر إليهم الأمر بذلك ولم يترفع عن الاشتراك معهم فى رقصهم .

وما كان أشد شعورهم بالغبطة والارتياح عندما شاهدوا فى جزيرة سانتاكروز « Santa Crus » الصغيرة صليبا مرفوعا كان دياز قد نصبه فيها . استمر الأسطول الصغير فى مسيره حتى بلغ أرضا تبعد سبعين فرسخا عن أقصى موضع وصل إليه دياز .

وكان وصول الأسطول إلى هذه الأرض فى اليوم الخامس والعشرين من ديسمبر فأطلقوا عليها اسم أرض المولد اكراما لعيد الميلاد .

* * *

كان العالم الفلكي زاكوت قد حذر فاسكو دا جاما قبل مغادرة البرتغال من خطرين قد يحولان دون نجاح الحلة وهما تفرق السفن، وتمرد البحارة ، أما الخطر الاولى فلم يحدث لحسن الحظ أن تفرقت السفن بعضها عن بعض لسوى فترة وجيزة جدا ، أما الخطر الثانى فقد قام فجأة فى وجهه . كان الفضل فى اكتشاف المؤامرة لنيكولا كويلهام المرح الظريف الذى وقف على سرها واشتراك المرشدين مع البحارة للقيام بها ، وكان المزمع تنفيذها بمجرد اكتساب بحارة السفن الثلاثة إلى جانب المتآمرين . غير أن هذا القائد الشاب أصغر الربابنة الثلاثة استطاع أن يحذر فاسكو دا جاما بواسطة رسالة شفوية ارسلت من مركب لأخرى روعى الغموض فى عبارتها حتى لا يفهمها البحارة، وكان مضمون الرسالة أن الربابنة سيؤخذون فى السلاسل ثم يُشرع فى طريق العودة إلى البرتغال .

كانت هذه اللحظة هى الفرصة التى أتيحت للرجل الذى اختاره الملك ليبرهن على مواهبه كقائد وزعيم . فاحتال فاسكو دا جاما لحضور المرشدين

www.ibtesama.com Exclusive

ومساعديهم ورؤساء البحارة إلى سفينته ومعهم آلات الملاحة والخرائط . ولكن ما كان أشدغضبهم حينما رأوا قائدالحملة يلقى إلى البحر بجميع الآلات والخرائط . كان فى هذا العمل فصل الخطاب . ثم إلتفت بعدذلك إلى البحارة وإلى المرشدين المذنبين ورؤساء الملاحين وخاطبهم متحديا بهذه الكلمات النبيلة . اننى غير محتاج لمساعدة مرشد أو بحار أو أى أحد ليرشدنى ، إن الله وحده مرشدى ودليلى فهو الذى سوف يوجهنا ويتولانا برحمته فلتكن مشيئة الله . . . .

فليس لأحد بعد اليوم أن يكلمنى فى العودة وليكن فى علم كل منكم أننى لن أحيد عما قررته من مواصلة هذه الرحلة حتى النهاية ، فإذا عجزت عن القيام بها على الوجه الأكمل فلست بعائد إلى البرتغال .

سوف يمضى أسطولى إلى الأمام متحديا مخاوف الطريق حتى يعثر على المناطق التى لا تزال فى المهد .

« المقطع الثامن »

* * *

وضع الحديد فى أيدى المرشدين ورؤساء البحارة على أن يظلوا كذلك حتى يقدموا إلى الملك ليرى فيهم رأيه .

ولكن هذا العقاب الصارم لم يستمر طويلا لأن المذنبين وقد ذلت نفوسهم ، توسلوا إلى باولو داجاما أن يتوسط لدى شقيقه فى أمر العفو عنهم . أطلق سراحهم ولكن على شريطة أن يوضع الحديد فى أيديهم مرة أخرى فور العودة إلى لشبونة ليحكم الملك فى أمرهم بما يشاء .

مرت الأيام بعد ذلك أكثر هدوءا فاطمأنت النفوس التى كان قد أثارها غضب الطبيعة ، وذلك من فضل الله ، واضطرت الحملة بعد ذلك إلى طهى طعامها لعدة أيام بماء البحر إذ كانت تنقصهم المياه العذبة ، ولكن كان من حسن حظهم أن نزلوا

www.ibtesama.com Exclusive

بشاطىء بلاد قابلهم فيها أهلها بالمودة والترحيب ، وقد سمى المكان تخليدا لتلك الذكرى « أرض القوم الصالحين » « Tierra de Boa Gente »

ولكن للأسف لم تطل فترة الهدوء لأن الأسطول سرعان ما ووجه ببلاء من نوع آخر دهم البحارة وأودى بحياة نفر منهم ، وهنا خلال هذه المحنة ظهرت صفات باولو دا جاما النبيلة وخلاله الحميدة فقد كان رجلا طيب النفس لطيف المعشر رحيم القلب وقد بذل مجهودا جبارا فى تخفيف آلام المرضى اللذين أصيبوا بالداء المسمى فى البرتغال « بالبربر »[١] ذهب ثلاثون من البحارة فريسة له وكان باولو يواسى المرضى ويقدم لهم ما معه من أصناف الحلوى التى جاء بها من منزله الخاص . وزاد الطين بلة ما كان يعانيه رجال الحملة من نقص فى الماء العذب وساءت صحتهم من أكل اللحوم المملحة على الدوام فاشتدت وطأة المرض بسبب سوء التغذية وازدادت المضاعفات بسبب عناصر الهبوط الأدبى والملل والتشوق إلى الأهل والوطن ، واستبد الألم بالمرضى بصورة فظيعة فكانت لثة المريض تتورم إلى حد تختفى معه أسنانه وتغور بين كتل من التدرن ، وكانت الرائحة لا تطاق . كل الراحة النسبية التى كان يحصل عليها المريض لفترة وجيزة من الزمن كانت تحدث عقب شق اللثة لتسيل الدماء السوداء المتجمدة وتنظف بعد ذلك بمزيج من الخل والنبيذ الأحمر . وكان الداء ينفذ إلى الأعضاء والأطراف فكانت تتقلص عضلات السيقان إلى درجة تمنع المريض من مدها ، واسودت العجز والسيقان كما لو كانت مصابة (بالغنغرينا) ، فتشرط كل يوم بالمشارط لتصريف ما يمكن تصريفه من الدماء المتعفنة . ويشعر المريض بآلام قاتلة فى جنبيه ويفقد الشهية للطعام بالرغم مما يشعر به من الجوع الشديد .

وكانت تحدث الوفاة عادة بسبب تحريك المريض لذراعيه بعد أن يكون قد شرّط لتصريف الدماء الفاسدة فتنفجر الدماء من العروق بسبب تحرك

---

(١) داء البلاجرا

www.ibtesama.com Exclusive

الذراعين . وكان يصاب المريض بالحمى وهو على هذا الحال ويستبد به الظمأ فيصرخ طالبا الماء وتتشقق شفتاه وتجف حتى تحدث الوفاة[1] .

أرسى أسطوله الصغير على نهر أطلق عليه البرتغاليون إسم «نهر الرحمة» لأنهم وجدوا فى هذا المكان كل ما ينعش المريض ويجدد قوى الجميع — وجدوا اللحوم ومختلف الفاكهة من موز وبرتقال وليمون وتين — فكل هذه الأصناف كانت أنجع علاج للمرضى فاستعاد الصحة كل من لم تكن حالته قد ساءت إلى درجة لا يرجى معها الأمل فى النجاة .

وأطلق على النهر إسم آخر كذلك هو «نهر العلامة الطيبة» لأنهم وجدوا فى هذا المكان قوما متأنقين فى ملبسهم غاية التأنق وأحاطوا رؤسهم بلفائف حريرية مزركشة بالذهب .

هذه كانت هى العلامة الطيبة فعلا وهى التى أوصى پدرو دى كوفلهام برثولوميو دياز بأن يبحث عنها ليستدل منها على أن مدينةسوفالا لا تبعد كثيرا عن هذا المكان .

وهنا عفا فاسكو داجاما عن المرشدين ورؤساء البحارة والمذنبين لما أبدوه من الهمة والنشاط فى عملية إصلاح السفن وتنظيفها، وقد اضطروا إلى تحطيم إحدى السفن إذ كانت قد أصبحت غير صالحة للإستعمال والسير فى البحر . وعبّر لهم فاسكو عن تقديره ووعدهم بالتوسط لدى الملك للعفو عنهم .

وما أن فرغ فاسكو من اصلاح سفنه وإعدادها من جديد وما أن استعاد المرضى صحتهم حتى نصب فاسكو عمودا من الرخام كتب عليه اسم القديس رفائيل إستجابة لطلب الملك الذى كان قد أمر بإقامة هذه العمد كلما سمحت الظروف ورسم شعار ملك البرتغال على وجه كل منها .

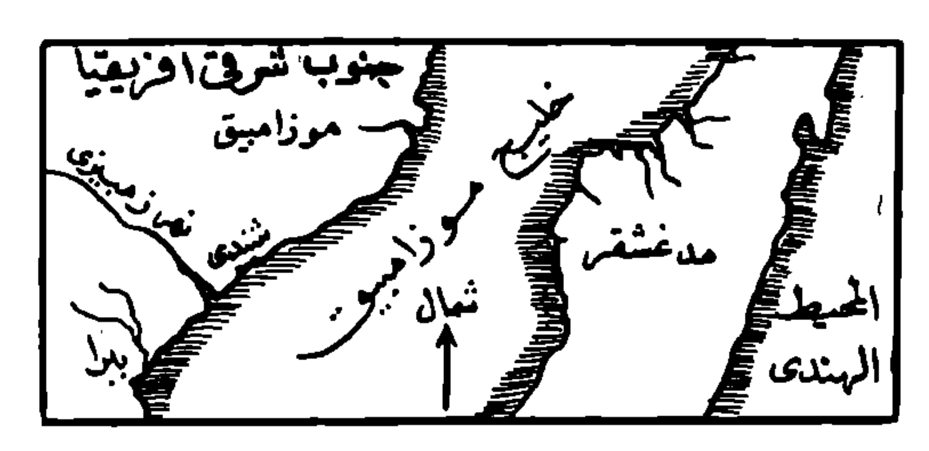
وعلى الوجه الآخر رسمت كرة أرضية كتبت تحتها هذه العبارة «لعاهل البرتغال — مملكة المسيحيين» .

---

(١) هذه الفقرة منقولة من وصف الطبيب الفرنسى جان موكيه فى عام ١٦٠٠ م

www.ibtesama.com Exclusive

انتهز فاسكو داجاما فرصة العشرين يوما التى قضوها بهذا المكان لتبادل الرأى مع زملائه فكان من أهم رغباته أنه إذا حدث أن قابلوا أحدا من المغاربة وجب عليهم أن يفسروا ضآلة أسطولهم بأنه طليعة للأسطول الكبير المقتفى أثره والذى سوف تنضم وحداته إليهم فى كلكتا . والواضح أنه كان يخشى أن تعتبر سفنه فريسة هينة للأعداء .



أبحر البرتغاليون وهم يأملون الوصول إلى موزامبيق . وما كان أعظم فرحهم عندما لمحوا شراع قارب ، إذ استدلوا من ذلك على قربهم من بلاد مسكونة وسرعان ما أدركوا القارب فوجدوا فيه مغربيا[1] وبعض الزنوج الذين قفزوا إلى البحر من الفزع . وحمل المغربى إلى ظهر سفينة القائد وكان مهيبا حسن الملبس نظيفه واستُدعى أحد البحارة ممن يعرفون العربية ليقوم بوظيفة المترجم ولكنه اتضح أن المغربى لا يعرف من اللغة العربية إلا قدرا يسيرا لا يغنى لأنه كان هنديا لا عربيا ، على أن الجدير بالذكر فى هذا الأمر أن أواصر الصداقة سرعان ما توطدت بين البرتغاليين والهندى بمجرد ماعلم هذا الأخير بأن اللذين أسروه إنما ينشدون التوابل ليس إلا .

ولا جدال فى أن الأقدار نظرت بعين العطف إلى البرتغاليين فساقت إليهم الرجل الذى يستطيع أن يساعدهم على الوصول إلى هدفهم ، فقد كان هذا

(١) اعتاد المؤلفون البرتغاليون اطلاق هذا الاسم على جميع المسلمين ومن يرتدون مثل ملابسهم .

www.ibtesama.com Exclusive

الهندى وإسمه داقان من سماسرة التوابل ومن سكان كامباى . وما أن علم هذا الهندى عما يبحث عنه فاسكو حتى وعد بأن يملأ سفنه بالتوابل من كل نوع ، وبذلك أصبح رجل الأعمال الهندى الحكيم مستشارا لهؤلاء الغرباء الذين تعلم أن يحترمهم ويحبهم .

وبادله البرتغاليون احتراما باحترام وحبا بحب لما آنسوا فيه من الشرف والصدق حتى عرف بينهم باسم « المغربى الصالح » .

* * *

افتقر فاسكو إلى خدمات المغربى فور وصول سفنه إلى موزامبيق إذ كان بمينائها ساعة وصولهم أربع سفن موسوقة بالتوابل والفضة والحرائر المستوردة من الهند . فهنا لم يبصر البرتغاليون زنوجا عراة كالذين كانوا يجدونهم فى الموانى الأفريقية الأخرى ولكنهم وجدوا قوما من جنس آخر يرتدى بعضهم ملابس قطنية ملونة بينما يرتدى البعض الآخر الملابس الحريرية وقد تدلت سيوفهم وخناجرهم من أحزمتهم العريضة .

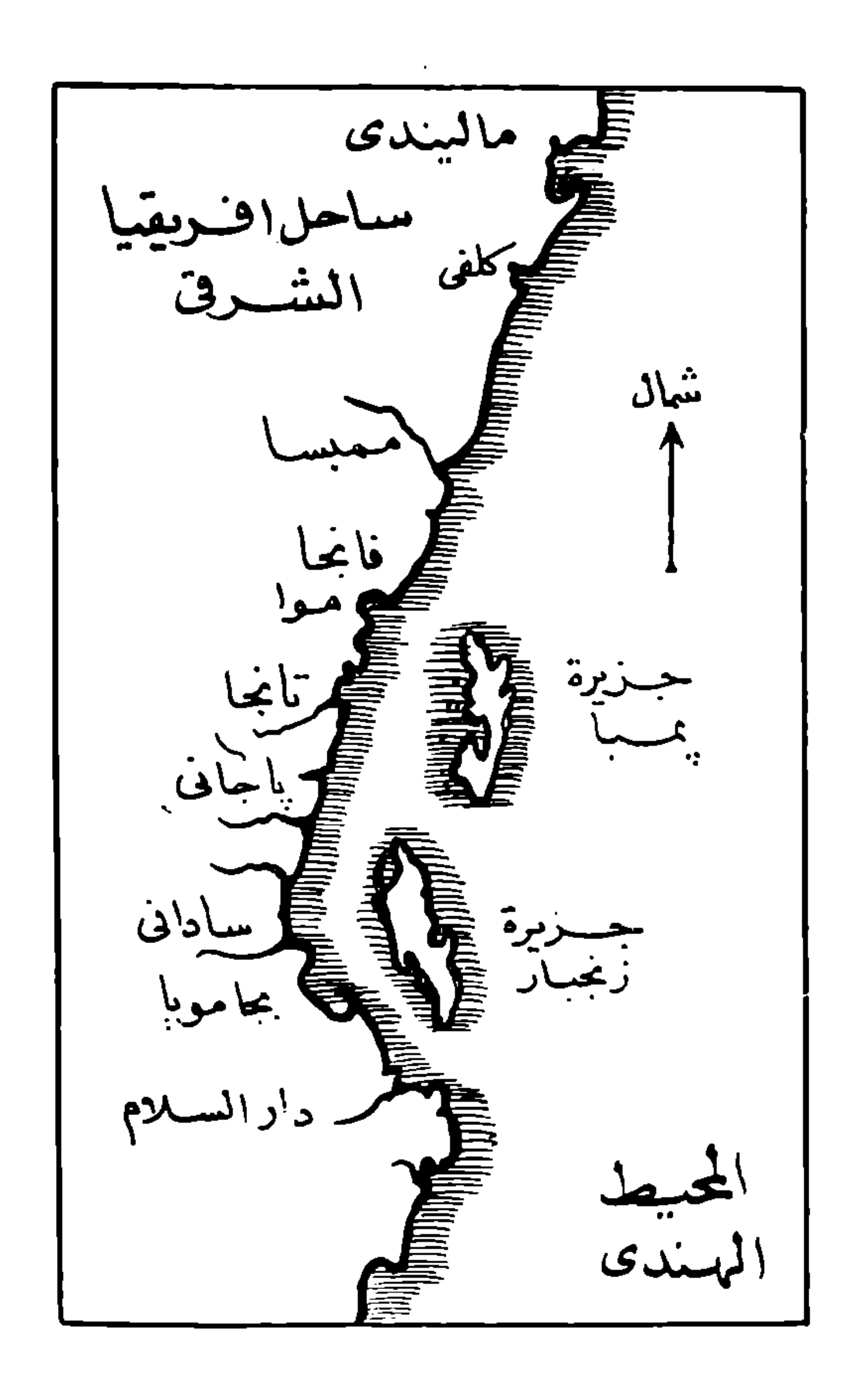
وقد دعا البرتغاليون بعض هؤلاء الهنود إلى مأدبة على ظهر السفينة قدموا لهم فيها أجود الأنبذة التى أقبل عليها الضيوف بشهية واستحسان

وظهر أن موزامبيق هذه تقطنها طائفة من التجار يتعاملون مع الهند ، فيصدرون إليها الذهب ويستوردون منها التوابل واللؤلؤ والأحجار الكريمة.

وكان كويلو ملك هذه الجزيرة يقيم غير بعيد عن الثغر وقد أناب عنه أحد المشايخ فى مباشرة أمور الجزيرة ، وكان لابد لفاسكو أن يتعامل مع هذا الشيخ دون سواه غير أن هذا الشيخ الحاكم كان قد أضمر الغدر بالبرتغاليين على الرغم مما كان يظهر نحوهم من مودة . ولكنه لم يفلح فيما أضمره بفضل تحذير داقان . فمن جهة أثار وجود البرتغاليين غيرة التجار ، ومن جهة أخرى كان مذهبهم الدينى حافزا للشيخ وهو المسلم المؤمن أن للقضاء عليهم .

وكان بالثغر بعض الأحباش ، وما أن رأوا علامة الصليب على الأشرعة وصور الملائكة على مقدمة السفن حتى خروا ساجدين .

www.ibtesama.com Exclusive



www.ibtesama.com Exclusive

كان إغتباط دا جاما بالعثور على هؤلاء الأحباش من رعايا القس يوحنا عظيما فدخل معهم فى محادثات طويلة وعلم منهم أن الحبشة لا تبعد كثيرا عن هذا الثغر ولكنها فى الداخل والوصول إليها ميسور على ظهور الإبل .

ولسوء حظ قائد الحملة البرتغالية أنه لم تسنح له فرصة أخرى لمقابلة هؤلاء الأحباش نظرا لأن الشيخ الحاكم كان قد وضعهم فى السجن .

* * *

وجد فاسكو دا جاما فى حون متشادو وهو من طائفة الرجال الموسومين «بالساقطين» أو «المنبوذين» خير وكيل يمثل مصالح البرتغال فى موزامبيق التى تركه فيها ، وكان هذا الأخير يتكلم العربية وهو رجل مثقف حسن المظهر كان قد قتل أحد السادة أثناء وجوده بمتنزه لشبونة ولعله كان مزاحما له فى حب إحدى الغوانى . وهنا فى موزامبيق أتيحت له فرصة للتكفير عن جرمه واستعادة مركزه الاجتماعى . والواقع أنه أحسن انتهاز هذه الفرصة لأنه قضى آخر أيامه كرجل محترم من أفراد الجالية البرتغالية فى «جوا» (Goa)

وقد ترتب على ما أفضى به إلى الشيخ المسيطر على حكومة هذه الجزيرة عن مدى قوة البرتغال ما جعل هذا الأخير يتأسف على ما كان قد دبره للبرتغاليين، فوطد العزم على عقد أواصر المودة مع فاسكو حين عودته من الهند، وأوفد متشادو إلى الملك كويلو ، أثار فى قلبه الخوف من قوة البرتغال حتى أنه هو أيضاً إستقر رأيه على أن يخطب مودة البرتغال .

ومن ثم أرسل الملك كويلو متشادو إلى ملك ممبسا وكان صهرا له فقرر هذا الأخير أيضا أن يكون صديقا للبرتغال

* * *

حدث كل هذا قبل أن يصل فاسكو داجاما إلى ممبسا . ولكن الرسالة التى أمر الملك كويلو بإبلاغها إلى ملك ممبسا كانت رسالة تحذير وتآمر على الغدر

www.ibtesama.com Exclusive

بالبرتغاليين ، غير أن فاسكو داجاما كانت تساوره الشكوك والريبة فأرغم المرشد الذى أعاره إياه الملك على إفشاء سر المؤامرة بصب بعض الشحم المغلى على ذراعيه وفى الحال أمر القائد العام بالإبحار فى نفس الليلة .

٭ ٭ ٭

وما أن وصلت الحملة إلى مالندى على الطريق الرئيسى وعلى بعد بضع فراسخ من الزنجبار حتى استقبلوا إستقبالا كريما إذ كان السمسار الهندى قد تكلم عنهم بالحسنى ومؤكدا لحاكم المدينة أن البرتغاليين رجال مسالمون حسنوا المعشر وأنه قد ربط مصيره بمصيرهم .

نزل داقان إلى الشاطىء مصطحبا معه أحد « الساقطين » الذى برهن على عظيم نفعه . وبعد هذا بقليل استقبال ملك مالندى نائب القائد العام نيكولا كويلها وهو رجل ظريف حسن الشّارة . أما الملك فكان كهلا رقيق الجانب كثير العطف دعى إلى زيارة الأسطول فاستقبل استقبالا رائعا وأعدت السفينة التى صعد إليها إعدادا خاصا بعد أن غسلت وعطرت وزينت بالمطارد والأعلام وفرشت أرضها بالسجاجيد ووضعت السيوف والحراب وما إليها من أسلحة القتال هنا وهناك فوق ظهر السفينة لإشعار الملك بقوة الحملة وعظمة البرتغال .

أما القارب الذى أرسل لحمل الملك إلى السفينة فكان يخفق فوقه علم جماعة المسيح وهو مصنوع من الدمقس الأحمر والأبيض وسط إطار قرمزى من خيوط ذهبية . وصدحت الموسيقى القومية وقرعت الطبول على الشاطىء بينما أطلقت المدافع من السفن حينما اقترب القارب منها فصعد الملك الى ظهر السفينة على نغمات الأبواق .

كانت لحظة رائعة بالنسبة للجميع وأعجب الملك بمفارش المائدة والفوط المزركشة بالذهب وبالكؤوس الفضية والطشوت المخصصة لغسل الأيدى وبالأكواب البللورية المذهبة واستساغ طعم اللوز المحفوظ ومربى البرتقال

www.ibtesama.com Exclusive

والزيتون بحجميه الكبير والصغير وقد قدم فى جرار زجاجية صغيرة أنيقة . وكان قد عرف استعمال الشوكة لأن فاسكو كان قد أهداه فى يوم سابق قدحا بداخله كمثرى محفوظة فى محلول السكر مقسمة الى أربعة أقسام وقد غرزت شوكة فضية فى إحداها وأمر الرسول أن يشرح للملك كيفية استعمال الشوكة لوضع قطعة الكمثرى فى فمه .

كانت الصداقة والمودة ترفرف على العلاقات المتبادلة بين الملك وبين فاسكو الذين استأذن الأول فى إقامة عمود من الرخام فوق التل القائم خلف المدينة، وقد أعير البنائين لإقامته . كان هذا العمود يختلف عن جميع الأعمدة الأخرى التى اعتاد البرتغاليون اقامتها لأنه فضلا عن شعار البرتغال الرمزى المحفور فيه كان يحمل اسم الملك مانويل . وعندما رفع العمود نصبت خيمة الى جانبه وضع فيها محراب باركه القسس ثم نفخ فى الأبواق واطلقت المدافع إيذاناً بإقامة رمز المسيحية فى تلك المدينة . وبعد ذلك رتل القداس واعترف كل من أراد بخطاياه

وأخيرا حانت ساعة الرحيل للمخور فى المحيط الهندى بغية الوصول إلى الهند . كان الدليل العربى الذى عهد اليه الملك فى إرشاد الأسطول البرتغالى الصغير ملاحا ماهرا ينحدر من سلالة امتهنوا حرفة ارشاد السفن. وقد حاز شهرة عظيمة بعد ذلك بسنوات بفضل تأليفه أحسن دائرة معارف للملاحة باللغة العربية

وكانت مفاجأة كبيرة للبرتغاليين أن يجدوا فى حيـــازة هذا العربى خريطة للهند .

ودهش المرشد من جانبه لرؤية الاسطرلاب اذ لم يكن قد رأى مثل هذه الآله قبل اليوم لجميع المرشدين فى البحر الأحمر يستعملون — على حد قوله — آلات نحاسية مثلثة الشكل أو مربعة يقيسون بها ارتفاع الشمس. أما المرشدون الهنود فغالبيتهم يسترشدون بالنجوم . كل هذا أقنع فاسكو داجاما بأن هؤلاء المرشدين لا ينقصون عن البرتغاليين فى فن الملاحة شيئا .

www.ibtesama.com Exclusive

وبرهن المرشد العربى على أنه مستشار حكيم حتى أن قواد السفن البرتغالية أخذوا بنصائحه واهتدوا بهديه وقد أوصاهم بأنهم عندما يبلغون الهند يجب أن يستعملوا الرقة فى حديثهم وألا يؤذوا احدا إلا دفاعا عن النفس وألا ينزلوا إلى الساحل إلا إذا أخذوا رهائنُ من الأهالى فى سفنهم وأن عليهم أن يحافظوا على مستوى الأسعار فى معاملاتهم التجارية وأن لا يفسدوها وأن فى استطاعتهم أن يسترشدوا (بالمغربى الصالح) حيث أنه خبير بجميع الموازين والمكاييل .

وبعد قطع سبمائة فرسخ فى ثلاثة وعشرين يوما من مغادرة الحملة لمينـاء مالندى .

انبثق الفجر هادئا صافيا رمادىّ اللون
وبدت الأمواج شاحبة تحت الأشعة الذهبية
وارتفعت الجبال شامخة زرقاء تطل على طوفان اللجين
حيث نهر الجانجيز يتدفق وقد توج ضفافه النخيل
ووقف البحارة فوق البرج يلوحون بأيديهم
صارخين ودوى صوت مرشد مالندى مرددا !!
أنظروا أيها الربابنة . هاهى شواطىء الهند ترتفع
فركع البطل على ركبته القوية حانيا رأسه
« ما أرحمك أيتها السماء » رافعا يديه إلى السماء الرحيمة
وارتج عليه من الفرح فلم تنفرج عن حرف شفتاه
ثم وثب قائما وسرح البصر فيما حوله وعيناه تتقدان
بنار الرغبة الجامحة التى لاتعرف للمغامرات حدودا

المقطع الخامس

www.ibtesama.com Exclusive

اضطرب ملك كَنَنُور اضطرابا عميقا حينما بلغه وصول طائفة من الرجال البيض فى السفن إلى شواطىء مملكته فاستشار الكهان بسبب نبوءة انتشرت من أربعة قرون خلت بأن الهند سوف يأتى عليها يوم تخضع فيه لسلطان ملك يحكمها من مسافة بعيدة، رعاياه من الجنس الأبيض وأنه سيلحق أضرارا بالغة بكل من يعاديه .

وبعد أن استشار الكهان أصنامهم أكدوا للملك بأن الرجال البيض الذين وصلوا شاطىء مملكته هم بعينهم الذين عنتهم النبوءة ،على أنه لن يصيبه أى أذى ولن يلحق بمملكته أى ضرر إذا هو تصرف معهم بحكمة وعاملهم معاملة ودية .

عرض الملك الموضوع على مستشاريه فسخروا من فكرة النبوءة واستبعدوا أن تتحقق اليوم بعد أن مضى عليها أربعمائة عام . وذكروه بأن آلاف السفن قد ألفت مرساها بكننور دون أن يحاول أحد من أولئك الأجانب فى أىّ مرة من المرات أن يقهر الهند أو يستولى عليها .

ظل الملك فى حيرة من أمره . بينما راح عرافه يستحثه على مسالمة البرتغاليين فى الحال مدللا على صواب خطته بقوله « لا بد لمن فى البر أن يخضع لسلطان سادة البحار ،مضيفا إلى ذلك قوله بأنه إذا لم يظهر صواب ما أشار به فى غضون خمس سنوات فإن للملك الحق فى أن يفصل رأسه عن جسده .

***

حدث كل هذا بينما كان فاسكو دا جاما يواصل رحلته صوب كلكتا دون أن يمس شاطىء كننور . وما أن ألقى مرساه بكلكتا حتى أعلم الملك بوصول قوم غرباء فى طلب التوابل وأنهم من رعايا ملك مسيحى عظيم انفصلت سفنهم عن بقية قطع الأسطول البالغ عددها خمسين سفينة وكانوا

www.ibtesama.com Exclusive

يأملون أن يجدوها بكلكتا وأنهم يرغبون فى الحصول على بعض الفلفل والعقاقير فى مقابل الذهب وغيره من العروض .

ربما سارت الأمور على خيرما يرام لولا حقدالتجار العرب على القادمين ومبادرتهم لهم بالعدوان ، فقد أدرك العرب أن احتكارهم لحركة تصدير التوابل قد أصبحت فى خطر .

لجميع المصائب التى حلت برجال الأسطول البرتغالى، وحتى وقوع فاسكو فى الأسر يرجع إلى تحريض العرب وبذلهم الرشوة لوزراء الملك . صحيح أن الملك أذن فى وسق سفنهم بالتوابل ولكن من النوع الردىء فقط

على أن البرتغاليين قبلوا كل ما بيع لهم دون اعتراض ودفعوا الثمن الذى طلب منهم مما أثار استياء صديقهم السمسار الذى اعتبر عملهم هذا ضربا من الجنون المطبق . ولكن فاسكو كان يعلم ما يفعل فقد كان عليه أن يحصل على التوابل بأى ثمن ولكن للأسف أيد تصرفه على هذه الصورة ما حام حوله وحول زملائه من أنهم جواسيس لا تجار .

***

كانت لحظة لها خطرها تلك التى مثلوا فيها بين يدى الملك ، فقد شاهدوا على شخص هذا الملك الهندى مجموعة منقطعة النظير من الجواهر والأحجار الكريمة . كان الملك جالسا فوق أريكة غطاؤها موشى بالذهب تحت حجلة من الحرير الملون وعليه ملاءة من قماش أبيض ليس إلا ، تنسدل من خاصرته إلى قدميه ولها أطراف مدببة شبكت فيها خواتم من الذهب مرصعة بالياقوت وحول إحدى ذراعيه ثلاث أساور من الذهب مرصعة بالاحجار الكريمة وبالسوار الوسطى ماسة في سمك الإبهام .

وكان حول رقبته عقد من اللؤلؤ يلتف حولها ثلاث مرات ويتدلى إلى خاصرته ، كل لؤلؤة فى حجم البندقة وفيه زمردة فى حجم الفولة . وكانت

www.ibtesama.com Exclusive

أذناه محُلتان بكريّات ذهبية بينما وقف وصيفان على جانبي الأريكة في يد أحدهما ترس من الذهب مرصع بالجواهر وفي يد الآخر مبصقتان من الذهب .

ما أشد التناقض بين هذا اللباس الفخم البربرى وبين لباس فاسكو الهادىء الوقور ، معطف طويل من الساتان تضرب صفرته إلى الغبرة مبطن بالحرير المشجر ينسدل فوق جاكتة من الساتان الأزرق وفي قدميه حذاء عال أبيض ، وعلى كتفيه ياقة بيضاء من الخيط المشغول وفي حزامه خنجر فاخر وقد وضع على رأسه قبعة تنسدل من جانبيها قطعتان من المخمل الأزرق شبكت فيها ريشة طائر بيضاء بمشبك ثمين .

* * *

وبالرغم من حفلة الاستقبال الباهرة هذه ، توالت المصائب والنكبات على البرتغاليين الذين تنفسوا الصعداء أن استطاعوا النجاة بحياتهم وبما اشتروه من السلع والهروب إلى كننور حيث كان ملكها قد استقر عزمه على العمل بنصيحة الكهان وعقد أواصر الصداقة مع أبناء الجنس الأبيض هؤلاء إذا ما أتوا لزيارة عاصمة ملكه. لذلك ما كادت تصل سفن البرتغاليين ميناء مملكته بعد أربعة وعشرين يوما من ذلك التاريخ حتّى رحب بهم وأكرمهم وذهب الملك بنفسه لزيارة فاسكو دا جاما في سفينته وأهداه على سبيل التذكار ورمزا لصداقته سيفه الخاص في غمد من المخمل . وأرسل هذا العاهل الهندى بصحبة فاسكو هدايا ثمينة إلى ملك البرتغال وملكتها وخطابا مكتوبا على صفحة من الذهب .

* * *

سجل أحد الفلورنسيين ممن صرح لهم بمرافقة بعثة فاسكو ما شاهده من الحوادث في كلكتا ، فذكر أن أكبر تجار كلكتا الذين يسيطرون على تجارة الصادر ينحدرون جميعا من مدينة كمباى[1] (Cambay) ، وذكر أيضا بأن

(١) مدينة في الهند على شاطىء بحر عمان حيث خليج كمباى .

www.ibtesama.com Exclusive

الجيد من نبيذ ملمزاى[1] (Malmsey) من انتاج كنديا (Candia) والذى يصدر عن طريق القاهرة — يباع فى كلكتا وهى « مدينة أكبر من لشبونة »، وذكر كذلك أن القطع الذهبية المصرية والفينيسية متداولة فى كلكتا . وأن مشاهدة مجموعة من السفن ما بين ستمائة أو سبعمائة سفينة فى آن واحد أمر عادى بالنسبة إلى ميناء كلكتا ، وأن المكوس الجمركية تبلغ من خمسة إلى ستة فى المائة ، وأن جميع التوابل تباع بالأردب[2] وسعره من عشرة دوكات[3] إلى اثنى عشرة دوكة بينما ثمن الأردب فى الجزيرة التى تستورد التوابل منها لا يتجاوز ستة دوكات وأن الربح الناتج من بيعها فى القاهرة يبلغ ٢١٠ فى المائة .

وأغلى السلع ثمنا المسك والراوند ، ويأتى بعدها القرنفل وخشب الصبر وصمغ اللك والقرفة وجوزة الطيب والفلفل وبخور اللبان وأقلها ثمنا الجنزبيل . وعلم الفلورنسى بأن القرفة تستورد من جزيرة تبعد ١٦٠ فرسخا إلى جنوب كلكتا بينما يستورد القرنفل من جزيرة أقل بعدا .

وعلم الفلورنسى أيضا من مرشد السفينة أن الرياح فى هذه المنطقة تهب من جهتين فقط . من الجنوب أثناء الصيف ومن الشمال أثناء الشتاء .

أما عن جزيرة ترابوبين (Trabobane) التى ذكرها بلينى فالظاهر أنه ليس لها وجود ، وأما فيما يتعلق بالقس يوحنا فليس لأهل كالكتا أى علم بأمره إلا النذر اليسير وهو غامض ملتبس وذلك بسبب قصور نشاطهم على الرحلة إلى مكة .

* * *

أقلع البرتغاليون عن شاطىء الهند فى العشرين من نوفمبر سنة ١٤٩٨ نزولا على نصح سمسارهم لهم بالرحيل قبل وصول أسطول العرب الضخم الذى

(١) نبيذ قوى حلو المذاق . يصنع الآن فى جزائر كناريا وفى ماديرا (وهو نوع من الكروم) .

(٢) فى الأصل الانجليزى (Hundred weight) من ١٠ إلى ١١٢ رطلا

(٣) قطعة ذهبية فلورنسية تساوى من ١٠ إلى ١٢ فرنكا .

www.ibtesama.com Exclusive

حان موعد قدومه وفى كباى تخلف صديقهم « المغربى الصالح » فودعوه آسفين على مفارقته .

وفى طريق عودتهم صادفوا كثيراً من السفن الموثوقة بشتى السلع ولكن فاسكو أبى أن يستمع إلى إغراء مرشديه بأسر هذه السفن تعففا ونبلا قائلا فى أنفة « أننا لسنا لصوصا » .

أرسى الأسطول الصغير « بمالندى » فى طريق العودة فاستقبلهم ملكها العجوز بالبشر والحبور وتبادل الفريقان الهدايا ،فكان من بين الهدايا المخصصة لملكة البرتغال كتلة من العنبر الند طولها[1] ياردة وربع ياردة وعرضها كعرض خاصرة الرجل ، ولما كانت الهدايا المقدمة من هذا الملك العجوز إلى ملك البرتغال وملكتها ثمينة جدا ، رأى فاسكو أن يقابل هذا الكرم الحاتمى بمثله فأرسل إلى الملك عشرة صناديق تحتوى على معظم السلع التى كان قد تخيرها بعناية فائقة فى البرتغال قبل سفره لاستعمالها فى عمليات التبادل فى الأسواق ولكنه لم يكن قد تصرف فى الهند إلا فيما كان معه من الأقمشة، فقد اضطر إلى دفع ثمن ما اشتراه من التوابل ذهبا بينما حصل بعض بحارته على قليل منها مقابل قصانهم .

طلب الملك إلى فاسكو أن يسمح لاثنين من مرشدى سفنه بمرافقته إلى البرتغال ليتمكنا من دراسة الشاطىء وملاحظة معالمه لمساعدة من يأتى بعدهم فى المستقبل. فاستجاب فاسكو لسؤال الملك واصطحب معه المرشدين العربيين الذين كانا له أكبر عون فى المنطقة الواقعة بين رأس الرجاء الصالح وبين جزائر آزور نظرا لخبرتهم فى الاهتداء إلى الطريق السوية فى البحر مسترشدين بنجوم الجنوب ليس إلا . غادر فاسكو دا جاما مالندى فى

---

(١) فى الأصل الانجليزى «Ell» وهو مقياس تقاس به الأقشه يختلف طوله باختلاف البلاد فهو مثلا فى إنجلترا ياردة وربع ياردة (أى حوالى ١١٤ سنتيمترا) وهو المقصود هنا

www.ibtesama.com Exclusive

العشرين من شهر يناير سنة ١٤٩٩ مارا برأس الرجاء الصالح بعد مضى ثلاثة أشهر من ذلك التاريخ .

لم يشعر البرتغاليون بالغبطة تغمر قلوبهم مجرّدة من كل شائبة إلا حينما أبصروا نجم القطب لأنهم جميعا - ربابنة وبحارة - كانوا قد استبد بهم الشوق للعودة إلى حظيرة الوطن .

غير أن بوادر الحزن العميق أبت إلا أن تعكر صفو هذا الجو الذى شاع فيه السرور فأصيب باولو دا جاما بعلة خطيرة انتقل فاسكو بسببها إلى سفينة أخيه وملازمته ولا غرو فقد جمع الحب الأخوى الخالص بين قلبي هذين الشقيقين . أما السفينة التى كان يقودها نيكولاو كويلها فقد انفصلت عن سفينة فاسكو فوصلت ثغر لشبونة فى العاشر من شهر يوليو سنة ١٤٩٩ .

* * *

كان سرور الملك مانويل بالنبأ الذى أفضى إليه به كويلها أعظم من سروره - على حد تعبيره - يوم دعى إلى ارتقاء عرش البرتغال .

ساور الملك شىء من القلق وهو ينتظر قدوم فاسكو دا جاما . ولكن هذا الأخير كان قد أرسى سفنه بجزائر آزور حيث توفى باولو دا جاما المحبوب فى اليوم التالى لوصولهم جزيرة ترسيرا (Terecra) فدفن بها . لم يستطع فاسكو مواصلة الرحلة فى الحال إلى أرض الوطن الخلل طرأ على سفينته . فعرض عليه حاكم الجزيرة أن ينقل شحنة سفينته إلى أخرى ولكن فاسكو أبى الا أن يعود إلى البرتغال على نفس السفينة التى غادرها على ظهرها ويفرغ حمولتها من التوابل بمينائها . لذلك لم يصل لشبونة الا بعد مضى شهرين وكان ذلك فى الثامن عشر من سبتمبر سنة ١٤٩٩ .

* * *

www.ibtesama.com Exclusive

انقضت عدة قرون على عودة فاسكو دا جاما إلى وطنه،ولكن وصف ذلك الحادث الخطير ما برح حتى اليوم يتردد صداه فى الجو وينبض بالحياة حتى لتهتز له مشاعر القارىء.فى عصرنا هذا فلا يسعه إلا أن يشارك بعاطفته شعور الفرح الممزوج بالروعة والرهبة الذى استولى على الجماهير عظيمها وحقيرها،غنيها وفقيرها وقد هرعوا إلى الشاطىء ليشاهدوا البحارة يهبطون من سفنهم وكأنهم بعثوا من ظلمات القبور.ولكن للأسف لم ينج من براثن الموت سوى ثلث عدد الذين أقلعوا عن الشاطىء من ستة وعشرين شهراً قبل هذا التاريخ .

نقل إلينا المؤرخ « كوريرا » (Coreira) صورة حية لتلك الأيام الخالدة حتى ليستطيع القارىء أن يتخيل الملك وهو يستقبل فاسكودا جاما ، وأن يتخيل الحفلات التى أقامها الملك تكريما له واحتفاء به وتمجيدا لأعماله وبطولته . وها هو الملك يكافىء قواد الحملة بتوزيع الذهب والتوابل عليهم وبرفع مراتبهم ،وها هى الجماهير تبادر إلى الكتدرائية لتقديم الشكر لله على ما منّ به عليهم من خيرات .

وفى بلاط الملك استولى الذهول على الحاضرين عند رؤية الهدايا الثمينة التى بسطها فاسكو أمام الملكة التى أعجبها منها بنوع خاص كتلة العنبر الند وبعض الخزف الصينى كان قد أبتاعها لها القائد العام بنفسه فى كلكتا. ووزع القائد العام على بحارته المكافآت والهبات والتوابل ليحملوها إلى زوجاتهم وذويهم.

وعملت الترتيبات اللازمة ، بأمر الملك لتمكين المرشدين العربيين من مشاهدة لشبونة وكل مافيها من معالم كما دعيا إلى الحفلة الساهرة الراقصة حيث سنحت لهم الفرصة لمشاهدة الملك والملكة ورجال الحاشية فى ملابسهم الفخمة وهم يسمرون ويرقصون وقد سرهما كذلك منظر الكتدرائية والقصور ومصارعة الثيران .

www.ibtesama.com Exclusive

واسترعى اهتمام الملك وجود يهودى بولندى الجنسية من مدينة پوزن (Posen) كان فاسكو قد أحضره معه من الهند وقد طلب إليه الملك أن يقص عليه كل ماشاهده فى رحلاته وتنقلاته .

وكان هذا اليهودى على استعداد لاعتناق الدين المسيحى فعُمد وسمى « جسبار دا جاما » نظرا لأن فاسكو قام بدور الكفيل له فى حفلة التنصير .

كتب الملك مانويل فور وصول نيكولاو كويلهو إلى حمويه ملك اسبانيا وملكتها يعلمهما بنبأ نجاح فاسكو دا جاما .

أليس فى العبارة الآتية مايشعر بشىء من الشمات ؟ « حيث أننا نعلم أن رفعتكما سوف تسمعان عن هذه الأشياء فإن من دواعى سرورنا وارتياحنا — حسبما يبدو لنا — أن نبادر فنفضى إليكم بهذه المعلومات »

قد يتساءل الإنسان عن شعور الملك فرديناند والملكة إزابيلا عندما أدركا أن البرتغال قد أصبح فى استطاعتها استيراد التوابل والأحجار الكريمة إلى أوروبا من مصادرها .

وقع الملك الخطاب مضيفا إلى لقبه المعتاد — ملك البرتغال — ألقابا أخرى، بحكم ماكان يأمل فى المستقبل من قوة ومجد، هى : ملك الفتح والملاحة والتجارة للحبشة وجزيرة العرب وفارس والهند .

www.ibtesama.com Exclusive

الفصل الثامن

الفلفل والسياسة

والآن تخفق رايتها وتنتصر كلما هبت عليها الرياح
فوق عروس الشرق ببركة ملوكها الحكماء الأذكياء
ومنها تدفقت إلينا التجارة فى كل صباح ومساء

المقطع السابع

لم يشأ ملك البرتغال أن يضيع الوقت سدى دون الاستفادة مما كان يسميه « الباب المفتوح لدنيا جديدة ، وكانت اسبانيا فى ذلك الوقت ماضية فى نشر نفوذها وتدعيمه فى جزر الهند الغربية كما كان خرستفر كولومبس قد شرع فى القيام برحلته الثالثة . لذلك كان لابد لملك البرتغال من أن يستقر على سياسة معينة بشأن جزر الهند الشرقية ، فدعا مستشاريه لدرس الموضوع والاتفاق على الخطة التى يجب أن تدعم أسسها ليعلم كل انسان أن البرتغال قادرة على مواصلة المشروع الذى بدأته . وكان من بين الأمور التى تقرر العمل بها فى هذا الاجتماع أن كل بعثة استكشافية ترسلها البرتغال فى المستقبل يجب أن يرفرف فوقها علم جماعة المسيح شعار البرتغال الروحى والمدنى .

بعد عودة فاسكو دا جاما بستة أشهر أرسل الملك أسطولا مكونا من ثلاث عشرة قطعة إلى الهند بقيادة بدرو الفارز كابرال Pedro Alvarez Cabral .) وكان البحارة الذين وقع عليهم الاختيار للسفر فى هذا الأسطول من المشهود لهم بالدراية والحنكة ، وكان برثولوميو دياز قد عاد من منصبه فى أفريقيا الغربية منذ فترة قصيرة وهو يلتهب شوقا لاقتحام البحار ومواجهة المارد أدامستان مرة أخرى ولا غرو فقد كان أول من اقتحم عليه حرمة مملكته المائية . وكان دياجو ديازو بيكولا وكويلها قد أعربا عن استعدادهما للسفر ضمن هذه الحملة بالرغم من أنه لم يمض غير وقت قصير على عودتهما للوطن وكان عدد الجنود الذين تكونت منهم الحملة هذه المرة ألفا وخمسمائة جندى

www.ibtesama.com Exclusive

عدا البحّارة ومهرة العمال وسبعة عشر قسيسا . وكان مضمون التعليمات التى أصدرها الملك لقائد هذه الحملة تهدف إلى غرضين اساسيين . فكان على كابرال أن يؤسس المصانع بالوسائل السلمية كلما استطاع إلى ذلك سبيلا وإلا فبقوة السلاح . وكان عليه أيضا أن يبدأ بالدعوة إلى المسيحية فإن لم تأت الدعوة بالنتيجة المنشودة (فليحتكم إلى السيف) .

وعندما حان وقت الإبحار للقيام بهذه المغامرة عم الفرح لشبونة ولم يذرف أحد الدموع كالمرات السابقة ، ولم يشعر أحد بالحزن على الأرواح التى قد يكون مآ لها إلى الفناء بل على النقيض من ذلك كان الحسد يأكل صدور المتخلفين لحرمانهم من فرصة جمع الثروة لأنفسهم وراح المبحرون ينفخون فى الأبواق ويقرعون الطبول زيادة فى التشجيع للناس على الاحتفاظ بهدوءهم وإثارة روح المغامرة إلى حدها الأقصى .

وفى اليوم المحدد لرحيل الحملة أقيم قداس بالكندرائية وقام بتلاوة القداس ذلك الرجل المغرم بعلم الفلك الأسقف أوف فيزى . فهنا سنحت الفرصة لتمجيد الأمور الحبيبة إلى نفسه — الجغرافيا والمكتشفات وحمل الوثنيين على اعتناق الدين المسيحى — ولابد أن يكون قد ترك لنفسه العنان تسبح فى آفاق هذه الموضوعات ، ولابد أن يكون قد ركز وعظه على الموضوعات العلمية والدينية والغنم الذى ينتظر أن يحقق نتيجة هذه الحملة لأننا نرى فى السجلات أن المجتمعين لسماع القداس كانوا قد بدءوا يملون من طوله .

ومن الكندرائية أخذ الجموع سمتهم فى مواكب منتظمة إلى الميناء حيث كانت السفن مزينة بالمطارد والأعلام حتى ليبدو سيف البحر وكأنه حقل إزدهرت فيه الأزهار .

وبعد أن قبل الربابنة يد الملك باركهم الأسقف وأطلقت المدافع ورفعت المراسى ونشرت القلوع وهتف المودعون بحسن تمنياتهم .

أى تناقض بين حفلة الوداع هذه وبين توديع فاسكو داجاما يوم إبحاره

www.ibtesama.com Exclusive

فهنا إيمان بالتوفيق وبالمجدوالثروة وهناك خوف كادت تنخلع له القلوب وترعد له الفرائص . . . .

* * *

وقع حادثان جديران بالذكر أثناء هذه الرحلة ، أحدهما عاد بالربح والمنفعة والآخر كان مأساة أليمة. لمح كابرال وهو يبحث عن بعض السفن التى انفصلت عن الأسطول أرضا إلى الغرب منه . فدخل إلى الميناء . وأطلق اسم أرض القديس كروز Tierre de Santa Cruz . لقد اكتشف البرازيل عن طريق الصدفة وكان هذا الجزء من أمريكا الجنوبية يقع داخل خط الحدود التابعة للبرتغال فكانت صدفة سعيدة

ومن سنتاكروز أخذ كابرال سمته صوب رأس الرجاء الصالح الذى برهن على جدارته باسمه الأصلى، رأس العواصف ، فكانت شتى النذر تشعر باقتراب الكارثة ، فمن هذه النذر ظهور مذنب فى السماء ظل ظاهرا للعيان عشر ليال .

وبعد ذلك هبت عاصفة هوجاء

أطلقت آلهة العواصف من معاقلها فى الكهوف القائمة
مختلف الرياح ، تحلق بأجنحتها ، وامتطت الآلهة جوادها
ومضت تقود العواصف وترشدها بصوتها المدوى
إلى حيث الأسطول لنصب عليه جام غضبها .
فترى الشواطىء أولا ممزقة الأديم
ويلف ظلام الليل الحالك هواء الفضاء المغبر
ولكن البريق الخاطف مايزال يلوح من بين ثنايا الجبال
المقطع العاشر

كانت التجربة رهيبة قاسية وكان لون الماء كلون النار ليلا وأسوداً بالنهار. وكانت العاصفة من القوة بحيث شتتت السفن فابتلع البحر الجائع منها أربعاً .

www.ibtesama.com Exclusive

وكان من بين الذين هلكوا فى هذه الأعاصير برثولوميو دياز الذى غرقت سفينته بكل من عليها. هذه بالتأكيد نهاية جديرة بذلك الملاح الشجاع الذى كان أول من قهر أمواج بحر الجنوب ومخر حيث لم يمخر إلا الآلهة[1].

لم يصل مدينة سوفالا سوى ثمان سفن من السفن الثلاثة عشر. رأينا أن أربعاً ابتلعها البحر ولكن ماذا عن السفينة الخامسة؟

هذه السفينة فصلت عن الأسطول أثناء العاصفة الشديدة ودفعتها الرياح فى اتجاه الجنوب ولم يلبث قائدها دياجو دياز أن لمح أرضا فى الاتجاه الغربى فتبادر إلى ذهنه أنها قد تكون ساحل موزامبيق ولكن لدهشته انتهت معالم الأرض دفعة واحدة فأدرك أنه كان يسير بحذاء سيف جزيرة كبيرة.

حدث هذا فى العاشر من أغسطس عام ١٥٠٠ فأطلق عليها دياجو دياز إسم سان لورنزو San Loreinzo تبركا باسم هذا القديس الذى وافق مولده ذلك اليوم.

وعندما عاد إلى لشبونة وعلم الملك مانويل بخبر هذا الاكتشاف اعتقد أنها نفس الجزيرة التى قال ماركو بولو بأنها توجد فى تلك المنطقة وأطلق عليها اسم مدغشقر وهو تحريف منطق لاسم موجادوكسا التى تقع على شاطىء الصومال. والواقع أنها الجزيرة التى يسميها العرب جزيرة قمر كما ذكر بدرو دى كوفلهام فى رسالته لبرثولوميو دياز.

وبعد مغادرة الأسطول البرتغالى ثغر سوفالا مر برأس أروماتا (Aromata) الذى أطلق عليه البرتغاليون إسم رأس جاردفوى Gardefiu واستمر الأسطول فى الإبحار شمالا حتى وصل مدينة بربرة فى مملكة «القس يوحنا».

* * *

وحينما وصلت السفن الثمان إلى كلكتا استقبل القائد العام استقبالا رسميا وقدمت الهدايا المرسلة من ملك البرتغال إلى الملك الهندى فى الحال،

---

(١) فى الأصل الإنجليزى tritons وهو فى الأساطير نصف إله من نافخ أبواق فينيون إله البحر نصفه رجل ونصفه حوت.

www.ibtesama.com Exclusive

ولكن لم تلبث أن تصادمت المصالح ولم يكن هذا غير متوقع .

لقد كلف الملك مانويل خادمه الأمين بمهمة شاقة محفوفة بالمخاطر إذ كانت التعليمات التى أصدرها إلى پدرو الفريز كابرال تنص على أن يطلب من ملك كلكتا أن يحرم على التجار العرب الإقامة داخل حدود مملكته وعرض ملك البرتغال من جانبه أن يمون كلكتا بكل ما كانت تستورده عن طريق التجار العرب وبثمن أقل .

فإذا لم يستجب ملك كلكتا لرجائه وإذا لم يسمح بإقامة مركز تجارى فليعلن عليه الحرب ويقاتله .

ولكن أمام مقاومة التجار العرب لم يستطع ملك كلكتا أن يوافق على هذه المطالب ، وبهذا فشلت مهمة كابرال ولم يشأ أن يعلن الحرب

ولحسن الحظ صادفه التوفيق فى كوشن (Cochin) وكننور إذ أبدى حكامها كثيرا من المودة نحوه وأظهرا إستعدادهما لعقد صلات تجارية بينهما وبينه

* * *

كان هذا والأمور تجرى بين ملك البرتغال وملكى اسبانيا على خير مايرام من المودة والإنسجام فى كل مايتعلق بالفتوحات لما وراء البحار يدل على هذا خطاب موجه من الملك فرديناند والملكة إزابيلا إلى خرستوفر كولومبوس عشية إبحاره فى رحلته الرابعة لجزر الهند الغربية .

وكان المتفق عليه أن تكون الطريق الغربية من حق الأسبانيين بينما تكون الطريق الشرقية من حق البرتغاليين

لذلك كتب [الملكان الكاثوليكيان فى الرابع عشر من مارس عام ١٥٠٢] أننا قد أخبرنا ملك البرتغال بأنك إذا قابلت أحداً من قواد أسطوله فى البحر فواجب كل منكما أن يعامل الآخر بكل مودة كما هو جدير برعايا الملوك الذين تربط بينهم أواصر القرابة والحب والصداقة وسوف نتخذ جميع

www.ibtesama.com Exclusive

التدابير اللازمة لتؤكد على ولدنا ملك البرتغال بضرورة إرسال خطاب مماثل لقواد أسطوله

• • •

لم ينتظر الملك مانويل عودة كبرال قبل أرسال أسطول ثان إلى الهند ففى عام ١٥٠٢ أبحر فاسكو داجاما بعد أن استراح واستعاد نشاطه إلى الشرق، وكانت عودته إلى لشبونه قبل انقضاء عام على مغادرته لها

وفى هذه المرة وقف مواطنوه من مجرى الأمور فى الهند أكثر مما علموا من أمورها بعد عودته من رحلته الأولى، والواقع أنه عاد محملا بالهدايا الثمينة المرسلة من ملكى كننور وكوشن إلى ملك البرتغال وبالجزية من ملك كيلى الذى أصبح تابعاً لملك البرتغال ولم يكن هذا كل ما عاد به ولكنه عاد بالغنائم المنتزعة من سفن ملك كلكتا العدو اللدود .

وكان من بين الأشياء الثمينة العجيبة التى عاد بها فاسكو داجاما صنم صغير من الذهب الخالص زنته ستون رطلا عيناه زمردتان جميلتان وعلى صدره ياقوتة فى حجم الجوزة وكانت تتألق كأنها قطعة من النار المتوهجة وكانت ملابس الصنم من الذهب المطروق ، أما المعطف فكان من النسيج المموه بالذهب ومزركشا باللؤلؤ والجواهر

وأما فيما يتعلق بالتوابل فقد أحضر منها فاسكو داجاما كميات ضخمة ولكن كان أهم من هذا وذاك موافقة ملك كننور على تأسيس مركز تجارى برتغالى فى مملكته كما تعهد بأن يملأ جميع السفن التى يرسلها ملك البرتغال إلى مملكته بالتوابل .

طاب للملك مانويل سماع كل هذه الأنباء وغمره الفرح إذ أصبحت توابل الشرق منذ اليوم فى قبضة يده يغترف منها كيفما شاء وعندما يشاء ولكن تحقيق هذا الأمل لم يكن بالشىء اليسير فمنذ تلك الساعة أصبح مطلب التوابل سلسلة من الحروب والفتوحات . فجذور الجنزبيل وحبات

www.ibtesama.com Exclusive

الفلفل وجوزة الطيب والقرنفل أصبحت من الأشياء التى يطمح ملوك البرتغال إلى الحصول عليها أكثر من أى شيء آخر على وجه الأرض نظرا لأن أولئك الذين كانوا يحتكرون التوابل نهضوا للدفاع عن حقهم فى مصادر هذه الثروة العظيمة وهكذا أصبح الفلفل والجنزبيل وجوزة الطيب والقرنفل من أهم العوامل فى ميدان السياسة .

وفى عام ١٥٠٦ أرسل الملك مانويل أحد جنوده المجربين وأكثرهم خبرة إلى الهند هو الفونسو دلبوكيرك (Alfonso d'albuquerque) الذى أبحر بأسطول مكون من ست عشرة قطعة تحمل ألفين وثلاثمائة جندى تحت قيادة تريستان داكنها . وكان فرانسسكو داليدا نائبا للملك على الهند .

وحدث أثناء الرحلة أن دفعت الرياح إحدى السفن عن طريقها وهى التى كانت تحت قيادة روى بريرا فوصلت إلى شاطىء مدغشقر ونزل قائدها إلى البر فى عدة مواضع من الشاطىء . وفى أحد هذه المواضع شاهد كومة من القرنفل . وحمله الأهالى على الاعتقاد بأن فى بلدهم تنبت كل أنواع التوابل وأن بها كذلك مناجم للفضة .

لحق القائد الشاب أسطول الأميرال فى موزمبيق وسرعان ما أفضى إلى رئيسه العام بقصة اكتشافه .

اغتبط تريستان داكنها بما سمع ولما كانت لديه فسحة من الوقت إذ كان ينتظر هبوب الرياح الموانية لمتابعة السفر إلى الهند فقد رأى أن يعدل إلى زيارة مدغشقر بنفسه واعتزم المرور باقصى طرف الجزء الشمالى رغم تحذير روى بريرا وتوكيده بان الرياح ستكون عقبة فى سبيل الملاحة . غير الأميرال تمسك بنظريته ولكنه فشل فى تنفيذ خطته وذهبت جميع محاولاته أدراج الرياح بعد أن استغرقت ثلاثة شهور . غير أن تريستان داكنها أصر على اعتقاده بأن مدغشقر ربما استطاعت توريد جميع ماقد يحتاج إليه من التوابل

www.ibtesama.com Exclusive

لا سيما وأن هذه الجزيرة قد يكون فتحها أيسر من فتح الهند ، نظرا لمسالمة الأهالى وروحهم الودية .

والواقع أن البرتغاليين لم يجدوا شيئا من التوابل فى مدغشقر فهذه الكومة من القرنفل لم تكن سوى شحنة أنقذت من سفينة جاوية تحطمت فى اليم . .

على أن هذه الجزيرة الكبيرة القائمة فى الطريق إلى الهند كانت عظيمة النفع للسفن الذاهبة إلى الشرق ، فهنا بعد الرحلة الطويلة من البرتغال يُسر الركاب بما وجدوه من المأكل والمشرب بينما قدمت لهم نفس الخدمات جزيرة سانت هلينا الصغيرة الكثيفة الغابات والتى اكتشفت عام ١٥٠٢ . ولما كانت المياه متوفرة فى هذه البقعة، ومناخها هادىء معتدل فقد أراد ملك البرتغال استعمالها مصحة فى الهواء الطلق فغرست فيها بأمره أشجار الفاكهة ومختلف الخضر واستجلب إليها الماعز ، فكانت السفن الماخرة شمالا تنزل مرضاها إلى شاطئها إلى أن يستعيدوا صحتهم فتحملهم سفن أخرى تكون وجهتها شطر الوطن . ولم يؤذن لأحد أن يقيم بها بصفة مستديمة حتى لا يكون للأفراد حق ادعاء ملكية أى شبر منها . . . . . .

* * *

زار دلبوكيرك مدينة هرمز حتى لا يكون وقته قد ضاع عبثا ويكون فى الوقت نفسه قد أخذ فكرة عنها للمستقبل، كما زار جزيرة سكوترا التى أمر الملك بأن تحصن جيدا . أدرك مانويل الثالث تمام الادراك أنه لاحتكار تجارة التوابل يجب عليه احتلال مواقع استراتيجية إلى جانب الفتوح ومعاهدات الصداقة . وقد عهد الملك فى تنفيذ الجزء الأول من البرنامج إلى دالبوكيرك الأمين أما الجزءان الباقيان من البرنامج فعهد فى تنفيذهما إلى تريستان داكنها .

* * *

خلد اسم تريستان داكنها الى الأبد بوضعه على خريطة العالم . فقد سميت مجموعة الجزائر الصغيرة التى اكتشفها فى الطريق إلى الهند باسمه بينما يحتل

www.ibtesama.com Exclusive

اسم الفونسو دلبوكيرك مكانا أكثر اتساعا يتصل بتاريخ امبراطورية البرتغال فى الهند التى وضع أساسها . وكان لهذا الجندى العظيم الخبير بفنون الحرب صفات أدبية تعادل مواهبه العسكرية . فالولاء والكرامة والرغبة فى مجد مليكه والتعفف عن المنفعة الشخصية . كانت من أخص مميزات هذا الجندى العظيم ، ابن لوزيتانيا .

لم يقع اختيار الملك مانويل على زعيم لتدعيم سياسته أصلح من ذلك الرجل ، على أنه كان هناك بعض الخلاف فى الرأى على أحسن الوسائل لتحقيق الهدف المنشود وتدعيم سعادة البرتغال من رأس جاردفوى إلى رأس كومرن وخليج ملقا . فقد أكد نائب الملك بأن من يسيطر على البحار يقبض على زمام الساحل ، وأن إقامة الحصون غير ضرورية فى هذه الحالة ، بيد أن دلبوكيرك كان مقتنعا من ناحيته بأن إقامة الحصون فى المراكز الإستراتيجية الهامة من الضرورات التى لا غنى عنها ، لا من حيث المركز التجارى فحسب بل لتكون أيضا قواعد حربية وبحرية . وكان الملك مانويل يشارك دلبوكيرك رأيه، لذلك حثه على جوب البحر الأحمر والخليج الفارسى بفكرة تنفيذ هذه الخطة ، فصدع القائد بالأمر .

وفى خلال السنوات التسع التالية ، نشر هذا الجنرال العظيم سيادة ملك البرتغال على المحيط الهندى ، وأصبح ينعت البرتغاليون بأنهم أرباب هذا المحيط .

على أن دلبوكيرك لم يكتف بذلك ، بل دعم لملك البرتغال السيطرة على مداخل هذا المحيط ، فى السويس ومصوع وسواكن وجدة وبريم (Perim) التى هاجمها وقهرها ، ثم أجلى عنها ثم عاد فقهرها من جديد ، وقام بعد ذلك باحتلال هرمز ومسقط . وباحتلال ملقا تم للبرتغال السيطرة على طرق التجارة فى البحر ، فلم يسمح بعد ذلك بتصدير التوابل من ملقا بدون إذن مندوب الملك .

www.ibtesama.com Exclusive

ولكن غفل عن الملك مانويل فى نشوة سيطرته على مداخل الملاحة لسوق التوابل ومخارجها أنه بعمله هذا، قد فتح الباب لطوفان التعقدات السياسية إذ لم يكن من المنتظر أن تترك الجمهوريات الإيطالية مصادر ثروتها ينضب معينها . فقد ظهرت بوادر التبرم المرير عندما عُلم أن برثولوميو دياز قد استدار حول رأس الرجاء الصالح، وكانت الصدور تحترق بنار الغيرة والحسد حينما عاد فاسكو دا جاما من الهند وقد وسقت سفنه بالتوابل . وأمام هذا الخطر كُوّن مجلس التوابل فى فينسيا لمعالجة الموقف ودرء الخطر الذى يهدد تجارتها .

وكان سلطان مصر أيضا غير راض عن الموقف، ويأبى أن يحرم من الدخل الذى كانت تدرّه عليه التوابل دون أن ينهض للدفاع عن مصالحه، وخاصة بعد أن أدرك مدى ما أصاب تجارة التوابل من ركود، نتيجة عمل دلبوكيرك،فأقسم[1] بأنه لن يدع أحدا يجرده من حق الامتياز الذى يتمتع به.

وأدرك من كان يتجر فى توابل الشرق الأقصى أن سلطان البرتغال فى الهند قد قلب ميزان تجارة التوابل فى المشرق بعد كل هذه القرون الطويلة.

---

(١) فى الأصل « برأس النبى » وهو خطأ فاحش من الكاتبة فمثل هذا القسم يتنافى مع تقاليد المسلمين .

www.ibtesama.com Exclusive

الفصل التاسع

القرن الذهبى

إن أعمالك يا دلبوكرك العظيم، أيها الفارس المغوار
سوف تتوج توابل ملقا وكنوزها الذهبية

المقطع العاشر

واصل السير شرقا بعض قواد دلبوكرك فزاروا سيلان وسومطرا وبرنيو وجاوه وبالى وعددا من جزر ملوك .

تلك الجزر التى حرصت الطبيعة الغيور على إخفائها
ظهرت الآن لعيون العالم المذهول من وراء الحجاب

فى عام ١٥٠٩ وصل ملقاء القرن الذهبي، عند الإغريق. وكان البرتغاليون قد أدركوا أهمية هذه المدينة كأكبر مركز لتجارة التوابل . كانت حقيقة مدينة فسيحة مترامية الأطراف كثيرة الأرباض يقيم فيها مندوبو التجار، كل جالية فى ربض.، فهنا يجد الإنسان الصينيين والسياميين والجاويين والهنود وكثيرا غيرهم من مختلف الأجناس .

انظروا هنا فى ميناء ملقا الحصين
جُمعت من كل فج بعيد ووجين
كنوز الشرق تتضوع بالعطر الثمين

المقطع العاشر

كان حاكم ملقا مسلما وكانت سياسته تقوم على الظلم وإرهاق الأهالى بالمكوس وابتزاز أموالهم، مما مهد الطريق لسيطرة البرتغاليين، ولكن الأسف لم يخل الاتصال الأول بهذه المدينة الشهيرة من المآسى ، فقد نجم عنه فقدان بعض أبناء البرتغال ووقع بعضهم فى أسر ملك ملقا

www.ibtesama.com Exclusive

وقبل أن يقرر دلبوكيرك توقيع العقاب على هذا الغدر ، عقد إجتماعا استشاريا حضره قواده وضباطه للمناقشة فى موضوع الهجوم على هذه المدينة المحصنة تحصينا قويا، وقدأعرب لزملائه عن وجهة نظره بهذه الكلمات « إننى مقتنع كل الاقتناع بأنه منذ اللحظة التى ننتزع فيها تجارة التوابل من أيدى العرب تنهار القاهرة ومكة إذ يضطر تجارهما إلى شراء ما يعرضونه للتصدير من البرتغال » .

وافق غالبية الأعضاء على صلاحية الهجوم فنزل دلبوكيرك على رأيهم، بيد أنه تردد عن الهجوم لحظة أو بعض لحظة بسبب رسالة وصلته من الملك ينذره فيها بأنه إذا حاول محاصرة المدينة فإنه سوف يقتل القائد الأسير والذى هو من أصدقاء القائد العام المقربين . ولكن سرعان ماتبدد كل أثر للشك أو تبكيت الضمير عقب وصول الرسالة الآتية من الأسير المذكور « لا تقيموا أى إعتبار لشخصى بل فكروا فقط فى مجد البرتغال ومصلحتها. وبما إننى لا أستطيع أن أساعد على تحقيق النصر فلا أكون، على الأقل، عقبة فى طريقه » .

بدأ الهجوم وحالف البرتغاليين التوفيق وهرب الملك

ذكر إبن دلبوكيرك وهو يكتب تاريخ أبيه العظيم بعد مضى سنين عديدة على الحوادث التى نحن بصددها دهشة البرتغاليين من عثورهم فى المدينة على ألفى قطعة من المدفعية بعرباتها، وكانت جميعها أصلح من مدفعية البرتغاليين. وقرر المؤرخ أن مصانع المدافع فى ملقا لم تكن تقل دقة وإنتاجا ومستوى عن مصانع ألمانيا.

برهن دلبوكيرك على أنه فاتح وإدارى بارع فى نفس الوقت فقد عمد إلى إعادة الحياة النظامية فى ملقا بعد إنتهابها وتخريبها وكانت النتيجة مرضية إلى حد جعل الثقة تعود إلى النفوس فى أقل ما يمكن من الزمن، فعاد إلى المدينة الصينيون وغيرهم من التجار وانتشرت شهرة الجنرال حتى وصلت بكين حيث أعرب الإمبراطور عن رغبته فى مصادقة البرتغال، ولهذا رفض أن يمد يد المساعدة إلى ملك

www.ibtesama.com Exclusive

ملقـا الذى أرسل عمه من المكان الذى اعتصم به سفيرا إلى الأمبراطور يطلب منه المعونة . وتوفى المبعوث الفاشل فى الطريق أثناء العودة وأمر قبل موته بأن يكتب على مقبرته هـذه العبارة « يؤسفنى أن أموت قبل الانتقام من أسد قرصان البحار » .

* * *

حدث هذا بينما أرسل ملوك سيام وبيجو وسومطرا وجاوه سفارات لتأسيس الاتصالات التجارية الودية وحمل السفراء معهم إلى الفاتح الهدايا من الراتنج الحر والذهب والتوابل . ولقد رفع الاستيلاء على ملقا من مركز البرتغال فى عيون جميع الذين تهمهم تجارة التوابل .

فلقا ثغر هام للغاية ولقد قال عنها ابن دلبوكيرك فى مذكراته « بأنها نقطة الالتقاء بين الرياح الموسمية المنتهية وبين الرياح الموسمية المبتدئة وأن جميع تجار الشرق يجتمعون فيها » .

وأنى أعتقد جديا بناء على المعلومات التى جمعتها عن ملقا وسير الأعمال فيها أنه لو كان هناك عالم ، آخر وطريق ملاحة آخر لاجتمع الناس بالرغم من ذلك كله فى ملقا لأن بها توجد جميع العقاقير وجميع التوابل التى قد تخطر للإنسان على بال »

أرسل دلبوكيرك ثلاثة من قواده ليفحصوا مجموعة الجزائر التى يسميها الأهالى ملوك .

والتى أطلق عليها البرتغاليون أسم جزر التوابل
تحت جناح الصباح البنفسجى المنتشر
أنظروا الجزائر التى يكللها بريق هذه البحار اللامعة
أنظروا جزيرة ترنيت قائمة بين عشرات الجزر المجهولة الإسم
تلالها تشق سحب النهار القائمة .
قد ازدهر قرنفلها العبق على أيدى البرتغاليين

www.ibtesama.com Exclusive

فهنا جزائر بندا المزركشة الأديم
بأنواع الفاكهة السماوية ، بيضاء أو حمراء

ورافق البعثة تاجر جاوى ذو يسار ليعلم البرتغاليين طريقة التعامل مع سكان هذه الجزر، وأصدر الجنرال من جانبه الأوامر المشددة لرجال البعثة على وجوب معاملة الأهالى باللين والرفق ، وحرم على القواد أن يصعدوا على ظهر أى سفينة أجنبية وكما حرم على البحارة أيضا النزول إلى الشاطىء سوى أولئك الذين يرافقون وكيل الأعمال والكاتب ، وأوصاهم بإرسال الهدايا إلى ملوك الجزر ولكن نهاهم عن قبول أى هدية من أحد وأوصاهم أيضا باحترام عادات البلاد وعدم أخذ جزية أو أى شىء من هذا القبيل فخلاصة أوامر الجنرال هى اكتساب الحكام وشعوب جزائر ملوك بالكرم والمعاملة الطيبة والمودة .

ووصل أحد الربابنه بسفينته واسمه أنطونيو دبريه حتى جزائر بالى وبندا وأمبودا حيث وسق سفينته بالقرنفل وجوزة الطيب والبهار ، وسافر كذلك إلى ترنيت التى قال عنها أنطونيو جلفانو فى وصفها « تنحدر من أعلى مركز فى جداول كأنها نيران تتوقد حتى تصل إلى البحر .

ويواصل قصته — وهو الذى عين فيما بعد حاكما لجزائر ملوك — بأن منظر الجبل وهو يقذف بالنيران من فوهته بهر الملاحين إلى حد الفضول حتى أنهم راحوا يحاولون الإقتراب منه ، ولكن ذهبت محاولاتهم أدراج الرياح ووجد جلفانو بالقرب من هذا الموقع نهرا مياهه باردة للغاية حتى أنه لم يستطع أن يضع يده فيه أو يشرب منه رغما من أن هذا المكان يقع تحت أشعة الشمس المحرقة مباشرة وبصورة مستمرة .

وإلى جانب هذه التجارب الشخصية يذكر جلفانو فى مؤلفه التاريخى ما عبر عنه « بالعجائب » فمثلا يخبرنا بأن من بين الأهالى من كان لأعقابهم مهاميز

www.ibtesama.com Exclusive

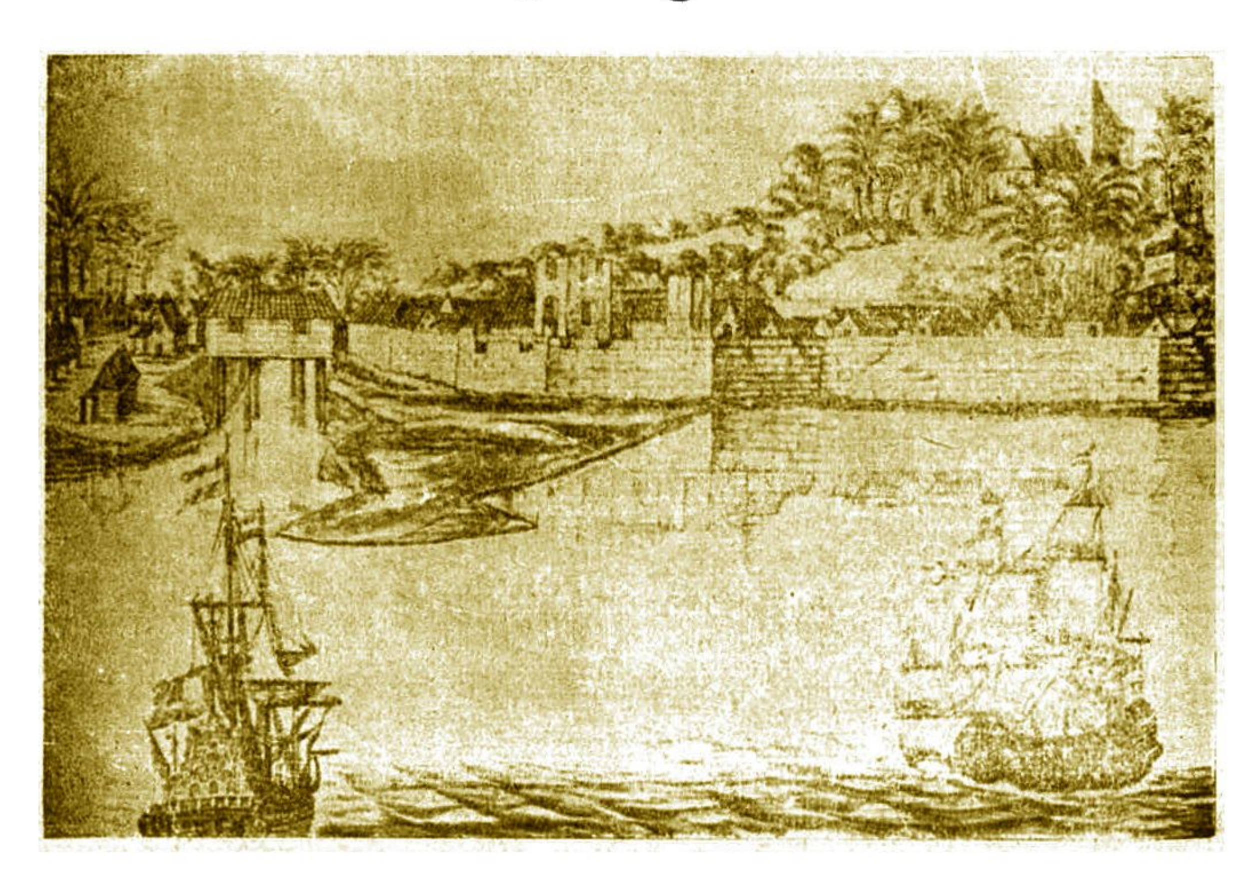
كالديكة وبأن ملك جزيرة تيدور أخبره بأنه يوجد بين أهالى بتشيان رجال لهم ذيول .

* * *

ولقى أنطونيو دبريه حتفه فى طريق العودة وكان يحمل معه خرائط للجزر المكتشفة حديثا والتى أطلق عليها بيتر مارتل ، فيما كتبه عن هذا الأرخبيل اسم ربض من أرباض الصين ، واستعمل هذه الخرائط إثنان من رسامى الخرائط البرتغاليين كانا فى خدمة ملك اسبانيا . وقد قام دبريه فى سنة ١٥١٦ بعمل خريطة جامعة ظهرت فيها لأول مرة جزر ملوك والجزر الأخرى التى زارها دبريه غير أن هذه الرسومات الزاهية الألوان الغريبة الأشكال تمثل فى مجموعها صورا منفصلة أكثر منها وحدات جغرافية .

* * *

وباكتشاف جزر ملوك أصبح العثور على التوابل حقيقة واقعة بالنسبة



www.ibtesama.com Exclusive

إلى البرتغاليين ، وقد ترتب على هذا امتلاء خزائن القصر الملكى فى لشبونة بالتوابل من جميع الأنواع .

فنى غضون عام ١٥١٣ وصلت لشبونة من جزر ملوك مباشرة شحنة من جوزة الطيب زنتها مائة وإثنا عشر رطلا وحوالى سبعين ألف رطل من البهار .

* * *

وما أن بلغ الملك مانويل نبأ الاستيلاء على ملقا حتى أوفد من فوره رسولا إلى البابا ليفضى إليه بالنبأ السعيد وبأن « القرن الذهبى قد أصبح الآن ملكا للبرتغال » .

وأقام البابا ليو العاشر بمناسبة « هذا الإنتصار العظيم، انتصار ملك مسيحى على الكفار والوثنيين قداسا خاصا للشكر وأمر بتسيير موكب رسمى اشترك فيه بنفسه أخذ طريقه سمت كنيسة سانت ماريا دلبوبولو ومن ثم إلى سان اجو ستينو حيث كانت مجموعة من أفصح الكرادلة ينتظرون الموكب والقوا عليه كل بدوره قداسا شاملا لخصوا فيه كل ما عمله البرتغاليون بجرأة وشجاعة لم يشهدها التاريخ من قبل مذيلين جميع العقبات مقتحمين جميع الأخطار فى سبيل القيام بواجباتهم التى أخذوا على عواتقهم عبأ تنفيذها طواعية . وكان مما قاله الواعظ عند الكلام عن ملقا « القول أبانا المقدس ، هذا هو القرن الذهبى الذى يعتبر أشرف الأماكن فى الهند وليس على وجه الأرض شىء يرغب فى الحياة إلا وهو يوجد بوفرة عظيمة فى ذلك المكان » .

كان ليو العاشر كثير الاهتمام بكل مايتعلق بهذا العالم فى كل ميدان من ميادين الحياة فيه ، فنى مدة ولاية هذا البابا على روما إزدحمت هذه الأخير بالسكان مرة أخرى فارتفع عددهم من أربعين ألفا إلى تسعين ألفا بينما راح مشيل أنجلو ورفائيل ينتجان من روائع الفن ما خلد ذكراهما .

وشهدت روما مشهدا فذا حينما قدم على البابا ليو العاشر تريستان داكنها

www.ibtesama.com Exclusive

من قبل الملك مانويل حاملا إلى البابا هدايا منقطعة النظير مما لا يوجد إلا فى الهند وحدها بينما قدم لهعن نفسه عددا من الوحوش الضارية علما منه بما انطوت عليه سجية هذا الصياد العظيم من حب للحيوانات وتقدير لها .

وكانت الجماهير الخفيرة قد احتشدت لمشاهدة سفير الملك والترحيب به وقد استقبله الملك عند مدخل المدينة حيث انتظم موكب نخم سار بين شوارعها حتىانتهى إلىالقصر البابوى . لم تخل نافذةمن نوافذ المنازل الواقعة على طريق الموكب من النظارة وغصت الشوارع بالجماهير حتى لم يعد هناك موضع لقدم ، والحق أن روما لم تشهد مشهدا مماثلا منذ أيام القياصرة .

وكان من بين الحيوانات المهداه للبابا فيل ضخم وفهدان ونمر وغيرها من الفصائل النادرة[1]

وكان البابا ينتظر االموكب فى شرفة قصره ، وما أن وصل الفيل تحت الشرفة حتى ركع الحيوان العظيم وأحنى رأسه ثلاث مرات .

كان ابتهاج الناس بمنظر الفيل شديدا وازداد فرحهم عندما نهض الفيل وملأ خرطومه بالماء من إناء كبير وجده إلى جانبه ثم أخذ يرش الحضور غنيهموفقيرهم على السواء ، ويقال أن البابا قد طرب كثيرا لهذا الحادث .

وكان فرح الجمهور واغتباطه عظيما للغاية حتى أن الموكب كررمسيره مرة أخرى تلبية لطلبه . وبعد انتهاء الموكب استمتع ليو العاشرة بمشاهدة النمر فىحديقة الفاتيكان وهو يقفز فوق ظهر أحد الخيول ويطارد ظبيا من الظباء - وقد تناول المؤرخ هذا العمل بالنقد الجارح ذاكرا أنه يتنافى مع أعمال قداسته، ولكنه أضاف إلىذلك مايبرره ذاكرا أن ليو العاشر كان من محبي الصيد والقنص

بينما كان يجرى هذا فى روما كان دلبوكيرك منهمكا فى تدعيم سيادة البرتغال على القرن الذهبي فى الطرف الآخر من المعمور

---

(١) للأسف مات وحيد القرن أثناء الطريق ، وكان من بينها أيضاً فرس فارسى مطهم بكامل عدته يحف به سياسه وهم بملابسهم التقليدية .

www.ibtesama.com Exclusive

اكتسب هذا الجنرال قلوب الناس بفضل حكمته ورزانته فى معاملتهم لذلك عندما قرر مغادرة مدينة ملقا بعد قضاء عام بها حزن التجار لفراقه وعرضوا عليه الذهب والفضة ليبقى ولكنه شعر بأن الواجب يحتم عليه مواصلة فتوحاته بشاطىء ملبار .

وحينما أقلع دلبوكيرك عن الشرق الأقصى أخذ معه إلى جانب الكنوز الأخرى الشىء الوحيد الذى احتفظ به لنفسه أثناء اباحة ملقا ، وهو عبارة عن ستة ليوث كبيرة مصنوعة من البرنز كان يعتزم نصبها على قبره ، ومن الهدايا التى حملها للملك طائفة من البنات تمثل مختلف الأجناس المقيمة بملقا وهو بهذا العمل لم يخرج عن التقاليد التى تقضى على كل زائر من بلاد أجنبية أن يحمل معه إلى ملكه طائفة من السكان ليدلل على زيارته لبلادهم .

ولكن مما يؤسف له أن السفينة غرقت فى البحر أثناء الطريق بما عليها من الأسود والكواعب الحسناء أما الجنرال فقد نجا بحياته

ولم تغب عن ذاكرة دلبوكيرك لحظة واحدة أوامر الملك بوجوب البحث عن مملكة القس يوحنا وجمع ما أمكن من المعلومات عنه ، لذلك انتهز كل فرصة لجمع المعلومات عن الحبشة. وأمّا ما كان يدور بين الناس مما يتعلق بهذا الموضوع فهو : أن القس يوحنا كان أعظم ملك فى جميع أفريقيا وأن مملكته تمتد من مدخل البحر الأحمر إلى جزيرة سيير تحت مدار السرطان[1]

تحدث دلبوكيرك مع أحد المغاربة فى إحدى المناسبات ، كان قد كلفه تريستان دا كنها من قبل أن يجتاز هذه المملكة حتى يصل إلى غانة ، فأفضى هذا الرجل إلى دلبوكيرك بأنه قد اجتاز فعلا جميع أفريقيا من أرجون (Arguin) إلى موزمبيق وأنه مستعد لإعادة الكرة، بيد أنه يرفض اصطحاب أى برتغالى

---

(١) لاثوتن سنة ١٥٩٨ .

www.ibtesama.com Exclusive

معه كما فعل « دَاكُنُها » لأنه الرجل الذى اصطحبه معه ، وإن يكن قد اختتن ليوهم الناس بأنه مسلم . إلا أنه كان ثرثاراً ، ومن هنا كان مصدر الخطر .

* * *

كان من دواعى سرور دلبوكيرك ، أن يستقبل فى مركز رئاسته العام فى « جُوَا » سفيرا من قبل الملكة الوصية على عرش الحبشة ، كان قد وفد على الهند بغية السفر إلى البرتغال على ظهر إحدى السفن البرتغالية العائدة إلى موطنها ، ولكنه لم يجد أثناء الطريق من يشجعه على تحقيق غرضه ، لأن الضباط البرتغاليين الذين قابلهم أثناء الطريق لم يقتنعوا بأنه صادق فى قوله :

ولكن ما أن سلم المبعوث إلى دلبوكيرك خطابا موجها إلى ملك البرتغال حتى اهتم بالموضوع من فوره .

اعترف المبعوث بأنه أرمنى الجنسية ، ولكنّه ادعى بأنه شقيق أبونا[1] . دهش البرتغاليون من اختيار أرمنى ليكون سفيراً للحبشة بينما يوجد فى بلاطها بدرو دى كوفلهام ، الذى كان فى استطاعة الملكة الوصية إرساله ، وكان المفهوم أنه لا يزال فى الحبشة . وحينما وجد الأرمنى أنه قد أصبح موضع شك وارتياب ، إقترح على الجنرال أن يفتح الخطاب ويقرأه ، ولكن الأخير رفض هذا الحل . وحينئذ أسر المبعوث إلى الجنرال بمضمون الخطاب — وهو اقتراح من الملكة بالتزاوج بين أبناء الأسرتين المالكتين ، وعرض رسمى من الحبشة بإرسال الجنود والمؤن لمعاونة البرتغاليين فى كسر شوكة السلطان فى القاهرة وتحطيم مدينة مكة . راق كل هذا لدلبوكيرك لأنه يتمشى مع خطته إذ كانت تلتهب فى رأسه فكرة المسير السريع من المدينة إلى مكة لاختطاف رفات النبي ثم عرضها على المسلمين بعد ذلك مقابل التخلى عن فلسطين .

---

(١) أبونا هو رأس الكنيسة الحبشية .

www.ibtesama.com Exclusive

وكان من بين الخطط التى اعتزمها تحويل النيل عن مجراه حتى تحرم مصر من خصوبة أرضها فيتم هلاكها .

وعبر النجاشى عن استعداده ورغبته فى القيام بهذا العمل ، ولكن كانت تنقصه الوسائل لتنفيذه .

وبناء على هذا ، طلب دلبوكيرك من الملك مانويل أن يرسل إلى الحبشة صناعا من آزور لمهارتهم فى القيام بمثل هذا العمل ، إذ كان عليهم أن يفتحوا ثغرة بين سلسلة التلال الصغيرة التى تجرى بجانب نهر النيل داخل مملكة القس يوحنا .

وأطلع السفير دلبوكيرك على قطعة صغيرة من الصليب الحقيق ، سلمتها إليه الملكة الوصية على عرش الحبشة لتسليمها للملك مانويل . فأمر الجنرال بصنع علبة من الذهب لوضع قطعة الصليب فيها . ولكن بالرغم من سمو قيمة هذه الهدية ، لم تبرح الشكوك والريبة تحوم حول شخصية الحبشى فى بلاط روما وبلاط البرتغال ، وكان كل مالاقاه من النجاح هو ماقرره الملك مانويل من إيفاد سفير برتغالى إلى النجاشى .

غير أن السفير مات فى الطريق ، فأرسل دون رود ريجو دى ليما[1] خلفا له ، فوصل اكسوم عام ١٥٢٠ . وكان من بين حاشيته الأب فرنسسكو الفارز الذى كتب بعد ذلك تقريرا مفصلا عن هذه الرحلة العظيمة وعن أول زيارة رسمية تقوم بها البرتغال للحبشة : وذكر الأب فرنسسكو الفارز فى تقريره بأنه اجتمع ببدرودى كوفلهام فقص عليه هذا الأخير كل ما حدث له منذ مغادرته البرتغال حاملا أمر الملك بالبحث عن القس يوحنا .

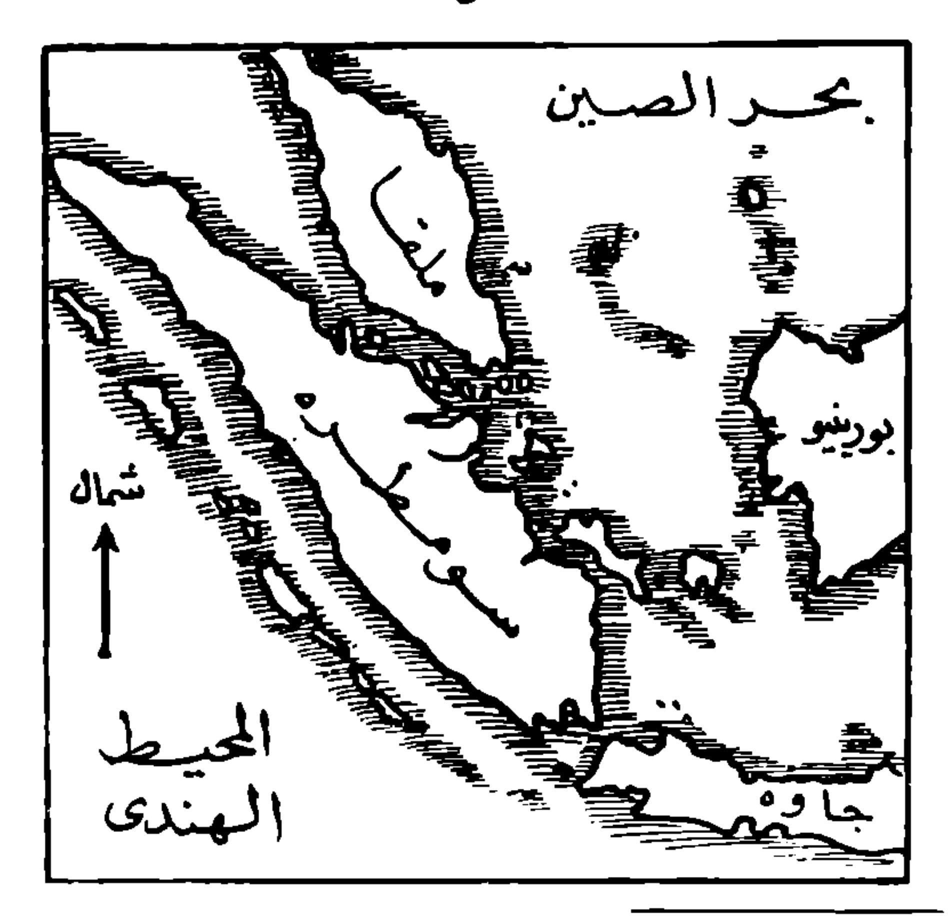
كان اغتباط كوفلهام عقابلة مواطنيه لاحد له ، فقد انقضت ثلاثون عاما على مغادرته الوطن ، وزاد اغتباطه أضعافا حينما علم بما ترتب على رحلة دياز من النتائج العظيمة ، وإن يكن للخرائط التى أرسلها صحبة الإسكافى اليهودى من ثمانية وعشرين عاما خلت بعض الفضل فى تحقيق ما حققه فسكو دا جاما .

(١) Rodrigo de Lima

www.ibtesama.com Exclusive

توفى دلبوكيرك عام ١٥١٥ دون أن يضع الخطط التى كان اعتزمها بشأن مصر موضع التنفيذ، وكتب إلى الملك وهو على سرير الموت يرجوه أن يعترف بابنه غير الشرعى وريثا له، وأن يمنحه جميع المكافآت التى وعده بها الملك . أما عن الأمور فى الهند فقد كتب الرجل المحتضر « إن مجريات الأمور فيها سوف تتكلم عن نفسها وعنى » . وقد كان .

ورغما من أن ألفنسو دلبوكيرك طلب من الملك أن يسمح بنقل رفاته إلى البرتغال لتدفن فيها، إلا أن الملك لم يستجب لهذا الطلب، فقد كان يشعر بأن ممتلكاته الشرقية آمنة سالمة طالما أن رفات فاتحها مدفونة بها إذ كان الهندوكيون والمسلمون على السواء يحترمون دلبوكيرك ويعتبرون إدارته عادلة منصفة حتى أن المسلمين كانوا يقولون بأن دلبوكيرك العظيم لم يمت حقيقة وإنما استدعاه الله إلى جواره ليجعله على رأس الملائكة[1] .



(١) هذا زعم باطل ، فالمسلمون لا يصدر عنهم مثل هذا السخف والهراء .

www.ibtesama.com Exclusive

الفصل العاشر

فى صحبة الشمس

مالا يعلمه الفن تهدى إليه الصدفة

لمين

كان من بين أفراد الطبقة الراقية الذين تطوعوا لخدمة الملك مانويل فى الهند رجل يدعى فرنان ماجلان ، أحد الحجاب السابقين للملكة — زوج الملك جون الثانى — وقد رقى فيما بعد إلى رتبة فارس من حملة قلادة سان ياجو . وعندما كان يعمل فى البلاط الملكى كان يتتبع باهتمام بالغ جميع مناقشات الملك حول موضوع المكتشفات والملاحة . وسمح للحاجب الملكى بالاطلاع على جميع الخرائط الموضوعة من عهد الأمير هنرى الملاح والمحفوظة فى خزائن الدولة .

افتتن الشاب ماجلان بخريطة مارتن بهايم أكثر من افتتانه بالخرائط الأخرى،وحار فى تفسير بعض الخلجان المبينة معالمها فى نفس الموضع الذى تقوم فيها أمريكا الجنوبية :

ذهب ماجلان بعد ذلك إلى الهند مع فرنسيسكو دلميدا[1] ثم عمل تحت إمرة دلبوكيرك ، فأقام بالهند سبع سنوات ، بنى لنفسه أثناءها مركزاً ساميا وسمعة طيبة كجندى باسل ورجل ذى قلب رحيم : وقد برهن فى إحدى المناسبات أثناء غرق إحدى السفن على شجاعة فذة وبر ببحارته وصون لأرواحهم مما طوق أعناقهم وأطلق ألسنتهم بالشكر . غير أن الزعيم الأكبر ،كان يضمر له بعض الحقد، لأنه رفض الموافقة على بعض خططه فى إحدى المناسبات حينما طرحها على معاونيه ومن تحت إمرته من الضباط لأخذ الأصوات .

---

(1) Francisco d'Almeida

www.ibtesama.com Exclusive

كان ماجلان قد أبحر مع أنطونيو دابرى[1] فى رحلته الخالدة حينما هبط لأول مرة خليج الملايو وجزائر ملوك.

وبينما كان ما جلان مرابطا بملقا كان صديقه فرنسيسكو سيرانو يقيم فى ترنات وكان الصديقان يتراسلان من حين لآخر فذكر سيرانو فى إحدى رسائله إلى صديقه بأنه يرى إمكان الوصول إلى جزائر ملوك بالإبحار غربا من البرتغال ثم الأخذ فى السير صوب الجنوب. وقد يكون من حسن الرأى تجربة هذه الطريق فربما كانت أقصر من غيرها وهذه فى الواقع هى نفس النظرية التى أبداها خرستفر كولومبوس للملك

وما أن عاد ما جلان من الهند حتى اشترك فى الحرب المراكشية التى أصيب فيها بجرح بالغ ترتب عليه عاهة العرج المستديم. ولما أصبح غير صالح للخدمة العسكرية، ولما كان قد فقد جميع ما يملكه حينما تحطمت السفينة المشار إليها آنفا، فقد توسل إلى الملك أن يزيد المرتب الذى يصرفه له البلاط بوصفه من رجاله نصف دوقة فى الشهر (حـــوالى ثلاثين قرشا مصريا).

ولكن الملك مانويل كان ممسكا غاية الإمساك، مشهورا بذلك، فلم يكن سؤال ماجلان، مآله الرفض فحسب، بل أخبر أيضا بأن الملك لم يعد فى حاجة إلى خدماته. وكان الاعتقاد السائد أن دلبوكيرك هو المسئول عن توغير صدر الملك على ما جلان، ولكن الملك عزى رفضه إلى تخوفه من سن سابقة غير مرغوب فيها.

كان لماجلان من النشاط والشغف بالملاحة والاستكشاف ما بغض إليه حياة الخمول والاستكانة، ففكر مليا فيما اقترحه عليه صديقه سيرانو فى رسائله، وفكر مليا فى زيارته لجزائر ملوك، وفكر مليا كذلك فى تلك الخلجان المرقومة على خريطة بهايم والمثيرة للفضول، فقرر من وقته وضع خطة للعمل تتفق مع نشاطه ورغبته، فغادر البرتغال قاصدا مدينة أشبيلية

---

[1] Aanterrio d'Abru

www.ibtesama.com Exclusive

حيث يقيم نفر من أصدقائه ، من بينهم دياجو باربوزا[1] ــ الذى أصبح فيما بعد حما له ــ وخرستفر دى هارو من أغنياء التجار والذى كان يمثل فى لشبونه بيتا من بيوتات أنتورب[2] ولكنه انتقل إلى الإقامة فى أشبيليه



بسبب حقده على ملك البرتغال . كان هذا التاجر قد قضى سنوات عديدة فى الهند كما كان يتعامل مع الصين فهو يعلم الشيء الكثير عن شئون هذا الجزء من العالم ، يشاركه فى هذا بربوزا . لذلك عندما شرح ماجلان لهذين الرجلين خطته لاستكشاف الطريق الغربية الموصلة إلى جزائر ملوك عن

---

(١) Diego Barbosa

(٢) Anturp

www.ibtesama.com Exclusive

طريق الإبحار من أقصى نقطة فى جنوب أمريكا الجنوبية ، أنصتا إليه فى عطف وتقدير وحينما أفضى هذان الرجلان – وهما من ذوى النفوذ فى دوائر الأعمال – إلى أولى الأمر فى وزارة المستعمرات الإسبانية بما يعتقد ما جلان إمكان تحقيقه ، أجابوا بأنهم على علم بذلك وأن الملك على علم بذلك أيضا ولكن الملك ليس له سفن فى تلك المياه، وأنه لا بد للوصول إلى تلك المياه من اجتياز بحار تقع داخل حدود المنطقة التى تسيطر عليها البرتغال .

ولكن عندما وقف ماجلان على ما أجاب به أولو الأمر صاح قائلا « لو كنت إسبانى الجنسية ووضعت بعض السفن تحت تصرفى لبرهنت لكم جميعا على أنه فى استطاعتى تنفيذ المشروع دون انتهاك حرمة أى جزء من الأجزاء الداخلة ضمن المنطقة المخصصة لملك البرتغال » .

نقل « المشرفون على شئون التجارة والملاحة » إلى الملك تصريحات ماجلان الجريئة فأرسل إليه يقول « سرنى ما سمعت ولكن العمل يسرنى أكثر » .

كان الجالس على عرش إسبانيا فى ذلك الوقت شارل الأول حفيد الملك فرديناند والملكة إزابللا وكان لا يزال غلاما فى السادسة عشرة من عمره ، وكان للعرش وصيان من كبار رجال الكنيسة هما اسقف إبراشية طليطلة الذى عرف فيما بعد باسم أكزيمنس [١] المفتش الأعظم [٢] وأدريان دى لوفان [٣] مؤدب الملك الشاب والذى ارتقى فيما بعد إلى عرش البابوية باسم البابا أدريان السادس .

---

(١) Ximines

(٢) اشارة إلى أنه كان كبير محاكم التفتيش التى أسسها الكاثوليك الرومان لمعاقبة كل مخالف لمذهبهم وقد اشتهرت بالظلم وارهاق الناس واضطهاد الأبرياء .

(٣) Adrian de Louvain

(٤) Ruy Faleiro

www.ibtesama.com Exclusive

وقبل أن يسمح لماجلان بتقديم مشروعه للملك عقدت عدة اجتماعات بينه وبين أسقف طليطلة الذى استشار الفلكى «رى فاليرو» فوجده يتحرق رغبة لأخراج هذه المحاولة من حيز القول إلى حيز العمل وراح يقنعه بذلك والبوصلة فى يده حتى اقتنع. وساعد على قبول المشروع ماعرضه خرستفر دى هارو من تحمل نفقاته، إلى جانب ما صادفه المشروع — على غير انتظار — من تأييد أسقف دى فونسكو[1] وهو الذى قاوم خرستفر كولومبوس مقاومة مريرةحينما تقدم إليهمن قبل،بنفس الاقتراح الذى تقدم به ماجلان.

تردد شارل الأول خشية تكدير مزاج عمه الملك مانويل ولكنه وافق فى النهاية على قيام ماجلان برحلته المقترحة، فعمد هذا الأخير إلى التجنس بالجنسية الإسبانية حتى لا يرمى بعدم الولاء.

وعندما بدا كل شىء وكأنه على أتم استعداد وأوشكت الحلة على الرحيل وإذا بالموعد يؤجل على غير انتظار وإذا بالتأجيل يمتد عاماً بأكمله فقد علم ملك البرتغال بطبيعة الحال من سفيره بما اعتزمته إسبانيافأ نى الا أن يضع اسفينا فى عجلة الرحلة وألا أن يمنع سفر البعثة بجميع الوسائل. فهو لا يطيق لحظة واحدة فكرة قيام إسبانيا باستيراد التوابل مباشرة من جزائر ملوك. وخشى المنافسة — فالكميات العظيمة الضخمة التى استوردتها البرتغال من الفلفل قدكانت من العوامل التى ساعدت على هبوط الأسعار فيها هبوطا كبيرا.

ومن الناحية الأخرى نرى أن جوزة الطيب والبهار والقرنفل قد أصبحت تستورد بكميات ضخمة زادت فى حصيلة دخله زيادة مستمرة، وحتى التجار الإيطاليون والهولنديون يبتاعون حاجتهم من هذه التوابل فى البرتغال

---

(١) Fonesco

www.ibtesama.com Exclusive

لإعادة بيعه إلى تجار « هنزا »[1] وكان لأهم البيوتات التجارية التابعة لمدن أوجز برج وفوجر ووزلر وكلاء مستديمون فى لشبونه .

أيعرض كل هذا لخطر المنافسة الاسبانية؟

أنه من الممكن أن يوضح لذلك شارل الأول وهو ذلك الغلام الحدث والذى يَكِنُّ اسمه أعظم الحب ما تنطوى عليه مثل هذه المغامرة من الإضرار بمصالح العمّ لذلك أمر الملك مانويل سفيره فى إسبانيا أن يحتج لدى ملكها وأن يقنعه بأنه غير جدير به أن يستمع إلى أقوال إنسان لا ضمير له ، غدر بوطنه وبملكه . إن الملوك يجب أن تحتقر الخونة الغادرين وتزدريهم .

ولما كان شارل الأول ، رقيقا بطبعه ولا يميل إلى المنازعات ، فقد تأثر بما أدلى به السفير من حجج وأدلة فى المناقشة حتى كاد أن يعدل عن الحلة المعتزمة . ولكن حدث فى الاجتماع التالى للمجلس أن ألقى أحد أعضائه بيانا شديدا أثر فى الملك فكان مما قاله إما أن يكرم ماجلان وإما يُقتل لأنه إذا لم توفده إسبانيا لمحاولة تحقيق مشروعه فإن البرتغال هى التى سوف تستفيد من إعدامه » .

وكان هذا الذى أشار إليه عضو المجلس شيئا واضحا ملموسا لأن ملك البرتغال كان قد أرسل فى الوقت نفسه مندوبه ليناقش ماجلان ويتوسل إلى وطنيته أن يعدل عن مشروعه لأن نجاحه يفيد الملك شارل الأول ويَضُرُّ ضررا بالغا بحصيلة دخل ملك البرتغال وفى هذا إضرار بمصالح كل برتغالى .

ولما لم يفلح الملك فى إقناع ماجلان بالعدول عن خطته عرض عليه أن يعيده إلى سابق خدمته فى البلاط ولكن ماجلان رد بأن هذا العرض قد جاء بعد فوات الوقت وأنه قد قطع عهدا على نفسه لملك إسبانيا .

(١) تألفت فى شمال غربى ألمانيا رابطة ضمت عدداً كبيراً من المدن التجارية على رأسها مدينة لوبيك منذ عام ١٢٤١ تهدف إلى صيانة مصالحها التجارية وحمايتها من قراصنة البلطيق والإمارات المجاورة وكانت أهم مراكز هذه الرابطة هامبورج كومالوبيك وكولونيا وقد عظم أمر هذه الرابطة حتى بلغ أعضاؤها فى نهاية القرن الخامس عشر أربعا وستين مدينة .

www.ibtesama.com Exclusive

وأما الذى دعا الملك شارل الأول فى النهاية إلى الموافقة على تنفيذ مشروع ماجلان هو مطالبة أعضاء المجلس له بإجماع الآراء فى العمل على تنفيذ المشروع ، لأن من واجبه أن ينتهز كل فرصة لتوسيع رقعة الإمبراطورية الإسبانية .

إزاء ذلك أصدر الملك قرارا بتعين ماجلان ورى فاليرو حاكمين على جزائر التوابل وعلى كل القارات التى قد يكتشفانها ، ووعدهما بشتى المكافآت إذا هما وفقا إلى اكتشاف أكثر من ست جزر .

ووعد الملك بأنه لن يأذن لأحد فى القيام برحلات استكشافيه سالكا نفس الطريق الذى سوف يسلكانها خلال السنوات العشر التالية ، وكان مضمون الأوامر الصادرة لهما « عليكما إذا حالفكما التوفيق أن تكتشفا ذلك الجزء من المحيط الواقع ضمن الحدود المخصصة لنا وألا تحاولا الاستكشاف فى منطقة ملك البرتغال عمنا المحبوب العزيز علينا وأخينا وألا تضرا بمصالحه » .

وقع هذا العقد « الأمر » فى الثانى والعشرين من مارس عام ١٥١٨ .

* * *

وصلت أنباء البعثة المعتزمة إلى روما حيث أثارت اهتماما كبير .

وحدث حينما اعتزم البابا ليو العاشر إيفاد سفير فوق العادة إلى إسبانيا بعد عام من ذلك التاريخ بمناسبة اختيار الملك ليكون إمبراطورا للدولة الرومانية المقدسة أن تقدم شاب من رجال البلاط البابوى اسمه أنطونيو بيجافتا من مواليد فنسا إلى البابا متوسلا إليه أن يسمح له بمرافقة السفير فوق العادة إلى إسبانيا لعله يوفق إلى مرافقة ماجلان فى رحلته .

استجيب بيجافتا إلى سؤله وسافر إلى إسبانيا حيث نزل ضيفا على وكيل من وكلاء أعمال البابا فيها . وفى بيت مضيفه سنحت له الفرص فى مناسبات عديدة لسماع مايدور من المناقشات حول المكتشفات والملاحة فكان ما سمعه من عجائب المغامرات حافزا له فى الإبحار مع ماجلان . وقد صرح بأن الدوافع

www.ibtesama.com Exclusive

له فى الحقيقة إلى مرافقة هذه البعثة ثلاثة : أولا : رؤية عجائب البحر والبر إشباعا لرغبة ملحة ملكت عليه مشاعره وليكون فى مركز يسمح له بقص مغامراته على ذويه وأصدقائه فى المسامرات .

ثانيا : رغبته فى أن يكون معوانا للمضطلعين بأعباء هذه الحملة .

ثالثا : ليكسب لنفسه شهرة ترويها الأجيال القادمة .

سافر بيجافتا إلى برشلونة ليتوسل إلى الملك فى أن يأذن له بالإبحار مع ماجلان ، فأذن له الملك ومن ثم سافر بيجافتا إلى إشبيليه .

* * *

وأخيرا كان كل شىء على أتم استعداد للرحيل ، بعد أن انقضى عام ونصف عام على تاريخ موافقة الملك شارل على القيام بها ، واستقر رأى زعماء البعثة على أن يستفيدوا من أخطاء البرتغاليين والإسبانيين فيما كانوا قد أعدوه لرحلاتهم الاستكشافية ، فجهز الأسطول بكل ما خطر على بال القائمين بأمره ، وساهم خرستفر هارو فى نفقات الحملة بواقع الثلث ، بينما قامت الدولة بتحمل الثلثين .

وعين ماجلان والفلكى فاليرو قائدين عامين للحملة بالاشتراك ، مما أثار حقد القـــواد الآخرين ، فقد كان الإسبانيون يكرهون العمل تحت أمرة البرتغاليين .

وعندما أوشك الأسطول على الإبحار قرر الفلكى عدم السفر لأنه استدل من النجوم على أن طالع الرحلة محفوف بالأخطار ، ولكن صهر ماجلان دوارت بربوزا ، انضم إلى رجال الحملة الذين بلغ عددهم ٢٧٠ عضوا من بينهم ٣٧ برتغاليا و ٣٠ إيطاليا و ١٩ فرنسيا وانجليزى واحد وألمانى واحد . أما الباقى فكانوا من الإسبان .

تملكت الملك سورة من الغضب حينما أدرك أن ماجلان لن يعدل عن خطته وأنه مبحر إلى جزائر الهند الشرقية فى خدمة الإمبراطور فقال الملك

www.ibtesama.com Exclusive

فى نفسه . هذا لن يكون ، ولما كان يعتقد أن الأسطول الإسبانى يهدف إلى الوصول لجزائر ملوك عن الطريق البحرية المعتادة ، فقد أرسل سفنه لصده عند رأس الرجاء الصالح . ولكن حينما علم أن ماجلان قد سلك طريقا جديدة غير الطريق المعتادة أرسل أمرا إلى نائبه فى الهند بإرسال أسطول لمقاتلته فى جزائر ملوك . ولكن من حسن حظ السفن الإسبانية أن الرياح والتيارات قضت على مشروع ملك البرتغال هذا .

سجل أنطونيو بيجافتا فى يومياته كل ماحدث للحملة من يوم مغادرتها شاطىء إسبانيا إلى يوم عودتها إليه فكل ماروُى عن رحلة ماجلان العظيمة مستمد من يوميات هذا الشاب الإيطالى ومن التقرير الذى كتبه عن الرحلة، وهو مدين بسجله هذا التاريخى إلى ما أوصاه به البابا من وجوب الانتباه لكل صغيرة وكبيرة وتسجيلها بعناية ودقة فى يومياته . كتب بيجافتا قصة الرحلة فى أسلوب سهل يمكّن القارىء الفطن من متابعة بطولة الحملة وبسالتها أثناء بحثها عن جزائر الملوك فى سهولة ويسر .

فهو يخبرنا كيف أن الأسطول وصل بعد اجتيازه المحيط الهادى إلى طائفة من الجزائر أطلق عليها ماجلان إسم سان لازار، ثم استبدله فيما بعد باسم الفليبين تخليدا لاسم ولى عهد إسبانيا . وهنا توفى الملاح العظيم فى سن مبكرة وما أن حصلت الحملة على بعض الأنباء التى ربما ساعدت على تعرف موضع جزائر ملوك بالضبط حتى أبحر الأسطول تحت قيادة سبستيان دِل كانو . وفى انحراف الأسطول إلى الجنوب أبصر ملاحوه فى النهاية طائفة صغيرة من الجزائر الجبلية التى قال لهم مرشدهم الهندى بأنها الجزائر التى يبحثون عنها، فعبر رجال الأسطول عن فرحهم واغتباطهم باطلاق المدافع، ويفسر بيجافتا هذا العمل بقوله . ليس عجيبا أن يبلغ منا الفرح هذا المبلغ حين وقع بصرنا على هذه الجزائر بعد أن قضينا فى البحر سبعاو عشرين شهرا ويومين، زرنا خلالها مالا حصر له من الجزائر ونحن دائبون فى البحث عن جزائر ملوك .

www.ibtesama.com Exclusive

وبعد العودة إلى اسبانيا استقبل الامبراطور فى قصره بمدينة فالا دوليد بيجافتا هذا الذى وصف لنا المقابلة بقوله «لم أهد الأمبراطور شيئا من الذهب أو الفضة ولكنى أهديته شيئا أجدى من كل هذا فى نظره، فقد قدمت له من بين ما قدمت كتابا من خط يدى سجلت فيه كل ماحدث أثناء الرحلة يوما بيوم».

* * *

كان بيتر مارتل أول من أرسل إلى إيطاليا أنباء عودة خرستفر كولومبس، وها هو يتناول قلمه ليكتب الآن عن رحلة ماجلان العظيمة فى خطابه للبابا أدريان السادس الذى خلف البابا ليو العاشر، وفى خطابه لدوق أوف ميلانى بجده يقول بأن الشيخوخة وإن تكن قد جعلته يخلد إلى الكسل إلا أن الأنباء التى يكتب إليهما عنها تستحق محاولة استعادة نشاطه السابق، وهذا ما كتبه «فى السادس من سبتمبر عادت السفينة — النصر — إلى إسبانيا وعلى ظهرها ثمانية عشر رجلا لا غير محملة بالأخشاب الثمينة والعقاقير والأطياب والتوابل».

ويذكر بيتر مارتل البابا باجتماعات المجلس الاستشارى لشئون الهند التى رأسها هذا الأخير بوصفه أحد الوصيين على العرش حينما دارت المناقشات حول عرض ماجلان الوصول إلى جزائر ملوك عن طريق جديدة. «ولقد بر ماجلان بوعده، ولكن لسوء حظه لم يكن هو الذى كتب له أن يعود ليروى بنفسه قصة رحلته وما قام به من جلائل الأعمال لأن الموت أغلق شفتيه فى السادس عشر من أبريل عام ١٥٢١ فى إحدى جزر المحيط الهادى».

وقف بيتر مارتل على هذه الأنباء التى أرسلها إلى روما من شفاه من بقى من البحارة على قيد الحياة وذلك عن طريق استجوابهم بوصفه عضوا بالمجلس الاستشارى للهند.

* * *

www.ibtesama.com Exclusive

وسرد مارتل كذلك تفاصيل الرحلة العظيمة فى خطابه إلى فرانسيس سفورزا دوق أوف ميلانى فذكر ماتعرض له البحارة من العواصف القاسية والأعاصير الجبارة وما عانوه من نقص فى الطعام والشراب حتى كانت نشارة الخشب والفئران تعتبر من الأطعمة النادرة . وذكر اكتشافه تلك المضايق التى اكتشفها ماجلان والتى أصبحت تحمل أسمه ، وكيف أن رجال الحملة قابلوا قوما ذوى هيئة عجيبة يلتحفون الفراء ، أطلق عليهم البحارة أسم البتاجونين وكيف أنهم اكتشفوا بلدا يقذف بالنار فأطلقوا عليها إسم أرض النيران وماكان من اجتيازهم المحيط الفسيح المترامى الأرجاء حتى وصلوا جزائر الفلبين كما ذكر شتى الأحداث التى وقعت فى هذه الجزائر والتى انتهت بموت ماجلان الذى ذهب ضحية أمة متوحشة أهلها عراة لا يستر عوراتهم شىء

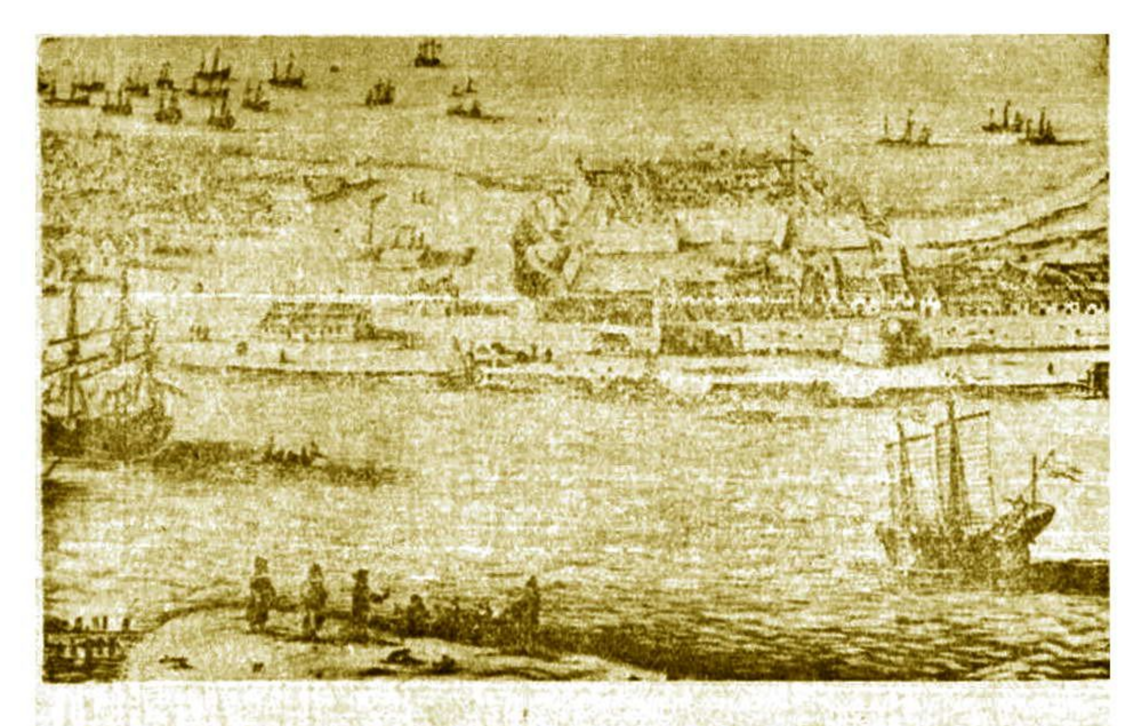
* * *

ويروى بيجافتاقصته الطريفة عن عطف ماجلان على الأهالى وعن طيبة قلبه الرحيم وكيف أنه كان قد أعد كل شىء لتعليم الأهالى مبادىء الدين المسيحى .

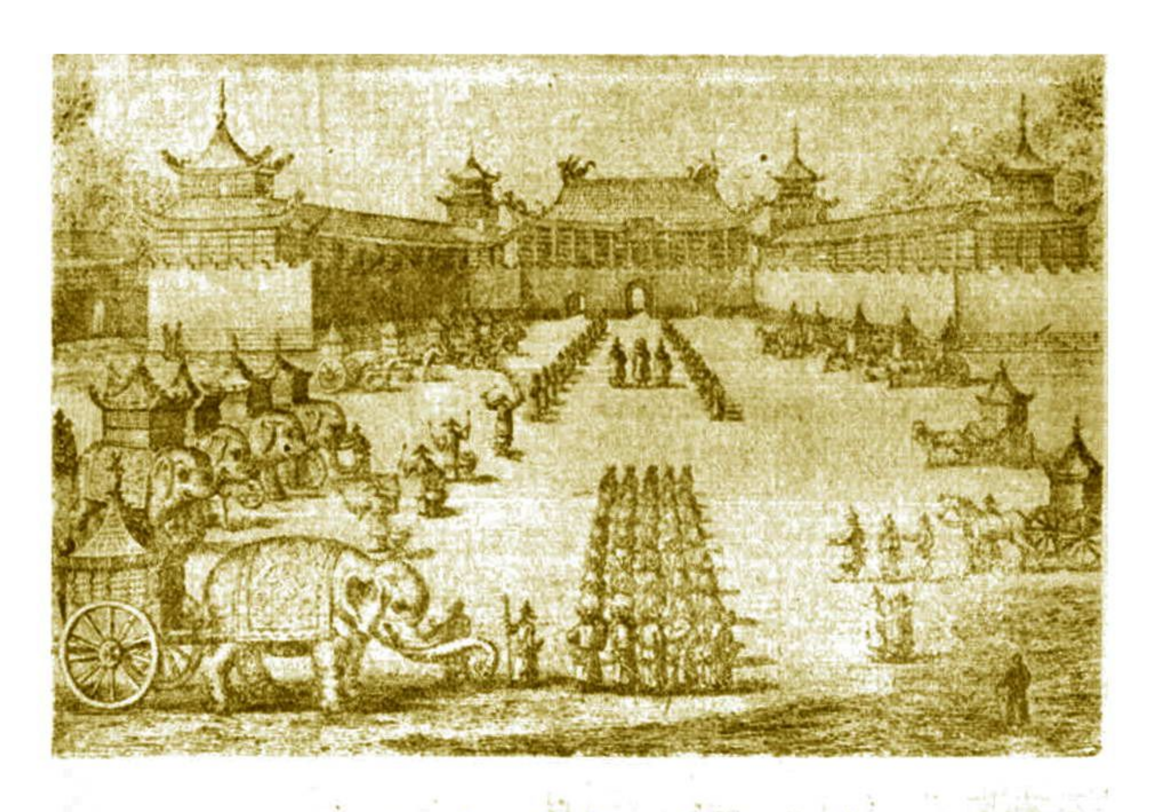
كان حكم بيجافتا على أخلاق الزعيم المأسوف عليه صادرا من أعماق قلبه ولا غرو فقد كان يكن له أعظم الحب وأخلص الولاء ، ومما قاله عن أهم خلال ماجلان الكريمة ثباته فى الملمات وقدرته على تحمل الجوع أكثر من أى شخص آخر فى عرض البحر . وكان ماجلان أكثر خبرة من سواه بفن خرائط الملاحة وغيرها من الفنون البحرية تشهد بذلك عبقريته ومهارته الفذة ومحاولته دون أية خبرة سابقة الاستدارة حول العالم وقد كان أتمها لو أنه قد مدّ له فى الأجل

* * *

www.ibtesama.com Exclusive



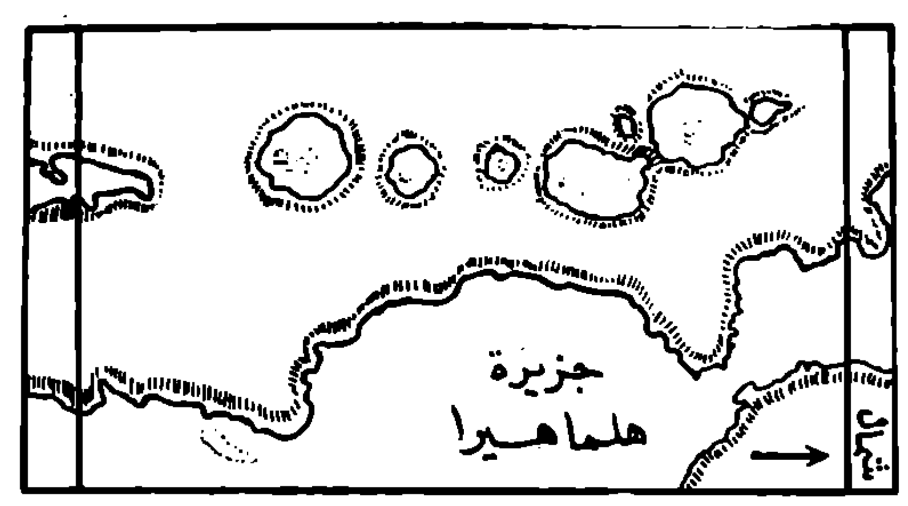
تايوان بفرموزا ــ من الخرائط السرية لشركة الهند الشرقية عام ١٦٧٠



سفير روسى يقدم أوراق اعتماده إلى امبراطور الصين عام ١٦٠٠

www.ibtesama.com Exclusive

وكتب بيتر مارتل فيما كتبه لأصدقائه بأن ماجلان كان يسأل الأهالى فى كل مكان أرسى به للتزود منه بالمياه والطعام، عن التوابل ومصدرها وقد عثر على مصادر كثيرة للذهب والمواد الراتنجية الغالية كما أخبرنا عن مصادر اللآلىء الكبيرة الحجم والأحجار الكريمة ولكنه صرف النفس عنها مرجئا ذلك إلى مرة أخرى، فقد كان مقتنعا كل الاقتناع بأن فى الاستطاعة كسب ولاء الأهالى بالمعاملة الحسنة والهبات



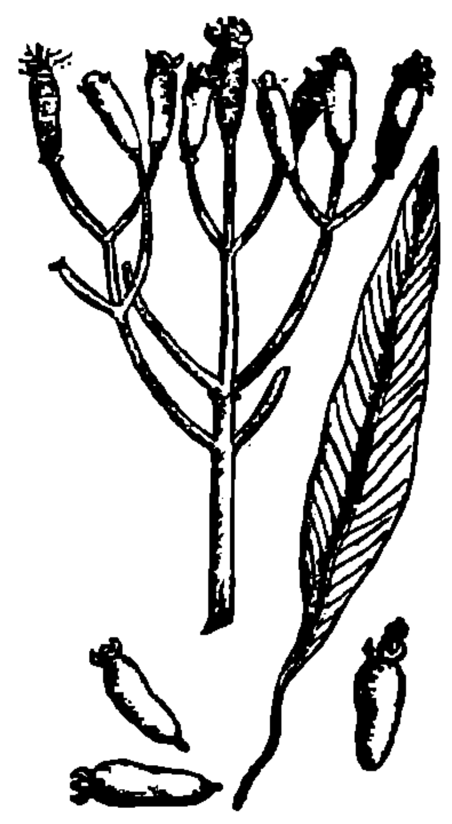
ولكن للأسف عندما أوشكت هذه النظرية أن تبرر وجودها وجدارتها لقى ماجلان حتفه ولم يكن هنالك أى سبب ظاهر للعدوان. ولعل عبد ماجلان هو الذى أغرى ملك جزيرة زيبو بالأسبانيين، وأفهمه بأن الفتح هو حقيقة مايهدفون إليه، أو ربما كان ذلك بسبب الغيرة من إعجاب رجال الحملة بنساء الجزيرة .

وذكر بيتر مارتل أسماء الجزائر التى تعتبر مصدر التوابل نقلا عن أنطونيو بيجافتا وهذه الجزائر هى ترنات، وتيدور، وطوالى، ومنجان، وبتيان كما نقل عن نفس المصدر ما يعتقده الأهالى من أن السحب تغطى قمم التلال التى تنمو فوقها أشجار القرنفل ثلاث مرات فى اليوم. ومن هنا كان مصدر الخصوبة ويدلك على صحة هذا القول مايرويه الأهالى من أن الأشجار التى تنمو عند سفح التلال لاتنضج ثمارها أبدا

درس بيجافتا موضوع التوابل النادرة وطريقة نموها دراسة خاصة

www.ibtesama.com Exclusive

فنى جزيرة جيلولو شاهد أشجار القرنفل التى يصفها بهذه الكلمات . سمك جذوعها كسمك جسد الإنسان وإنما تقل عن هذا الحجم وفقا لسنها . وتأخذ أغصانها فى الانتشار من منتصف الشجرة ، ولكنها تكوّن بالقرب من الشجرة شكلا هرميا وأما اللحاء فهو فى لون الزيتون وتشبه أوراقها أوراق الغار وتظهر ثمار القرنفل عند نهاية غصون صغيرة فى مجموعات ما بين العشرة والعشرين .



الشكل الحقيقى للقرنفل

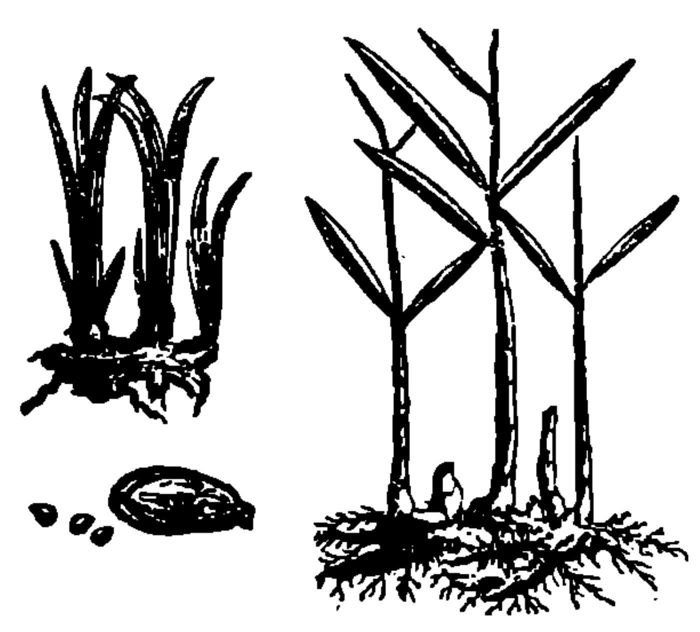
وهذه الثمار بيضاء اللون فى أول ظهورها وتأخذ فى الاحمرار كلما قاربت النضوج ولكن لونها يسود عندما تجف . وتقطف الثمار مرتين فى العام ، مرة قرب موعد عيد الميلاد ومرة قرب مولد القديس يوحنا . ولأوراق القرنفل ولحاء الشجرة والخشب رائحة الثمرة نفسها وقوة شذاها طالما هى خضراء .

وأما عن أشجار جوزة الطيب فيقول بيجافتا أنها تشبه أشجار الجوز كما أن أوراق أشجار النوعين متماثلة ، وجوزة الطيب عندما تقطف تشبه ثمرة السفرجل فى الشكل واللون والغطاء الذى يكسوها من الخارج ولكنها أصغر من السفرجل حجما ، وغلافها الخارجى فى سمك قشرة الجوز الأخضر وتحته غشاء رقيق يوجد من تحته البهار وهو شديد الحمرة ويغطى قشرة البندقة التى بداخلها والتى هى جوزة الطيب الحقيقية . ولكن الذى حار فى أمره بيتر مارتل فيما يتعلق بجزائر ملوك هو أن يكون نمو أشجار جوزة الطيب والقرنفل الغالية مقصورا على هذه الجزائر وحدها فيقول متسائلا

www.ibtesama.com Exclusive

« لابد أن يكون هناك فى العالم مثلها ! أترى الطبيعة قد أفنت كنوزها حتى لم يعد شيء من هذه الأشجار إلا فى تلك الجزر نعم لابد وأن تكون هناك جزائر أخرى لا تقل تربتها خصوبة عن خصوبة تلك الجزر »

على أن هذا الإيطالى العجوز لم يكن ممن تستهويه التوابل لأننا نقرأ فيما كتب « من اليوم الذى وجدت فيه التوابل طريقها إلى روما والمجتمع فى تدهور مستمر وقد كان من نتائج حياة الترف والتنعم بالطيوب أن أصبح الرجال مخنثين معدومى الفضائل »



الجنزبيل

وهو وإن كان حكمه على مستهلكى التوابل قد بلغ هذا الحد من القسوة والصرامة إلا أن ذلك لم يمنعه من أن يعرض على صديقه عينات التوابل وغصون بعض الأشجار وعليها ثمارها ومن أن يعلق على ما يجده رجال البلاط من اللذة الناجمة عن رائحة جوزة الطيب بينما هو لا يجد أى فارق بين رائحتها وبين رائحة المباع منها فى الصيدليات .

وكان من بين ما كتبه عن سفينة النصر وبحارتها قوله « خرمت هذه السفينة نتيجة اصابتها بالرصاص حتى أصبحت وكأنها المصفاة الدقيقة وكان بحارتها الثمانية عشر منهوكى القوى أكثر من الخيول الرازحة تحت أحمالها ولا غرو فقد قطعت

www.ibtesama.com Exclusive

فى سياحتها ١٤٠٤٦٠ فرسخا مع أن محيط الأرض لا يزيد على ثمانية آلاف فرسخ ، ولكن هذا يرجع إلى جهل البحارة بموضع جزائر ملوك حتى عندما كانوا على مقربة منها . ويعتزم الإمبراطور الاستفاده من هذه المغامرة التى كانت بدايتها طيبة صالحة . ثم يُذكر الكاتب قداسة البابا بموضوع الحدود . فالبرتغاليون مقتنعون بأن جزائر ملوك من نصيبهم وأنها داخل منطقة نفوذهم، على حين يعتزم الأسبان ءايرى من الشواهد على إدعاء ملكيتها لأنفسهم

* * *

ومهما يكن من أهمية هذا السؤال بالنسبة للإمبراطور والملك على السواء فإن هناك شطرا آخر للموضوع أثار جانبا غير قليل من الاهتمام وهى ظاهرة لم تكن غير مفهومة فقد حدث أن سقط يوم من حساب الحملة خلال السنوات الثلاثة التى استغرقتها سياحته فبالرجوع إلى يوميات بجافتارى أن الحملة وصلت جزيرة رأس ڤرد فى يوم أربعاء ولكن قيل لهم فى تلك الجزيرة أن اليوم يوم الخميس فاستحوذ القلق على جميع رجال البعثة من هذا الاختلاف غير المفهوم فى تقدير يوم الوصول . ودارت المناقشة حول هذا الموضوع من جميع جوانبه المنطقية وبحثت الأسباب والعلل لهذا الاختلاف فى الأيام فلم يهتدى إلى حل قاطع. وأخيراً طرح بيتر مارتل المشكلة على بساط البحث فى مجلس سفير فينسيا وكان خبيراً بعلم الفلك ففسر الظاهرة تفسيراً معقولا وهو أن البحارة عندما تتبعوا الشمس فى رحلتهم فقدوا يوما بالنسبة لمن تركوهم خلفهم أى فى البرتغال أو فى ذلك الجانب من العالم الذى تقع فيه البرتغال، فلو أن البعثة اتبعت الطريق العكسى فى الرّحلة حول العالم لكانوا قد اكتسبوا يوماً بدلا من أن يفقدوا مثله . وكانت هناك مشكلة أخرى سببت شيئاً من الضيق لبيتر مارتل فقد وجد صعوبة فى تفسير الأبعاد التى سجلها الملاحون وهى تختلف عن الأبعاد التى كانت معلومة فى ذلك العهد، ولما كان بيتر مارتل مؤلفاً قبل كل شىء ، كان طبيعيا أن يهتم بالوقائع أكثر من اهتمامه بأناقة الأسلوب ، لذلك نراه يختتم كلمته فى هذا الموضوع بالعبارة الآتية : « فليفهم من يشاء أما أنا فقد عييت

www.ibtesama.com Exclusive

بالأمر ، ثم يضيف إلى ذلك قوله : « وإذا نحن تركنا جميع الافتراضات جانباً فإن الذى يسترعى الإعجاب فى أمر هذه الرحلة هو قيام السفينة « النصر بالسياحة حول العالم وهو مالم تقم به سفينة قبلها ، وهو يقترح على البابا أن يتتبع رحلتها على إحدى الكريات الأرضية الصناعية ليستطيع تقدير ما قامت به البعثة على الوجه الأكمل فيقول .

« فلتبدأ قداستكم من أعمدة هرقل إلى جزائر رأس فرد ، لجزائر جورجون مدوزا ثم تتبع طريق البرتغاليين شرقا حتى القرن الذهبي الذى يسمونه « ملقا ، لحينما تصل إلى هذه الجزائر تكون قد قطعت منتصف الطريق حول العالم ، أى أن اثنى عشرة ساعة من الساعات الأربع وعشرين التى تقطعها الشمس فى رحلتها حول العالم على حد قول علماء الجغرافيا والفلك تكون قد انقضت. ولإتمام النصف الثانى من الرحلة يجب على قداستكم أن تبدءوا من رأس فرد وظهركم هذه المرة إلى السفن البرتغالية . ولكن الأسطول الأسبانى تتبع فى رحلته غروب الشمس بينما اتجهت السفن البرتغالية فى رحلاتها دائما نحو شروقها ووصل كلاهما إلى جزائر ملوك وعادت السفن الأسبانية بعد وصولها إلى القرن الذهبي سالكة الطريق التى سلكها البرتغاليون فى إبحارهم نحو الشرق ، وبهذا تكون السفينة « النصر » تلك العروس بين عرائس البحر ،قد عادت من هذا الطريق.لجأ بيتر مارتيل فى خطابه إلى استعمال التورية فى كثير من الفقرات تناسب هذه الظروف وخاصة لأن الإمبراطور كان قد أقام حفلة رسمية قبل إبحار ماجلان ببضعة أشهر لتسليم الرتب والنياشين إلى من أنعم عليهم بها من مرتبة « الصوف الذهبي » .

أسهب بيتر مارتيل فى خطابه بأسلوب بليغ حول موضوع الرحلة البحرية حول العالم . وقارن بينها وبين الحفل الرسمى – قائلا فى استنكار : ماذا يهم البابا بوكسينوس من أمر هذه الرحلة ؟ إن أى طفل من اطفال أحقر الطبقات يعلم مبلغ المسافة . فلو أن الذى قام بهذه الرحلة ، رحلة السفينة « النصر »

www.ibtesama.com Exclusive

المنقطعة النظير كان من أنباء الإغريق لقامت اليونان وقعدت للحدث الفذ ولتبارى الكتاب وتنافسوا فيما يكتبون .

إن ذكرى ماجلان قد كتب لها الخلود . ولقد قال مواطنه المشهور لويس دى كموينزف هذه الرحلة التاريخية التى تمخض عنها اكتشاف الطريق فى المحيط الهادى :

سوف يحذو حذوك ماجلان ياكولومبس
فى كل شىء إلا أمر الولاء فهوَ بارّ بأمه الوطن لوزيتانيا
لن يقعده الخوف ولا الأخطار عن بلوغ هدفه
فمن هذه المناطق المتوهجة كالجمر
حتى أعماق الجنوب ، سوف يمضى متحديا المجهول
بينما يمسك فى راحة يده مفتاح الطريق الغربية
إلى تلك الممالك التى تشرق عليها الشمس .

* * *

هذه المضايق المائجة بالزبد ، سوف تقدس للأدب
ذكرى البطل ، وتحمل أسمه الذى لن يمحوه الزمن
وهذه البحار الرحبة الصدور المجهولة الاطراف
سوف تستقبل سفنه وسط التيار المرعب
وتحت السماء القاتمة المغبرة حيث لم يتطرق إلى الآذان من قبل
هدير مثل هدير هذه الأمواج . أنه يتحدى كل شاطىء مجهول

المقطع العاشر

* * *

ولكن للأسف ، لقى ماجلان حتفه قبل أن ينال جزاء عمله العظيم فى هذه الحياة ، هذا الجزاء الذى آل إلى سبستيان دل كانو الربان الذى اضطلع بمسئولية قيادة السفن فى عودتها إلى البرتغال .

www.ibtesama.com Exclusive

فقد أغدق عليه الإمبراطور النعم الجزيلة وخصص له معاشا يتقاضاه طول حياته، ومنحه حق اتخاذ شعار على صورة كرة أرضية فوق هذه الكلمات «أول من دار حول العالم». وكانت صورة الكرة الأرضية المشار إليها تقوم على يدى ملكين من ملوك الشرق، يحمل كل منهما فى يده الأخرى غصنا من غصون أشجار التوابل، بينما صور على الدرع عودان من القرفة وثلاث وحدات من جوزة الطيب وأثنتا عشرة حبة من حبوب القرنفل أى رمز يكون أكثر ملاءمة لتسجيل المحاولات الجبارة فى طلب التوابل

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com Exclusive

الفصل الحادى عشر

المنافسة

خرج من مدينتنا الطيبة دييب فى مختلف العصور ربابنة وملاحون من أكثر الناس خبرة بالملاحة وأمهرهم بشئونها وأقدرهم على تحمل المشاق. فأبناء تلك المدينة كانوا أول من قاموا باكتشاف البلاد البعيدة السحيقة.

«خطابات مسجلة بتاريخ ١٧ أغسطس سنة١٦٦٨»

كان الحقد والمرارة يملآن صدور تجارة نورماندى وتجارها من رؤيتهم البرتغال وإسبانيا قداقتسما العالم فيمابينهما. فهؤلاء النرمانديون أبناء الفيكنز القدماء الذين جابوا البحار فى العهود الماضية لم يرضوا بمثل هذا التقسيم دون معارضة أو مقاومة فقد تحدوه بأعمال القرصنة على غرار ماعملته إسبانيا والبرتغال. فإذا لم يقدر لسفنهم أن تذهب للتزود من توابل جزائر الهند وذهبها فسوف يحصلون عليها فى عرض البحار.

كان أوسع هؤلاء القراصنة شهرة قراصنة مدينة دييب، وكلمة دييب معناها «العميق»، وهو الإسم الذى أطلقه الغزاة النورمانديون على البلد الحصينة التى بناها شارلمان فى عام ٨٠٩ وبتاريخ هذه المدينة ترتبط أسماء عدة ملوك من ملوك النورمانديين، فقد جلعها زولو ثغره الحصينة. ومنها حملت السفن المسلحة جنود وليم الفاتح إلى انجلترا، وفى دييب حوصر الملك ريتشارد قلب الأسد، حاصره فيليب أوجست. الذى حرقها عن آخرها وحطم كل سفينة بمينائها على أنه لم تمض سنة على هذا الحريق والتدمير حتى كانت هذه المدينة قد ازدهرت مرة ثانية وما لبثت أن صارت أهم سوق تجارية يتبادل فيها تجار فرنسا وانجلترا السلع وكانت أشرعة السفن النورماندية تنشر أمام الريح وكأنها أجنحة الطيور الضخمة

www.ibtesama.com Exclusive

الهائلة تسير بها فوق الأمواج حاملة بحارة دييب ، متعمقة فى البحار، فتصل فى كل رحلة إلى أبعد مما وصلت إليه فى الرحلة السابقة . وقد سجل شارل السادس ملك فرنسا بأن دييب مهد الملاحة الفرنسية فيقول : « لقد خرج الربابنة والملاحون المجربون من مدينة دييب الطيبة فى جميع العهود وجميع الأزمنة كأنها تخرج فيها أمهر رجال الملاحة فى أوروبا وأكثرهم خبرة بطرائق البحار . والواقع أنهم كانوا أول من اكتشف البلاد النائية السحيقة .

وهذا الزعم الجرىء حقيقة واقعة. فسياحات البرتغاليين كانت منذ أول أمرها تنفذ بأمر ابن الملك الجالس على عرشها فى ذلك الوقت . فكان نبأ الرحلة معروفا لدى جميع الدول الأوربية ، أما رحلات الربابنة الفرنسيين فكانت سرية لا يقوم ملك بحمايتها ولا يباركها البابا قبل خروج السفن من دييب وروين وسانمالو وهنفلير . وقد ترتب على الشجاعة والجرأة التى أبداها المكتشفون ، مقرونة إلى حسن معاملة الأهالى فى ساحل افريقيا الغربية أن فتحت أمامهم أبواب الذهب وغلال الفردوس .

وحدث عام ١٣٦٠ أى قبل خمسين سنة من إبحار فرسان الأمير هنرى الملاح إلى غانا أن سبقهم إليها قراصنة دييب وعادوا منها بعناقيد الفلفل التى صرح أطباء المدينة بأنه جيد لا ينقص فى شىء عن الفلفل الذى يستورده الإيطاليون، وبذلك أصبح فلفل غانا منافساً لفلفل الهند، وترتب على ضخامة كميات العاج المستوردة من أفريقيا تأسيس صناعة جديدة تستهدف تحويل هذه المادة والانتفاع بها فى عدة وجوه حتى اشتهر فى ميدان هذه الصناعة مهرة العمال فى دييب شهرة عالمية . وكان للاتحادات التجارية وكلاء فى جهات متعددة على طول ساحل غانا من أشهرها « دييب الصغيرة ، باريس الصغيرة » .

وكان هناك عدو آخر على ضفاف نهرى جمبيا وسينغال .

رحب الأهالى بالفرنسيين لما لاقوه من حسن معاملتهم وبمرور الوقت فضلوا على البرتغاليين مما أدى إلى منافسة مريرة بينهم وبين الفرنسيين .

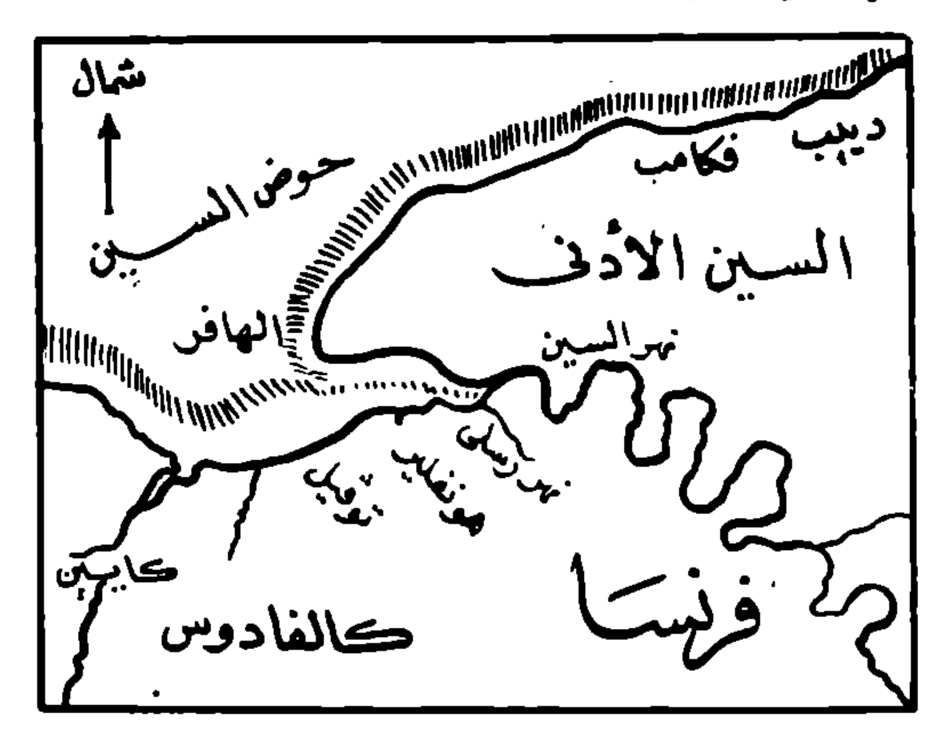
www.ibtesama.com Exclusive

لاحظ تجار روين مايجنيه تجار دييب من الربح الوفير باستيراد فلفل غانا « المعروف باسم « ملاجتًا » ، وعاجها وجلودها ، فاستقر رأيهم على أن يحذوا حذوهم فأرسلوا عام ١٣٨٠ سفينة أسمها « نوتردام دى بون فوَيّاج » إلى ساحل أفريقيا الغربى فكان ماعادت به من السلع بداية لازدهار التجارة فى روين .

* * *

كان البرتغاليون شديدى الغيرة على شئون تجاراتهم واحتكارهم لها وعلى حركة الملاحة فى المحيط الأطلسى ومن هنا كان سوء معاملتهم لبحارى دييب كلما عثروا عليهم فى تلك المياه مما حدا بتجار دييب وأصحاب السفن فى تلك المناطق أن يعدوها للدفاع إعداداً طيباً .وليس بين الدفاع والاعتداء سوى خطوة ضيقة فكانت الحرب منذ ذلك الوقت سجالا بين الملاحين الفرنسيين والبرتغاليين فوق عباب البحار مهما يكن من قيــام السّلم بين فرنسا والبرتغال .

وقد سجل خرستفر كولومبس فى يومياته أنه أبحر عن طريق جديدة إلى ماديرا حتى يتجنب اعتداء السفن الفرنسية عليه .



www.ibtesama.com Exclusive

ولم تكن السفن الفرنسية وحدها هي المعرضة للعدوان ، فقد كانت كل سفينة انجليزية أو اسبانية معرضة أيضاً لاعتداء البرتغاليين باعتبارها سفينة معادية مالم تحمل رخصة بالملاحة من ملك البرتغال، وكان ربابنة تلك السفن وبحارتها يعاملون معاملة المهربين والقراصنة ، والدليل على أن كل محاولة للإتجار خلسة مع أفريقيا الغربية كان يعاقب عليها بشدة وقسوة ماجاء في وصف من يدعى يوستاس دى لافوس وهو من مواطنى مدينة بروج ، سافر عام ١٤٩٩ على ظهر إحدى السفن الإسبانية لما أطلق عليها اسم غلال ساحل الذهب فكان وصفه لما حدث أسلوبه البسيط السهل منها للعقبات التي تقوم في طريق التجار الأجانب أثناء تلك الحروب التي قامت في البر والبحر حول الفلفل .

وهذا الوصف الذي تركه لنا يوستاس يدلنا على نوع آخر من الصفقات التجارية وكيف كان الزنوج يبيعون عن طيبة خاطر نساءهم وأولادهم للتجار وكيف كان هؤلاء يستبدلونهم في بلاد أخرى من البلاد القائمة على الشاطىء الأفريقي بالذهب والعاج والفلفل . كما كان يحمل الرقيق إلى جنوب أوروبا حيث يباعون بأثمان باهظة . ووصف يوستاس أيضاً كثيراً من المشاهد التي تأثر بها فكتب مثلا عن تلال « الفردوس » بأنها جميلة المنظر تبهر العيون بطريقة وهي التي تشبه إلى حد كبير حشيشة الدينار في وطننا ، وأوراقها في حجم الجماص .

أما عن سوق الرقيق وأثمانهم فنعلم عما كتبه أن الأم وطفلها يشتريان بالحق الذي يضع فيه الحلاق الماء ، وثلاث أو أربع خواتم من النحاس . ويبيعهما التاجر بدوره في سوق الذهب باثنتي عشرة كرة إلى أربعة عشر كل منها تزن ثلاث بنسات من الفضة ، وهو ربح وفير لا شك في ذلك .

كانت رحلة يوستاس البلجيكي سائرة على خير ما يرام حينما اعترضت السفينة الأسبانية أربع سفن برتغالية أطلقت عليها النيران ولم يكن أمام يوستاس إلا أن يسلم نفسه ، وعندما أدرك قواد السفن البرتغالية أن أسراهم

www.ibtesama.com Exclusive

من الرجال المرموقين ذوى المكانة والأهمية قسموهم فيما بينهم واحتجزوهم بينما صرحوا لبحارة السفينة الأسبانية ومن كان عليها من رقيق الحال بالعودة إلى إسبانيا على ظهر إحدى السفن الإسبانية . عومل البلجيكى معاملة حسنة ولكنه أنف فى مرارة من إرساله إلى الشاطىء ليبيع بضاعته لصالح آسريه، وكان عليه أن يقدم لهم حسابا يوميا بمبيعاته للأهالى . لم يكن الأسر مبعث مضايقة لا يطيقها الأسرى وهم فى البحر ولكن الحال تغيرت تغيرا كليا بمجرد وصولهم البرتغال . فهنا وضع يوستاس فى الحديد وقدم إلى المحاكمة بتهمة دخول أفريقيا الغربية بدون إذن من الملك فقضى عليه بالإعدام شنقا ،غير أن السجان مكنه من الهروب عشية تنفيذ الحكم بفضل ما أغراه به السجين من الوعد بإعطائه مبلغا كبيرا من المال . ويقص فلمنج ماصادفه من التجارب المثيرة أثناء هربه حيث كان الملك قد أمر بنشر نبأ هروبه فى جميع الأنحاء . لذلك كانت حياته فى خطر مستديم . وما أن وضع قدميه سالما على أرض إشبيلية حتى عمد فى الحال إلى إرسال مائة دوقية أى حوالى مائة جنيه أو تزيد إلى سجانه الذى كان سببا فى إنقاذ حياته .

* * *

صارت دييب فيما بعد للبحارة النورمانديين مثل ما كانت سجرس وماجوركا للبرتغاليين ،ففيها كان دى سليه القس والرياضى والعالم بجغرافية البحار يعلم مجموعة منتخبة من مرشدى السفن والربابنة علم الملاحة وفن رسم الخرائط وصنع الكريات الأرضية . وكان له الفضل فى تكوين أول مجموعة من أبناء وطنه إعتزموا ركوب البحر لإستكشاف بلاد بعيدة .

وكان من تلامذته — على ما تناقلته الروايات — الربان كوزان الذى اكتشف فى عام ١٤٨٧ مصب نهر كبير تبين فيما بعد أنه نهر الامزون وقد سافر كوزان بحرا إلى الكفو وواصل الإبحار جنوباً حتى وصل إلى مكان طلق عليه اسم (الأبر) شرح كوزان لدى سليه وأصحاب السفن عقب عودته بأن

www.ibtesama.com Exclusive

فى رأيه ، بعد الدرس والتفكير أن كل مايجب عمله للوصول إلى الهند هو مواصلة السفر إلى ماوراء تلك « الأبر » .

أقتنع أصحابه بنظريته إلى حد أن أسندت إليه بعد مضى عام من عودته قيادة ثلاث سفن ليبرهن على صحة نظريته . ولقد عاد إلى دييب بعد مضى سنتين من بدأ رحلته وصل خلالها إلى الهند وقد عزى نجاح الرحلة إلى ما درسه على معلمه دى سليه .

احتفظ فى دييب بسرية استكشافه ولم يكن هذا بالأمر العسير ، نظرا لأن الحكومة الفرنسية لم تكن تطالب برفع تقارير لها عن النشاط البحرى. حتى هذا الاكتشاف الهام ، اكتشاف الطريق البحرية إلى الهند لم يكشف تجار دييب عن سره ، فهم لم ينشدوا مجداً ولا شهرة ولا كان أمر ذلك يعنيهم طالما أن ربابنتهم ماضون فى الكشف عن بلاد جديدة ، لذلك كان شرف اكتشاف الطريق إلى الهند يعزى دائما إلى برثولوميو دياز .

* * *

وكان فى طليعة ملاك السفن فى دييب رجل اسمه جان أنجو حمل إليه ربابنته ثروات عظيمة من كثير من البلاد النائية كما حملوا إليه الرقيق من مختلف الأماكن حتى أنه كان من المناظر العادية أن يرى الزنوج فى شوارع دييب . كان جان أنجو هذا من مواليد روين ولكنه استقر بدييب وسرعان ما أصبح من كبار تجارها، يبنى السفن ويمتلكها وبعد فترة من الوقت أصبح أغنى رجل فى دييب، وخلف لابنه ميراثاً ضخما ورغبة منه فى إعداد ابنه للاضطلاع بالمسئوليات الجسام فى مستقبل أيامه ثقفه كأحسن ما يكون التثقيف فى ذلك الوقت . فدرس الغلام العلوم التقليدية كما تعلم علم الملاحة تحت إرشاد دسليه وحينما تخرج استخدم كثيراً من زملائه فى عهد التلمذة كمرشدين للسفن وربابنة لها وقد أصبحت هذه المجموعة المؤلفة من الشبان بعد وقت قصير مفخرة مدينة دييب .

www.ibtesama.com Exclusive

لم تكن دييب الميناء الوحيدة لإرسال السفن فى بعثات إستكشافية ففى هونفلير استقر عزم بعض المواطنين على إرسال سفينة إلى الهند لاستجلاب التوابل . وكانت الروح الحافزة لهذه الحركة رجلا يدعى بينو پولمبير دى جونيفيل الذى كان قد شاهد وهو فى لشبونة كميات التوابل الضخمة التى أتت بها سفن فاسكو دا جاما من الهند ، فاستقر عزمه منذ ذلك الحين هو وصديقان له أحدهما انجليزى على إرسال سفينة لحسابهم الخاص . واتفقوا على استخدام مرشدين برتغاليين ليقودا السفينة إلى جوا بالهند على شريطة أن يكون قد سبق لهما السفر إليها، ولكن قلة المال حالت دون تنفيذ مشروعهم . بيد أن السيد جونفيل وفق فيما بعد إلى جمع المال اللازم لهذه الرحلة من طائفة من رجال هونفلير واشترك هو بنفسه فى هذه الرحلة لمجرد المغامرة. كان من المنتظر أن تستغرق «اسبوار» أى الأمل وحمولتها ٦٢ طناً سنتين فى هذه الرحلة ، فحملت إلى ظهر السفينة المؤن اللازمة لهذه الفترة من الزمن ، قوامها البسكوت والقمح والدقيق والبازلاء والفاصوليا المجففة واللحوم المملحة والمجففة ولحوم الخنزير والأسماك وملئت خزانة الجراح المرافق للسفينة بالعقاقير والآلات اللازمة ، كما حملت معها السفينة مقداراً كافيا من الذخيرة الحربية والأسلحة للدفاع عند اللزوم وكميات من مختلف السلع للتبادل التجارى .

كان الرحيل إلى البلاد الواقعة خارج محيط المسيحية من المخاطرات العظيمة . ولما لم يكن من بين الرجال الستين الذين تتكون منهم البعثة أحد من القسس فقد اعترف الأعضاء جميعاً أمام القسس فى الكنيسة قبل الإبحار ، وكان ذلك فى اليوم الموافق لمولد القديس يوحنا من عام ١٥٠٣ .

كانت الرحلة شاقة للغاية ، محفوفة بالمتاعب فأصيب الملاحون بجميع الأمراض التى يختص بها المناخ فى أفريقيا الغربية ، وكان من شدة وطأة هذه الأمراض أن مات خمسة من البحارة متأثرين بها بعد اجتياز خط الاستواء من بينهم السيد كوستى دى هارفلير الذى كان قد انضم إلى الحملة بدافع حب المغامرة والفضول ، على أن المستقبل كان يخبىء للبحارة مصائب أخرى ، فما كاد

www.ibtesama.com Exclusive

المرشد البرتغالى يؤكد لرجال البعثة بأنهم قد أصبحوا غير بعيد من رأس الرجاء الصالح حتى هبت عليهم ريح مضادة أمالت السفينة عن طريقها.وكان أدهى من ذلك وأمر أن قضى كبير المرشدين نحبه . ولنقتبس هنا من يوميات سجل السفينة العبارة الآتية « ليس هناك ما يمكن عمله سوى أن نفوّض أمرنا للبحر يفعل بنا ما يشاء » .

وبعد مضى أيام عديدة قضاها البحارة فى قلق ويأس لاح لهم البر فى النهاية ودخلت السفينة « إسبوار » أى الأمل فى نهر يذكّر الفرنسيين بنهر أورم بالقرب من دييب .

كان الأهالى — الذين وصفهم البحارة بأنهم كالهنود — مسالمين للغاية « غرضهم الوحيد أن يعيشوا فى أمان وسلام وحبور » وقد نصب صليب كبير بموافقة ملك تلك الناحية حفر فيه أسماء البابا وملك فرنسا وأمير بحاره وأسماء أعضاء البعثة جميعا حتى أقلهم مرتبة .

قضى رجال البعثة فى ذلك المكان الذى وصفوه بالمكان العظيم ، بضعة شهور على أتم وفاق مع ملك أركوزا وشعبه . وفشل الربان والتجار فيما اعتزموه من مواصلة السير بعد ذلك لرفض البحارة أن يسيروا فى بحار مجهولة دون مرشد بحرى. وكان أن أبدى السيد جونيفيل رغبته فى إصطحاب بعض الأهالى إلى فرنسا فلم يسع ملك أركوزا إلا أن صرح لابنه « إسيرك » بمرافقته لأن هذا الأمير الصغير عبر عن رغبته فى تعلم صناعة المدافع والسكاكين والمرايا .

أبحر الأمير الصغير إلى فرنسا بعد أن وكل أبوه أمر العناية به إلى كهل من الأهالى يدعى « ناموما » وبعد أن وعد الربان الملك بان ابنه سوف يعود إليه بعد عشرين شهرا على الأكثر .

كانت الرحلة حاشدة بالأحداث التى تلقى شعاعا من النور على عقلية أولئك الملاحين ، فنشأت مثلا مشكلة الطريقة التى يجب أن يعالج بها الهنديان

www.ibtesama.com Exclusive

بعد أن أصيبا بمرض أشرف بهما على الموت ثم نشأت مشكلة أخرى أقلقت بال الملاحين وهى هل تعمل لهما الطقوس الدينية المسيحية على الرغم من وثنيتهما أم لا تعمل ، وأخيراً وبعد مناقشة الموضوع واشتراك جميع رجال البعثة فى المناقشة استقر الرأى على تعميد الأمير الصغير وحده دون مرافقيه ، إذ كان يتعين على البالغين الاعتقاد فى المسيح قبل تعميدهم . لم ينتهى الأمر عند هذا القرار ، فقد نشأت بعد ذلك مسالة اختيار من يتولى رعاية الأمير ويكون إشبينا له ، ولكن سرعان ما ذللت هذه العقبة بانتخاب السيد جو نفيل ، وكان أكثر رجال البعثة علما وثقافة ليكون الإشبين الأبوى للأمير الذى سمى باسمه ، بينما قبل أدريان دلمار أن يكون إشبينه من ناحية الام ، وكان فرح الجميع بنجاة اسمرك من براثن الموت عظيما وما لبث أن استرد صحته بينما قضى نعوم نحبه .

سار كل شىء على خير ما يرام حتى الخليج الانجليزى «بحر المانش» بالقرب من جزيرة جرزى حيث هاجمت السفينة «أمل» سفينةُ قراصنة من الإنجليز واشتبكت فى القتال سفينة قراصنة فرنسيين وسفن انجليزية أخرى من سفن القراصنة فأغرق الإنجليز السفينة «اسبوار» بعد أن نهبوا ما فيها ومات أربعة من رجالها على شاطىء الجزيرة . وفى النهاية لم يعد من الرجال الستين الذين أبحروا فى بداية الرحلة سوى ثمانية وعشرين رجلا وكان مما أنف منه ربان السفينة الفرنسية أكثر من أى شىء آخر أن الانجليز سرقوا سجله وخرائطه ، والرسومات التى رسمها لتلك البلاد النائية ولأهاليها ، والواقع أن القراصنة أخذوا كل ما كان فى السفينة من المنقولات حتى الطيور النادرة ولم يتركوا وراءهم إلا الأمير اسمرك . ُقدم احتجاج فى لندن على هذا العمل ولكن بدون نتيجة .

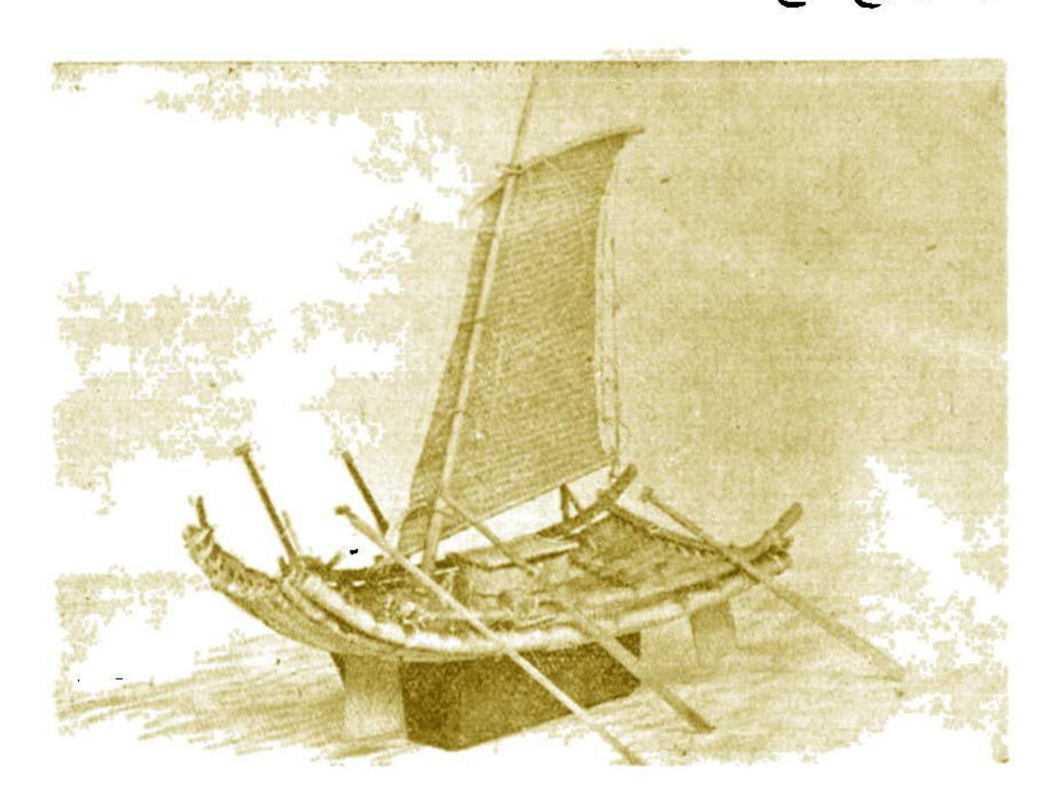
لم يكن لدى ربان السفينه بعد ماحل بها من دليل ملموس على وصوله إلى « جزائر الهند الجنوبية» ، وهو الأسم الذى أطلقه على المكان الذى وصل إليه ، إلا ابن الملك أركوزا .

ولم تتح للسيد جو نفيل فرصة لإعادة أسمرك لأبيه حسب وعده فعمل ماشعر بأنه من أقدس الواجبات عليه فتبنى الأمير الصغير ومنحه أسمه ورمز شعاره

www.ibtesama.com Exclusive

الاجتماعي وزوجه من وريثة احدى الأسر الغنية. ولم يستطع الربان الفرنسي تعيين موطن الأمير اسمرك على وجه التحديد وكل ما استطاع توكيده أنه من جزيرة تقع وسط البحار جنوبي خط الأستواء.

حينما مات جون أنجو خلف لابنه جان أنجو الأصغر ثروة ضخمة وقواعد متينة لتنميتها تفوق الحصر والعد. وقد أحسن جان انجو الصغير استغلال تركة أبيه بحكمة واتزان، ولا غرو فقد أعدّ أحسن إعداد لمواصلة أعمال أبيه وتوسيع نطاقها، لجمع الشاب العاقل حوله عدداً من أصدقائه وزملائه من عهد الدراسة ليعاونوه في إدارة أعماله الواسعة. وسرعان ما أصبح ملكا للسفن في أيامه حتى أن ملك فرنسا شرّفه بالنزول في داره ضيفاً عليه وقد ازداد نفوذا وثروة بفضل مامنح من ألقاب الشرف والإمتيازات والمناصب في خدمة الملك حتى أن هذا الأخير رفعه إلى رتبة فيكونت دييب مكافأة له على إخلاصه وولائه وما أداه ويؤديه للوطن من عمل نافع صالح.



قارب مصنوع من القاب في فرموزا

www.ibtesama.com Exclusive

كان ما عمله ملك السفن هذا لربابنته شبيها بما عمله الأمير هنرى البرتغالى لفرسانه ولقد اعتزم أن يحتل هذا التاجر النورماندى مكانة مماثلة المكانة التى احتلها رجال أسرة مدشيس ، أمراء التجارة فى فلورنسا ، والواقع أن القصر الذى ابتناه جان أنجو لنفسه فى مدينة دييب والدار العظيمة التى شيدها فى فرنجفيل أصبحا متحفين من المتاحف النادرة جمعت فيها أروع اللوحات والقطع الفنية النادرة

فنى كل مرة يعود ربابنته من رحلاتهم كانوا يحملون إليه قطعا جديدة تضم إلى مجموعته القائمة كما كانوا يحملون إليه السلع الغالية كالفراء والسمك من نيوفوندلاند والأخشاب الثمينة من البرازيل ولم يكن ربابنته يجلبون إليه الذهب والتوابل من جزائر الهند فهذه المواد كانوا ينتزعونها من السفن البرتغالية والإسبانية التى يأسرونها وسط البحار .

وحدث فى مناسبة من تلك المناسبات أن استولى ربابنته على ثلاث سفن قادمة من جزائر الهند الشرقية وأخذوا مابها من شحنات تحتوى على ستمائة ألف كرة من الذهب وألفين وخمسمائة لؤلؤة وعشرة آلاف من جلود البقر . كل هذا سلم إلى جان أنجو .

* * *

وكان أوسع ربابنة دييب شهرة وأكثرهم إثارة للرعب فى القلوب رجلا يسمى جان فلورى فوت أنزل على ملكى البرتغال وأسبانيا جانباً عظيما جداً مما كان يدخل خزائنهما من الأموال، فمثلا أرسل فرناندو كورتيز فى إحدى المناسبات سفنا تحمل من الجواهر والذهب ماقيمته ثلاثة وثلاثون ألف قرش تسلمها جميعا ملك الملاحة فى دييب بدلا من ملك اسبانيا . وفى مناسبة أخرى كان من مصائب ملك البرتغال أن يعلم بدوره بأن شحناته الغالية من التوابل قد أفرغت فى دييب بدلا من لشبونة .

وكان الاسبانيون والبرتغاليون ينتقمون من بحارة سفن جان انجو بطرق وضيعة دنيئة فيعاملونهم بقسوة ووحشية كلما سنحت لهم الفرصة سواء كان ذلك فى البحر أم فى البر .

www.ibtesama.com Exclusive

وكان أن أصدر ملك البرتغال أمراً فى ذلك الوقت بإغراق كل سفينة فرنسية . يقصد من ذلك سفن ديبب .

وكان أهل الملاحين النورمانديين يصرخون بأعلى أصواتهم أمام مقتل ذويهم بمثل هذه الوحشية مطالبين بالانتقام ومقابلة الشرّ بالشر ولكن السلام بين فرنسا والبرتغال كان لا يزال قائماً فلم يجد فرانسو الأول ملك فرنسا وجها للتدخل بصورة فعلية، بيد أن الموقف كان يزداد تأزماً وتحرجاً من يوم لآخر وخاصة بعد ماوصلت الأنباء إلى نورماندى بأن الفرنسيين المقيمين بنمبوكو قد سلمهم الأسبانيون إلى الأهالى ليأكلوهم . حدث هذا فى عام ١٥٢٢ وكانت النتيجة أن عقد مؤتمر فى بايون لبحث الموقف ، ولكن بدون نتيجة إذ أصر ممثلوا فرنسا على حرية الملاحة فى البحار بينما عارض البرتغاليون والإسبانيون الفكرة من أساسها .

وبما أنه لم تكن لملك فرنسا رغبة فى إعلان الحرب على البرتغال فقد طلب جان أنجو حق مقابلة العدوان بالمثل ، فوافق الملك على طلبه ومنحه رخصة بذلك وأعلم حكام أقاليم فرنسا البحرية بأمر ذلك الترخيص . ولما كان أمير البحار فى فرنسا صديقا لجان أنجو كما أنه كان يستفيد ماديا من تجارة هذا الأخير بين الفينة والفينة كان من الطبيعى أن يمد يد المساعدة إلى الفيكونت دى ديبب كلما هاجمت سفنه سفن البرتغال والأسبان .

* * *

أعجب فرانسوا الأول اعجابا شديدا بصراحة صدقه أنجو وتمجيده للمبدأ القائل بأن الله عندما خلق البحار لم يهدف إلى أن تكون ملكا لأمة واحدة لا يشاركها أحد فيها . غير أن الملك بوصفه من أبناء الكنيسة البررة لم يستشعر فى نفسه القدرة على تجاهل قرارات البابا بصدد هذا الموضوع .

ومهما يكن من أمر فإن مبدأ حرية البحار أصبح قبل مضى سنوات قليلة مبدأ معترفاً به بفضل اعتناق ملكة انجلترا البروتستانتية له ولم تكن ممن يقمن وزنا للقرارات البابا وية .

* * *

www.ibtesama.com Exclusive

بدأ النزاع يدب بين البرتغال وأسبانيا حول جزائرملوك التي أصبحت مثار خلاف بينهما كتفاحة آدم وأصبحت التوابل مسأله سياسية في المرتبة الأولى من الأهمية .

كانت اتفاقية توردسيلاس تعتبر يوم توقيعها انتصارا للملك البرتغال ولكنها أصبحت اليوم في نظره أقل من أن ترضى مطامعه ، فراح يدعى بأن الحدود التي استقر عليها الرأى في ذلك العهد كانت تنقصها المعلومات الجغرافية الصحيحة ومن هنا كانت غبنا له وهضما لحقوقه وبناء على هذا فهو يرغب في تعديلها والرجوع إلى الحدود التي اقترحها في الأصل الأعضاء الأسبانيون وقت انعقاد المؤتمر .

ولكن الإمبراطور رفض قبول اقتراحات الملك فما كان من هذا الأخير إلا أن أعلن بأن كل اسبانى يعثر عليه في جزائر ملوك سوف يهدر دمه . عندئذ اقترح شارل الخامس — حلا للمشكله عن طريق التصالح — التنازل للبرتغال عن حقوقه في البرازيل نظير تنازل البرتغال لأسبانيا عن سومطرا وجزائر التوابل ، ولكن الملك جون الثالث رفض هذا العرض وثار هو والشعب البرتغالى لمجرد فكرة التخلى عن تجارة التوابل ، وأجمعت الأمة على المطالبة بوجوب عقد اجتماع ثان لوضع الأمور في نصابها على ضوء الحقائق الواقعة . كان الموقف بين البلدين يحمل على الإعتقاد بأنه لا مناص من الاشتباك بين سفن الدولتين كلما تقابلت في البحار الشرقية فتزهق الأرواح وتسفك الدماء .

كان شارل الخامس متأكدا من شرعية حقوقه، لذلك لم يعارض في عقد الاجتماع المقترح ثقة منه بتأييد قرارته لحقوقه إذ كان الفريقان قد اتفقا على التسليم لقرارات المؤتمر ولم يكن انتخاب أعضاء المؤتمر في هذه المرة قاصرا على مشاهير رجال الملاحة ولكنه امتد إلى كبار رجال الحكومة والمستشارين الملكيين وكبير القضاة ومدير مصلحة الموازين وغيرهم من الرجال ذوى الخبرة والحنكة من المدنيين ورجال الدين .

www.ibtesama.com Exclusive

ولابد أن شعور الفريقين كان ملتهبا أشد الإلتهاب ، يستدل على ذلك من القواعد التى وضعت لتسير بمقتضاها أعمال المؤتمر. فقد حرم على المندوبين أن يتقابل أحدهم بالآخر إلا داخل حظيرة المؤتمر عند انعقاده ، وخصصت مدينة باجادوز لإقامة أعضاء الفريق الأول بينما أقام أعضاء الفريق الثانى فى مدينة إلـبز . ولقد استغرقت جلسات المؤتمر شهرين بسبب كثرة النقط التى كان يثيرها الفريق البرتغالى أثناء الجلسات .

ولكن قرارات المؤتمر النهائية جاءت مؤيدة لحقوق إسبانيا .

أنهى المندوبون الأسبانيون المؤتمر وأخبروا الإمبرطور بأن المؤتمر قد أيد القرارات السابقة ، وفى الحال أمر شارل الخامس بأن يُوضح فوراً على جميع الخرائط خط الحدود الفاصل بين دائرة نفوذ أسبانيا ودائرة نفوذ البرتغال .

عندما رأى ملك البرتغال نفسه عاجزا عن مقاومة حقوق أسبانيا فى جزائر ملوك توسل إلى الإمبراطور أن يمتنع عن إرسال سفنه إلى تلك الجزائر مقترحا بعض العروض للتصالح على هذا الوضع .

ولكن الملك شارل الخامس كان قد استقر عزمه يومئذ على أن يستغل إلى أقصى حدود الاستغلال من امبراطوريته الفسيحة الأرجاء والتى لا تغرب عنها الشمس لذلك جهز عدة أساطيل وأرسلها تضرب فى البحار ، وكان من بين قواد تلك الأساطيل الملاح الإيطالى سبستيان كابوت الذى أبحر عام ١٥٢٥ إلى « أوفير » ، وجزائر ملوك ، وسيبانجو وكاثاى فلم يصل إلى واحدة منها بسبب العواصف الشديدة التى ألقت به على شاطىء أمريكا حيث اكتشف نهر بليث وبدلا من أن يعود بالتوابل التى أمر بجمعها ، عاد بالذهب

* * *

إعتزم ربان أسبانى فى ذلك الوقت الذى نحن بصدده أن يجعل عملية نقل

www.ibtesama.com Exclusive

التوابل أقل تعرضا للأخطار وفى زمن أقصر مدة أكتسابا للوقت ، وذلك بحمل القرنفل وجوزة الطيب والبهار من جزائر ملوك إلى مدينة « باناما » ومن ثم تنقل عبر الخليج إلى الشاطىء الآخر حيث تشحن فى السفن إلى إسبانيا ، ولكن هذه المحاولة الفذة لم تنفذ لموت القائد صاحب الفكرة .

وفى نفس العام الذى أرسل فيه سبستيان كابوت إلى سومطرا كان بعض ربابنة جان انجو من أصحاب بارمنتيه قد أبحروا للقيام بنفس الرحلة فزاروا أثناء سياحتهم الملتفة الكثيرة التعاريج شاطىء فلوريدا . وجزائر الهند الغربية والبرازيل ومدغشقر .

وبعد هذه الجزيرة الأخيرة بألف فرسخ وصلوا فى النهاية إلى ثغر (تيكر) فى مملكة يدير بسومطرا تلك الجزيرة العظيمة التى كان يعتقد بأنها أوفير المتصلة بأنباء الملك سليمان والتى أنشد فيها الشاعر كوينز .

سومطرا — هنا من أشجارك سال الصمغ ريّان الشذا
وبيد الطبيعة سال زيت الكافور الغالى
من عيون أشجارك الباكيه حارا
ينبض بالحياة ويشفى من الأمراض والأسقام .

« المقطع العاشر »

وجد ملاحوا ديبب الأهالى هنا على جانب من الرقة وحب السلام ولكن وجدوهم أيضا على جانب من الدهاء فى المعاملات التجارية . وهنا يخبرنا جان بارمنتيه كيف أنه توثقت عرى المودة بينه وبين اثنين من كبار موظفى ثغر تيكر أحدهما قائد الحرس الملكى والآخر المدير المسئول عن الحركة التجارية ، وهذا التقرير وإن يكن هدفه فى الأصل سرد تفاصيل الرحلة البحرية إلا أنه يكشف لنا مصادفة عن ضخامة ميدان الاستكشاف والتنقيب الذى فتحه الملاحون الفرنسيون كما يكشف عن المصادر الأجنبية لمستوردات جان أنجو .

www.ibtesama.com Exclusive

وعبر الكاتب كذلك عن رأيه فى البرتغاليين فى شدة وعنف فكتب عن صلفهم وغيرتهم وسوء معاملتهم للأهالى فى البلاد التى يفتحونها فيقول :

لو أن البرتغاليين الذين يدعون السيادة على هذه البلاد جعلوا تمجيد الدين والدعوة له نصب أعينهم بدلا من الطمع فى الربح والتكالب على النعم لاعتنق المسيحية نصف هؤلاء الناس على الأقل ، لأن غالبيتهم يتطلعون فى قلق إلى تعرف ديننا ومشاركتنا عقيدتنا عن طيبة خاطر ، ولكن البرتغاليين يفضلون ترك الأهالى فى جهل من معرفة الدين المسيحى حتى المعرفة لما فى ذلك لهم من نفع وربح . ونرى من العبارة الآتية مبلغ نفور الفرنسيين من جشع البرتغاليين وطمعهم ، إن هذه الأمة التى تعتبر أصغر دولة على وجه الأرض ترى أن العالم بأسره غير كاف لإشباع نهمهم ، ولا يمكن تفسير هذا الجشع الذى لا يحد إلا بأنهم لابد وأن يكونوا قد ابتلعوا قطعة من قلب حطام الإسكندر الأكبر » . .

واختتم التقرير بهذه الكلمات : « وبعد أن وسقنا مراكبنا بالفلفل وغيره من التوابل أبحرنا مستهدفين العودة لديب حيث وصلناها بسلام بعد رحلة شاقة مضنية إضطلعنا بها ابتغاء مرضاة الله وملك فرنسا . ولم يهتم هؤلاء الملاحون الفرنسيون بالنزاع القائم بين البرتغال وأسبانيا حول مسألة جزائر ملوك فلم يتحيزوا لفريق أو آخر ، على أن ظروفا معينة ، لم تلبث أن أعادت بين الملكين شيئا من صفاء الجو تضاءل أمامه الاهتمام بمسألة جزائر ملوك . فقد تزوج جون الثالث من أخت الإمبراطور شارل الخامس وكان يحدث أحيانا أن يحتج الأول لدى صهره على منافسته له فى جزائر ملوك ولكن فى غير إصرار أو غضب إذ كانت ثورة نفسه قد لانت شكيمتها بعد المصاهرة .

على أن المشاعر كانت لا تزال ملتهبة فى البحار الشرقية وكثرت المعارك الدموية بين الأسبانيين الوافدين على جزائر ملوك وبين المحتلين لها من البرتغاليين ، وظلت الحال على هذا المنوال إلى أن بلغت الأنباء مسامع شارل الخامس فاستبد به الغضب حينما علم أن رعاياه قد أسروا وجردوا مما كان معهم

www.ibtesama.com Exclusive

من التوابل وترتب على هذه الحوادث فى الشرق الأقصى أن احتل الخلاف من جديد مكانته الأولى من الأهمية بين شئون الدولتين، ولكن سرعان ما اهتدى الملكان إلى حل للمشكلة بالنسبة لشخصهما فقط.

كان شارل الخامس يستعد فى ذلك الوقت لحفلة تتويجه وهى مسألة تتطلب نفقات كثيرة وكان التاريخ المحدد لها عام ١٥٢٥ ولم يكن لديه المال الكافى لذلك ومن الناحية الأخرى كانت تجارة التوابل مسألة ذات أهمية حيوية لملك البرتغال، لذلك عندما أفضى إليه صهره بأنه على استعداد لأن يرهن عنده جزائر ملوك وتوابلها مقابل مبلغ ٣٥٠,٠٠٠ دوقية قبل جون الثالث ماعرضه عليه الإمبراطور وتمت عملية القرض ولم يحدد موعد معين للسداد.

وهذه العملية وإن يكن قد ارتاح لها الملكان إلا أن ربابنة السفن الأسبانية والتجار استنكروها أشد إستنكار واعتبروا تصرف الإمبراطور تصرف من به عتّهٌ أولوثة واستندوا فى حكمهم هذا إلى أنه كان من اليسير على الإمبراطور أن يمنحهم إمتياز تجارة هذه الجزائر مدة عامين مقابل ستة أضعاف المبلغ الذى أقترضه. وحدث أثناء انعقاد مؤتمر دعى إليه القواد وأصحاب السفن وبحارتها أن صرح أحدهم بأنه خير للإمبراطور أن يرهن استرامدورا ومربرنا أو غيرها من العواصم الكبرى والمقاطعات من أن يرهن ملقا وسومطرا وجزائر ملوك.

وعرض فعلا بعض التجار على الجمعية الوطنية سداد ما أقرضه ملك البرتغال إلى الإمبراطور مقابل أن يسمح لهم باستغلال مصادر التوابل مدة ثلاثة أعوام يعود بعدها الإمتياز إلى العرش. لحولت الجمعية الوطنية عرض التجار إلى المجلس الإمبراطورى الذى تولى إبلاغه إلى الإمبراطور. أما ما حدث بعد ذلك فلخص فى عبارة أحد المعاصرين كالآتى: أرسل الإمبراطور من فلاندرز حيث كان يقيم فى ذلك الحين رسالة إلى المجلس بعدم الاستجابة إلى رجاء الجمعية العمومية وبأنه لايود ان يسمع بعد ذلك

www.ibtesama.com Exclusive

شيئا فى هذا الموضوع . عجب الناس من هذا الرد فاستنكره بعض الناس وتألم منه بعض الناس ولكن الناس جميعا أمسكوا عن الخوض فى الموضوع. حدث هذا فى عام ١٥٢٩ .

وفى نفس العام أرسل نائب الملك فى المكسيك ثلاث سفن للبحث عن طريق إلى جزائر ملوك فوصلت إحداها إلى ملوك سالمة ومن ثم عادت إلى بناما موسقة بشحنة طيبة من القرنفل وجوزة الطيب . وقد ترتب على هذه الرحلة تمهيد الطريق أمام الأسبانيين لفتح الفلبين



كروم الفلفل وأشجار الفاكهة

وبمرور الأيام طالب التجار الإمبراطور شارل الخامس بالتحرر من وعده باسترداده والترخيص للإسبانيين فى وضع يدهم على تجارة التوابل ولكن ملكهم كان فى شغل عما يطلبون وأخيرا أراد أن يضع حدا لهذا الموضوع فباع حقوقه فى جزائر ملوك لصهره مقابل ١٥٠٠٠٠ فلورين وهو ما ذكره بيتر مارتل .

www.ibtesama.com Exclusive

الفصل الثانى عشر

أنا فى اجتياز المحيط الغربي ماض
إن اسعفتنى الرياح لن يسوق اجتهادى
خطرالبحر ، لا ولا سيوف الأعادى
إنما أنا لانتزاع سر ذاك الشرق ماضى

« جان بارمنتيه »   ترجمه إلى الانجليزية . هاردى والس(*)

كان غالبية ربابنة سفن جان أنجو من القراصين إلَّا أن بعضهم وبخاصة جان بارمنتيه كانوا من نوع آخر ، وكان من حق دييب أن تفخر بجان بارمنتيه ، هذا الملاح المتفوق النابه الذى ذاعت شهرته كشاعر من أكبر شعراء عهده حتى أنه توج زعيما لشعراء نورماندى فى عدة مناسبات . وصادفت قصيدتاه « التراتيل المرحة » « الحكمة تلهو » ذيوعا وانتشارا فى جميع الآفاق قاصيها ودانيها . أما تمثيليته « الموكب الهزلى » التى ألفها تمجيدا لاتفاقية عقدت بين فرنسيس الأول ملك فرنسا وهنرى الثامن ملك إنجلترا فقد اجتذبت جماهير الناس إلى دييب لمشاهدتها حتى البارسيين الذين هرعوا إلى دييب كان العرض باهرا فتانا ولا غرو فقد كانت متاحف جان أنجو ، بكل ما فيها من كنوز وملابس تحت تصرفه .

* * *

كان جان برمنتيه قد درس على دى سيليه ومهر فى رسم الخرائط وصنع الكريات الأرضية وخرائط الملاحة التى برهنت فيما بعد على عظيم نفعها للملاحين . وكان صاحبنا هذا الشاب الشاعر رسام الخرائط البحرية شغوفا بالأدب التقليدى فطبع له فى عام ١٥٢٠ ترجمة تاريخ كتلونيا من تأليف سالوست

(*) N' Hardy Walles

www.ibtesama.com Exclusive

وفى إهدائه الكتاب لجان أنجو طلب المترجم إلى المهدى إليه أن يترفق فى الحكم على أسلوبه إذ أنه صدأ بعض الشىء نتيجة السنوات الست الأخيرة التى قضاها فوق أمواج البحار ، ولكن حب الجغرافيا الكونية — على حد قول بارمنتييه — قد أرغمنى على إطاعة أوامره فوق أمواج المحيط المضطربة التى لم تكن، لا رقيقة ولا مصدرا للرضا والغبطة .

وبالرغم من هذا التبرم الظاهر بالمحيط، فإن جان بارمنتييه كان شديد الولع بركوب البحر ، وهو أسعد ما يكون حينما يواجه الأخطار وحينما يلقى الأوامر على رجاله . وكان غاية مايطمح إليه أن يكسب مجدا للملك ولوطنه فهو أول ربان فرنسى يزور فلوريدا ومدغشقر وسومطرا ، وكان يصحبه فى تلك الأسفار صديق وفىّ يدعى بيير كرينيون يشبهه من وجوه عديدة فهو مثله فى تعدد النشاط والاتجاهات ، تزاملا فى مدرسة دى سيليه وتنافسا فى المباريات الأدبية ثم هما بعد هـــذا كله يتزعمان حركة الغناء الشعبى فى نورماندى .

* * *

لم يكد ينقضى عامان على عودة جان بارمنتييه ، وبيير كرينيون إلى دييب عام ١٥٢٧ بأول مجموعة فرنسية من السفن بعد وسقها بتوابل سومطرا حتى صرح جان بارمنتييه بان الوقت قد حان للسفر إلى الشرق مرة ثانية ، وكان هدفه هذه المرة الإقلاع إلى الصين ليكون أول ربان فرنسى يزور كاثاى على أن يقلع بعد زيارة الصين إلى المحيط المتجمد الشمالى لاكتشاف الطريق الشمالية الغربية .

رحب جان أنجو بما اقترحه عليه صديقه من أمر هذه الرحلة الجديدة لاكتشاف مابوجدوراء الهند، وأسند إليه قيادة المركب «الذكرى» وحمولتها ثلاثمائة طن بينما أسند قيادة السفينة «القدس» وهى تصغر الأولى قليلا . إلى أخيه الأصغر راؤول وألحق بكل سفينة قس وترجمان كان ترجمان بارمنتييه برتغالى الجنسية أما ترجمان راؤول فكان فرنسيا له سابق خدمة تحت إمرة البرتغاليين .

www.ibtesama.com Exclusive

والواقع أن هذه كانت أول مرة يقلع فيها الربابنة الفرنسيون وهم يستهدفون غرضا معينا . يستهدفون الوصول إلى بحار الشرق الأقصى بغير أن يمروا بجزر الهند الغربية .

ومهما يكن من فرح ربابنة هذه البعثة وبحارتها بالمغامرة الجديدة فإن زوجاتهم كانت على النقيض من ذلك ، يملأ الأسى قلوبهن ويكاد الحزن يقتلهن .

كان جان پارمنتييه فى السابعة والثلاثين من عمره وكان أخوه يصغره بسبع سنوات

وكان كلاهما متزوجا غير أن جان لم يكن قد مضى على زواجه غير عام ونصف عام ، زوجته غادة فى مقتبل العمر ، فسبب لها الفراق وما يحتمل من تطاول مدته حزنا عميقا يقرب من اليأس والقنوط .

بذلت كل ما فى جهدها لتحويله عن عزمه . أليس لديهما ما يكفل لهما العيش فى بحبوحة وراحة ؟ أصحيح أنه مفارقها بعد هذه الفترة الوجيزة التى نعما فيها بمباهج الزواج وتارك طفليه ؟ على أنها كانت تعلم فى أعماق قلبها أن سفر زوجها لم يكن سعيا وراء الثروة وكانت تدرك تمام الإدراك أن إغراء البحر وطلب المجد للملك والوطن وشهوة القيادة كل ذلك كان أقوى من روابط الحب الرقيقة .

* * *

صوّر كرينيون مشهد الوداع الأليم المحطم للقلوب بين الحبيبين بهذه الكلمات : كانت السفن على وشك الإبحار ورجال السفن يدعون الربابنة للصعود فقد حان وقت نشر القلاع ورفع الهلب ولكن ها هو جان پارمنتييه يقف بين ذراعى امرأته مسلوب الإرادة كأنه أسير يرسف فى الاصفاد والدموع تجرى على خديه، وها هى غافلة عن كل شىء سوى شعور الحزن الذى يملأ كيانها كأنما هى تتوقع فرقة أبدية ، فراحت تندب جدها العاثر ،وها هو صوتها يدوى وكأنه يعبر عن مشاعر الزوجات جميعا عندما صرخت فجأة قائلة «أى سعادة

www.ibtesama.com Exclusive

تكون لنا نحن النساء لو أن العواصف ثارت ثورتها فى هذه اللحظة لحطمت هاتين السفينتين قطعا صغيرة على أن يقيّض الله النجاة لمن عليها من الرجال .

ولكن العاصفة لم تهب لتحقيق رجائها ورغبتها الملحة الحبيبة إلى قلبها .

كثيرا ماتبادلت الزوجات مع أزواجهن من بحارة دييب كلمات الوداع قبل هذا اليوم ولكنها لم تكن تحمل فى نبراتها مثل ماهى تحمل اليوم من رنة الحزن والأسى . ولكن هاتين السفينتين « الذكرى » و « القدس » أليس هما قد اعتزمتا السفر إلى نهاية العالم حيث لم يسمع أبدا أن أحد عاد منها إلى أهله ووطنه .

كانت اليوميات التى كتبها جان بارمنتييه أثناء الرحلة تعتبر سجلا رسمياً للسفينة وقصة لكل ما حدث، قيدفيها ملاحظاته على الملاحة ولكنها مع هذا كله كانت تنبض بخلجات قلبه وتردد صدى ما يشعر به من المرح حيناً ومن الألم والحزن حينا . وحينما عمد بيير كريـنيون فيما بعد إلى نشر يوميات صديقه أضاف إليها بعض الوقائع إستكمالا لقصة الرحلة التى بدأت والحظ يبتسم لها وانتهت بمأساة محزنة مفجعة .

كان أسلوب جان بارمنتييه فى تسجيل حوادث الرحلة سهلا صريحا لا تعقيد فيه ، وكانت تتخلل اليوميات من حين لآخر انفعالات تجيش بها نفسه ، تسبيحا بحمد الله جل شأنه لما يكون قد أنعم به من فترة هدوء طويلة فى البحر ، فيروى لنا فى إحدى المناسبات كيف كان بعض البحارة يقطعون الوقت بالغناء بينما يخلد البعض الآخر إلى تلاوة الإنجيل وكيف أن الجميع كانوا يأخذون بعد ذلك فى الرقص وقد ألفت بين قلوبهم روح الزمالة الصحيحة الطيبة .

وكان جان بارمنتييه يستغل وقت فراغه فى نقل حياة يوجورتا[1] إلى اللغة الفرنسية . مهديا أياها إلى ملك فرنسا .

---

(١) كتبها المؤرخ اللاتينى سالوست المتوفى عام ٣٤ ق م .

www.ibtesama.com Exclusive

كانت الرحلة هادئة لا يعكر صفوها شيء خلال الأشهر الثلاثة الأولى ولكن هبت على السفينتين بعد ذلك عاصفة هوجاء رهيبة حتى أن ذلك الربان المشغوف بالأدب التقليدى [الكلاسيكى] لم يجد من الخيال ما يقارن به إضطراب السفينتين فوق الأمواج إلا بالرقصة التى رقصها « إيلوس » ابتهاجا بزواجه من « تيتس » وهو حينما أراد أن يرغم كل إنسان على الرقص أرسلت آلهة الرياح كل ما فى وسعها من رياح هوجاء نكباء لتحقيق رغبته .

* * *

لم تصب السفينتان ولا بحارتها بسوء أو ضرر حتى ساحل مدغشقر الشمالى الغربى حيث بدا الأهالى مسالمين متوددين ، ولكن ظهر غدرهم ووضحت خيانتهم فيما بعد فذهب ضحية رماح قبيلة سكلافا[1] الدنيئة عدد من البحارة بعد أن مزقت أجسادهم بالحراب ، فقرر القائدان مغادرة هذه السواحل الغادرة عند هبوب أول رياح مواتية ، وقد تصادف أن هبت الرياح المنتظرة فى اليوم التالى مباشرة .

لم يكد ينجوا الملاحون من وحشية أولئك الرجال حتى وجدوا أنفسهم بين مجموعة من الجزر الصغيرة ، مسالكها ملتوية كثيرة التعاريج مُغطى سطحها بالأعشاب وهى لا تكاد ترتفع إلى سطح الماء .

وقبل أن تجرؤ السفينتان على مواصلة السير أُرسل بعض البحارة فى قوارب صغيرة لتعرف مدى عمق المياه حولها والكشف عن الأعشاب والنباتات المائية المستترة ، وكانت أعصاب الجميع متوترة إلى حد كبير حتى لأنهم أطلقوا اسم جزائر الرعب » على تلك المجموعة من الجزر التى سميت أكبرها بالسجق بسبب شكل تكوينها نزلت بالفرنسيين فى اليوم التالى مصائب

---

(١) قبيلة من الزنوج تسكن شاطىء مدغشقر الغربى اتخذ الشاعر بعض الحرية فى وقائع هذه القصة فهى تخالف ما سجلته الأساطير « المؤلفة » .

www.ibtesama.com Exclusive

جديدة فقدهدأت الرياح التى كانوا قد إعتمدوا عليها فى الابتعاد عن هذه المياه الرهيبة وما صادفوه فيها من أخطار غير أن البحر استمر فى هياجه بصورة مرعبة فارتاع البحارة من هذه الظاهرة العجيبة وسموا هذا البحر (بالمجنون) لأن سكون الرياح بينما البحر يرغى ويزبد أمر لاعهد للبحارة به. ولكن ما حدث بعد ذلك كان أدهى وأمر

فبعد مرور السفينتين برأس الرجاء الصالح أصيب البحارة بحالة إعياء شديد وخمول وشرع داء البلاجرا يعمل فيهم بمخالبه الفتاكة كما أخذت قواهم المعنوية تهبط هبوطا شديدا ، فساورت الهموم جان بارمنتييه لما حلّ برجاله من هذا المصير المحزن . فكر كثيرا فيما يستطيع عمله للترفيه عن رجاله وإنعاشهم فوثب لجأة كمن ألهم على غير إنتظار ، واعتقد أنه قد وجد السبيل إلى إسعاف بحارته وشحذ عزائمهم . ماذا لو ألهاهم عن آلامهم الممضة وخفف من بؤسهم فوق هذه الأمواج التى بدأت تسكن ويرتفع بهم إلى آفاق علوية يسبح فيها فوق أجنحة الخيال .

نظم لذلك قصيدة من خمسة وستين مقطعا كل مقطع يتألف من إثنى عشر سطرا سبح فيها بحمد الله ومجدفيها كرامة الإنسان وعزته، مكرسا الجزء الأول من هذه القصيدة المستنهضة للهمم لوصف عظمة الخالق ورحمته : الذى لا يسع الإنسان حينما يرى أعماله الكاملة إلا أن يسبح بحمده ويمجد قدسيته فهو وحده الملك القدوس الجدير بولاء الإنسان وطاعته .

وإذا كان العبد المؤمن الورع ينطق لسانه بتسبيح الخالق عند قراءة هذه الأشعار ويسجد متعبدا متهجدا ، فإن البحارة لاشك واجدون متعة لما جاء فيها من وصف البحار. فالبحّار هو الذى يمجد همة الإنسان التى حفزته لركوب المحيط تحت قيادة مثل هذا الربان العظيم ، بل أمير البحار القوى الجبار .

ونراه فى الجزء الثالث من القصيدة فلكيا نابها يصف مجد السموات المرصعة بالنجوم التى تتألق نوراوجمالا ، وهو يبدأ آيات تمجيده بشرح العوامل الدافعة له على مفارقة وطنه وزوجه وأولاده ، وما تلك الدوافع إلا نداء البحر بما فيه من جاذبية لا تقاوم ،وأخطار تحبب إليه مغامرة إقتحامها والطموح

www.ibtesama.com Exclusive

إلى مضاعفة مجد مليكه ، ويختتم الشاعر قصيدته بالتعبير عن الحافز الشخصى لنظمها والسبب المزدوج لهذا التمجيد ، أولا مايجده من المتعة والسرور فى أن يكون وسيطا لتحقيق مثل هذه المبادىء النبيلة والسبب الثانى رجاؤه فى أن يوفق إلى تبديد شعور الملل والسأم الذى دب إلى نفوس البحارة .

وقد يتساءل الإنسان عن مبلغ استجابة البحارة الذين أضناهم الوصب والسقم لجهود قائدهم الصادرة عن عاطفة الحب الخالص والقلق على مصيرهم وهم منتثرون فوق ظهر السفينة مابين متمدد وبين جالس على الحبال الملفوفة منهوكى القوى،لاحراك بهم وإن تكن تشع من عيونهم نظرات التقدير وهم ينظرون إلى وجه قائدهم الوضاح وقد شعت فيه ابتسامة مضيئة وهو يقرأ عليهم كلماته الملتهبة فى تمجيد الخالق وأعماله والمبادىء النبيلة التى سنها لعباده

* * *

وأخيرا ملأت الرياح القلوع المنتشرة ودفعت بالفرنسيين شطر جزائر لومورو ولكن الخوف من الأهالى منعهم من إطالة المقام على تلك السواحل الخصبة .

كانت الرحلة عبر المحيط الهندى رحلة حزينة أليمة فقد أسلم الروح رجل بعد رجل من بحارة السفينتين بعضهم بعد أيام طويلة ذاق فيها عذاب الموت وهو يتلوى وبعضهم لم يمهله المرض غير أيام قليلة . ويؤخذ من يوميات بارمنتييه أن عديدا من الجثث شرحت بأمره أملا فى الوقوف على أسباب هذا الوباء القاتل ، فأحيانا كان السبب تورما فى المخ أو تدرنا فى المفاصل، وأحيانا كان تورما فى مواضع مختلفة من البطن أو تسوسا فى العظام . ووجد البحارة المصابون بعض الأسعاف والفرج من الضيق فى جزائر مالديف التى رحب ملكها بمقدمهم .

صنعت الإقامة بين أهالى هذه الجزائر المسالمين الوادعين للبحارة ماعجزت

www.ibtesama.com Exclusive

عنه عبارات العطف والتشجيع ، فهنا وجدوا ماجدد نشاطهم من مأكل ومشرب وخاصة السكر والليمون ، وما كان أشد ارتياحهم لشرب المياه العذبة تصب لهم فى أوانى نحاسية أثناء المأدبة التى دعاهم الملك إليها ، وماكان أطيب تلك الدجاجات التى أطعموها مصحوبة بالأرز . والحق أن ماجاء فى يوميات القائد عن الإقامة بجزائر ملديف يطيب للإنسان قراءته فى لذة وشوق إذ بعد أن تبادل الفريقان الرهائن نعم البحارة بالإقامة على الشاطئ برهة من الزمن .

سأل الملك الترجمان عن أمر هؤلاء الأغراب ومن أين قدموا فأجاب ترجمان بارمنتيه وإسمه جان ماسون بأنهم غادروا وطنهم منذ ثمانية أشهر ليأتوه ببضاعتهم فى مقابل الفلفل .

* * *

« أرجال حرب أنتم ؟ » كان هذا هو السؤال الثانى

« لا نحن تجار وكل مانتشده السلام والصداقة » .

فكان لهم ما أرادوا ، ولم يحدث ما يعكر صفاء الجو سوى أن الملك أمر بأن ترسل النساء والأطفال إلى داخل البلاد خشية حدوث مالم يكن فى الحسبان .

ونجد فى يوميات بارمنتيه ما يكشف عن نزعاته الخاصة ، ففيها مثلا وصف لزيارته مسجد قديم ، ويبدو أن المفتى كان يعطف على هذا القائد الرقيق الظريف لأنه إستجاب لرغبته فى مشاهدة المسجد من الداخل ، وهنا بهر الفرنسى من روعة المنبر الخشبى وأعجب بمهارة صنعته الدقيقة وبما فيه من آيات محفورة وبتنسيق الدرج وجماله الفنى ، حتى أن نجار السفينة الذى كان يرافق القائد فى هذه الزيارة دهش مما رآه من دقة الصنعة ومهارة الفن ، ودارت ذات يوم مناقشة حول جزائر ملديف ، فقد خيل إلى الفرنسيين أن لفظة ملديف لها وقع صوتى كلفظة ملوكو ، فاعتقدوا أنها جزائر التوابل

www.ibtesama.com Exclusive

التى يبحثون عنها ، ولكن المفتى أكد لهم بأن جزائر ملوك تقع على بعد مئتى فرسخ إلى الشمال .

وتذكر اليوميات أنهم قبل الوصول إلى سومطرا أكتشفوا مجموعة من الجزائر أطلق على إثنين منها إسم « لويز » و « مارجريت » على الترتيب تكريماً لوالدة الملك ولشقيقته ، أما المجموعة كلها فقد أطلق عليها البحارة إسم « البرمنتيير »[١] وهى تعرف اليوم بإسم جزائر « باتول » .

واصلت البعثة بعد ذلك سيرها إلى أن عثرت على جزيرة صغيرة عرض عليهم أهلوها الذهب للشراء ، ولكن لم يكن لديهم شىء من الفلفل ليبيعوه ، وأخبرهم الأهالى بأن الفلفل يوجد على بعد ثلاثة فراسخ فى بلدة « تيكو » على الطريق العمومية .

أحسن أهالى تيكو إستقبال القواد إذ كانوا قد أعجبوا بهم إبان زيارتهم السابقة من سنتين خلتا ، وأقيمت الإحتفالات ووثقت بين الفريقين روابط الصداقة ، وما انتهت الحفلة حتى كان الجميع يهتفون « فرنسا — تيكو » « تيكو — فرنسا » .

نجحت عملية المساومة وحمل الفرنسيون إلى سفينتيهما كمية من الفلفل ، ولكنهم وجدوا أهل « ملايو » يحسنون المساومة إلى حد بعيد يفوق كل ما عرف عن أهالى « أسكتلندا » من الدهاء فى هذا الميدان .

ازداد إهتمام « جان بارمنتييه » بالعقيدة الإسلامية أثناء إقامته بجزائر « ملديف » لذلك كان يعقد مع المفتى أثناء إقامته « بتيكو » محادثات طويلة ، وجاء دور « جان ماسون » لإختبار معلوماته عن أهل « الملايو » ولغتهم ، فقد كانت حصيلة معلوماته من لغتهم فى ذلك الحين مقصورة على الكلمات العادية التى تستعمل فى المساومة على الأطعمة وما إليها ، ولكن هاهو القائد ينتظر منه اليوم أن يترجم المناقشات الدينية بينه وبين المفتى .

وحدث ذات يوم ، بعد إقتناع القائد بأن المفتى يؤمن بآدم وأنه يعلم بأمر

---

(١) Les Parmentieres

www.ibtesama.com Exclusive

يسوع المسيح أن أخذ فى شرح مبادىء العقيدة المسيحية، فتشير اليوميات إلى هذا الإنفجار الدينى، ولا غزو ، فقد كان « بارمنتيه » شديد التمسك بمبادىء هذا الدين المسيحى، فاندفع يشرح تعاليم المسيح وسر التجسد والترجمان يجاهد مجاهدة جبارة فى ترجمة هذا الحديث المعقدفكان عليه مثلا أن ينقل إلى المفتى الأكبر « أن الكلمة صارت جسدا وأن روح القدس أحلها فى مريم العذراء أن الابن وُجد من الآب كما تتولد الكلمة فى صدر الإنسان وفى عقله ، . . . وهنا إنفجر الترجمان المرتبك محتجاً بأنه عاجز عن ترجمة مثل هذه الموضوعات اللاهوتية العميقة : فلم يكن بدٌ من نقل الحديث إلى موضوعات أخرى .

* * *

كان من سوء حظ البحارة أن كثيراً منهم مرضوا من شرب المياه ومرض « بارمنتيه » كذلك وقضى نحبه فتولى « بييركرينيون » إستكمال اليوميات مسجلا فيها هذه الوقائع المفجعة فكتب :

« كان جان بارمنتيه أول من فارقنا إلى العالم الآخر فدفناه براً ثم أبحرت السفينتان بعد ذلك إلى عرض البحر أملا فى إنقاذ المرضى الآخرين ولكن غالبيتهم قضوا نحبهم ومن بينهم «راؤول بارمنتيه» :

فى كل آونة وكل عشية نهدى إلى القبر الغريب زميلا
كم فوق شُطان البحار مقابر هى كل ما يهدى الوجين عليلا

وبموت القائدين إنتقلت القيادة إلى بييركرينيون الذى عقد إجتماعا للبحث فيما يجب أن يعمل، وضع أمام المجتمعين ثلاثة إقتراحات للعمل بأحدها، إما الإقلاع مباشرة إلى جاوا، وإما الإقلاع إلى إندراپورا على شاطىء سومطرا حيث يوحد الفلفل بكثرة وإما العودة إلى الوطن، فإذاما اختار المجتمعون العودة إلى الوطن وجب البت فى هذا الموضوع دون تأخير إذ أن الرياح المعتدلةان تهب ثانية قبل مضى ثمانية شهور . وبعد تناول الاقتراحات الثلاثة

بالبحث والتمحيص عرضت على المجتمعين لأخذ الأصوات فكانت الأغلبية فى جانب القيام بزيارة أندرا بورا أولا. لم يكن فى هذه الجزيرة الأخيرة شيئاً من الفلفل بينما كان يكثر فيها الذهب، ولكن بما أن الغرض من البعثة هو جمع الفلفل أكثر من أى شىء سواه، فقد أمدهم التجار الوطنيون فى النهاية بستمائة رطل من الفلفل فى مقابل أحمر الشفاه من إنتاج باريس، والمرايا والسبح والأقمشة، ولكن نقص التموين الغذائى، وموت أربعة عشر رجلا آخرين وإقتراب الموسم القاسى الردىء كل هذه العوامل دفعت إلى إتخاذ طريق العودة وقد زاد من فجيعة أفرادها وفاة رجال آخرين وران الحزن على قلب بيير كرينيون لمجرد التفكير فى الأرامل العديدة اللواتى سوف يكن فى إنتظار أزواجهن على شاطىء دييب وهن لا يعلمن من أمر وفاتهم شيئاً.

وفى ذات يوم بينما كان مضطجعا على الصفة وهو غارق فى تأملاته حول نهاية البعثة المحزنة، شرد فكره إلى وقفة الوداع المثيرة بين جان بارمنتييه وزوجه الشابة، وخيل إليه أنه يسمع صوت الزوجة الحزينة ونبراته العذبة الشبيهة بالأجراس الصغيرة، وذكر كيف أنها كانت فى تلك الآونة تشبه نغمات ترتيل القداس الحزينة فى صباح الأسبوع المقدس.

وسرعان ما أستولى النعاس على الرجل المخلص الوفى وفيما هو يحلم نزلت السلوى على قلبه الحزين.

وفيما هو يغط فى نومه ويسبح فى أحلامه أيقظه من سباته تكسر موجة عاتية على جانب السفينة ولكن هذه الهزة العنيفة لم تنسه حلمه اللذيذ فالتقط ريشته فى الحال وراح ينظم (مرثية) يندب فيها وفاة صديقيه. وفى هذه المرثية نرى الشاعر يصف فى نغمات منسقة دامعة مشهد الوداع الأخير ويقص حلمه الذى إنتشله من وهدة الحزن العميق ثم يسترسل إلى وصف طيف آلهة الشعر العاطفى التى أفضت إليه بأنها هى التى كانت تعنى به وبصديقيه وترشدهم، وهى الآن قد أرسلها إليه آلهة الأولمب لتواسيه بإبلاغه قرارهم، فبمشيآتهم حولت جثة جان بارمنتييه

www.ibtesama.com Exclusive

إلى نخلة هى فى نظرهم رمز لحياته ، فهى توفر المأوى والغذاء والنبيذ الحلو والألياف التى تنسج منها الأشرعة وتفتل منها الحبال .

جوزة الهند وحدها هى الملبس والمأكل والملجأ والمشرب والكوب والقارب والكبل والشراع والسارية والأبرة ، أجل جوزة الهند هى كل هذه الأشياء مجتمعة ، أما راؤول بارمنتيه فقد حول آلهة البحار حطامه إلى دولفين يرشد جميع البحارة الفرنسيين أينما يكونون على ظهر العباب ، وجعلوا لهذا الدلفين علامة مميزة فى صورة وردة بيضاء تحت بطنه وعلامة الصليب فوق ظهره .



شعر بيير كرينيون بالغبطة تدب فى جسده وهو ينظم أشعاره التى إختتمها بالضراعة إلى الله أن تكون الجنة مأوى صديقيه .

وعند عودة هذا الصديق المحب الوفى لدييب بعد أن شارك جان بارمنتييه طيلة سنوات عديدة أخطار البحار وويلاتها إعتزم أن يحتفظ جهد الإستطاعة بذكرى الشقيقين وإن كان قبرهما بعيداً نائيا فى سومطرا . لذلك نشر أشعار جان بارمنتيه « المواعظ » التى نظمها لتشجيع بحارته على الاحتفاظ بروحهم المعنوية كما نشر يومياته التى قام باستكمالها إستجابة لرجاء أصدقاء الطرفين ، مضيفا إليها مرثيته للأخوين وقد نشر الكتاب فى دييب عام ١٥٣١ وأرسلت النسخه الأصلية من اليوميات لفليب شابو أمير البحار الفرنسى بينما أهديت النسخة الأصلية لترجمة ياجورنا إلى الملك إذ كانت مهداة اليه كما جاء فى مقدمة المترجم .

قرأ فرانسوا الأول اليوميات بإهتمام بالغ لدرجة أنه قرر اتمام

www.ibtesama.com Exclusive

مابدأه جان بارمنتيه والواقع أن هذه الفكرة حدت به إلى إرسال مبعوث إلى الصين .

كان الملك قد علم من مصادر برتغالية بأن الإمبراطور قائم بإعادة تنظيم جيشه فاعتبر الفرصة سانحة للاتصال بخان الصين ، وبناءاً على ذلك غادر السيد فالواه ميناء دييب فى سنة ١٥٣١ ومعه أربعة مدافع صنعت حديثا ليقدمها إلى إمبراطور الصين هدية من ملك فرنسا ، وهكذا كانت دييب أول ميناء تخرج منها سفينة تصل إلى الصين فتؤدى الأمانة وتعود مزودة من كنوزها بانواع الخزف الصينى والحرائر والمسك والتوابل .

* * *

فى هذا العام نفسه عام ١٥٢١ ارتفعت خسائر ملك البرتغال من جراء مناوأة جان أنجو إلى مليون كروسادس[1] بينما أسر ربابنة دييب التابعين له ثلاثمائة سفينة من سفن الملك .

ضاق الملك جون الثالث ذرعا بهذه الحالة ، فالحصار الذى ضربه جان أنجو حول لشبونه وتدميره المبانى على طول نهر تاجس ، أثارا غضبه وذهبت جميع إحتجاجاته لدى فرانسوا الأول أدراج الرياح إذ لم يكن فى نية ملك فرنسا الإستغناء عن هذا المواطن النافع من رعاياه والذى يعتبر بحق ملك السفن فى دييب . وحدث ذات مرة أمام سيل إحتجاجات ملك البرتغال وإلحاحاته أن ذكرت ملكة نافار أخاها ملك فرنسا بخدمات جان أنجو الجليلة فى حروبه برا وبحرا وكل هذا على نفقاته الخاصة . فأرسل فرانسوا الأول تحت تأثير عبارة شقيقته إلى ملك البرتغال المحنق يقول . « إن المجلس هو الذى صرح للفيكونت دى دييب بمقابلة العدوان بالمثل ، وبما أن الأمر قد صدر عن المجلس فالمجلس وحده هو الذى يستطيع

---

(١) حوالى ١١٥ ألف جنيه

www.ibtesama.com Exclusive

أن يلغى ما أمر به فالمسألة تعتبر لذلك خارجة عن اختصاص الملك فليس له أن ينهى عن شىء لم يأمر به» .

تبين للملك جون الثالث أنه من العبث أن يعتمد على ملك فرنسا، فاستقر رأيه على أن يحاول معالجة الأمر بالطرق الدبلوماسية ، فإذا فشلت الخطة ركن إلى إستخدام قوة المال ، لذلك أرسل سفيرا إلى باريس يطالب بالغاء التراخيص المعطاه لجان أنجو، فإذا فشل فى هذا فليحاول شراء جان أنجو بناء على ذلك طلب ملك البرتغال إلى صهره الإمبراطور شارل الخامس أن يستخدم كل نفوذه لمعاونته والتوسط له ببلاط ملك فرنسا فأمر شارل الخامس من فوره سفير أسبانيا فى باريس أن يتوسط فى الأمر لدى الملك وأن يستعين عليه بشقيقته ، أى بشقيقة شارل الخامس ، [وكانت قد زفت حديثا إلى ملك فرنسا بعد موت زوجه الأولى] .

ولكن جميع هذه الوسائل السياسية أخفقت، فلا النفوذ العائلى ولا المحاولات الدبلوماسية نجحت فى تحقيق الهدف المنشود. لم يكن جان أنجو بالغر المأفون، فقد أدرك بصائب فكره بأنه لا يمكن الإعتماد على الملك إلى الأبد ولا فى دوام أعراضه عن هذا التوسط القوى، لذلك ما كاد المبعوث البرتغالى فوق العادة يعرض على الفيكونت أن يزوره فى دييب حتى أعد عدته لاستقبال السفير وغالى فى الاحتفاء به .

كانت النتيجة التى ترتبت على هذا الاجتماع مرضية للطرفين، ولكن فى سبيل الحصول على النتيجة المنشودة اضطر الملك جون الثالث أن يدفع خمسة أمثال المبلغ الذى كان يعتزم دفعه وهو إثنى عشر ألف كروساوس إذ رفض جان أنجو أن يتقاضى أقلّ من كروساوس ستين ألف .

* * *

راع سفير فينسيا فى باريس مارآه فى دييب عندما زارها بعد مرور

www.ibtesama.com Exclusive

بضع سنوات على الحوادث التى ذكرناها آنفا ، راعه دبيب الحياة والحركة المتواصلة ، وراعه رواح السفن وغدوها على الميناء، ولقد أحصى الموجود منها فى وقت واحد فبلغ عددها مائتى سفينة، وليس هذا مما يستغرب له فقد كانت دبيب فى هذا المهد الملاحين من ربابنة ومرشدين وبحارة كما كانت أهم مركز لتجارة فرنسا الخارجية ولكن سرعان مادق ناقوس الموت فوق هذا الثغر المزدهر فاختنق مجده القديم وتقوضت دعائمه .

كان ملك فرنسا قد إقترض مبلغاً من المال من ملك البرتغال وكان سداد هذا المبلغ مبعث ضيق شديد له حتى اهتدى إلى حل كان يبدو بسيطا لعينيه، فبدلا من أن يسدد الدين نقدا إعتزم تسديده فلفلا وعاجا وتبرا وخشبا من البرازيل وذلك بطريقة فذة مبتكرة .

أرسل إلى صهره ملك البرتغال يعلمه بأنه قد اعتزم أن يسدد له ماعليه ولكن بدلا من أن يدفع له نقدا يعد بالامتناع عن منافسته فى تجارة التوابل وذلك بان يحرم على السفن الفرنسية الإبحار إلى أى بلد إكتشفته البرتغال أو تدعى حق اكتشافه .

قبل ملك البرتغال هذا العرض عن طيبة خاطر فأصدر فرانسوا الأول قرارا يحرم على رعاياه زيارة أفريقيا غربيها وشرقيها وجزائر الهند الشرقية والبرازيل وأرخبيل الملايو، وكانت عقوبة مخالفة هذا الأمر مصادرة السفن بما عليها من بضائع وجلد المخالفين . دمر البرتغاليون المستعمرات الفرنسية فى البرازيل عام ١٣٥٨ وأحرقوا مساكنها وقتلوا بعض سكانها بينما سلموا البعض الآخر إلى الأهالى ليأكلوهم . وأعرض فرانسوا الأول عن صرخات الإحتجاج من رعاياه، فقد كان مثقلا بالدين ، يتلوى بين براثنه فلم يجد له مخرجا من الضيق إلا أن يترك لملك البرتغال حق الاستمتاع باحتكار تجارة التوابل غير منازع فيها .

www.ibtesama.com Exclusive

الفصل الثالث عشر

جامع قصص الجوابين

أى بلاء بعث لفزع العالم المذعور يابروميثوس
ولأى مذبحة رهيبة صنعت كبرياؤك الإنسان
« المقطع السادس »

* * *

هذا يجود بنهر وهذا يبحر وذاك باسم يجود
ولكنهم ما يزالون وسط النار وفوق اليم يهيمون
ووراء الظلال الذهبية يهرعون فيغرقون
« المقطع السادس »

كان من بين الإنجليز المقيمين بمدينة إشبيليه فى مستهل القرن السادس عشر رجل اسمه روبرت ثورن[1] من مدينة برستول[2] رأى السفير البريطانى لما آنسه فيه من الخبرة بالشئون التجارية أنه أصلح من يستطيع وضع تقرير عن تجارة التوابل يرفع للملك إنجلترا هنرى الثامن وما أن فاتح السفير المستر ثورن فى هذا الموضوع حتى أظهر سروره واستعداده لوضع معلوماته وخبرته تحت تصرف مليكه ، وشرع من فوره فى وضع تقرير سنة ١٥٢٧ وضّح فيه نشاط مملكتى البرتغال وأسبانيا فى ميدان تجارة التوابل فى الداخل والخارج .

ولم يكتف الانجليزى بسرد الحقائق والوقائع فحسب ، بل ذهب إلى أبعد من هذا فضمن التقرير كثيرا من مقترحاته، فكان مما ذكره مثلا أن « المسافة إلى جزائر ملوك عن الطريق الشرقية لا تقل عن ثلاثة وأربعين ألف ميل فلماذا لا تحاول الوصول إلى تلك الجزر عن الطريق الشمالية الغربية » ؟

---

(١) Rogert Thorn
(٢) Bristol

www.ibtesama.com Exclusive

واقترح إرسال بعثة من القوات الإنجليزية لاكتشاف هذه الطريق لأنها لو نجحت فى هذه المحاولة تكون قد وفرت على السفن البريطانية ستة آلاف من الأميال فى قطع هذه المرحلة .

وأرفق الإنجليزى بتقريره خريطة بعث بها إلى السفير رغبة منه فى مساعدته على تفهم الموضوع على الوجه الأكمل ولكنه توسل إليه فى الوقت نفسه أن يكتم أمر الخريطة والتقرير غاية الكتمان لأنه لو ذاع أمرهما فى البلاط لتعرض صاحبهما لما لا تحمد عقباه، إذ أن إعطاء أى خريطة لأجنبي أمر غير مشروع قانونا. وأضاف ثورن إلى رجائه هذا بأن مركزه سوف يتحرج كثيرا إذا ماتسرب السر وعُلم أنه قد وقف على أسرار تجارة التوابل ، وسوف يزداد مركزه تحرّجا إذا علم الإسبان أنه قد كشف للبحرية البريطانية عن أقصر الطرق لمصادر التوابل .

ترك التقرير فى نفس هنرى الثامن أثرا عميقا ، وخاصة اقتراح البحث عن الطريق الشمالية الغربية للصين التى أصبحت هدف الملاحين الإنجليز ، فاخذ قواد السفن البريطانية منذ ذلك الوقت يضربون فى البحر سالكين الطريق الشمالية الغربية، بينما راح فريق آخر يسلك الطريق الشمالية الشرقية أملا فى الوصول إلى جزائر التوابل ولكن عبثا يحاولون .

* * *

كان احتفاظ البرتغاليين بساحل أفريقيا الغربى حتى ذلك الحين حائلا دون وصول السفن الإنجليزية إلى تلك المناطق ، غير أن الذى كان مستحيلا فى عهد إدوارد الرابع ربما لم يكن كذلك فى عهد هنرى الثامن وأن الأمر يستحق المحاولة على كل حال، فالقوانين التى أصدرها البابا لا تستطيع أن تقيد رعاياه وتمنعهم عن ركوب البحر إلى غانا كلما شاءوا لابتياع حبوب الجنة ، والعاج والرقيق . هذا فيما يتعلق بهنرى الثامن وأما فيما يتعلق بالبرتغاليين فقد تمسكوا بحقهم المزعوم وبهذا تعرض ربابنة السفن والتجار على إختلاف جنسيتهم

www.ibtesama.com Exclusive

للشنق كلما أسروا . على أن خطر التعرض لهذا الجزاء الصارم لم يمنع أحدا من السفر إلى تلك المنطقة ، فكثيرا ما تقابلت السفن البريطانية بالسفن الفرنسية فى تلك المياه فكان بحارتها أحيانا يتبادلون الطلقات النارية وأحيانا يهرع بعضهم إلى مساعدة البعض الآخر حسبما تقتضيه الظروف .

ويقول رجل يدعى وليم تاورسن فى تقريره أنه بعد أن استعد للقتال صرخ أحد البحارة قائلا : « نحن أبناء فرنسا » فصرخ واحد من الفريق الآخر : « نحن أبناء لندن فى انجلترا » . وعندئذ امتنع كل من الفريقين عن إطلاق النيران وزود الفرنسيون الإنجليز بالماء .

كان من بين قواد السفن الفرنسية الذين لم يأبهوا بوعيد الإسبانيين والبرتغاليين وتهديدهم رجل يسمى جان فونتناى لم يطق أن يتصور كيف تمنع فرنسا من أن يكون لها نصيب من كنوز العالم الطبيعية .

قضى جان فونتناى ثمانى وأربعين عاماً يضرب فى البحار مكبا على دراسة فنون الملاحة أثناء رحلاته فاستطاع أن يضيف إليها من مبتكراته ومكتشفاته التى اكتسبها عن خبرة ودراية فاهتدى مثلا إلى ابتكار وسيلة لتحديد خطوط الطول كما اهتدى إلى تحسين السوارى والقلوع وتيسير عملية ربط الحبال إلى الأشرعة السفلى. وكان أول من حدد الأبعاد بين نقطة وأخرى بخطوط الطول والارتفاع .

وضع فونتناى كتابا فى الجغرافيا الكونية وزود الكتاب بخرائط بيانية وجعل الأهداء إلى الملك هنرى الثامن عسى أن يكون فى ذلك ما يستنهض همته للعمل .

وكان من بين ما كتبه فى كلمة الإهداء « يبدو لى أن لكم مثل ما لملكى البرتغال واسبانيا من الحق فى جوب البحار ، كما أن لكم من رعايا مملكتكم من يعرفون أين توجد أغنى جزر العالم ، ويذكر المؤلف أنه سافر هو بنفسه الى الصين « مقر مملكة القس يوحنا » .

www.ibtesama.com Exclusive

وإلى جانب مؤلفه هذا فى جغرافية الكون ، وضع جان فونتناى سفراً عن « رحلاته ومغامراته » نشر عام ١٥٤٧ وأعيد طبعه خمس مرات فى غضون الخمسين سنة المتتالية .

حدث كل هذا بينما ظهرت فى إيطاليا طائفة من رجال ممتازين أخذ إهتمامهم بالمكتشفات والرحلات ينمو نمواً مطرداً وخاصة فى كل ما يتعلق بتجارة التوابل التى سبق لها أن إزدهرت وراجت سلعها فى طول البلاد وعرضها وكان فى مقدمة هؤلاء الرجال المولعين بالجغرافيا أحد مشاهير الأطباء فى فيرونا يدعى هيرونيمو فراسكاتورو[1] وكان حائزاً لعطف الملك وثقته إلى حد بعيد . كان هذا الطبيب مشهوراً بولعه لجمع قصص الجوابين ، لذلك كانت تصله تقارير كثيرة من القواد والرحالة يسردون فيها تفاصيل أسفارهم ومشاهداتهم .

وكان لفرسكاتورو هذا صديق يزامله فى بحوثه الجغرافية يدعى جيوفانى بابتستا راموزيو[2] السكرتير العام لجمعية العشرة الفنيسيين . وله يرجع الفضل فى جمع ونشر أول مجموعة من قصص الجوابين . وكان هذا الإيطالى المثقف قد أوفد إلى عدد من البلاد فى بعثات دبلوماسية وكان له إلمام بعدة لغات كما كان يتقن اليونانية واللاتينية ، فمكنت معرفته لهذه اللغات من أن ينقل إلى الإيطالية أهم ما كتب عن المكتشفات ، ومن بينها عشاريات[3] بيتر مارتير التى نشرها مع غيرها من القصص الإيطالية . ونشر فيما بين عام ١٥٥٠ ، عام ١٥٧٣ ثلاثة أسفار ضخمة أودعها كل ما كتب عن المكتشفات والرحلات خلال القرون الخمسة عشر السابقة على نشره لمؤلفه . وحوت هذه المجلدات كل ما كان يعلم حتى ذلك اليوم عن البلاد التى « تولد فيها التوابل » على حد تعبيره فى لغته الايطالية .

---

(١) Hieronimo Frascatoro

(٢) Giovanni Baptista Ramusio

(٣) كل عشر سنوات .

www.ibtesama.com Exclusive

ولم يكن سفر راموزيو مجرد مجموعة من الأخبار والتقارير، ماعرف منها وما لم يكن معروفاً حتى ظهور مؤلفه ولكنه سفر يحتوى على الشيء الكثير من محاوراته حول موضوعات كانت تحتل مكانة لها أهميتها فى عصره .

وألمّ المؤلف فى أحد هذه الفصول التى كان يعقدها فى كتابه بتجارة التوابل والرحلات التى تتصل بها خلال خمسة عشر قرنا ، وينقل لنا عن بلينى ما ذكره من أن حصيلة الدخل من تجارة التوابل كانت تقدر بمئات الملايين من الذهب ، غير أن غزو البربر للإمبراطورية الرومانية قوض دعائم الإمبراطورية وتجارة التوابل معا .

وواصل المؤلف قصة هذه التجارة المربحة فكان من بين ماكتبه : تطورت الأحوال كثيراً خلال نصف القرن الأخير ، أى منذ رحلة البرتغاليين إلى الهند لاستجلاب الفلفل والقرنفل والجنزبيل وجوزة الطيب والبهار ، تلك الأفاوية التى كانوا يأتون بها مباشرة من ملقا وجزائر ملوك .

وفى كتبه الرائعة يتعرف القارىء على كثير من الرجال ممن اتصلت شهرتهم باكتشاف كنوز الشرق من جواهر وتوابل ، فمن بين الرجال الذين ينقل عنهم راموزيو القصص رجال ما زالت تدوى أسماءهم فى آذان العالم مثل ماركو بولو ، وجان كارتييه ، وليو أفريكانوس ، وبيتر مارتير ، وكورتيز ، وبيزارو ، كما نقل عن طبقة تقل شهرة عن المذكورين . وبالكتاب تقرير لم يذكر إسم واضعه عن رحلة فى طلب التوابل إلى جانب قصة أخرى بقلم أحد ربابنة دييب العظام وكيف أنه أبحر إلى جزر الهند الغربية ومن ثم إلى البرازيل فغانا فجزيرة سان لورنزو فسومطرا. وتبين الخرائط الملحقة بنفس القصة سفنا عليها صورة الوردة[1] الرمزية لشعار فرنسا ولكن قد عُلم الآن أن مؤلف هذه القصة هو جان بارمنتييه الذى يأخذ مكانه فى مجموعة راموزيو هذه إلى جانب كاداموستو وفاسكو داجاما ومجلان وغيرهم من القواد

---

(١) Fleurs - de - lys

www.ibtesama.com Exclusive

والرّواد الذين جابوا البحار بحثا عن البلاد التى تنبت فيهـا التوابل .

وبينما كان راموزيو يضع أمام جمهور القراء تاريخ الرحلات فى طلب التوابل ، كان أحد شعراء البرتغال ينظم القصائد فى مدح أول من أبحر من أبناء وطنه إلى البلاد التى تنبت فيها التوابل .

فهاهو دون لويس دى كوينز يصف فى « لوسياديانه » الخالدة وفى أسلوب أخاذ جميل كل ما حدث أثناء الرحلة التى قام بهـا ڤاسكوداجاما إلى الهند أول مرة .

ولا غرو فقد خاض كوينز جميع أخطار البحار وأهوالها إذ رافقته لمواطنه الشهير إلى البلاد التى زارها ، لذلك يعتبر وصفه مطابقا للطبيعة والحقيقة معا .

قدم الهند ذلك الشاعر البرتغالى بل أعظم شعراء البرتغال قاطبة كجندى ، بعد أن رزىء فى مستقبله ، نتيجة هفوة إرتكبها تخالف ما جرى عليه العرف من آداب المروءة . فكثيراً ما أطلق عليه إسم « ضحية الحب » و « شاعر الحب والشرف » . وما كاد يصل إلى الهند حتى وجد سلطان البرتغـال قد أخذ يتقلص ظله وأمعن أبناؤها فى أعمال السلب والنهب كل يعمل لمصلحته الفردية حتى شاع ذلك وانتشر فى أنحاء المقاطعات التى حلوا بها . فعزم الشاعر على تخليد ذكرى مجد الوطن فى ماضيه فنظم ملحمته وهو فى شبه منفى بمكاو[1] أول مستعمرة للبرتغاليين فى الصين . وكان قد قدم إليها لتقلد أحد المناصب الرسمية بعد أن قضى فترة من الزمن منفيا بجزائر ملوك عقابا له على قصيدة له سخر فيها من الموظفين فى جوا .

ومازال الزوار حتى يومنا هذا يحجون إلى مكاو لزيارة الكهف الذى كتب فيه الشاعر لو سياديانه مخلداً أعمال أنبل أبطال البرتغال منذ العهد الذى تزوج فيه والد الأمير هنرى الملاح إبنة جون أوف جونت دوق لانكستر ، فهو يشبه من هذه الناحية هومير فى تمجيده للآشيين .

---

(١) Macao

www.ibtesama.com Exclusive

وعندما تحطمت سفينته فى خليج سيام كانت مسودة ملحمته « اللوسياديات » هى كل ما استطاع إنقاذه من أدوات ومتاع، هكذا قدر للعالم ألا يحرم من أروع ما أنتج شعراء البرتغال .

وقد يتساءل المرء ما إذا كان الشاعر قد تنبأ بالمصير الذى كان ينتظره عند عودته فيقول :

مال عنى السرور وجداً وحقدا ... وقطعت الحياة للبؤس عبدا
ساعة العمر فى السرور تولت ... لجناح الظلام عدوا ووخدا
وقريبا تمر فوق رفاتى ... أتراها تخط لى اليوم لحدا ؟

توفى الشاعر عام ١٥٧٨ فأمر أحد أصدقائه بأن تحفر على قبره هذه الأبيات :

هنا يرقد لويس دى كوينز .
الذى بز جميع شعراء عصره .
عاش فقيراً بائسا ومن الفقر والبؤس تولى .

ولقى ديوانه رواجا كبيراً حتى أنه بيع منه فى غضون خمس سنوات إثنتا عشرة ألف نسخة ووصف بالعظيم ، ولكن كل الشهرة التى اكتسبها الشاعر جاءت بعد موته .

* * *

وإذا كانت شهرة البرتغاليين فى فن الملاحة وفى البحث عن التوابل قد خلدت شعراً فإن بيتر مارتير قد خلد كذلك بقصته بطولة الأسبان ومهارتهم فى الملاحة نثراً لا شعرا .

ولم يكن للإنجليز حتى ذلك الوقت من يتغنى بأعمالهم ، حتى أن مجموعة راموزيو خلت من ذكرهم أو الإشارة إليهم .

كان هذا الإغضاء عن الانجليز فى البحر بمثابة محنة حلت بالقس

www.ibtesama.com Exclusive

رتشارد هكلوت[1] أحد من اشتهروا بغيرتهم الوطنية وشغفهم بعلم الجغرافيا الذي أولع به منذ صباه واستمر شغفه به وهو يتلقى العلم بجامعة أكسفورد فلم يترك سفرا مما ألف عن الرحلات والمكتشفات حتى الأسبوعية منها ألا وقرأه بإمعان. وحدث حينما كان يشغل وظيفة الواعظ الديني للسفارة البريطانية في عهد السير إدوارد استفرد[2] أن وجد للأمم الاخرى تمجيداً وذكراً على ألسنة الشعراء والكتاب لما اكتشفته من البلاد وماقامت به من المغامرات في البحار، وطرق سمعه في نفس الوقت تعريض ساخر بتخلف انجلترا في هذا الميدان وتقريع لاذع لخمولها وما أن وقعت عينه على الفقرة الآتية في كتاب عنوانه أمير البحار الفرنسي حتى استقر عزم هكلوت على أن يبرهن للعالم بأن انجلترا لم تكن متخلفة عن غيرها من دول أوربا ولكن كل ماهنالك هو أن منطقة ملاحتها تقع في بحار أخرى، « إن مادعاني إلى النظر في الأسباب التي منعت الإنجليز عن السعي لاكتساب الحمد والشرف بين المسيحيين في حين أنهم لا ينقصهم شيء من الإقدام أو المال أو روح المغامرة. هو ما كان يجب عليهم من المبادرة إلى هذا العمل مثل غيرهم، ولكن يبدو أنهم بحكم عنصرهم وطباعهم مرتاحون إلى الخمول قانعون بتفتيش السفن كالبوليس ».

ثار غضب هكلوت عند قراءة هذه الفقرة. أما جاب الإنجليز البحار وزاروا جواوشيلي وبيرو وضربوا بسفنهم في بحر الجنوب فعبروه عرضاً؟ ألم يعقد الإنجليز مع أمراء جزائر ملوك اتفاقيات محالفة وصداقة وتعاملوا معهم تجاريا؟ قرر ريتشارد هكلوت منذ ذلك الحين أن يزيل ماوصم به الإنجليز من عار التخلف، فأقبل بهمة ونشاط لا يضارعان على جمع التقارير والقصص عن سياحات الإنجليز. وكذلك نسخ خطابات الامتياز أو التراخيص الممنوحة للشركات التجارية والخطابات المرسلة من الملكة اليصابات إلى ملوك الشرق... ألخ

---

(١) Richard Haklut

(٢) Sir Edward Stafford

www.ibtesama.com Exclusive

وليس من العسير أن نقف على مايستهدفه جامع هذه التقارير والمصنفات إذا رجعنا إلى ماقدم به للمؤلفات العديدة التى نشرها مثل « كتاب مبادىء الملاحة » « و الرحلات » « ومعاملات الأمة الإنجليزية فى ميدان التجارة ومكتشفاتها » . ولا جدال فى أنه كان يهدف إلى غرض معين كما يستنتج من إهدائه هذه المؤلفات إلى عدد من زعماء الإنجليز فى عصر الملكة اليصابات .

فهو يقول فى كلمة الإهداء أن غرضه الأول هو أن يصون ذكرى ماقام به الإنجليز فى السنوات الأخيرة من أعمال جسام وينقذها من براثن النسيان. وكان فى رأيه أن الوقت قد حان للإنجليز لكى يتباروا مع البرتغاليين والإسبانيين فى أمريكا وفى المناطق الأخرى التى لم يتم اكتشافها بعد . فنراه يقول « إنه يتحتم على انجلترا أن تبحث لها عن منافذ لتجارتها وعن مناطق للاحتكار حتى تتجنب الأضرار المتعمدة التى تلحقها بتجارتها منافسة إسبانيا والبرتغال لها .

كانت فكرة ريتشارد هكلوت فى البداية أن ينشر بين الناس ماحققه الإنجليز من أعمال البطولة ليس إلا ، ولكن اهتمامه بالمسائل العالمية دفعه إلى سرد بطولة غيرها من الأمم لا سيما الأمة الفرنسية ، فنقل إلى الامة الإنجليزية قصص أبنائها كما نقل عن البرتغاليين والأسبان .

طبع رتشارد هكلوت وثيقة أعماله الأولى عام ١٥٨٢ ، ثم ظهرت الطبعة الأولى لكتابه « مبادىء الملاحة فى عام ١٥٨٨ » ، ونقل عن اللغة البرتغالية كتاباً عنوانه اكتشافات بعض أجزاء هذا العالم والكلام عن الذين كانوا أول من ساحوا فيه . كان مؤلف هذا الكتاب أحد الحكام السابقين لجزائر ملوك اسمه أنطونيو جلفانو ، وهو بلاشك من أنبل رجال البرتغال فى القرن السادس عشر وإن لم يكن أوسعهم شهرة .

وكما يحدث كثيراً فى الحياة كان تمسك هذا الحاكم بمبادىء الشرف سبباً

www.ibtesama.com Exclusive

فى اكتساب عداوة كثير من أصحاب النفوذ مما ترتب عليه قضاء آخر أيام حياته نزيل أحد الأديرة فى بروج يتلوى من الآلم على سرير المرض .

ولكن روح أنطونيو جلفانو هذا تغلبت على جميع مصائبه فاشتغل مالديه من متسع فى الوقت بين جدران الدير الذى لجأ إليه مغلوباً على أمره فى تأليف كتاب عن تاريخ الملاحة مبتدئا بنوح حتى الوقت الذى يعيش فيه .

كان أنطونيو جالفانو هذا قد درس كل ما كتبه المؤرخون والجغرافيون عن الملاحة وواصل الدرس من حيث انتهى المؤلفون القدماء، حتى يوم مماته عام ١٥٥٥ . ويعتبر كتابه من أهم ما كتب لأنه يحتوى على كل ما كان يعرفه معاصروه فى ذلك الميدان ولكن فى إيجاز وتلخيص .

وهو يعزو السبب الذى دعاه لوضع هذا الكتاب إلى رغبته فى جمع المكتشفات القديمة والحديثة فى البحر والبر مع تحديد العصور التى وقع فيها الاكتشاف . ولما كانت معظم المكتشفات الهامة قد حدثت إبان حياته وخاصة ما اكتشف منها عن طريق البحر فقد اشرأب إلى معرفة المكتشفين الأول من عهد الفيضان .

ترك جالفانو فى وصيته نسخته الاصلية الخطية لاحد أصدقائه بعد أن ضمنها سير الحوادث حتى يوم وفاته فى عام ١٥٥٥ ، وقد عنى هذا الصديق بنشرها لأن فى رأيه كما جاء فى مقدمته أن من حق المؤلف على مواطنيه أن يقوم أحدهم بطبع عصارة أفكاره، لأن مؤلفه يكشف عن شتى الوسائل التى استجلبت بها التوابل إلى أوروبا فى الماضى . كما يكشف عن الرحلات البحرية والمكتشفات التى تزعم حركتها البرتغاليون فى الماضى . ومما أثبته جلفانو فى كتابه مجرى الحوادث التى شاهدها بنفسه فى جزائر ملوك خلال السنوات العديدة التى أقام بها ، والواقع أن هذا الموظف البرتغالى كانت له روح ملاك فقد شغل نفسه أثناء ولايته على جزائر التوابل بقراءة الإنجيل على الأهالى وشرحه

www.ibtesama.com Exclusive

لهم كما أسس معهدا[1] لتمكين المسيحيين من شبان الجزائر المبعثرة من أن يتلقوا العلم به .

ويعتبر ريتشارد هكلوت هذا الكتاب من أكثر الكتب نفعا للقراء من الإنجليز، فكتب فى تقريره عن هذا الكتاب عند الإشارة إلى كلمة الإهداء التى توجه بها جلفانو إلى اللورد روبرت سيسل بأن يتكرم بقراءة الكتاب وأمامه خريطة العالم . قال هكلوت : —

إن الكتاب على صغر حجمه يحتوى على كثير من المواد النادرة النافعة ولا أعلم نظيرا له على إيجازه ، لأن فيه ألم الكاتب فى تنسيق بديع بجميع من كان لهم فضل الإكتشاف على مر العصور منذ فيضان نوح ، مبينا الطرق والوسائل التى نقلت بها توابل الشرق وعقاقيره ومنتجاته الأخرى إلى الغرب جيلا بعد جيل .

(١) اتخذ معهد جزائر ملوك نموذجا لجميع المعاهد الأخرى بمقتضى قرار مؤتمر ترنت (Trent)

www.ibtesama.com Exclusive

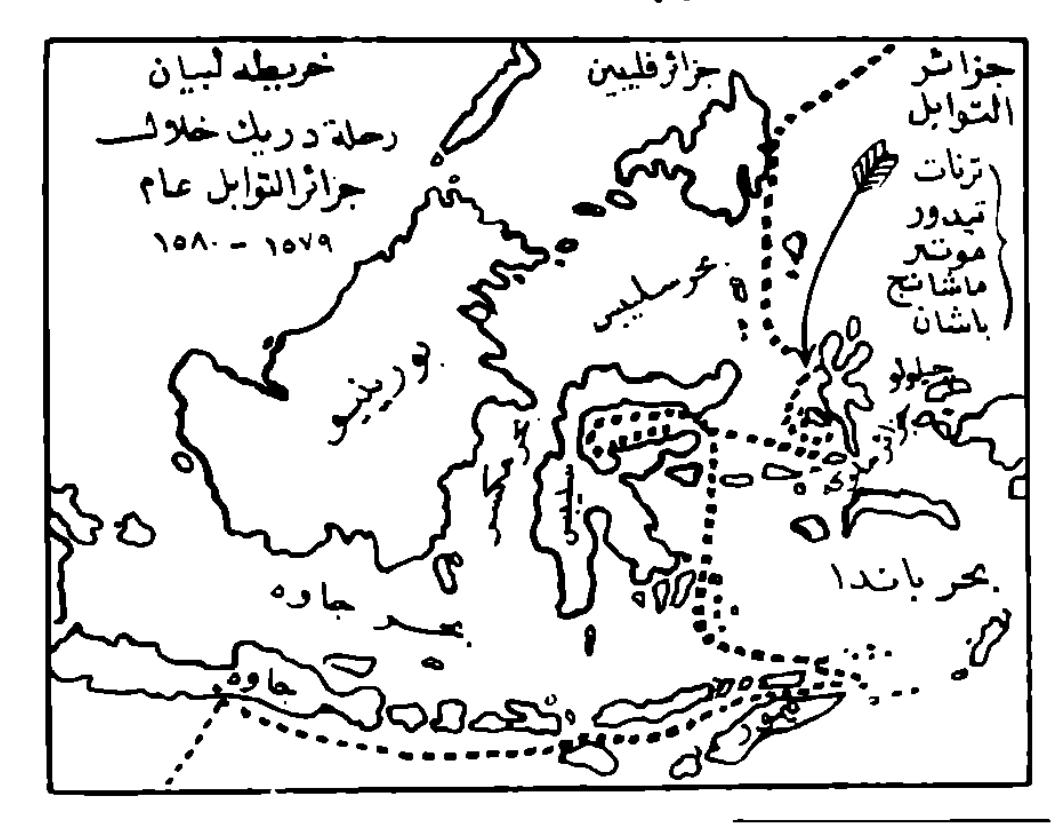
الفصل الرابع عشر

هنا يدخل الهولنديون

هاهو الجوّاب الأوربى يفتح الأبواب للمكتشفات بمفاتيحه الخبيرة المرنة
فيزيح الستار عن العناصر الضرورية للتجارة
تلك القواعد التى يقوم عليها بناء الكون

جوردن ١٦٥٩

فى عام ١٥٨٧ عاد من الهند إلى وطنه رجل هولندى يدعى « جان هويجن فان لونشوتن »[1]، وما أن استقر به المقام فى هولندا حتى شرع يؤلف كتاباً عن مشاهداته فى الهند أثناء إقامته الطويلة بها حيث كان يشغل منصب السكرتارية لكبير أساقفة جوا ، ولقد قدر لهذا الكتاب أن يكون له أثر عميق فى تنمية تجارة التوابل بالنسبة إلى هولندا وانجلترا .



(١) Jan Huighen Van Linschoten

www.ibtesama.com Exclusive

طبع هذا الكتاب تحت عنوان « الحاوى » على نفقة الدولة وهو كتاب يحوى طائفة كبيرة من المعلومات حتى ليكاد أن يكون كشكولا لعلوم النبات والحيوان والأجناس البشرية ومميزاتها فى البلاد التى زارها ، كما أنه يعتبر دليلا للعروض التجارية بجميع أنواعها . أما فيما يتعلق بقائمة الأحجار الكريمة فهو يضع أمام أعيننا مجموعة من الجواهر لا تضارعها فى يومنا هذا إلا مجموعة الجواهر المعروضة بمتحف « حصن لندن[1] » ، وأحضر لنشوتن معه خرائط ومشروعات اطلع عليها تجار هولندا مشجعاً إياهم على إيفاد سفنهم إلى الشرق الأقصى وخاصة إلى جاوا ، وهى جزيرة لا يتردد عليها البرتغاليون كثيراً على أن بها من الماس والأطياب والتوابل الشىء الكثير .

والسبب الذى من أجله لا يتردد عليها البرتغاليون إلا فيما ندر هو ما اعتاده أهل جاوا من حمل بضاعتهم إلى ملقا بأنفسهم .

وضع الدكتور بلودانس من جيران لنشوتن فى مدينة إنخيوزن حاشية تفسيرية للكتاب المذكور ثم أخذ المخطوط إلى المدعو تيودور دى برى من أهالى لييج أصلا ومن المقيمين بمدينة فرنكفورت حيث كانت له مكتبة بها ، وله شهرة واسعة فى فن الحفر . أقنع الدكتور صاحب المكتبة بصدق لنشوتن فيما كتبه وأطلعه على نماذج من منتجات الشرق ومن منتجات المصانع الشرقية التى أتى بها معه ليهديها إلى بعض الأمراء الألمانيين .

إقتنع صاحب المكتبة بما أكده له الدكتور من أن محتويات الكتاب لم يسبق إلى تأليفها أحد . وكانت فكرة نشر مجموعة من أنباء الرحلات قد إقترحها عليه قبل الآن ريتشارد هلكوت .

قبل تيودور دى برى وهو رجل بعيد النظر راجح العقل أن يقوم بنشر مجموعة من أنباء الرحلات فى وقت واحد باللغات الفرنسية واللاتينية والألمانية تحت عنوان « المشرقيات الهندية » ، وزين الكتاب بشتى الصور والرسومات العديدة بعد أن زوده لنشوتن وهلكوت بالصور الأصلية

(١) Tower of London

للبلاد والشعوب . ولقد استطاع الناس بفضل هذا الكتاب أن يطّلعوا على روعة الشرق وفتنته الخلابة بما فيه من توابل ، لا في هولندا فحسب ، ولكن في جميع البلاد التي يتكلم أهلها بالفرنسية والألمانية . وكان لبعض البيوت التجارية الكبيرة في ألمانيا مثل فوجرز [1] وولزرس [2] وكلاء في لشبونة وقادس ، وكثيرا ما رافق بعض أعضاء هذه البيوت التجارية البعثات البرتغالية في رحلتها إلى الهند ، ولكن لم يكن الشعب في مجموعه يعرف شيئاً ذا غنى عن تلك البلاد البعيدة التي يجلب منها الفلفل والقرنفل وجوزة الطيب حتى نشر تيودور دي بريه مجموعته القيمة عن الرحلات وأنبائها . وإن ما قد يقال على وجه التحقيق من أن كتاب ماركو بولو كان الحافز للأمير هنرى الملاح وللملوك البرتغال من بعده ، للبحث عن الطريق إلى الهند بحراً لاستيراد الأحجار الكريمة والتوابل يصح قوله كذلك عن كتاب لونشوتن بالنسبة إلى رجال الأعمال في هولندا وانجلترا .

ونقل الكتاب إلى اللغة الإنجليزية أحد الناشرين في لندن إسمه جون وولف الذي صرح في مقدمة النسخة المترجمة بأنه طلب إلى قاضي المحكمة العليا للبحرية أن يدلي إليه برأيه عن كتاب لونشوتن إذ أنه أصلح من يؤخذ رأيه في مثل هذا الموضوع ، كما صرح في الوقت نفسه بأنه أهيب به أن يطبع الكتاب بالانجليزية لا لأن قراءته ممتعة فحسب بل لأنه ذو نفع عظيم لأمتنا الإنجليزية .

وفي رتشارد هلكوت يقول جون وولف « إنه رجل عمل كثيراً على إعلاء سمعة إنجلترا والأمة الإنجليزية ، وفي كتاب لونشوتن الذي ترجمه يقول إن كاتبه رجل له مركز محترم سام في « جوا » محبوب من سكانها جماعات وأفراداً » .

وكانت عودة لونشوتن إلى هولندا في أثناء فترة عصيبة في تاريخ وطنه كان لها تأثير قوى على تجارة التوابل . ففي عام ١٥٧٩ أعلنت البلاد المنخفضة استقلالها ، فأراد فيلب الثاني أن يعاقب الثوار بضربة موجهة إلى صميم تجارتهم

(١) Fuggers
(٢) Welsers

www.ibtesama.com Exclusive

تقوض دعائمها لحرم على رعاياه من الإسبانيين والبرتغاليين [١] التعامل مع الهولنديين ، كما صادر جميع السفن الهولندية التى كانت راسية بثغر لشبونة .
فى ذلك الحين لم تكن الفكرة جديدة على الهولنديين بل إنهم كانوا يتوقعونها ، فطالما اقترح على بيوتات هولندا التجارية الكبرى وكلاؤها فى لشبونة أن يرسلوا السفن الى الهند لجلب التوابل مباشرة، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث .

لذلك ما كاد الملك يأخذهم بهذا العقاب الصارم حتى أفاقوا لأنفسهم أمام ماحل بهم من الضيق الشديد ، على أن ما أريد بهم من الشر كان لهم خيراً وبركة ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم . فقد استقر رأى الهولنديين أمام هذه المحنة العصيبة التى شلت نشاطهم التجارى وآذتهم فى أرزاقهم على أن يرسلوا أسطولا الى الهند وإن لم تكن كفة الميزان فى ذلك الوقت تبشر بنجاحهم . فقد كان من أهم العقبات التى تحول دون نجاح هذه الرحلة تكتم البرتغاليين كل مايتعلق بالطريق البحرية إلى الهند من معلومات وما سنّوه من قوانين تقضى بإعدام كل من يبيع خرائط بحرية للأجانب ، ولكن من حسن حظ ولاة الأمور فى هولندا أن أحد كبار موظفى الحكومة من الإسبانيين كان قد باع عن طريق المدعو « بيتر بلانشيوس » أحد طلاب الجغرافيا الكونية خمساً وعشرين خريطة من ذلك النوع المحظور بيعه ، إلى أحد أصحاب المكاتب فى هولندا ، وقد قدمها هذا الأخير إلى حكومته هدية منه ، بعد أن طبع نسخاً عديدة من هذه الخرائط والوثائق الثمينة على نفقته .

على أن العامل الذى كان له الفضل الأكبر فى إستقرار الرأى نهائياً على قيام بعثة الى الهند ، عودة رجل يدعى كورنيليوس فان هوتمان الى أمستردام بعد سنوات طويلة قضاها فى البرتغال كجندى فى مبدأ أمره ثم ترك الجندية للإشتغال بالتجارة ، وكان هذا الرجل قد سافر مرات عديدة مع البرتغاليين الى جزائر الهند الشرقية ، فعرض على بعض التجار فى هولندا أن يدلهم على الطرق السرية لتجارة التوابل نظير مبلغ من المال كان هو وشقيقه فى أمس الحاجة

(١) من ١٥٨٠ : ١٦٤٠ إجتمعت البرتغال واسبانيا تحت تاج واحد

www.ibtesama.com Exclusive

إليه لتسديد غرامة فرضت عليهما فى لشبونة ،وقبل التجار العرض فورا وعن طيبة خاطر، وكونت فى الحال جمعية لجمع المبلغ المطلوب . . وبعد أن دفعوا إلى فان هوتمان نصيبه المتفق عليه ، أسس تسعة من التجار شركة فيما بينهم وقاموا بإعداد أربع سفن لرحلة الهند فى عام ١٥٩٥ مع تعيين كورنيليوس فان هوتمان مديرا تجاريا لهذا الأسطول .

وانضم إلى البعثة شاب مولع بحب المغامرة يدعى وليم لودجيكست [١] وجد الفرصة سانحة للتمتع بمشاهدة العالم وقد سجل فى مفكرته تفاصيل الرحلة كلها وما وقع خلالها من حوادث وصورها تصويرا حيا مطابقا للوقائع .

وصل الأسطول الصغير بعد مآسى عديدة — وخاصة فى مدغشقر حيث خلف وراءه سمعة سيئة شريرة — إلى سومطرا ومن ثم إلى جاوا . وهنا فى ثبات تام نجح فان هوتمان فى عقد اتفاقية مع سلطانها لا للشئون التجارية فحسب بل للمساعدة المشتركة أيضا حال وقوع هجوم على أحد الطرفين . وما أن رأى التجار البرتغاليون ظهور منافسين لهم على المسرح حتى تملكهم الغضب وبيتوا الشر لمنافسيهم وراحوا يدسون لهم بين الأهالى ويحضونهم على مناصبتهم العدوان وأقاموا فى طريقهم العقبات من كل نوع .

أضف إلى ذلك أن كورنيليوس فان هوتمان كان قد تغول إلى الداخل قليلا فألقى القبض عليه وأسر ولم يفرج عنه حتى افتدى نفسه . . وما أن أطلق سراحه حتى وجد أنه من الخير فى هذا الظرف أن يقنع من الغنيمة بالإياب فنشر الأسطول الهولندى قلاعه وأبحر عن تلك المنطقة . وفى كل مرة يتصل فيها الهولنديون بأبناء الملايو كانوا لا يجدون منهم سوى الغدر والخيانة فنزلت بهم الكارثة بعد الكارثة حتى لم يبق من الرجال الذين بدأوا الرحلة وعددهم مئتان وخمسون رجلا إلا تسعين فقط قدر لهم أن يعودوا إلى وطنهم .

(١) Wilem hodewijekest

www.ibtesama.com Exclusive

وما أن استقر بالشاب لود فيجكست المقام فى وطنه حتى شرع فى نشر ما كان قددونه فى مفكرته مؤيدا بالرسومات التى وصفها بأنها اسكتشافات ولكنها فى نظر العصر الحديث تبدوا مجموعة دقيقة من النباتات والحيوانات والبشر فى جدهم وفى لهوهم .

طبع الكتاب المذكور فى امستردام فى عام ١٥٩٨ دون أن يذكر اسم المؤلف تحت عنوان «أول كتاب عن تاريخ رحلة الهولنديين البحرية إلى جزائر الهند الغربية » .

وبالرغم من أن نتيجة هذه البعثة كانت غير مرضية وبعيدة عن التوفيق إلا أنه تكونت شركة أخرى باسم « الشركة الجديدة » أرسلت أسطولا من جانبها فى عام ١٥٩٨ إلى جزائر الهند الشرقية تحت قيادة جاكوب كورنيليوس فان نك .

ولم تكن هذه السفن هى كل سفن الهولندين المبحرة إلى أرخبيل الملايو فقد كان هناك تاجر من كبار تجار فيرى فى زيلاندة[1] يدعى بلتزار مشرون أرسل هو أيضا سفينتين لحسابه الخاص. وكان هذا المغامر البروتستنتى المذهب قد أبدى إستعداده قبل ذلك الحين ، للمجازفة بأمواله فى محاولة العثور على طريق شمالية غربية توصل إلى الصين ، فأرسل ثلاث بعثات تباعا للبحث عن هذه الطريق فلم توفق واحدة منها، ولكنه الآن قد حول إنتباهه إلى طريق رأس الرجاء الصالح متأثرا بما قرأه فى تقرير لونشوتن، فأعد لذلك سفينتين «الأسد والأسدة » واستجاب لطلبه الحاكم العام فمنحه ما يلزمه من المؤن ، وعين لسفينتيه قائدين هما الشقيقان كورنيليوس وفردريك فان هوتمان ، كما عين انجليزيا اسمه جون ديفز رئيسا للمرشدين . قد يستغرب إختيار بلتزار مشرون لرجل إنجليزى ولكن الحقيقة الواقعة هو أنه كانت توجد فى تلك الأيام صلات طيبة بين البلاد المنخفضة وانجلترا ولا غرو فقد مدت هذه الأخيرة إلى الأولى يد المساعدة الفعلية فى كفاحها ضد أسبانيا .

(١) Veere in Zeeland

www.ibtesama.com Exclusive

ولما كانت ترابط بصفة مؤقتة فى فلاشبخ حامية إنجليزية لم يكن من العسير أن تحاط الأوساط الرسمية فى إنجلترا بما اعتزمه مشرون من إيفاد بعثة إلى جزر الهند الشرقية لذلك قدم جون ديفز بناء على اقتراح الإيرل أوف إسكس إلى ملك الملاحة فى زيلاند خدماته كمرشد للبعثة التى قبلت فى الحال وعن طيبة خاطر، ولا عجب لجون ديفز كان يعتبر فى ذلك الوقت أشهر الجوابين الإنجليز فى اكتشاف منطقة المتجمد الشمالى، وكان قد قام بثلاث محاولات قبل ذلك لإكتشاف الطريق الشمالية الغربية كما كانت له خبرة واسعة بقيادة السفن، وهو إلى ذلك كله يتصف بالنزاهة وكرم الأخلاق وله كتب قيمة فى فنون الملاحة .

كان جون ديفز هذا حديث العودة من رحلة قام بها مع توماس كفندش[1] إلى مضايق مجلان، فهو ينتمى إلى تلك الفئة من الأصدقاء الذين تتألق أسماؤهم فى سماء المجد والمروءة والاستكشاف، كأسرة جلبيرت وسيروولتر رالى[2]. كان ديفز وطنيا غيورا فلم يسعه إلا النزول على رغبة الإيرل أوف إسكس دون تردد، وجاء فى خطاب كتبه فيما بعد إلى الإيرل. «إن الدافع له فى قبول ما كلف به رغبته وأمله فى أن يكون فى الكشف عن هذه الأجزاء الشرقية من العالم مايزيد من مجد جلالة الملكة ومن الخير للوطن.»

ويستخلص من تقرير كتبه جون ديفز عن هذه الحملة مبلغ رقته ومروءته وتألمه من طباع ڤان هوتمان الخشنة القاسية ووحشيته فى معاملة الأهالى حتى أن السمعة السيئة التى خلفها فى مدغشقر كادت تحول دون إستطاعة البعثة أخذ مايلزمها من التموين والمؤن . لذلك إضطر الأسطول الصغير إلى قضاء أسبوعين فى خليج سان أوجستين وهو يحاول عبثاً إبتياع المؤن الضرورية بسبب هرب الأهالى عن الشاطىء حتى أضطر جون ديفز فى النهاية إلى الإبتعاد عن هذا الخليج الذى سماه بالخليج الجائع .

أقلعت السفينتان «الأسد والأسدة» إلى سومطرا بعد أن تزودتا بالمؤن

---

(١) Thomas Cavendish.

(٢) Sir Walter Raleigh.

www.ibtesama.com Exclusive

التي كانتا في أشد الحاجة لها . وفي سومطرا رست البعثة أمام ثغر آشين في أقصى غرب هذه الجزيرة العظيمة حيث كانت الأمور تبدو في أول الأمر على أحسن ما يرام . فرحب السلطان علاء الدين بمقدم الوافدين وبذل لهم كثيراً من التوابل حتى أن كورنيليوس فان هوتمان عاد من لدن الملك في قارب محمل بالفلفل ، وقد وعده هذا الأخير بفتح أبواب الإتجار الحر أمام البعثة .

بلغت أنباء وصول السفينتين الهولنديتين إلى مسامع ذوى الأمر من البرتغاليين في ملقا إذ يقول جون ديفز في تقريره « حضر برتغالي يدعى دون ألفونس ومعه أربع سفن من ملقا ليحول دون إتجارنا مع الأهالي كما سنوضح فيما بعد » .

لم تكن السفن الإنجليزية قد أبحرت حتى هذا الوقت إلى جزر الهند الشرقية، على أننا نجد كثيراً من الأفراد الإنجليز قد وصلوا إلى تلك الجهات على ظهر السفن البرتغالية ، لذلك لم يكن من غير الطبيعي أن يتوهم ملك آشين بأن القادمين الجدد إنما جاؤا من انجلترا ، والواقع أن الملك سأل فان هوتمان في أول إجتماعهما عما إذا كان قد قدم من انجلترا فاعتبر هذا الأخير مجرد السؤال إهانة وراح يعطر انجلترا وابلا من الشتائم والسباب في حدة وغضب ، وما أن عاد إلى سفينته حتى صب جام غضبه على بريتين من أبناء ذلك البلد هما جون ديفز المرشد وبحار آخر ، ولم يكن مع البعثة غيرهما من الإنجليز .

فاض قلب القائد الهولندي بالمرارة والحقد حينما أصر الملك على سؤاله في المرة الثانية التي مثل فيها بين يديه عما إذا لم يكن إنجليزيا ، وكان يود الملك لو أنه كان كذلك حتى أنه وعد بمنحه كيساً مملوءاً بالذهب إلى جانب صداقته لو أنه اعترف بجنسيته الإنجليزية ، ولكن فان هوتمان رفض الذهب والصداقة في أنفة وإباء معلناً بأنه من فلاندرز (بلجيكا الآن) ، فسأل الملك : وأي بلد يكون هذا ؟ لقد سمعت عن إنجلترا ولكنني لم أسمع أبداً عن فلاندرز

www.ibtesama.com Exclusive

أى بلد تكون فلاندرز هذه ؟ لم يفز الهولندى بمرضاة الملك على كثرة غلوه فى تملقه وإطراء وطنه وأصر الملك على مقابلة الإنجليزيين الذين سمع بوجودهما فى السفينة ، فبذل فإن هوتمان كل ما فى وسعه للتحقير من شأن الإنجليزيين فى نظر الملك ، ولكن جهوده ذهبت أدراج الرياح ، وقد قبل الملك فى النهاية عقد الاتفاقية الآتية على شريطة أن يؤتى بالمرشد الانجليزى إليه ، عرض الملك إستعداده لملء السفينتين بالفلفل إذا تعهد الهولنديون بمساعدته فى قتاله مع عدو له ، كان العرض سخياً لا يمكن التغاضى عنه فقبل هوتمان على مضض . ولكن سرعان ما تعرضت هذه الاتفاقية لخطر الإلغاء لأن هوتمان حال دون مغادرة ديفز للسفينة ولكنه اضطر فى النهاية إلى السماح له بذلك حينما أدرك أن فى منعه من مقابلة الملك حرمان له من الحصول على الفلفل .

وجد ديفز السلطان علاء الدين رجلا مفرطا فى الطول ملىء الجسم مرح الروح مقبلا على الحياة على رغم ما قيل من أنه قد جاوز المائة من عمره وأنه بدأ حياته صياد أسماك . وقد ضمن الانجليزى تقريره كل ما قيل له عن حياة هذا السلطان التى هى أقرب إلى الأساطير منها إلى الحقيقة . ويظهر أنه كان قد أبدى بسالة وإقداما فى إحدى المعارك البحرية فسر الملك بذلك وزوجه من إبنته ، ولكن سرعان ما اغتصب صياد السمك الأسبق عرش السلطان واحتفظ به بقوة السلاح ، ما لا يقل عن عشرين عاما وهو الآن ينشد معاونة السفينتين الهولنديتين فى قتاله مع ولى العرش الشرعى .

ويقص علينا جون ديفز فى تقريره عن هذه الرحلة ما قاله للسلطان أثناء مقابلاته المتكررة عن عظمة انجلترا وملكتها الشهيرة ، وكان يبدو أن السلطان يَكِنُّ لانجلترا عظيم الاحترام لإقدامها على محاربة جميع أوروبا وحدها ، فقد كان الملك يعتقد بأن أسبانيا وأوروبا شىء واحد أى أن أسبانيا هى أوروبا بأسرها .

ولكن لسوء الحظ كانت نتيجة تعريض البرتغاليين ، بأن الهولنديين ليسوا إلا جواسيس إنتحلوا صفة التجار ، أن ثارت حفيظة الملك فغدر

www.ibtesama.com Exclusive

بالزائرين الهولنديين رغم مظاهر المودة والوعود بالمصادقة فقتل ڤان هوتمان وأسر آخوه ونجا بحياته كل من إستطاع الهرب تاركين وراءهم جميع أمتعتهم إلى جانب كمية الفلفل التى استطاعوا شراءها وهى تبلغ مائة وأربعين رطلا ، ورثى جون ديفز فى مذكراته لبعض أولئك الأفذاذ من الملاحين الذين لقوا حتفهم بينما كانت جميع البوادر تبشر بالنجاح والثروة .

قام خازن البعثة وهو فرنسى يدعى «جيليفور» بعبء قيادة البعثة وفقا لأوامر تضمنها خطاب مختوم لم يكن ليفتح إلا فى حالة وفاة القائد ، فعاد بالسفينتين سالمتين إلى زيلاند فى عام ١٦٠٠ وكان إبحارهما من هولندا خلال مارس ١٥٩٨ .

وبمجرد عودته إلى وطنه رفع « جون ديفز » تقريره إلى ألايرل أوف أسكس .

* * *

بينما كانت السفينتان التابعتان لبلتزار موشيرون تعصف بها الأحداث السالفة الذكر ، كانت الشركة الجديدة التى سبق الكلام عنها قد أخرجت إلى البحر حملة مكونة من ثمانى سفن تحت قيادة جاكوب ڤان نك تستهدف إجتياز البحار الشرقية ، وقد لامست بعض سفن الحملة جزيرة مدغشقر فى طريقها وجزيرة أخرى إلى جوارها غير مأهولة ، كان البرتغاليون قد أطلقوا عليها اسم سِيرْن فغير القائد الهولندى إسمها إلى موريس تخليداً لاسم حاكم البلاد المنخفضة موريس أوف ناسو .

وقبل أن يرحل الهولنديون عن هذه الجزيرة علقوا سبّورة على شجرة بالقرب من مدخل الميناء كتب عليها « المصلحون المسيحيون » ورسم على السبورة شعار هولندا وزيلندا وأمستردام ليبرهنوا لجميع الملاحين الذين قد يمرون بهذه الجزيرة على أنه قد مر بها من قبلهم نصارى هولندا .

* * *

كانت نتيجة رحلة أمير البحر ڤان نك إلى أرخبيل الملايو رحلة موفقة

www.ibtesama.com Exclusive

فأحسن الأهالى إستقباله ، وقد أخذ سمته فى طريق العودة بأربع سفن بعد أن ملأها بشتى أنواع التوابل والأفاوية ، بينما واصل نائبه أمير البحر ويبراند فان وَرِك [1] السير إلى جزائر التوابل .

زارت هذه السفن جزيرة ترنات عام ١٦٠٠ حيث أخبرهم ملكها بأنه من العسير عليه أن يزودهم بما يطلبون من القرنفل وجوزة الطيب إذ سبق له أن وعدها قائدا انجليزيا اسمه دريك [2] فأفهمه ورك بأن الإنجليز قوم شريرون وأنهم وإن كانوا ينتحلون شخصية التجار إلا أنهم قد أتوا فى الحقيقة ليسلبوه ملكه . ورغما من الوعد الذى قطعه السلطان على نفسه لدريك فإنه عقد مع أمير البحر الهولندى إتفاقية شبيهة باتفاقيته مع دريك فى مقابل مساعدة الهولنديين له على مقاتلة البرتغاليين .

وحوالى هذا التاريخ ١٥٩٩ وصلت سفينة هولندية جزيرتى بندا وأمبوينا حيث طلب الأهالى إلى قائدها أن يساعدهم على قتال البرتغاليين ، فأبدى القائد إستعداده للمساعدة إذا سمح له فى مقابل مساعدته أن يبنى له حصن . وسرعان ما بنى الحصن ورابطت فيه حامية هولندية .

وبعد هذا التاريخ بفترة وجيزة من الزمن أسس قائد هولندى آخر هو أمير البحر جان فان همزكرك [3] مركزين للتجارة فى جزيرة بندا ثم بعد أن وسق سفينتين بالتوابل أقلع شطر وطنه .

كان صاحبنا الشغوف بالمغامرات الذى سبق له مصاحبة فان هوتمان قدرافق هذا الأسطول.وكان آخر ما دونه فى يومياته بإيجاز قوله : « وأخيراً وصلت هاتان السفينتان إلى تكسل بعد مشاق مضنية وقلق وآلام وتعرض للأمراض بسبب نقص الطعام والماء . . . ومن ثم وصلنا أمستردام بربح وغنم وفير لكل من ساهم فى البعثة، ومن اليسير تصور مدى هذا الربح إذ كانت جميع السفن الثمانية قد عادت بخيرات عميمة بحمد الله العلى العظيم الذى خصهم برعايته وسط البحار الطامية التى اقتحموها ، ثم قدر لهم العودة سالمين إلى وطنهم » .

---

(١) Wybrand Van Warwick

(٢) Jan Van Hemskerk

(٣) Drake

www.ibtesama.com Exclusive

وقد حققت البعثة هدفها من هذه الرحلة وإن تكن الخسائر التى منيت بها فى الأرواح جسيمة، ولم يسع ملك اسبانيا إلا أن يدرك بأن البلاد المنخفضة لم تعد تعتمد على قادس ولشبونة فى متاجرتها بالتوابل.

عظم اهتمام جميع الاوساط فى هولندا بجزائر الهند الشرقية حتى رغب كل إنسان فى أن يكون له نصيب من تجارة الشرق المربحة مما ترتب عليه أن عمد الأهالى إلى تكوين شركات صغيرة شرعت فى إرسال سفنها الى أرخبيل الملايو حتى بلغ عدد السفن الهولندية الراسية أمام بنتام فى وقت واحد أربع عشرة سفينة.

* * *

وسرعان ما ظهرت الأضرار الناجمة عن عدم تنسيق الجهود فى هذا المضمار فأمام تزاحم التجار والوسطاء على التوابل رفع الأهالى أثمان عروضهم بينما هبطت أسعار التوابل وغيرها من بضائع الهند فى السوق الهولندية لكثرة المعروضات فيها حتى اضطر الحاكم العام أمام هذه الحالة غير المرضية أن يهيب بالشركات الصغيرة إلى الإندماج فى شركة واحدة كبرى تُمنح احتكار تجارة التوابل. فكان له ما أراد ومنحت الشركة الجديدة براءة خاصة للإحتكار، اغتبط بها الجميع حتى أكثر رجال الأعمال طموحاً، ولا غرو فقد منحت الشركة حقوقاً وامتيازات بعيدة المدى لا تقل فى شىء عن الامتيازات التى كان يدعيها لأنفسهم ملوك البرتغال واسبانيا والتى كان يتبرم بها الهولنديون فى مرارة ويصفون أصحابها بالصلف والإغراق فى التغالى.

* * *

ولكن هذه الحقوق والامتيازات الممنوحة للشركة الهولندية لتجارة جزائر الهند الشرقية أصبحت فى عيون الهولنديين الآن حقوقاً مشروعة لاغبار عليها بعد أن كانوا يطعنون على البرتغال واسبانيا ويرون فى استئثارهما لها غبنا

www.ibtesama.com Exclusive

فاحشاً بالنسبة لهم . ونصّت البراءة الممنوحة لهم على حق الملاحة لسفن الشركة فى البحار الواقعة شرق رأس الرجاء الصالح وغربى مضايق ماجلان مع منحها سلطة القتال أو المسالمة وحق الاستيلاء على السفن الأجنبية ومصادرتها وحق إقامة الحصون وصك النقود . . ألخ

ولما كانت للشركة الجديدة صبغة المؤسسات القومية فقد طلب الحاكم العام الى ست مدن من أكبر المدن الهولندية أن تساهم فى رأس المال الذى حدّد بستة ملايين فلورن « أى ستمائة ألف جنية بعملة اليوم » . وخصصت لكل مدينة حصة معينة تتناسب مع أهميتها وثروتها ، وطرحت الأسهم فى السوق لتمكين كل فرد من رعايا البلاد المنخفضة من أن يكون له نصيب من الربح الذى تحققه تجارة الفلفل وجوزة الطيب والقرنفل .

إغتبط الهولنديون أشد الإغتباط بتأسيس هذه الشركة الجديدة وباتساع ميدان نشاطها ولكن فيليب الثانى لم تعجبه هذه الحال واعتبر تكوين الشركة تحديا له ودعوة للقتال .

* * *

قبل فيليب الثانى التحدى وقرر ان تكون مضايق ملقا ميداناً للنزال والمصاولة فأصدر إلى أسطوله الأوامر بمهاجمة كل سفينة هولندية يصادفها فى تلك المياه بينما تبذل كل الجهود للقضاء على تجارة الهولنديين أو محاولتهم للإتجار براً عن طريق إثارة الأهالى ضدهم .

على أن الجزء الأخير من هذه الأوامر يعتبر غير ذى موضوع إذ كان التجار البرتغاليون المحليون قد مضى عليهم زمن طويل وهم يلعبون هذه اللعبة أى منذ ظهور الهولنديين فى تلك الأنحاء .

ترتب على الموقف الجديد أن أصبح البرتغاليون والهولنديون يتنافسان

www.ibtesama.com Exclusive

على ثروة أرخبيل الملايو الغنى ووجد البرتغاليون فى منافسيهم مزاحماً خطيراً ذا دهاء وبصيرة بالأمور .

أثار ما كان يجرى بين اسبانيا وهولندا حول تجارة التوابل اهتمام مدينة لندن ولا عجب فرحلة جون ديفز على ظهر السفينة الهولندية إلى مناطق الفلفل لم تكن من عبث الأمور .

وقد علق أحد المعاصرين الإنجليز على البعثات الهولندية فوصفها بأنها « تشجيع لذوى المطامع من الأنجليز » وحثهم على انتهاز كل مايسنح لهم من الفرص فى محيط إمكانياتهم .

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

---

www.ibtesama.com Exclusive

الفصل الخامس عشر

أعمال سير فرانسيز دريك الجليلة

إلى ألف مملكة سوف نمضى من بعيد
إلى ألف شعب مزقته الحروب الأهلية
هناك حيث عروس البحر بشعرها الشعث الكثيب
سوف تمضى سفننا ناشرة أجنحتها الجبارة
ولسحب أناجرها من وسط المحيط المزبد
وتهيم فى كل مناخ واتجاه
مخضعة لسلطاننا كل بلد غير مسيحى
حيث يكاد اسم إنجلترا يكون مجهولا
« ميكل درايتون ١٦٢٠ »

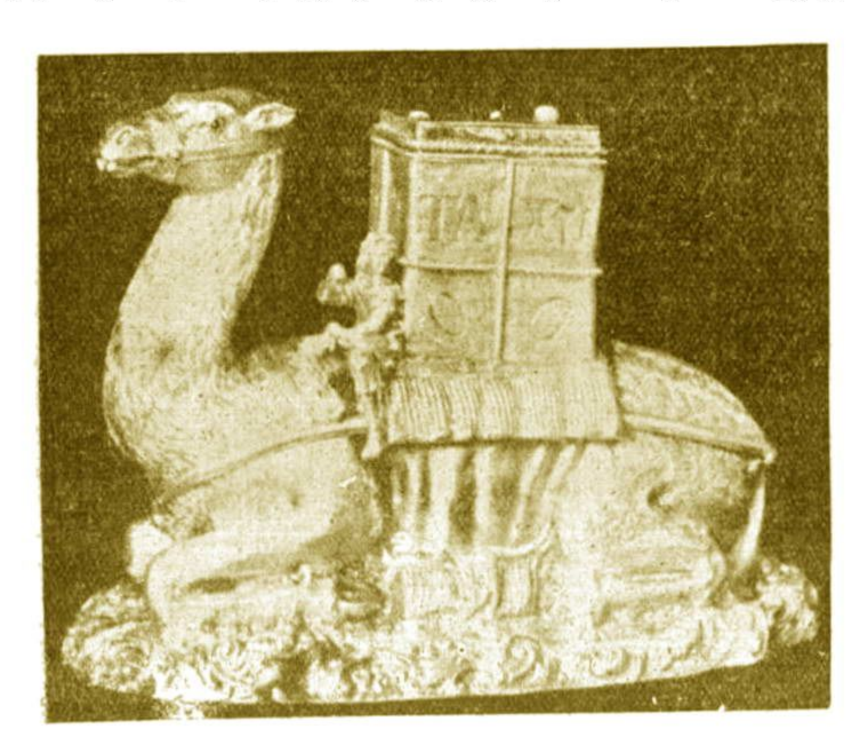
اتصل الملاحون الإنجليز عام ١٥٥٣ بالامبراطورية المسكوفية أثناء الرحلة التى قاموا بها لاكتشاف الطريق الشمالية الشرقية إلى الصين ، وقد ترتب على هذه الرحلة إنشاء الشركة المسكوفية الموقرة .

وحدث بعد هذا التاريخ ببضع سنوات أن زار بعض موظفى هذه الشركة مدينة هرمز ، حيث تباع جميع أنواع التوابل ، فعلموا أنها على مسيرة ستة أيام من مقرهم . لذلك اقترح أحد التجار البريطانيين على مخدوميه فى لندن بأنه «قد يكون من الخير لهم لو أرسلوا وكلاء لهم من إنجلترا إلى هذه المدينة الهامة» ، مضيفاً إلى ذلك توصيته بأن يحسنوا إختيار الوكلاء عنهم فلا يكونون من ذوى النفوس الشريرة ولا من السكيرين خشية الإساءة إلى سمعة إنجلترا كما حدث مع ريتشارد جونز ، الذى ترتب على مسلكه اعتبار الإنجليز أسوأ طباعا ومسلكا من الروس . وأوصى المقترح كذلك بأن يحمل ما يبتاع من التوابل فى هرمز إلى إنجلترا عن طريق استراخان بشاطىء البحر الأسود ومن ثم إلى أركنجل على البحر الأبيض .

www.ibtesama.com Exclusive

وزار مدينة حلب فى عام ١٥٥٠ إنجليزى كثير الاسفار يدعى أنطونى جنكنسون ، حاول الاتفاق مع أولى الأمر من الترك على تيسير وسائل الإتجار لمواطنيه المقيمين فى تلك المدينة ، فيمنحون إمتيازات مماثلة للإمتيازات التى يتمتع بها التجار الفرنسيون والإيطاليون وحدهم . وكان الفرنسيون يتمتعون بامتيازات خاصة بناءً على اتفاقية عقدت مع الحكومة التركية عام ١٥٣١ . وتبعهم تجار فينيسيا فعقدوا اتفاقية مماثلة كذلك بعد ما رأوه من الفوائد العائدة على التجار الفرنسيين .

عجب أنطونى جنكنسون أشد العجب من انصراف التجار البريطانيين فى حلب عن الرغبة فى عقد اتفاقية مماثلة لاتفاقية الفرنسيين والفينيسيين . ولم يكن من العسير إدراك سبب إعتراضهم الناشىء عن كثرة الأخطار التى تعترض سبيل السفن فى البحر الأبيض المتوسط لكثرة عدوان قراصين شمال إفريقيا ، ففى رأى هؤلاء التجار الإنجليز أنه ليس هنالك أية فائدة من تكوين شركة لحمل التوابل فى سفن خاصة بها تحل محل سفن فينيسيا ، فمدينة سوثامبتون[1]



صندوق نشوق عام ١٧٩٠

---

(١) Southampton

هى السوق الرئيسية التى ترسل إليها بضاعتهم ، وهى فى نفس الوقت المدينة التى تحمل إليها السفن الفينيسية البضائع المستوردة من الهند وفارس وتركيا، وهى سفن صنعت خاصة لحمل الشحنات الكبيرة فليس من اليسير قيادتها . وفى هذه السفن تحمل من الإسكندرية توابل الشرق وكنوزه إلى الثغور الأوروبية ، وهى من النوع الذى كان ينتظر « تاجر البندقية » وصول إحداها فى قلق واهتمام . فكم من فينيسى وظف كل ثروته فى تجارة التوابل وكان ينطبق عليه ما وصف به شكسبير تاجر البندقية وهو ينتظر شحنته الغاليه .

ينتف الحشائش ليعلم إتجاه الرياح

مكبا على الخرائط بحثا عن الثغور والمراسى والطرق

فعقلك هائم يتخبط فوق المحيط .

هناك حيث سفينتك العظيمة بأشرعتها الشامخة

كالقصور والآطام فوق العباب

يراقبها أصحابها الأثرياء وهى تسخر من الزوارق المتواضعة فى غدوها ورواحها .

حدث ذات مرة أن غرقت إحدى هذه السفن بحمولتها الغالية وبكل رجالها على مقربة من جزيرة ويت[1] فقرر الفينيسيون أمام هذه الكارثة وأمام الخسائر فى الأرواح والأموال أن يكفوا عن إرسال سفنهم إلى إنجلترا .

فليحمل التجار الإنجليز تجارتهم من فينيسيا فى سفنهم .

كان انقطاع هذه الواردات — على غير انتظار — عن ثغور إنجلترا هو العامل الذى دفع التجار الإنجليز إلى الذهاب بأنفسهم لجلب التوابل ، مما ترتب عليه تأسيس شركة الشرق بعد أن عقدت المملكة اليصابات إتفاقية مع السنيور الأكبر فى عام ١٥٨١ .

قرر عام ١٥٨٢ تاجران من أعضاء هذه الشركة زيارة الهند برا معتزمين السفر من لندن إلى حلب ومن ثم إلى هرمز فالهند .

---

(١) Isle of Wight

www.ibtesama.com Exclusive

وسمع رجل يدعى جون نيوبرى[١] بالرحلة المعتزمة فقرر الانضمام إلى التاجرين وقد حملته الملكة اليصابات خطابين ، أحدهما لملك كباى والثانى لإمبراطور الصين . وكان نص الخطاب المرسل لهذا الأخير كالآتى .

أيها الإمبراطور الذى لا يقهر : —

إن شغف رعايانا بزيارة أركان العالم البعيدة مع توفر حسن النية والرغبة فى التعامل تجاريا مع جميع الأمم عن طريق تبادل السلع والمنتجات لصالح الطرفين ، ولتوثيق عرى الصداقة والمودة ، قد دفعنى إلى كتابة هذا الخطاب وإرساله إليكم مع حامله جون نيوبرى ومن يكون معه من زملائه ورفقته ، الذين أقدموا فى جرأة وبسالة على تحمل أهوال السفر إلى حدود إمبراطوريتكم . وختمت الملكة خطابها طالبة إلى الإمبراطور أن يشمل برعايته رسولها ومن معه وأن يسمح لهم بالمرور .

وهكذا نرى عام ١٥٨٣ أربعة رجال من الإنجليز هم رالف فتش وجون نيوبرى وصائغ اسمه إلدرد[٢] ونقاش اسمه أستورى[٣] يرحلون من حلب إلى البصرة ومنها إلى هرمز.

وكان نيوبرى يبعث الرسائل من كل بلد ينزلون فيها بما يجمعه من المعلومات بشأن التوابل وأسعارها ... الخ . ولم يدر بخلدهؤلاء المسافرين احتمال مناصبة الإيطاليين والبرتغاليين العداء لهم ، فساءت الأمور فى هرمز إذ أحس الإيطاليون باحتمال المنافسة لهم، فاتهموا الإنجليز بالجاسوسية مما دعا السلطات البرتغالية إلى وضع هؤلاء المنافسين ـ على غير انتظار ـ فى السجن .

كتب جون نيوبرى إلى تاجر إنجليزى بالبصرة ليكتب بدوره إلى تجار لندن ، ليشفعوا له ولزملائه لدى ملك إسبانيا الذى كان ملكا على البرتغال فى نفس الوقت ، مختتما رسالته بهذه العبارة « لا يجوز للبرتغاليين هنا أن يعدمونا إذا هم توخوا العدالة والانصاف . إنهم قد يدعونا أو يتركونا فى أعماق السجون فلتكن مشيئة الله فأمره نافذ على كل حال .

(١) John Newbury (٢) Eldred (٣) Story

www.ibtesama.com Exclusive

ولكن حدث أن والى هرمز كان قد لقى كثيراً من العطف ذات مرة من أحدمواطنى المتهمين، فأراد أن يقابل الإحسان بالإحسان ، لذلك بعث بهم إلى «جوا» ليحاكموا أمام نائب الملك وهى خطوة أنقذت حياتهم ما فى ذلك شك .

ولما كانوا انجليزاً بحكم جنسيتهم فقد أعتبروا لأول وهلة من أبناء المذهب البروتستنتى ، ولم يصـــدق أحد قولهم باتمائهم الى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية . ولكن ما كاد يقتنع الترجمان، وكان راهبا بلجيكيا ، بأن السجناء يعتنقون نفس المذهب الذى يدين هو به ، حتى وعد بالعمل على اطلاق سراحهم ، على شريطة أن ينضموا الى جماعته ، وهى جماعة «الجزويت» . رفض السجناء الانجليز هذا الشرط فلم يكن بهم حاجة إلى الرهبنة ولا للرهبنة غادروا وطنهم . كان رفضهم نذيرا لهم بالعذاب الشديد إذ قرر الراهب أن يتركهم لمصيرهم فى السجن طمعا منه فى الاستيلاء على ما كان معهم من الأموال لحساب جماعة الجزويت . كان استورى النقاش هو الوحيد الذى قبل اعتناق مذهب الجزويت ، ولكنه لم يدم طويلا على هذا العهد فقد خرج على نظم الجماعة وتزوج من إحدى نساء الأهالى وقضى بقية حياته فى «جوا» . وكان من حسن حظ هؤلاء الإنجليز الذين اصبحوا لا حول لهم ولا قوة أن سمع بوجودهم فى «جوا» رئيس الأساقفة البرتغالى فأرسل سكرتيره «أيان هيوغن فان لنشوتن» مع بعض البلجيكيين لاستجواب السجناء .

كان نتيجة الاستجواب أن أطلق سراحهم بضمان تاجر أخذته الشفقة عليهم ولكن تصرمت الشهور دون أن يقدموا للمحاكمة .

سنحت الفرصة لرلف فتش ، وجون نيوبرى خلال هذه الفترة لمراقبة مجرى الأمور فى «جوا» وهى تنبض بالحياة والحركة وغدو الناس عليها ورواحهم، فشاهدوا مقدم سفير من قبل ملك اليابان لملك البرتغال ومقدم غيره من سفراء العجم وكامباى وكلكتا وكوشن ، لتوقيع معاهدات للسلام مع نائب الملك فى «جوا» .

www.ibtesama.com Exclusive

كل هذا جعل الانجليز يدركون مدى عظمة البرتغال وسلطانها فى الشرق .

وقع فى ذلك الوقت حادث رواه لنشوتن ، كان له أعمق الأثر فى نفوس الأوروبيين فقد قدمت إلى جوا ملكة هرمز الصغيرة السنّ ومعها شقيقها ليعتنقا الدين المسيحى ويُعمدا، وكان على الملك أن يواصل السفر إلى البرتغال بينما بقيت الملكة فى « جوا » حيث تزوجت بعد حين من ضابط برتغالى ، ولكنه لم يلبث أن أرسل إلى هرمز لحزنت لذلك حزناً عميقا إذ كان بديهياً أنها لن تستطيع اللحاق به إلى هرمز بسبب اعتناقها الديانة المسيحية .

وسرعان ماقضت نحبها من شدة الحزن على فراق زوجها فبكاها كل إنسان فى «جوا» لأنها كانت أول ملكة فى ذلك القطر تعتنق المسيحية مفضلة ذلك على عرشها ووطنها .

* * *

أبحر رئيس الأساقفة بعد ذلك الحادث بقليل إلى لشبونة على ظهر سفينة موسقة بالتوابل ولكن لسوء الحظ غرقت السفينة ولمَّا تبعد كثيراً عن الميناء، وتصادف وجود قوارب عديدة استطاعت أن تنقذ جميع الركاب سوى بعض الأرقاء المصفدين ، وظهر من التحقيق الذى أجرى لمعرفة الأسباب التى أدت إلى غرق السفينة أن الأثقال التى توضع عادة فى السفينة لحفظ توازنها ، كانت قد ألقيت فى البرسراً لإفساح المكان لشحنة من القرفة نظراً لارتفاع سعرها فى أسبانيا . وكان المشرفون على الميناء قد تغاضوا عن هذا الأمر غير المسموح به تحت إغراء الرشوة .

أما لنشوتن فيعزو سبب الغرق إلى هرب بعض الدجاج من حظيرتها ، لجرى كل جماعة وراء دجاجة ليمسكوها ، وحيث أن السفينة كانت خالية من الأثقال التى تحفظ توازنها فقد غرقت من فورها .

أبحر رئيس الأساقفة بعد ذلك الحادث بوقت قليل فوق ظهر سفينة أخرى ولكنه توفى أثناء الرحلة . وكان أن وصل نبأ وفاته إلى لنشوتن فى نفس

www.ibtesama.com Exclusive

اللحظة التى علم فيها بوفاة أبيه فقرر من فوره العودة لهولندا ، وفى الوقت نفسه ساور الإنجليز القلق لوجودهم بجوا رغم إرادتهم ولغير جرم ارتكبوه ، على أنهم لم يلبثوا أن اكتشفوا بأن المعاملة المجحفة التى يعاملون بها ما هى فى الواقع إلا إنتقام لما لحق بعض البواخر البرتغالية من سوء المعاملة فى أرخبيل الملايو ذات مرة على يد رجل إنجليزى .

كتب نيوبرى إلى إنجلترا بكل ماسمعه من أن «المستر دريك غادر إنجلترا فى أسطول مكون من عدة قطع ، ومن أنه وصل جزر ملوك وملأ سفنه بالقرنفل ، وأنه عندما وجد بها إحدى السفن البرتغالية الكبيرة أمر قطعتين من أسطوله بإطلاق النيران فى الحال عليها ، وأضاف نيوبرى إلى ذلك بقوله «حينما رأيت غضب البرتغاليين فى جوا لما حدث سألت أحد الضباط الموكل إليهم أمر حراستنا عما إذا كان أسرنا للانتقام . فأجاب لا وإنه ليقصد العكس» وذكر نيوبرى فى خطابه هذا بأنه هو وأصحابه مدينون لأحد الرهبان من الانجليز المنتمين لجماعة الجزويت[1] يدعى الأب توماس إستيفنس وإلى سكرتير رئيس الأساقفة الهولندى باستمرار وجودهم على قيد الحياة .

ولما ضاق الانجليز ذرعا بإقامتهم فى جوا منتظرين تقديمهم للمحاكمة قرر رالف فتش وجون نيوبرى محاولة الهرب ، فابتاعا بعض الجواهر بما كان معهما من المال ولاذا بالفرار سالمين . وفى مدينة لاهور افترق نيوبرى عن زميله ليعود إلى إنجلترا عن طريق سوريا ، ولكن انقطعت أخباره منذ ذلك الحين فلم يسمع أحد عنه شيئا . أما رالف فتش فزار المغول الأكبر فى عجرا ثم واصل سفره حتى الصين وأرخبيل الملايو ، وكان يدرس مسألة احتمال

---

(١) لم تكن السفن البريطانية قد سلكت حتى الآن فى إبحارها إلى الهند طريق رأس الرجاء الصالح وإن يكن أحد الإنجليز قد فعل ذلك فى إحدى السفن البرتغالية وهو الأب توماس ستيفنس المنتمى إلى جماعة الجزويت على أنه حدث قبل ذلك بسنوات عديدة أن قدم الهند عن طريق البر أسقف أوفده الفريد الأكبر ملك إنجلترا لزيارة قبر القديس توماس ، وكان هذا الأسقف أول إنجليزى يحمل إلى وطنه التوابل من الهند مباشرة .

www.ibtesama.com Exclusive

الإتجار فى الجواهر والتوابل فى كل مكان نزل به . إنقضت ثمانى سنوات على مغادرته إنجلترا قبل أن يعود إلى وطنه فى عام ١٥٩١ حيث كتب قصة رحلته ومغامراته ، ضمنها معلومات مفصلة عن كل ما يتعلق بالتوابل ، فكان ما كتبه مصدر معرفة قيّمة لطبيعة كل تابل وطريقة نموه وخاصيته .

فالقرنفل يأتى من ملوك وهى مجموعة من الجزائر الصغيرة ، وشجرته تشبه شجرة الجوز عندنا ولكنها أصغر حجما ، أما خشب الصندل الأبيض لحلو المذاق جدا ويوجد فى جزيرة تيمور . ويعتبر الكافور من السلع الثمينة الغالية . وثمنه فى الأسواق الهندية أغلى من ثمن الذهب وتأتى أجود أصنافه من جزيرة بورنيو .

أما الصبر فيأتى من كوشن شاينا[1] .

وكان أهم من هذا كله فى نظر تجار لندن أن يقفوا على ثمن القرنفل والبهار وجوزة الطيب والقرفة فى مواطنها التى تنبت فيها والسعر الذى تباع به فى القاهرة وما يحققه المستوردون الاوربيون من أرباح ضخمة .

أثار تقرير فتش اهتماما عظيما فى حى الأعمال بلندن حتى أن كثيرا من التجار أخذوا يفكرون جديا فى إرسال السفن إلى الشرق الأقصى لحسابهم .

لا بد وأن يكون رالف فتش قد استولت عليه الدهشة عندما علم بالرحلات الرائعة التى قام بها مواطنه الذائع الصيت المستر دريك ، إذ كان ما أصابه هو وصحبه من البلاء الشديد والأسر والسجن ، إنما كان بسبب المستر دريك هذا .

نشر رينشارد هكلوت أنباء رحلة سير فرانسيس دريك حول العالم فى الجزء الثالث من مؤلفه «أهم الرحلات» ، وهو يشير الى أن السفينة «الهند الذهبى» كانت أول سفينة تفرغ حمولتها من التوابل المستوردة من جزائر ملوك مباشرة بميناء انجليزية .

وليس بمستغرب فى الواقع أن يحوى مؤلف هكلوت أنباء هذه الرحلة

---

(١) Cauchinchina

التاريخية إذ كان الهدف من تأليف هذا السفر تمجيد عظمة إنجلترا وبسالة ربابنتها التي لا تقارن — على حد قول المؤلف — حتى من جانب الملاحين البرتغاليين والأسبانيين ، إذ ما من شك فى أن أخطار البحار الشمالية وشدة برودة الجو فيها وما يخيم عليها من ظلمات ، تتطلب جلدا وصبرا ومثابرة أكثر من خوض البحار صوب مشرق الشمس .

فلا جدال فى أن رحلات سير فرانسيس دريك قد جمعت كل عناصر الأخطار التى واجهها حتى الآن القواد البرتغاليون والأسبانيون معاً .

انقضت خمسون عاما على اكتشاف ماجلان للمضايق التى تحمل إسمه ، وقام ربابنة كثير من الأمم بمحاولات عديدة لترسم خطاه ، ولكن عبثا يحاولون . والواقع أن هذه المحاولات مضافا إليها الأساطير التى ذاعت حول هذه المضايق فى المحيط الهادى قد أثارت فى رؤوس البحارة نوعا من الرهبة الراسخة ، فكانوا يرفضون السفر إلى تلك الجهات .

كانت الرحلة إلى المحيط الهادى فى يوم من الأيام من أعز أمنيات فرانسيس دريك ، على أن الفرصة ما لبثت أن سنحت له على غير انتظار .

كانت العلاقات بين الملكة اليصابات وفيليب الثانى كثيرة التحول والتقلب ، فما أن تصل إلى حد النفور والمقاطعة ؛ حتى تصبح فجأة فى غاية المودة والمحبة ، فكانا يستبد بهما الغضب لما يبديه أحدهما من التأييد لرعايا الآخر كلما شقوا عصا الطاعة عليه ، غير أن الاعتبارات الدبلوماسية لا تلبث أن تعيد الأمور إلى نصابها ، فيسود السلام ويتصل ما انقطع من حبل المودة .

وحدث فى خريف عام ١٥٧٧ بينما كانت الملكة اليصابات فى حالة غضب على ملك أسبانيا أن أرسلت فى طلب القبطان فرانسيس دريك ، وكانت معاركه مع الأسبان قد أكسبته شهرة واسعة ، ووجهت له الكلام قائلة : «دريك كم يسعدنى أن أنتقم من ملك أسبانيا من أجل إهانات شتى ألحقها بى» .

فأجاب دريك بأن فى الإمكان «مضايقة» ملك أسبانيا فى جزائر الهند الشرقية بمهاجمة بناما عن طريق مضايق ماجلان . أعجبت الملكة بالفكر ،

www.ibtesama.com Exclusive

وفى الخامس عشر من شهر نوفبر عام ١٥٧٧ أبحر دريك فى أسطول صغير من ثغر بليموث فى مهمة سرية بأمر الملكة .

وكان من البديهى أن يكتم عن البحارة ما اعتزمه من المرور وسط مضايق مجلان ، إذكان الغنم الشخصى هدف كل مشترك فى هذه الحملة والدافع له على الانخراط فى سلكها ، بينما كان أمام القائد أكثر من عمل وُكلت اليه مهمة تأديته .

كان هذا البروتستانتى المتطرف ، يرى فى إحباط أعمال الكاثوليك الرومان ، وبخاصة الأسبانيين منهم ، واجبا يتعين عليه تأديته بأمانة وإخلاص .

والواقع أن رحلة دريك حول العالم ، والأعمال الرائعة المذهلة التى قام بها هذا الملاح ، وأشهر القرصان قاطبة ، تعتبر ركنا من أركان المجد الذى دُعّمت قواعده من عهد الملكة اليصابات .

ما الذى يضيره أذا نعته أهل انكلترا «بلص العالم المجهول الأكبر» .

فهو من جانبه يشعر بأنه مُحِقّ فى أسر السفن الأسبانية وتجريدها من كنوزها . كانت فكرته أن يحصل على جزء من الحصاد الذى ينتزعه الإسبانيون من الأرض الطيبة ويرسلونه إلى إسبانيا ليزيدوا العالم بلبلة واضطرابا .

أشار أحد كتاب ذلك العصر فى كتابه المسمى — التاريخ الملكى الصحيح للإمبراطورة اليصابات الشهيرة — إلى عودة سير فرانسيس دريك عام ١٥٧٩ بقوله « عاد فرانسيس دريك حوالى هذا التاريخ ومعه ثروة ضخمة ولكن الذى كان أهم من الثروة هو أنه كلل هامته بالمجد بسياحته حول الكرة الأرضية ، موفقا كل التوفيق ، فهو وإن لم يكن أول من طمح إلى منزلة الخلود ، إلا أنه أول إنسان بعد ماجلان يموت فى ميدانه .

ألهبت خيال الشعب قصة ماعاد به إلى انجلترا هذا الربان الموفق من كنوز هائلة ضخمة ، بيد أن الآراء فى البلاط وفى الأوساط السياسية كانت مختلفة متباينة فيما يتعلق بشرعية الغنائم التى أتى بها . فالسياسيون شعروا بشىء

www.ibtesama.com Exclusive

من تبكيت الضمير، بينما ثارت ثائرة فيليب الثانى وراح يطالب بالتعويض ورد ماسلبه دريك وأمّا دريك فقد أثرى وصعد درجات المجد تباعا . على أن أهمية كل هذا لم تكن إلا لفترة مؤقتة . فقد أدركت الملكة، ببصيرتها النافذة ما سوف تتمخض عنه أعمال دريك من غنم مستديم لانجلترا فمجرد بلوغ السفن الإنجليزية جزائر ملوك كان أعظم أهمية لانجلترا من سلب كنوز السفن الإسبانية كما برهن المستقبل على صحة هذا الافتراض .

أهدت الملكة إلى دريك بعد أن أنعمت عليه بلقب سير كأساً ملكية عرفاناً بفضله، وتخليدا لذكرى زيارته لملك ترنيت حفر عليها مشهد استقبال ملك ترنيت له، وقد ورد ذكر هذا الحادث فى كتاب « قصة رحلة سير فرانسيس دريك حول العالم » .

* * *

قال نائب الملك الموفد من قبله إلى القائد الانجليزى بأنه أى دريك لن يحصل على الأشياء التى طلبها أو يطلبها فى رفق من الملك، فحسب ولكن الملك نفسه يسره أن يعقد أواصر المودة مع أميرة لها مثل ما لأمير تكم من الشهرة . وإذا كان يسرها أن يمنع عن جميع الدول وخاصة البرتغال المعادية لها، منتجات كل جزيرة وأن يحتفظ بهذه المنتجات لها ولشعبها وحده، فإنه يفعل ذلك عن طيبة خاطر، وأنه يرسل الآن مع الجنرال خاتمه برهانا على صدق قوله، على أنه سوف يحضر بنفسه بعد وقت قصير لزيارة الملكة شخصيا . لم تستغرق زيارة جزائر ملوك سوى بضعة أيام ولكن النتائج التى ترتبت على هذه الزيارة برهنت على مدى أهميتها خلال قرون طويلة . كانت أطنان القرنفل التى حملت إلى ظهر السفن الإنجليزية تبدو لأعين كل من يهمه الأمر، كما لو كانت عناقيد العنب التى حملها الجواسيس إلى يوشع من أرض الميعاد ، إلاّ أنها فى الحالة الراهنة جزائر التوابل .

www.ibtesama.com Exclusive

قدر للاتفاقية الشفوية التى عقدت بين ملك ترنيت وسير فرانسيس دريك، والتى بمقتضاها منح الإنجليز حق احتكار جميع ما تنتجه الجزائر التى يسيطر عليها من القرنفل أن تصبح هذه الإتفاقية مع مرور الزمن ، أداة دبلوماسية فى المرتبة الأولى من الأهمية الدولية حتى أن بعض المؤرخين وصفها فيما بعد ، بأنها أنْجَر (هلب) أرسته الدبلوماسية الإنجليزية فى الشرق .

---

www.ibtesama.com Exclusive

الفصل السادس عشر

من جزائر ملوك إلى حارة منسنج[1] (الفرم)

« لقد عثرت في البحر على طول شواطئك بجزائر ملوك حيث احتفى بي جماعة من أبنائك الوثنيين ، وفي استطاعة أبناء مواطني أن يتعاملوا معكم في ميدان التجارة كما يتعامل البرتغاليون إذا ماشئتم ذلك »

توماس كافندش سنة ١٥٨٦

تركت رحلة سير فرانسيس دريك الموفقة حول العالم ، ورحلة سير توماس كافندش التي قام بها على حسابه الخاص سنه ١٥٨٦ أثراً عميقاً في نفوس تجار انجترا وجعلتهم يفكرون جدياً فيما يمكن الحصول عليه من أرباح وفيرة عن طريق التعامل المباشر مع الشرق .

كان كافندش من التجار المغامرين ذوي الجرأة والإقدام، أبحر عن شواطيء انجلترا في ثلاث سفن ليحصل على التوابل بترخيص خاص يبيح له حق مهاجمة سفن الأعداء . وبعد أن حقق هدفه إلى أبعد مدى ، عاد إلى انجلترا راضياً عن رحلته ومغامرته كل الرضا

اهتم فريق من التجار كانت لهم معاملات في هذا الوقت مع الشرق بما رواه كافندش عن احتمال فتح أسواق لتجارة التوابل ، معتقدين بأن الوقت قد حان لتأسيس علاقات تجارية مباشرة مع الهند عن طريق البحر ، وكان مالقيه كافندش من حفاوة سلاطين جزائر ملوك ، من الأسباب التي جعلته يصر على أن في استطاعة التجار الإنجليز أن يتعاملوا مع تلك الجزائر متى شاءوا في حرية تامة كما لو كانوا من تجار البرتغال .

وكان في طليعة الذين عناهم هذا الأمر بوجه خاص . توماس سميث ، من أعضاء المجلس البلدي وريتشارد ستوبر ، وكان هذا الأخير قد أرفقه نائبه رالف فتش ، بعد عودته من الهند على طائفـــة من المعلومات عن ذلك القطر .

---

(١) Mincing Lane

www.ibtesama.com Exclusive

وكان من بين العوامل التى أثارت الاهتمام بالإتجار فى التوابل مع الشرق ، تلك الرسائل التى بعث بها رينشارد ثورن ، يحث فيها مواطنيه على تقليد البرتغاليين وترسم خطاهم . أضف إلى ذلك تلك المعاهدة الشفوية التى عقدها سير فرانسيس دريك مع ملك ترنيت ، وقد ساد الشعور بأنه قد يكون من الحكمة استغلال هذه المعاهدة .

أما احتمال ماقد يترتب على مثل هذه المغامرة من خسائر وأخطار فيقابله الأمل فى احتمال أسر سفن الأعداء ، مما يعوض على الأقل جزءاً من نفقات الرحلة ومعداتها ، وخاصة أن التجار كانوا يعتقدون بصدق المثل القائل «لاربح بغير مسعى» . لذلك استقر عزمهم على رفع التماس للمجلس الاستشارى بغية الحصول على ترخيص من الملكة لإعداد ثلاث سفن وثلاثة قوارب وحماية تجارتهم وألا يطالبوا بشىء سوى تسديد الضرائب الجمركية عند عودتهم إلى شواطىء الوطن .

وتضمن الالتماس قائمة بالمستعمرات البرتغالية القائمة على شواطىء المحيط الهندى وبحر الصين ، مع الإشارة إلى ما هنالك من الجهات المتعددة التى يستطيع التجار الإنجليز التعامل فيها بصورة مربحة . وختم التجار التماسهم المرفوع إلى مجلس الشورى بأن فى إمكان إنجلترا ، أن تنمى حركة ملاحتها وتزيد من عدد سفنها بفضل تجارة ما وراء البحار التى كانت العامل الأساسى فى نمو الأسطول البرتغالى .

أجيب التجار إلى طلبهم وتقرر إرسال ثلاث سفن إلى البحار الشرقية تحت قيادة القبطان س . ريموند . وعلى هذا أبحرت فى سنة ١٥٩١ السفن بنلوبى[١] والتاجر الملكى[٢] وإدوارد بونافنتور[٣] . ولكن انتشرت الأمراض بين بحارة السفينتين الأوليين وحلت بهم المصائب حتى أضطر القبطان ريموند إلى العودة بهما إلى إنجلترا . أما السفينة الثالثة إدوارد بونافنتور فواصلت الرحلة وحدها . وبينما كان قائدها جيمس لانكستر راسيابها أمام الزنجبار شاهد وصول بعض الجنوك ، قدمت موسقة بالفلفل للحامية البرتغالية المرابطة

---

(١) Penelope (٢) Merchant Royal (٣) Edward Bonaventure

www.ibtesama.com Exclusive

فأسال قدومها لعابه ، وعندما ترامى إلى سمعه ، أنه ينتظر مرور بعض السفن فى اليوم التالى بأقصى طرف الهند الجنوبى فى طريقها إلى شاطىء ملابار ، وهى موسقة بالتوابل المستوردة من جزائر ملوك وملقا ، استقر رأيه على التعرض لها وقطع الطريق عليها .

ولكن فشلت الخطة لسوء الأحوال الجوية وهبوب الرياح الشديدة على أنه تمكن بعد ذلك من أسر عدة سفن موسقة بالفلفل ووصلت إدوارد بونافنتور بعد ذلك ميناء بولو بينانج[1] ومن ثم أخذت فى طريق العودة إلى إنجلترا مارة بجزائر الهند الغربية .

وحدث بينما كان القبطان وغالبية أعوانه قد نزلوا إلى ساحل جزيرة صغيرة تاركين على ظهر السفينة خمسة بحارة وغلاما ، أن هبت فجأة عاصفة هوجاء اقتلعت الهلب من مرساه ، وجرفت الأمواج السفينة إلى عرض البحر ، وتعذر عليها العودة إلى حيث كانت بالرغم مما بذله بحارتها الباقون من الجهود الجبارة للعودة بها إلى شاطىء الجزيرة ، فلم يكن أمامهم سوى الإبحار قدما شطر إنجلترا بحمولتها العظيمة من التوابل ، وهكذا كان حظها مطابقاً لاسمها .

أنقذ القبطان لانكستر وأعوانه بواسطة سفينة من دييب حملتهم إلى سان دومنجو ، وهنا حملته هو وأحد الضباط ويدعى إدموند باركر سفينة أخرى من سفن دييب ، كانت فى طريقها إلى دييب موطنها الأصلى .

كتب أدموند باركر قصة هذه الرحلة وقام بطبعها ريتشارد هكاوت وقد اختتمها بهذه الكلمات « أقنا فى دييب يومين للراحة وتجديد النشاط ، وبعد أن صلينا لله وحمدناه على ما منّ به علينا من النجاة ، شكرنا لجيراننا الأصدقاء حسن صنيعهم ، وأخذنا فى طريق الرحلة إلى راى[2] » .

كانت هذه الرحلة هى أولى الرحلات التى قامت بها سفينة إنجليزية إلى الهند ؛ ومنيت فيها بالخسائر الفادحة وخاصة فى الأرواح ، إذ لم يعد لانجلترا سوى خمسة وعشرين رجلا من المائة وثمانية وتسعين الذين أبحروا فى مبدأ الرحلة .

• • •

(١) Pouls - Penang
(٢) Rye

www.ibtesama.com Exclusive

نشأت عناصر جديدة فى ذلك الحين ، حدت بالمهتمين فى لندن من تجار التوابل إلى اتخاذ خطوة حاسمة فى هذا الموضوع ، ولما كانت إنجلترا فى حالة حرب مع إسبانيا فقد تعذر استيراد الفلفل رأساً من لشبونة إلى لندن ، فانتهز التجار الهولنديون هذا الظرف لزيادة أرباحهم من تجارة التوابل ، فارتفعت أسعار الفلفل من أربعة شلنات للرطل ، إلى ست شلنات ، وأحيانا إلى ثمانية ، ولم يطق التجار الإنجليز هذه الحالة ، ورغبوا فى الاستغناء عن الوسطاء الهولنديين ، واتفقت نفس المجموعة من تجار لندن الذين سبق الإشارة إليهم على أن يلتمسوا من الملكة هذه المرة منحهم براءة لتأسيس شركة هامة تستهدف التجارة مع الهند وجزر التوابل . وكان مما ساعد على تعجيل الأمور أن الشركات الهولندية كانت ماضية فى ابتياع السفن من إنجلترا لحمل بضائعهم من الهند ، فصرح عضو البلدية توماس سميث وأصحابه بأنه إذا كان فى النية إرسال السفن إلى المياه البعيدة لتعود بمنتجات تلك البلاد النائية فلماذا لا يكون مخورها فى البحار تحت اللواء الإنجليزى ؟.

لقد صبر زعماء هذه الحركة التجارية الجديدة لعدم صدور البراءة الملتمسة فوراً ، وكان السبب الذى أبدته الملكة لرفض التماسهم ذا طابع سياسى . إذ كانت فى هذا الوقت ماضية فى مفاوضات مع ملك اسبانيا لتحقيق السلام ، فلم تشأ عمل ماقد يحول دون تحقيق هذه الغاية لمجرد خفض أسعار الفلفل ، فما لا جدال فيه أن فيليب الثانى لا بد وأن تثور ثائرته لو علم بأنها قد صرحت لرعاياها دخول ميادين يعتقد أنها وقف عليه وحده ، وأن منتجاتها حكر خاص به .

وأراد متزعم إنشاء الشركة الجديدة أن يقنع الملكة بأنهم لا يعتزمون احترام مايدعيه ملك اسبانيا لنفسه من حقوق ، فرفعوا إليها مذكرة جديدة ضمنوها قائمة بأسماء الشواطىء التى يعتزمون الاتصال بها وهى جميعها تقع شرقى رأس الرجاء الصالح ، وغربى مضايق مجلان . ولم يسبق للإسبانيين الاتصال بها قبل اليوم وأشار التجار فى مذكراتهم إلى أنه فى استطاعتهم التعامل مع هذه البلاد المذكورة دون التسبب فى إثارة أى شىء قد يضايق إسبانيا .

www.ibtesama.com Exclusive

ولكن مصير هذا الإلتماس كان مثل مصير الإلتماس الأول ، وأكد وزير الدولة لهؤلاء التجار الملحفين فى الطلب بأن « السلم خير من تجارة الفلفل » .

ولكن ما كادت المفاوضات للسلم تنهار ، ولم يعد الملكة من الأسباب ما يحملها على مراعاة ما قد يثير غضب خصومها ، حتى شعرت بأنه قد أصبح فى مقدورها تجاهل ما يدعيه ملك إسبانيا من حقوق بمقتضى المنشور البابوى الصادر فى عام ١٤٩٣ ، فأعلنت بأنها لم يسبق لها أن وافقت على حق البابا فيما وهبه ، ولا هى اعترفت بحقه فى ذلك ولا بممتلكاته الخيالية .

وبناء على ذلك أبلغت الملكة اليزابيث ملك اسبانيا بأن استخدام البحر والجو حق مشترك بين الجميع . ولما كان هذا رأيها فقد منحت البراءة عن طيبة خاطر للمحافظين ، ولشركة الإتجار مع جزائر الهند . بعد استبعاد جميع المناطق المملوكة لأى ملك مسيحى تقوم بينه وبين الملكة علاقات صداقة ومودة .

ونُص فى البراءة على أنها سارية المفعول لمدة خمسة عشر عاماً مع احتساب السنوات الثلاثة الأولى من قبيل التجربة . وكانت هذه الوثيقة عسيرة فى تدوين موادها إذ كان لابد للملكة اليزابيث من أن تأخذ فى الاعتبار مامنح من الامتيازات للشركات البريطانية الأخرى المؤسسة قبلها مع مراعاة حقوق الدول الأخرى . وذكر التجار المشار إليهم فى التماسهم المقدم إلى المجلس الاستشارى بأن هدفهم من الاقدام على هذا العمل هو التشبه بالهولنديين حبا فى خدمة الوطن ، ولأنهم لا يقلون كفاءة وذكاء عن أولئك الهولنديين .

* * *

كان رأس مال الشركة عند بدىء تكوينها ثلاثين ألفا ومائة وثلاثة وثلاثين جنيها وستة شلنات وثمانية بنسات ، زيدت فيما بعد عندما أوشكت على إرسال أول بعثة إلى الهند إلى سبعين ألفا من الجنيهات .

www.ibtesama.com Exclusive

وكان جون ديفز قد عاد حديثا من رحلته إلى أرخبيل الملايو مع الأسطول الهولندى فزاد ما رواه عن رخص سعر الفلفل والأفاوية من رغبة مديرى الشركة فى استغلال هذه الفرص الطيبة .

اغتبط محافظو الشركة لما أنسوه من استعداد ديفز للعودة مرة أخرى إلى جزائر الهند الشرقية فعينوه مرشداً عاماً للأسطول المقلع تحت قيادة جيمس لانكستر، إذ كانت التجارب التى اكتسبها أثناء رحلته الأولى إلى الشرق، مضافاً إليها ما يتحلى به من كريم الخلال قد أهّلَتْه للاضطلاع بمثل هذه المسئولية الهامة الجسيمة .

وكان مضمون التعليمات الصادرة إليه « الوقوف على حركة التجارة فى جزائر الهند والعودة إلى إنجلترا بالتوابل وغيرها من سلع تلك البلاد » وحدد محافظو الشركة « للجنرال » ، وهو الاسم الذى كان يعرف به فى الشركة واجباته ومسئولياته وامتيازاته، بينما كتبت له الملكة من جانبها خطاباً ، منحته فيه إلى جانب الامتيازات الممنوحة له حق تطبيق الأحكام العرفية عند اقتضاء الحاجة ، كما زودته بخطاب موجه بصورة عامة « إلى جميع ملوك الدول الواقعة إلى ماوراء رأس الرجاء الصالح، وضّحت فيه أسباب رغبتها وحاجتها إلى تبادل المنتجات مع تلك البلاد وعبّرت عن رجائها فى أن يكون رعاياها الذين رخصت لهم فى زيارة البلاد النائية ، موضع عطفهم ورعايتهم وأنهم سوف يجدونهم « عادلين مهذبين » وأن فى مقدورهم تزويدكم ببضائع أجود مما يزودكم به البرتغاليون والإسبانيون .

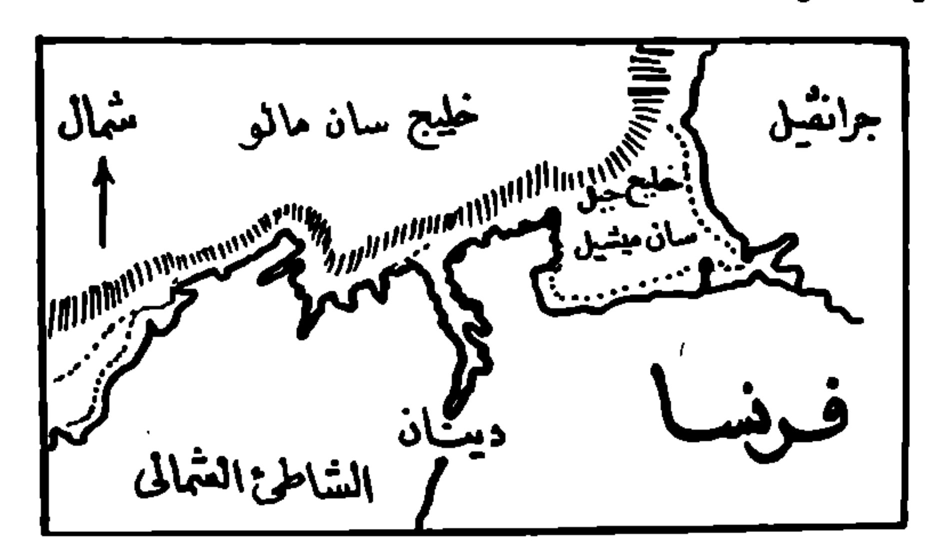
واختتمت الملكة كتابها معتذرة عن تأخر التجار الإنجليز عن الظهور فى أسواق الشرق حتى الآن ، ملقية تبعة ذلك على البرتغاليين الذين يدعون بأنهم أصحاب السلطان ومرجع الأمر والنهى فى جميع ممالككم، وإذاعوا بأن شعوبكم موالى لهم ، وجعلوا من حقهم أن يلقبوا بملوك جزائر الهند الشرقية .

www.ibtesama.com Exclusive

لم يدر بخلد الملكة يومئذ بأن هذه البعثة الموفدة لاستجلاب الفلفل والقرنفل وجوزة الطيب إنما كانت الخطوة الأولى فى تأسيس عرش الهند، وأنه سيأتى يوم تشعر فيه ملكة أخرى غيرها بأن من حقها إتخاذ لقب أسمى وأرفع شأنا من اللقب الذى احتجت البزابيث بقوة على ادعاء ملوك لوزيتانيا وأشبيلة له.

* * *

وقعت البراءة الممنوحة للشركة المذكورة آنفا فى الواحد والثلاثين من شهر ديسمبر عام ١٦٠٠، وأبحرت بعد هذا التاريخ بستة أسابيع ثلاث سفن هى «التنين الأحمر»، «والأسانسيون»، «وسوزان»، وألحقت بها مركب لحمل الزاد والمؤن. واتخذ جيمس لانكستر وجون ديفز مكانهما على ظهر التنين الأحمر.



أبحر الأسطول الصغير فى ظروف سعيدة مواتية. ولكن سرعان ماحلت به الكوارث التى لم يكن بد من أن تحل بالبحارة، إذ كان داء البلاجرا أمراً شائعا بين البحارة فى تلك الأيام.

أسر الأسطول مركبا برتغالية محملة بالزيوت والأنبذة والغلال فكان ذلك من لطف الله بهم، إذ كانت البلاجرا قد شرعت تفتك بالبحارة فتكا ذريعا حتى أن بحارة سفينتين من السفن الثلاث عجزوا عن القيام بأى عمل

www.ibtesama.com Exclusive

قطعا حتى اضطر التجار المسافرون مع البعثة إلى الأخذ بنصيب من جميع ما كان يقوم به البحارة من أعمال .

حدث كل هذا قبل الوصول إلى رأس الرجاء الصالح . ولم تحدث إصابات تذكر بين بحارة التنين الأحمر ، والسبب فى ذلك يرجع إلى عناية قائدها جيمس لانكستر وبعد نظره ، فقد اصطحب معه ثلاث زجاجات من عصير الليمون الذى كان يعطى كل بحار ثلاث ملاعق منه كل صباح ، ولم يسمح لهم بتناول شىء من الطعام قبل انتصاف النهار مع تجنب تعاطى اللحوم المملحة جهد الاستطاعة . ومما يؤسف له أن هذه الطريقة الناجعة لم تعمم كوسيلة لتحصين البحارة ضد هذا الداء الفتاك ، داء البلاجرا .

ويرى القارىء لقصة هذه الرحلة شخصية جيمس لانكستر تتألق وحدها بصورة جلية ، ويعجب الإنسان بعنايته الدقيقة لتجنب الكوارث ، فتراه ينزل بنفسه إلى الشاطىء عند رسو السفن بخليج تيبال لجس نبض الأهالى وعقد أواصر الصداقة معهم قبل السماح لأحد من أعوانه أو بحاراته بالنزول إلى البر . وقد أمر هذا الإدارى الحكيم ببناء سور حول المخيم الذى أقامه على الشاطىء لإنزال المرضى فيه ، وهكذا لم يكن يترك شيئا للصدف أبدا ، ثم شرع بعد ذلك فى تنظيم وسائل التعامل مع الأهالى حتى يأمن عدم وقوع أى احتكاك من شأنه أن يؤدى إلى الشغب أو احتمال غدر الأهالى برجاله ، فيؤكد لنا جون ديفز بأن هذه الوسائل الحكيمة التى اتخذها جيمس لانكستر كان لها الفضل فى تمتع الانجليز بحياة هادئة أثناء إقامتهم بأرض الجزيرة ، تسودها المحبة والصداقة التى امتدت أسبابها بينهم وبين الأهالى ، بعكس ما كانت عليه الحال مع الهولنديين ، ولا يخفى أن جون ديفز كان يكتب عن تجربة شخصية .

ابتاع قائد الأسطول فى غضون اثنى عشر يوما ألف رأس من الأغنام واثنين وأربعين ثوراً كان لها أعظم الأثر فى شفاء المرضى ، ولكن من دواعى الأسف أن خمسة ومائة من المجموع الكلى للبحارة وهو

www.ibtesama.com Exclusive

مائة وثمانون ، كانوا قدتوفوا . أما من بقى على قيد الحيـــاة فكانت صحتهم فى تحسن مستمر لتأقلمهم بمناخ هذه المنطقة الجنوبية .

واستغرقت الرحلة من مدغشقر إلى آشين فى سومطرا ثلاثة أشهر ، وهنا رحب الهولنديون القلائل الذين كان كورنيليوس ڤانهوتمان قدتركهم فى الجزيرة لدراسة اللغة بالوافدين ترحيباً حارا ، مؤكدين لهم بأن السلطان سيحتفى بهم احتفاء عظيما بلا أدنى ريب وأنه سوف يحسن استقبالهم بوصفهم من رعايا المملكة العظيمة لما بلغه عن انتصارها على ملك أسبانيا فى عدة مواقع وخاصة لأنه هو نفسه كان فى حرب مع البرتغاليين من رعايا ذلك الملك ، أى ملك أسبانيا .

وكان ما رواه جون ديفز للسلطان قد أمّن مصالح الانجليز وخاصة لأن هـذا السلطان المرح ، صياد الأسماك الأسبق كان يسره الاجتماع بالضيوف الغرباء ، هذا إلى جانب ما كان يشعر به من الميل نحو انجلترا .

كانت كل هذه العوامل والظروف الطيبة تبشر بقرب نجاح لانكستر فى مهمته ، فما أن سمع السلطان علاء الدين بوصول السفن الانجليزية وبأن قائدها يحمل إليه خطابا من ملكة إنجلترا حتى أمر بإقامة حفلة استقبال باهرة تليق بممثل هذا المبعوث الخطير ، وأرسل ستة أفيال ضخمة لحمل الضيوف إلى قصره ، مخصّصا أضخمها لحمل خطاب الملكة وبعد تزيينه رسميا وضع الخطاب فى إناء من الذهب الخالص مغطى بقطعة من الحرير المزركشة ووضع الإناء فوق أريكة من المخمل القرمزيّة اللون داخل هودج من المخمل أيضا .

وبعد الانتهاء من تبادل التحيات الرسمية ، عامل السلطان مبعوث الملكة معاملة ودية لا تكلف فيها ، وبينما كان جيمس لانكستر ماضيا فى شرح رغبات مليكته وحرصها على عقدأواصر الصداقة والاتحاد والتجارة ، قاطعه مضيفه بهذه الكلمات « إننى واثق بأنك متعب من جراء رحلتك الطويلة ، فاجلس واسترح حتى تنتعش نفسك ، فأنامرحب بمقدمك من أجل ملكتك . وكل طلباتك مجابة فى حدود المعقول » وهنا قدم لانكستر خطاب الملكة

www.ibtesama.com Exclusive

إلى السلطان ثم سلم الهدايا إلى أحد رجال الحاشية ، وكانت مكونة من إناء فضى فى وسطه نافورة زنتها خمسة وعشرون آونسا[1] ، وكاس فضية ومرآة ثمينة وغطاء للرأس مزين بالريش الغالى ، وطائفة من الخناجر ، وحزام ، ومحمل سيف مزركش ومروحة من الريش . كان سرور السلطان بهذه المروحة أكثر من سروره باى شىء آخر ، فهى وحدها الهدية التى قلّبها بين يديه ، ثم أمر بعد ذلك إحدى الوصيفات القائمات على خدمته بأن « تمروح » له بها .

وأقيمت عقب المقابلة مأدبة عظيمة ، وأدرك جيمس لانكستر عند إرتشافه أول جرعة من النبيذ المستخرج من الأرز أنه قوى المفعول فاستأذن مضيفه فى مزجه بالماء ، أو أن يأذن له فى الاكتفاء بالماء القراح ، وهو أفضل عنده .

فأذن له السلطان متعطفا ، فاستمرأ لانكستر الرّزين الطعام وتذوقه إلى أبعد حد ، واستمتع غاية الاستمتاع بالرقص الذى أعقب المأدبة ، وقبل أن يأذن السلطان لضيفه فى الانصراف أهداه حلة قطنية بيضاء جميلة مما تصنعه كلكتا مزركشة بالذهب وعلاّقة تركية وخنجرين ، وعرض عليه أن يختار لسكناه أى منزل يشاء ، ولكن جيمس لانكستر فضل العودة إلى سفينته .

* * *

من المؤكد أن الملكة اليصابات لم تقرأ التقرير الذى كان جون ديفز قد رفعه إلى الإيرل أوف إسكس ، لأنها لو كانت قد اطلعت عليه ، لما أشارت فى خطابها للسلطان « الصياد سابقا » إلى ذكر آبائه وأجداده من السلاطين الأمجاد . ولابد وأن يكون السلطان علاء الدين قد ابتسم ولو قليلا عند سماع هذه المبالغة . فقد كان يتمتع بروح مرحة فكهة .

وفى اجتماعه الثانى بجيمس لانكستر قال له السلطان بشأن خطاب الملكة ، إذا كان ما جاء فيه صادراً من القلب حقيقة فسوف ينزل منزلة

---

(١) الآونس واحد على ستة عشر من الرطل .

www.ibtesama.com Exclusive

حلية من نفسه ، وعبر عن استعداده لعقد روابط السلام والمودة مع المملكة . استجابة لرغبتها . — أما فيما يتعلق بالناحية المادية من الخطاب فسوف يكلف اثنين من مستشاريه بمعالجة الأمر ، أحدهما يشغل منصب المفتى الأكبر وهو رجل حكيم وقور ، والثانى رجل عاقل متزن ينحدر من أنبل الأسر وأقدمها وإن لم يكن له ما للمفتى من الدراية بالمؤتمرات .

قام بالترجمة يهودى يحسن اللغة العربية كان جيمس لانكستر قد أحضره معه من لندن ليقوم بهذه المهمّة ، وكانت محاضر الاجتماعات وتفاصيلها من الأشياء التى تلذ قراءاتها . أما النتيجة النهائية فكانت مرضية للغاية ، فهى تبيح للإنجليز حرية دخول البلاد وحرية الإتجار مع إعفائهم من الرسوم الجمركية على الوارد والصادر ، وتنص على وجوب مساعدة ولاة الأمور لهم فى حالة تحطم سفنهم أو غرقها إنقاذا للأرواح والسلع ، كما سمحت للإنجليز أن يهبوا أموالهم ومخلفاتهم لمن يشاءون .

ولهذا الامتياز أهميته وخطره إذ اعتاد الحكام فى هذه المناطق الاستيلاء على كل ما يخلفه الغرباء بعد وفاتهم بحكم الشرع والقانون . ونصت الإتفاقية على ضمان مستوى ثابت للمساومة والسعر وطرق الدفع من جانب الرعايا فى آشن ، كما كان من بين قرارات المؤتمر حق الإنجليز فى أن يحاكموا أمام محاكمهم الخاصة ، كما نص على حرية العقيدة .

وكان من المنتظر أن تبدأ حركة التجارة بمجرد انتهاء جلسات المؤتمر وأن يصبح فى مقدور التجار البريطانيين الحصول على كل ما يريدون من الفلفل ، ولكن الكميات الموجودة منه كانت قليلة نظراً لسوء حصاد العام السابق .

وما أن سمع جيمس لانكستر بأنه توجد كميات كبيرة من الفلفل فى بريزمان[1] على بعد مائتين وخمسين فرسخا حتى أرسل السفينة سوزان إلى ذلك الثغر ، وهو يقع غير بعيد من المكان الذى ابتاعت منه سفن مدينة ديبب الفلفل أثناء أول رحلة لها .

* * *

(١) Prisman

www.ibtesama.com Exclusive

ولسوء حظ التجار الإنجليز المرافقين للأسطول ، وقائده جيمس لانكستر، أن سعر الفلفل ارتفع فى هذا الوقت الذى نحن بصدده من أربعة ريالات إسبانية إلى عشرين ريالا كما يؤخذ من تقرير ديفز . حار القائد الإنجليزى فى أمره فثمن الفلفل كان أعلى بقليل من الثمن الذى صُرح له بعقد الصفقات فى حدوده . هذا من ناحية ، ومن الناحية الأخرى فإن من الخزى والعار أن يعود بأسطوله صفر اليدين خالى الوفاض بينما الأسواق أمامه قد تكدست بالفلفل المنشود . على أنه لم يلبث أن ابتسم له الحظ حينما هاجم فى جرأة بعض السفن البرتغالية فى مضايق ملقا وجردها من حمولتها .

اغتبط التجار البريطانيون الذين تركوا فى آشن ، حينما نمى إليهم ماصادفه لانكستر من التوفيق ، وزاد فى اغتباطهم أن ما أصابه من الغنيمة كان على حساب السفن البرتغالية ، نظراً لأن البرتغاليين فى آشين كانوا قد بذلوا كل مافى وسعهم للحيلولة بين أخذ الإنجليز بنصيب من حركة التجارة فى ذلك البلد .

أبحر جيمس لانكستر من آشين إلى بانتام ، حيث عقد معاهدة مع ملكها الشاب ، وقايض على جزء من الغنيمة (وهى تشمل الأقمشة الهندية والأرز وكثيرا من مختلف السِّلع الأخرى) فى نظير كميات كبيرة من الفلفل .

كان لهذه العملية أهميتها وخطرها إذ أن جميع التوابل التى حصل عليها التجار أثناء غيابه فى مهاجمة البرتغاليين — كما سبق الإشارة إليه — لا تكاد تكفى لوسق سفينة واحدة .

* * *

سلم سلطان آشين للانكستر فى آخر مقابلة له معه قبل رحيله خطاباً [١] موجها ، لسلطانة إنجلترا وفرنسا وإيرلندا وفريزلند ، جاء فيه أنه كان من دواعى سروره أن يمنح الإنجليز كل ماطلبوه من امتيازات، لأنه وجدها عادلة نظراً لأن الغرض منها لم يكن إلا تبادل المنتجات والسلع ، أما فيما يتعلق

(١) مكتوبا باللغة العربية وقد ترجمه المدعو وليم بدول .

www.ibtesama.com Exclusive

بالإنجليز أنفسهم فقد وصفهم بأنهم « أشراف وأنهم على جانب عظيم من العطف » .

وحمل جيمس لانكستر خاتما إلى الملكة مرصعاً بياقوتة حمراء ، وحلتين مزركشتين بالذهب وموشيتين بالقصب ، موضوعتين فى صندوق صينى مطلى باللاكيه .

كان مشهد الوداع رقيقا يتسم بجو إنجليزى محض ، كما جاء فى وصفه أنه مشهد عادى لا شىء فيه يلفت النظر ولا تكلُّف فيه . سأل الملك القائد لانكستر «عندكم مزامير داود ؟» فاجاب أمير البحر على الفور « نعم ونحن نرتلها يوميا» فقال الملك « إنى وهؤلاء النبلاء من حولى سوف نرتل مزموراً ضارعين إلى الله أن يكتب لكم السعادة والتوفيق ، وقرنوا القول بالفعل ، فشرعوا يرتلون المزمور من فورهم فى هدوء ووقار ، وبعد أن انتهوا من الترتيل قال الملك كم أود أن أسمع منكم ترتيل مزمور بلغتكم . وكان من بين الحضور إثنا عشر رجلا من رجالنا ، فرتلنا فوراً مزموراً آخر ، وبعد ذلك استأذن الجنرال الملك فى الرحيل .»

* * *

أبحرت السفن الانجيزية بعد ذلك إلى بريزمان حيث حصل التجار على كمية من التبر وستمائة باهار[1] من الفلفل وست وستين من القرنفل ومن ثَمّ أقلعوا إلى بندا حيث ابتاعوا كميات من التوابل ، وعقدت الصفقات فى هدوء وسلام دون أىّ تدخل من جانب البرتغاليين . وترك لانكستر فى بندا ثمانية من رجاله ، ولمّا كانت السفن قد ملئت بالتوابل ومختلف السلع ، قرر العودة من فوره إلى إنجلترا ، على أنه أرسل السفينة الإضافية الصغيرة إلى جزائر ملوك . آمرا رجالها بالاتجار مع الأهالى وتأسيس مركز تجارى لجمع التوابل وتخزينها ، كما أرسل بعض التجار إلى ترنيت لمواصلة ما كان قد بدأه السير فرانسيس دريك .

---

(١) الباهار = ٣٨٥ رطلا .

www.ibtesama.com Exclusive

وبعد ذلك أخذ جيمس لانكستر فى طريق العودة . وإذا كان هنالك من تعرض لأهوال البحار وأخطاره ، فإن هذا الأسطول قد تعرض لها بما يعجز عنه الوصف ، أثناء عودته من جزائر الهند .

ولكن شخصية قائده سيطرت على الموقف مرة أخرى وعلى رجاله بفضل المحبة التى كانوا يكنونها له ، كما يؤخذ من تقرير شاهد عيان .

* * *

لم يعد الأسطول إلا فى سبتمبر سنة ١٦٠٣ حاملا معه مائتى ألف رطل وعشرة آلاف رطل من الفلفل وكميات ضخمة من القرنفل والقرفة والصمغ واللاكيه ، إلى جانب ما نهبه الإنجليز من السفن البرتغالية ، حتى حق للشركة أن ترتاح إلى نتيجة هذه الرحلة من كل الوجوه لولا أن وباء الطاعون كان منتشرا فى ذلك الوقت انتشاراً عظيما . وقد شلت هذه الحالة حركة التجارة حتى اضطرت الشركة إلى توزيع الفلفل على حملة الأسهم بجزء من الأرباح ليتصرفوا فيها كما شاءوا لحسابهم . ومهما يكن من أمر فإن هذه الرحلة قد سجلت بداية الإتجار مع جزائر الهند الشرقيه بنجاح عظيم ، وأنعمت الملكة على جيمس لانكستر بلقب سير ، وعين فى منصب كبير المستشارين لشركة الهند الشرقية . وكان رالف فتش يستشار أحيانا كلما اقتضت الضرورة ذلك .

بيد أن الملكة اليزابيث لم تكن راضية عن أعمال الشركة ، فقد نُصَّ فى البراءة الممنوحة لها على أن تقوم برحلة سنوية إلى جزائر الهند الشرقية كشرط أساسى من شروط براءة الامتياز ، ولكن مرت ثلاثة أعوام دون أن يقلع خلالها سوى أسطول واحد ، ولم تلبث الملكة أن بسطت لمحافظى الشركة أسباب غضبها عليهم ناصحة لهم بأن « يتشبهوا بالهولنديين » .

* * *

أرسلت شركة الهند الشرقية عام ١٩٠٤ تحت قيادة الربان هنرى مدلتون نفس السفن التى سبق أن أرسلتها تحت قيادة جيمس لانكستر .

www.ibtesama.com Exclusive

وكان للرحلة فى هذه المرة هدف تسعى إلى تحقيقه وهو الوصول إلى جزائر التوابل ، وما أن وصلوا إلى نهاية الطريق حتى وجدوا الضغائن والأحقاد على قدم وساق بين الأهالى والبرتغاليين ، وبين البرتغاليين والهولنديين ، كما وجدوا العلاقات متوترة بين سلاطين جزائر ملوك كلها ، بينما كان الهولنديون يناصرون هذا أو ذاك من السلاطين حسب ما تقتضيه مصلحتهم . ولم تلبث أن استعرت نار المنافسه بين التجار الهولنديين والتجار الإنجليز فى هذه المناسبة ، فاتهم الفريق الأول رجال الفريق الثانى عند السلطان بأنهم لصوص وقطاع طريق .

أما الهولنديون فكانوا على حد تعبير أحد القواد الإنجليز شعبا وقحاً جعجاعاً ، وكان سوء تصرفهم يدل بوضوح على ما ينتظر أن تكون عليه الحالة فى جزائر الهند الشرقيه إذا قدر لها سوء طالعها أن تقع تحت سلطانهم .

* * *

أحسن ملك ترنيت استقبال القائد هنرى مدلتون ورحب بمقدمه إلى أرض مملكته التى تشمل سبعين جزيرة ، فلا غرو إذ وصف نفسه بأنه « سلطان ترنيت وماشيان وموتير وأمبوينا وجيلولو » .... وبالاختصار جزائر ملوك بأجمعها .

وبالرغم مما شعر به ملك ترنيت من العطف على الإنجليز ، إلا أنه لم يستطع ملء سفنهم بالقرنفل ، لاهو ولا سلطان تيدور ، نظراً لما سبق من وعدهما الهولنديين بجميع محصولهما من التوابل ، وحمّل كل من الملكين القائد مدلتون رسالة إلى ملك انجلترا .

أما ملك ترنيت ، وهو ابن الملك الذى كان قد تعاقد معه سير فرانسيس دريك فضمن كتابه لملك انجلترا تفاصيل ما حدث ، والسبب الذى من أجله أرغم على منح الهولنديين تلك الامتيازات التى سبق لأبيه ، منحها للإنجليز ، متوسلا إلى الملك أن يغتفر له خطأه . واعداً إياه فى نفس الوقت ، بتيسير الأمور فى المستقبل لكل انجليزى يزور مملكته ، وأهدى الملك رمزاً للصداقة

www.ibtesama.com Exclusive

زنة بهارٍ من القرنفل ، هو كل ما يمكنه إهداءه نظراً لفقر بلاده التي لا تنبت غير هذا المحصول .

* * *

وحينما استعرض رينشارد هكلوت ماحققه الملاحون والتجار الأنجليز من جلائل الأعمال جاش صدره ببيتين من الشعر اللاتيني معناهما كالآتي .
« ذلك الإسباني الصلف المتغطرس الذي كان يحتقر الإنجليزي إلى عهد قريب، قد أصبح يرنو في دهشة وذهول إلى ماحققه الإنجليزي من عظيم الأعمال »

www.ibtesama.com Exclusive

الفصل السابع عشر

روين[1] – باريس – جولكندا[2]

بوركت منازل الهند وتوابل اوركسا وجواهر جولكندا
المقطع السابع

لم يكن هنرى الرابع ملك فرنسا أقل رغبة من الملكة اليصابات فى أن يقتفى شعبه خطوات الهولنديين فى نشاطهم بالشرق ، يدلنا على ذلك ماأصدره من الأوامر — حتى قبل سفر أول أسطول أوفدته إلى الشرق شركة الهند الشرقية — لصنع طائفة من السفن أو لشرائها ، لتتمكن فرنسا من أن تنتزع من البرتغال جانبا من تجارة التوابل .

وكان السفير الانجليزى فى باريس قد أخبر الملكة بما اعتزمه ملك فرنسا هنرى الرابع ، وحذرها مغبة هذا الأمر . إن الملك لا ينفك يضرب على نغمة الحاجة إلى بناء أسطول بحرى قوى » . ثم استرسل فى خطابه قائلا « فلو وفق الملك إلى تحقيق هذه الغاية فإنه سوف يكون شرجار لجلالتك » .

كان دبليسيس مورني[3] — أحد مستشارى الملك — من أكبر المشجعين له على المضى فى مشروعه وإنشاء خطوط بحرية منتظمة لسير السفن الفرنسية بين جزائر ملوك وجواء ، ومن ثم إلى هرمز فالسويس ، وفى السويس تنقل التوابل على ظهور الجمال إلى الاسكندرية ، وهى رحلة تستغرق ستة أيام لاغير ، فتوفر جانباً كبيراً من الوقت ، وكثيراً من الأرواح ، إذ تكون قد تجنبت الرحلة الطويلة الشاقة حول رأس الرجاء الصالح ، أضف إلى ذلك أن التوابل تصل إلى فرنسا أكثر طراوة لقصر الطريق .

وأما الدوق دى سولى فكان على نقيض رأى المستشار السابق ، فأخذ

---

(١) بفرنسا Rouen

(٢) منجم خيالى فى الهند للماس والأحجار الكريمة واسم حيدر آباد القديم Golconda

(٣) Duplessis-Morney

www.ibtesama.com Exclusive

يقلل من قيمة المشروع، ويحض الملك على ترك هذه المشاريع لابتناء الأساطيل، وتركيز كل جهوده حول تنمية الشئون الزراعية فى الداخل .

على أن كثيرا من الرجال البارزين فى الدولة كانوا قد وقفوا على مجريات الأمور ، فكانوا يرون « بأن النتائج التى تترتب على الملاحة ، بغض النظر عما تكسبه من المعلومات بشأن البلاد الأخرى وما تتيحه من الفرص لنشر العقيدة المسيحية ، فإنها تمهد الطريق لإنشاء العلاقات بين الناس من مختلف الشعوب والأجناس . وليس أصلح لتبادل المنتجات من إيجاد هذه العلاقات عن طريق الإتجار — وقد كان مقصورا فى ذلك الحين على تجارة التوابل » —

احتلت مسألة المعاملات التجارية فيما وراء البحار مكانة دقيقة عظيمة الأهمية ، نظراً للظروف التى نشأت بسبب الحرب التى كانت قائمة فى ذلك العهد بين تركيا وفارس . فقد عجز مصدروا التوابل فى حلب وطرابلس بسبب هذه الحرب عن تزويد عملائهم الفرنسيين بالتوابل . ولا يخفى أن التجار الفرنسيين كانوا يتمتعون منذ عام ١٥٣٥ باحتكار التوابل التى تعرض فى المشرق للتصدير، وهو امتياز خصهم به سلطان تركيا .

وكما اضطرت انجلترا وهولندا إلى تأسيس شركات للإتجار مع الهند عن الطريق البحرية ، فكذلك اضطرت فرنسا بدورها إلى التشبه بهما ، وكان المحرض لفرنسا على ذلك رجل من فلاندرز يدعى جيرار ليروى ، كان قد رافق سفن بلتازار موشرون فى رحلته إلى الهند ، وقد رأى الآن أن يضع جميع معلوماته وتجاربه تحت تصرف أنطوان دى جوديفروى[1] خازن الملك فى ليموج .

ولما كان من العسير القيام بمثل هذا المشروع الهام بدون إذن الملك فقد رفع هذا الأخير المشروع إلى هنرى الرابع ، أضف إلى ذلك أن المشروع كان يقتضى شيئاً من المعاونة والحماية وتدخل الملك بنفسه ليرجو حاكم هولندا

---

(١) Antoine de Godefroy

www.ibtesama.com Exclusive

العام السماح لأنطوان دى جوديفروى فى الحصول على بعض السفن والبحارة من هولندا ، إذ كان بها وحدها من السفن الصالحة للسفر إلى الهند ومن المؤن ما يفيض عن حاجتها . استجاب الملك هنرى الرابع لما طُلب منه ووقع فى عام ١٦٠٤ ، براءة تمنح حق تأسيس شركة لمدة خمسة عشرة عاماً وكان من المسلم به أنه بمجرد عودة بعثة الشركة الجديدة من رحلتها الاولى يعمد المساهمون إلى تأسيس شركة أوسع نطاقاً ، لا يقل مبلغ ما يساهم به العضو فيها عن ثلاثة آلاف جنيه .

لم تكن هذه البراءة الأولى التى وقعها الملك تمنح أصحاب الشركة امتيازات بعيدة الأثر كالإمتيازات التى منحتها الشركات الهولندية والإنجليزية ، ولكنها كانت تكفى على كل حال لأولى المحاولات التى اعتزمتها الشركة . على أن مادة من مواد البراءة كانت تعتبر تجديدا ، لأن بمقتضاها سمح للنبلاء على اختلاف مراتبهم فى الأنضمام إلى الشركة دون أن يكون فى هذا العمل ما يلقى أى شبهة عليهم لا من حيث مراكزهم الإجتماعية ولا من حيث كرامتهم أو إمتيازاتهم الشخصية .

والواقع أن اشتراك طبقة اللوردين الانجليز فى مجلس إدارة شركة الهند الشرقيـة ، قد دفع ملك فرنسا إلى أن يحذو حذو انجلترا فى فتح باب الأعمال التجارية للنبلاء والأشراف . وقد نص فى البراءة على هذا لما كان يرجى أن يحقق من ربح للملك والوطن « عن طريق هذا العمل الشريف الجدير بالتقدير » . كذلك منحت الشركة حق إحتكار استيراد التوابل ، وفى ذلك ما فيه من ربح وفير للغاية .

ونظرا لكثرة النفقات والخسائر التى قد تنجم عن مثل هذه الرحلة رؤى إعفاء البضائع التى تعود بها السفن فى رحلتها الأولى من المكوس والضرائب الجمركية .

ووعد الملك بتزويد كل سفينة بمدفعين وبعض الذخيرة الحربية . وضرب موعد لاجتماع الأسطول فى برست ، ولكن بالرغم من جميع هذه المقدمات التى كانت تبشر بالخير ، فإن الأسطول لم يبحر بعد هذا كله إلى الهند نظرا

www.ibtesama.com Exclusive

لاحتجاج الحاكم العام للبلاد المنخفضة عن طريق سفيرها فى باريس . ولم يقتنع الحاكم العام بتفسير الملك ، وهو أن سوء الأحوال فى المشرق بسبب الحرب الدائرة بين تركيا وفارس قد اضطره إلى الحصول على التوابل من جزائر الهند الشرقية مباشرة ، ولم يكن أهل البلاد المنخفضة ليرتاحوا إلى ظهور منافس لهم على مسرح سوق التوابل ؛ والواقع أن هولندا كانت متبرمة بفرنسا أشد التبرم لإغرائها بحارتها على الخدمة بأسطولها باذلة لهم أجورا مرتفعة عن المستوى المعتاد ، لذلك عندما طلب ملك فرنسا أن يسمح للهولنديين بالعمل على ظهر سفن الشركة الجديدة لم يقبل الحاكم العام طلبه ، وراح يتوعد باعتراض سبيل السفن الفرنسية أينما وجدت وسط البحار ، وبشنق كل بحار هولندى يعمل فيها . فكان فى توعده هذا فصل الخطاب ، والقضاء على مشروعات الشركة الفرنسية ولو بصفة مؤقتة .

وحدث قبل نشوء هذا الظرف الدقيق المعقد بثلاث سنوات ، أن كون تاجران من تجار سانمالو [1] شركة صغيرة فيما بينهما للإتجار مع الهند مباشرة ، إسم أحدهما فرانسوا بيرار من بلدة لافال ، واسم الآخر مارتان من بلدة فيتريه [2] ولكن الأول كان القوة الحافزة وراء هذا النشاط ، وقد وفق إلى إقناع بضعة تجار من مدينة روين بالاشتراك معه فى تمويل البعثة المعتزمة .

كان فرانسوا بيرار هذا ، شديد التبرم بتخلف فرنسا فى ميدان السباق لتجارة ما وراء البحار ، فعزم على تلافى هذا النقص وتمهيد الطريق لوطنه حتى يحصل على نصيبه من التوابل . كانت فرنسا حتى ذلك العهد ، تعتمد على البرتغال فى تموينها بحاجتها من الذهب والتوابل وما إليها من منتجات الشرق ، بدلا من أن تقوم هى ببيعها إلى الأمم الأخرى ، ولم يكن بيراردى لافال – وهو الاسم الذى كان يدعى به فى الغالب – يرى تجارة أنبل من عروض التجارة المستوردة عن طريق البحر ، بينما دفعته وطنيته لرفض ما تدعيه البرتغال واسبانيا من أن الإتجار عن طريق البحر وقف عليهما

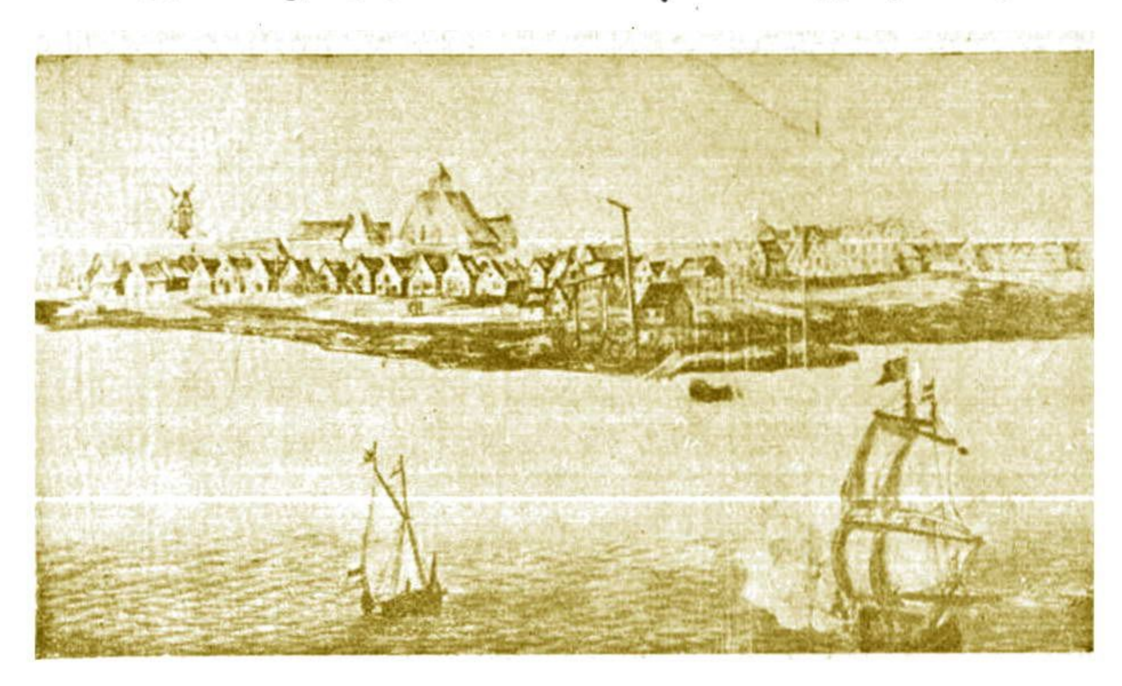
---

(١) San malo (٢) Vitré

www.ibtesama.com Exclusive

وحدهما ، كما أن استيراد التوابل من حقهما وحدهما أيضا .

لذلك اعتزم الصديقان تجاهل القيود التى فرضها على رعاياه فرانسوا الأول فى عهده إرضاء لملك البرتغال ، وكان قد ترتب على هذه القيود أن



« ملقـــا »

السفن الفرنسية ، أحجمت عن السفر إلى الشرق منذ قيام ربابنة حان أنجو بالرحلة إلى سومطرا من سبعين سنة خلت . ولما كان تجار سان مالو يجهلون كل الجهل ما قام به تجار دييب قديما ، فقد اعتقدوا فى أنفسهم عند أعدادهم سفينتهم «كوربان [1] وكرواسون [2]» أنهم أول من اعتزم الاضطلاع بالرحيل إلى تلك البلاد النائية من بين مواطنيهم . وأسندت مسئولية القيادة إلى ميشيل فروتيه دى لا بردلبير ، أما نائبا القائد فكان أحدهما إنجليزيا والآخر هولنديا .

وانضم مارتان ديڤترى وبيرار دى لاڤال إلى المسافرين ، أولهما بغية « الاستمتاع برؤية العالم والبحث عن الثروة » ، ولكن أيضا — على حد ما كتبه — للبحث عن طريق لجزائر الهند ليطلع مواطنيه عليها ولابتياع التوابل من مصادرها . ولكن الأقدار حالت سنين طويلة دون حصوله على ما ينشد ، فحطمت كوربان غير بعيد من جزيرة مالديف وأسر مليكُ ماليه جميع من نجوا من الغرق ومن بينهم بيرار دى لاڤال .

(1) Corbin (2) Croissant

www.ibtesama.com Exclusive

أما صديقه مارتن ديفترى ، فقدكان أحسن منه حظا إذ وصلت سفينته كرواسون إلى سومطرا ، وبعد أن قضى الجماعة خمسة أشهر فى تلك الجزيرة عادوا بسلام إلى سان مالو ومعهم شحنة طيبة من التوابل ، أما كوربان فقد ساد الاعتقاد بأنها غرقت بجميع من عليها من الرجال .

* * *

وأما ما حدث بعد تحطيم السفينة فقد رواه بيرار دى لافال بعد مضى عشرة أعوام على وقوع الكارثة فى كتاب تحت عنوان «أول رحلة للفرنسيين إلى الهند الشرقية» وفى كتابه هذا وصف حى نابض لمجريات الحوادث فى جزائر الهند الشرقية وأرخبيل الملايو خلال هذه السنوات العشر . فهو يصور لنا تقلص ظل سلطان البرتغال وابتداء سلطان الهولنديين فى تلك الأنحاء . استطاع بيرار دى لافال بفضل الفرص التى سنحت له أن يتتبع مجرى الأمور ، فروى لنا قصة حزينة عن الإنحطاط والجشع والقسوة وكيف أن أيام البطولة والبسالة التى اتسم بها عهد دلبوكيرك العظيم ، قد أخلفها عهد حافل بأدنأ الأعمال وأخسها ملأت قلوب أهالى أرخبيل الملايو بالبغضاء للبرتغاليين والحقد عليهم ، فيروى لنا كيف كان يرحب الملوك المحليّون فى تلك المنطقة بالهولنديين كمخلصين لهم من الذل والاستعباد ولم يدر فى خلدهم أن هؤلاء سيصبحون عما قليل شراً ووبالا عليهم ، يذيقونهم مرارة الظلم والاستعباد .

* * *

قضى بيرار دى لافال ، نتيجة غرق السفينة التى كان على ظهرها ست سنوات فى الأسر بجزائر ملديف ، ولكن تعلمه اللغة واكتسابه احترام الملك ضمنا له الاستمتاع بقدر معين من حرية التنقل ، وسُمح له فى مصاحبة الأهالى إلى مختلف الجزائر لمواصلة شئون التجارة .

وفى النهاية تمكن هو وبضع زملاء له من الهرب ونزلوا بإحدى الثغور

www.ibtesama.com Exclusive

الواقعة على شاطىء مالابار حيث عاملهم الأهالى معاملة طيبة ، ومن ثم رحل الفرنسيون إلى مدينة كلكتا حيث أرسل ملكها فى استحضار بيرار دى لافال لاستجوابه عن البلد الذى ينتمى إليها إذ كان قد علم أنه ليس بهولندى. وكما سبق لفان هوتمان أن يشرح لسلطان آشين الفرق بين فلندرز وانجلترا، كان على « بيرار دى لا فال » أن يحتذى حذوه ويشرح الفرق ما بين فرنسا وهولندا

ظل الملك يستجوبه ثلاث ساعات كاملة بشأن هذين البلدين ، وكانت تبدو على الملك مظاهر القلق والحيرة إذ لم يدر من يصدق — الهولنديين الذين أفهموه بأن الكونت موريس أعظم قوة من ملك فرنسا أو يصدق بيرار دى لافال الذى يؤكد العكس ؟

وبعد أن مكث ثمانية شهور فى كلكتا التى وجدها أكبر سوق للتوابل كما شعر بذلك من قبل مائة عام فاسكوداجاما ، واصل بيرار دى لافال السفر إلى كوشن . وهنا حلت به وبرفقته المصائب فوضعهم البرتغاليون فى الحديد . ولم يطلق سراحهم حتى شفع لهم بعض رؤساء الكنيسة الذين اهتموا بأمرهم نظرا لأنهم كانوا من أتباع الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، ومن ثم أرسلوا إلى جوا ، وهنا أيضا حامت حولهم الشبهات فلم يُتركوا لحظة واحدة بدون حراسة ورقابة .

استغل بيرار دى لافال فرصة وجوده فى جوا لدراسة مجرى الحياة فى رواح الناس وغدوهم على تلك المدينة المشهورة ، عاصمة البرتغاليين فى ممتلكاتهم الهندية الشرقية .

أرسل كبير أساقفة جوا فى إحضار لافال وأعرب له عن دهشته من إنتهاج الفرنسيين فى سفرهم إلى الشرق طريق رأس الرجاء الصالح على حين وجود روابط مودة طيبة بين ملكى إسبانيا وفرنسا . إن سلوك هذه الطريق قد لا يستغرب من الانجليز والهولنديين بحكم العداوة القائمة بينهم وبين إسبانيا ، ولكنه أمر يستغرب من الفرنسين حقا .

www.ibtesama.com Exclusive

ويضيف لافال إلى ذلك بأن رئيس الأساقفة لم يقل مثل ماقاله البرتغاليون الآخرون، بأنه من الواجب أن نشنق وحول رقابنا جوازات سفرنا والبراءة الممنوحة لنا من ملكنا .

ومهما يكن من أمر ، فإن الفرنسى اضطر للانضمام إلى جنود البرتغاليين كواحد منهم ، حيث استخدم سنوات عديدة فى مرافقة السفن التجارية لحراستها ، فتمكن بذلك من زيارة عدة بلاد بعيدة حتى البرازيل والصين واليابان وسومطرا ، لم يجد الفرنسى السلطان علاء الدين المرح على عرش آشن عند زيارته لها ، والظاهر أن إبنه الشاب سئم من امتداد الأجل بأبيه فكبله بالحديد واغتصب عرشه .

ذكر بيرار دى لافال هذه الحوادث كما ذكر أنه كان للهولنديين منزلة سامية فى آشن ، التى أصبحت من أهم المدن ، حتى أن اسمها كان يعم سومطرا جميعها كما كان يقال بنتام عندما يراد الإشارة إلى جاوا .

* * *

وعندما عاد صاحبنا التاجر الفرنسى سابقاً ، والجندى البرتغالى حاليا إلى جوا ، وجد بالمدينة عدداً من الأجانب كلهم أسرى أو شبه أسرى، وبعضهم مكبل بالحديد ، كما كانت الحال معه من قبل . وكان من بين هؤلاء الغرباء رجل من سويسرا ، وآخر من لورين ، وآخر من والون ، وأربعة من هولندا، واثنان وثلاثون بحاراً إنجليزيا ، وأربعة غيرهم من الانجليز كانوا عائدين من زيارة للمغول الأكبر .

وكان قد وصل إلى نائب الملك فى ذلك الحين امر من ملك إسبانيا يحرم استخدام أى جندى أو بحار فى الهند من رعايا هولندا وفرنسا وانجلترا . فكان الأمر ضربة قاسية لكثير من رعايا هذه الدول ، إذ كان فى الهند عدد كبير منهم حرموا من مقومات معاشهم بصدور هذا الأمر ، ووجدوا أنفسهم مثل لافال هائمين على وجوههم فى جوا . استعرض نائب الملك ، وكان رجلا

www.ibtesama.com Exclusive

ذا شخصية عالية ، هؤلاء الأجانب بنفسه ، وشدّ ما كانت دهشته حينما علم بأن بيرردى لافال ورفاقه من أصل فرنسى ، قدموا إلى الهند فى سفنهم الخاصة . فلما وقف على جليّة الأمر ، وعلم بجنسيتهم وما قاسوه خلال مدة إقامتهم الطويلة بالهند ، وعد بمد يد المساعدة إليهم وتزويدهم بالمؤن فى رحلة العودة لوطنهم .

كان قد بقى على موعد قيام الأسطول برحلته القادمة إلى البرتغال أربعة أشهر ، وكان من المقرر أن يسافر رئيس أساقفة جوا إلى لشبونة فى نفس الوقت ، فداعب الأمل الأنجليز والفرنسيين عسى أن يكون من حظهم الانخراط فى سلك حاشيته .

وشرع قس فرنسى من أبناء روين ، والجزويت الأنجليزى الأب ستيفن الرفيق ، الذى أحسن إلى فتش ونيوبرى فى وقت بلائهم ، شرع هذان الرجلان من رجال الدين فى استخدام نفوذهم لصالح مواطنيهم .

وبينما كان العمل قائما على قدم وساق لإعداد سفينة كبيرة للرحلة ، أرسلت بعض المراكب الصغيرة إلى كوشن لاستحضار الفلفل نظراً لأن ملك تلك الناحية رفض إرساله إلى جوا . كان من حق ملك إسبانيا وحده أن يبتاع الفلفل لذلك كانت تخصص على ظهر كل سفينة عائدة إلى الوطن مساحة تتسع لخمسمائة صندوق من هذا التابل ، أما المساحة الباقية فكانت تحت تصرف التجار لشحن أصناف التوابل الأخرى .

• • •

وأخيراً حان وقت الرحيل ، وتقرر أن يرافق السفينة الرسمية أسطول من المراكب ، ووزع الأجانب على المراكب ، كل أربعة على واحدة منها ، وكان من حسن حظ لافال أن منح مكاناً بين حاشية رئيس الأساقفة ، ومنح فرنسى إسمه جان موكيه امتيازا مماثلا ، وكان قد رافق نائب الملك الجديد من لشبونة إلى جوا كصيدلى له ، بيد أن مخدومه توفى أثناء الرحلة ، فلم يسع جان موكيه هذا إلا البحث عن عمل مؤقت يقوم بأوده ، فالتحق بمستشفى جوا العظيم كصيدلى

www.ibtesama.com Exclusive

وخبير بالأعشاب ، وكان قبل ذلك يشغل وظيفة صيدلى لهنرى الرابع ملك فرنسا الذى كان قد عينه أميناً لمتحف قصر التويليرى حيث يحتفظ بمجموعة طرائف خاصة .

ولكن لما كان جون موليه مولعاً بالأسفار ، فلم يكن يرضيه شىء أقل من العالم بأسره على حد قوله — وكان الملك يأذن له من وقت لآخر فى زيارة البلاد الأجنبية ، حتى أنه كان يتحمل جميع نفقاته على شريطة أن يعود إليه فى غضون عامين على الأكثر حاملا معه مجموعة من التحف النادرة .

كان هذا الصيدلى الملكى حريصا على تحقيق رغبة الملك ، إلا أن شغفه بالأسفار كان يزداد مع كل رحلة ، بيد أن رحلته إلى الهند لم تبعث فى نفسه ما كانت تبعثه رحلاته السابقة من الارتياح والرضا ، لذلك قرر فى النهاية أن يعود إلى أوروبا ضمن حاشية رئيس الأساقفة ، فكان له ما أراد .

وحينما حانت ساعة الإبحار ، مُلىء ظهر السفينة بصناديق القرفة المرصوص بعضها فوق بعض إلى ارتفاع منتصف الصارية ، حتى أن حيزوم السفينة انغمس فى الماء ذات مرة من ثقل وسقها وغمرت المياه ظهرها غمراً شديداً ترتب عليه تسرب الفلفل إلى مياه الشرب العذبة فأفسدها ، واضطر الربان إلى إلقاء جانب كبير من حمولة السفينة فى الماء لإنقاذها .

كانت الرحلة رهيبة حتى ليعجب الإنسان كيف بقى أحد من ركاب هذا الأسطول على قيد الحياة . وكان الركاب الانجليز مكبلين بالحديد وحتى الفرنسيين منهم . وسرعان ما تبينوا أن الامتياز الذى منح لهم ووعد نائب الملك بتزويدهم بالطعام لم يُلزم أتباعه ومرؤوسيه ولولا عطف بعض رفقة السفر لمات بيرار دى لافال ورجاله جوعاً .

وكان مما سبب كثيراً من الضيق لجان موكيه تلك الأسراب من الصراصير التى عبثت بأمتعته عبثاً مريعاً وخاصة بخزينه من البسكوت ، أما عدد ركاب السفينة فكان ثمانمائة رجل من بينهم سبعون امرأة .

• • •

www.ibtesama.com Exclusive

وجد جون موكيه حين عودته إلى فرنسا أن مخدومه الملكي قد مات مقتولا ، لذلك اهدى المؤلف الذى نشره إلى الملك الجديد لويس الثالث عشر . على أنه يستنتج من القصة التى رواها فى كتابه أنه ممن يهتمون بالعلوم الطبية لذلك ليس بمستغرب أن يسرد تفاصيل الآلام الجثمانية التى شهدها على ظهر السفينة . فهذا مصاب بالبلاجراء، وهذا مصاب بدوار البحر ، إلى جانب قوم قرضت الفئران عيونهم وأصابع أقدامهم. على أنه رغم ذلك كله يستحث القراء على اقتفاء خطواته والتمتع بمشاهدة عجائب العالم .

كان من بين الذين قضوا نحبهم أثناء الرحلة ، رئيس الأساقفة الذى ساعد جان موكيه على تحنيط جثته الجراح البرتغالى « القليل الخبرة » . ومما يذكر هنا أنه كان فعل نفس الشيء بجثة نائب الملك فى أثناء الرحلة إلى الهند ، ويقول جان موكيه فى قصته أن تحنيط الجثة فى رحلة العودة أمر سهل لوجود الكافور وحامض البنزويك والأطياب .

وذكر المؤلف فى كلمة الاهداء إلى الملك لويس الثالث عشر، ما كان من سماح الملك الراحل له بالسفر إلى الهند ، وكيف أنه كان يقرأ تقاريره بارتياح كبير، وأنه يأمل أن يواصل الملك الحالىّ عطفه عليه ، وأن يمكنه فى المستقبل من استكمال مجموعة التحف الموجودة بقصر الـ « تويليرى » .

وذكر جان موكيه فى مقدمة الطبعة الألمانية لكتابه هذا الموسوم «بالرحلات» بأنه بروتستنتى المذهب ، لذلك فهو يفضل أن يقتحم أهوال البحار على أخطار الحرب الأهلية . ومن هنا كان حبه للأسفار منقذا له من الحروب الأهلية فلا عجب إذا كان قد قام بخمسة أسفار فى غضون أثنى عشر عاماً .

وتؤيد قصته ما كتبه بيرار دى لافال عن جوا، وما عاناه فى رحلة العودة إلى وطنه .

نشر بيرار دى لافال كتابه عام ١٦١١ ، وقد دلت الأيام على صدق روايته هو ويعتبر فى جملته أحسن ما كتب عن الهند فى أيامه ، وقد أيد هذا

www.ibtesama.com Exclusive

الفرنسي في مواضع عديدة من مؤلفة ماكتبه ماركو پولو ونيكولو دى كونتى قبل ذلك بأعوام .

ويقع الكتاب فى مجلدين ، وهو يستعرض فيه للقارىء تاريخ البحث عن التوابل ، ويذكر فيه لمؤلف تجاربه الخاصة فى البلاد التى زارها البرتغاليون أوّلا حيث اكتشفوا « حبوب الجنّة » ثم يذكر ما شاهده بجزائر رأس فرد ، فالكنجو ، فسوفالا ، على شاطىء أفريقيا الشرق ، وكتلها الذهبية ، فمورمبيق بعاجها وأبنوسها ، فومبسا بعنبرها ، فالبحر الأحمر ، وساحل أو بعبارة أخرى « القس يوحنا » .

وشاهد بيراردى لاڤال فى هرمز مارواه ألفونسو دى كوئلهام فى تقريره المرفوع إلى الملك عن الفرس والسوريين والأرمن وهم يبيعون ويبتاعون السجاجيد والخيول والعقاقير والطيوب والتوابل .

ولم يجد فى نفسه القدرة على حصر كل مارآه من منتجات الشرق ، ولكنه ينقل إلينا مثلا يعبر عن عظيم خطر هذا المركز التجارى الهام « لو أن العالم بيضة لكانت هرمز محها » .

ثم هو يخبرنا عن كامباى وديو ، اللتين زارهما ڤاسكو داجاما ، ومابهما من ثروة ضخمة ، وماتنتجه من النيلة والقطن والحرائر والصناديق المصنوعة من الأخشاب الثمينة ، بما عليها من حفر مهرة صناع الهنود . ونرى فى ملقا ذات الشهرة القديمة ، أن الحال فيها لم تتغير منذ عهد ماركوپولو بها ، ونرى السفن تنقل من جميع الجزائر أطنان التوابل والعقاقير والماس والجواهر ، كما تنقل من الصين واليابان منتجاتها ومصنوعاتها .

ويصف بيرار دى لاڤال جزائر التوابل التى لقى حتفه فى سبيل العثور عليها كثير من البحارة الأبطال ، تلك الجزائر التى مهدت لقيام الإمبراطورية البرتغالية فى الهند الشرقية .

فمن قلم هذا التاجر الفرنسى من سكان سان مالو ، يتعرف القارىء فى جلاء

www.ibtesama.com Exclusive

ووضوح على الأسباب التى أدت إلى تقوض سلطان البرتغال فى تلك البلاد النائية ، وهو يؤكدلنا ان الهنود يعتبرون الهولنديين الآن أصحاب السلطان على البحار ، ويشاركهم البرتغاليون أنفسهم هذا الاعتقاد .

* * *

أثار تقرير بيرار دى لافال عن ضخامة ثروة الهند ومنتجاتها أطماع خازن الملك فى ليموج، أنطوان دى جوديفروى وأطماع صديقه جيرارليروى، فأجمعا على أن الوقت قد حان لطلب تصريح بإيفاد بعثة إلى الشرق .

ما لم يكن فى مقدور هنرى الرابع فى سنة ١٦٠٤ أن يمنحه نظرا لتهديد الهولنديين ووعيدهم، استطاع أن يمنحه لويس الثالث عشر ، وحصل الفرنسيان المذكوران آنفا على التصريح بتأسيس شركة للإتجار مع الهند ، ولكن لأسباب لا نعلمها لم يقوما بإرسال أى سفينة لتحقيق الغرض الذى من أجله أسست الشركة .

انقضت أربعة أعوام قبل أن يستيقظ مديرو هذه الشركة من سباتهم العميق ليروا أن تجارمدينة روين ، قد عرضوا على الملك أن يقوموا برحلة إلى الهند نيابة عنه . ووعد جاك مويسون وإزكييل دى كان[1] بدفع جانب عظيم من الأرباح للملك لويس الثالث عشر .

لم يرق لمديرى الشركة رؤية منافسين لهم فى ميدان يعتبرونه حكراً لهم ووقفاً عليهم، فراحوا يشرحون للملك أسباب التأخير فى استغلال الامتياز الممنوح لهم وتصالحوا مع الملك على وضع جديد .

وفى ١٦١٥ منح جلالته الشركة براءة جديدة لتكوين شركة اشترك فيها تجار روين وغيرهم ، وتقرر أن تحمل السفن الموفودة إلى الهند إسم مونتمورنسى تخليداً لاسم أميرال فرنسا .

وكون الكردينال ريشيليو شركة ثانية بعداثنى عشر عاماً لغرض واحد، هو استعمار مدغشقر ، إذكان يعتقد بأن هذه الجزيرة تحوى مالا حصر له من كنوز الذهب والتوابل ، ولكن النتائج خيبت ظنه .

(١) Ezekiel de Caen

www.ibtesama.com Exclusive

ويرجع الفضل إلى كولبير فى تنمية العلاقات التجارية مع الهند فمُنحت الشركة الفرنسية لشرق الهند فى عام ١٦٦٤ امتيازا بعيد الأثر على غرار الامتياز الممنوح للشركتين الهولندية والانجليزية .

وأبدى لويس الرابع عشر اهتماماً شخصياً « بشركة الهند الشرقية » .

وكان الدرع الممنوح للشركة من الملك ليكون شعاراً لها سماوى اللون ، على أحد وجهيه وردتان ذهبيتا اللون وعلى الوجه الآخر غصن نخلة ، وعلى الدرع صورتان تمثلان السلام ووفرة المحاصيل .

وعين كولبير رجلا فارسيّ الجنسية اسمه ما كارا افنشينز[1] مستشاراً لمجلس الإدارة الأعلى للشركة بمدغشقر ، نظراً لكثرة أسفاره إلى الهند ، ولخبرته الواسعة بكل مايتعلق بشئون التجارة .

وبعدقيام أحد مديرى الشركة بأول رحلة إلى الهند حيث ابتاع فلفلاردىء النوع فى سورات ، قرر المجلس إرسال مكارا إلى ملك جولكندا ليحصل للشركة على التسهيلات اللازمة والامتيازات لتأسيس مركز تجارى فى مملكته .

اصطحب المستشار الفارسى عدداً من التجـــار الفرنسيين وسافر إلى ماسوليباتام[2] حيث رافقه الحاكم بفضل نفوذ أصدقائه فى تلك المدينة إلى جلولكندا فى موكب باهر لمقابلة الملك . وهنايعيدالتاريخ نفسه مرة أخرى . فكما ادعى فاسكو داجاما فى كلكتا ما ادعاه عن قوة مليكه وعظيم سلطانه ومجده وكما أطرى كورنيليوس فان هوتمان الأمير موريس فى آشن ، وكمازعم كذلك جيمس لانكستر مازعمه عن عظمة الملكة اليصابات وقوتها ، كذلك فعل الآن هذا المبعوث الفرنسى بالنسبة للملك لويس الرابع عشر .

شرح المبعوث باللغة الفارسية لملك جولكندا مجد ملك فرنسا وعظمة شعبها ، وروى كيف أسس لويس العظيم شركة على غرار الشركتين الأنجليزية والهولندية ، ولكنه لم يؤسسها طمعاً فى منتجات الهند وثروتها ، فلديه فى مملكته

---

(١) Macara Avanchiniz

(٢) Masulpatam

www.ibtesama.com Exclusive

مايزيد عن حاجته ، وإنما غرضه أن يفضى إلى مللك جولكندا وأمراء الهند عن رغبته فى التراسل معهم ، كما يود كذلك أن يحيطهم علماً بعظمة الشعب الفرنسى وحسن نيته وأمانته فى المعاملات التجارية .

واسترسل ماكارا فى اطراء الأمة الفرنسية بمثل تلك العبارات وأهدى لوحة تمثل صورة ملك فرنسا ، تقبلها ملك جولكندا بارتياح ورضى مصدراً أمره من ساعته لوضعها فى إطار من الذهب السميك .



صندوق توابل يرجع عهده الى عام ١٧٠٠ م .

وتقبل الملك الهدايا الأخرى بمزيد من السرور ، وكانت تشمل خمسة أثواب من الأقمشة الفرنسية المموهة بالذهب وثلاثة عشر ثوباً من القماش الهولندى ، وإحدى عشرة مرآة ، وثلاث جدانات من النبيذ الفارسى الفاخر المعتق ، وعدداً كبيراً من قطع النقود الذهبية .

وبالرغم من أن كل الظروف كانت تبشر بالخير للفرنسيين إلا أنه سرعان ما أقيمت العقبات فى هذا السبيل بفضل مابذله التجار الهولنديون من الجهود الجبارة لحوك المؤامرات ، وإحباط المساعى وبذل الرشوة ، لمنع كل تنافس لهم.

على أن النتائج الأخيرة لجهود ماكارا كانت مرضية ، يدل على ذلك الفرمان الذى أصدره ملك جولكندا ، والذى بمقتضاه منح الفرنسيون امتيازات بعيدة الأثر ، لم يستطع لا الأنجليز ولا الهولنديين أن يفوزوا من الملك بمثلها ، بالرغم من الأموال الطائلة التى عرضوها عليه .

* * *

وفى المقابلة الأخيرة ، قبل انصراف المبعوث ، ألقى عليه الملك أسئلة عديدة بشأن جميع ملوك أوروبا وممالكهم فأتاح ذلك له الفرصة ليسهب فى الكلام عن قدم المملكة الفرنسية وعريق مجدها ، وشجاعة أبطالها ، وإخلاص شعبها

www.ibtesama.com Exclusive

وتفوق ملوكها على جميع ملوك أوربا ، موضحاً بصورة خاصة مايتحلى به لويس العظيم من كريم الخلال وحميد الخصال .

عاد ماكارا الماسوليباتام فى ديسمبر سنة ١٦٦٩ ومعه الفرمان العالى، حيث شرع يوسس فى الهند أول مركز تجارى فرنسى وهكذا بدأت التوابل منذ ذلك اليوم ترسل مباشرة إلى فرنسا على ظهر السفن الفرنسية .



www.ibtesama.com Exclusive

الفصل الثامن عشر

التنافس

ادعاء فتح الشاطىء الهندى وامتلاكه

«المقطع الناسم»

القرنفل وجوزة الطيب والبهار والفلفل . كل هذه التوابل قد أصبحت بعد حين وسائل للثراء بدلا من أن تكون أداة نافعة تجعل الطعام مريئا ، والشراب مستساغا . فالإمعان فى طلب التوابل قد ترتب عليه الفتوحات وإنتشار السلطان ، وكان لابد بعد ذلك من قيام المنازعات والخصومات بين المتكالبين على مصادر الثروة ، فحلت المأساة واشتد التنافس المرير ، ونشبت الحروب ، وطال أمدها .

إن تاريخ النزاع الرهيب للانفراد بالنفوذ والسلطان فى جزائر التوابل ، ليملأ المجلدات العديدة الضخمة ، فهو قصة مؤلمة لسلسلة حروب غادرة خاتلة لا هوادة فيها ولا وازع لها من شرف أو ضمير . شنها البرتغاليون على أهالى جزائر الملايو ، وشنها الهولنديون على البرتغاليين والإنجليز ، وشنها هؤلاء بدورهم على الهولنديين والأهالى .

فالتجارة أدت إلى الفتوحات ، ولكن بينما كانت النتائج السياسية وما ترتب عليها من قيام ممتلكات لهولندا وإنجلترا فى الهند والملايو تتوج هامتيهما بالمجد كما كانت الحال مع البرتغال فيما سلف ، كانت هذه الأخيرة قد أضعفها فى الشرق صراعها مع هولندا ، وأفقرتها التكاليف الضخمة التى تنفقها على جيوشها فى الشرق ، وكفاحها ضد الهولنديين ، حتى أن ملك البرتغال كان يفكر جديا فى وقت من الأوقات فى بيع حقوقه بممتلكاته الهندية إلى ملك فرنسا ، ولكن هذه الفكرة لم توضع موضع التنفيذ .

كان لما يقع من الحوادث فى البحار الشرقية بين ممثلى الشركات الهولندية

www.ibtesama.com Exclusive

والانجليزية صدى فى لندن وأمستردام، حيث كانت الشكاوى تبحث بالوسائل الديبلوماسية المهذبة، ولكن المشاكل فى جزائر التوابل كانت تحل بطرق تختلف إختلافا بيناً عن وسائل الدبلوماسية إذ كان الاحتكام فيها للسيف لا للقول .

على أنه لم يكن هنالك فرق يذكر بين الوسائل المستعملة من جانب الطرفين المشرئبين إلى الاحتفاظ بالجزائر المنتجة للتوابل أو امتلاكها فقد كان كل منهما يحقق أرباحا ضخمة .

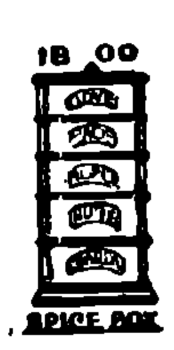
فكان حملة أسهم التأسيس فى هولندا يحققون ربحا بلغ أربعمائة فى المائة، وبالرغم من هذا الربح الوفير كانت تتعالى الأصوات مطالبة بالاتجار مع جزائر الهند الغربية والعدول عن جزائر الهند الشرقية، لما كانت تذهب إليه الظنون من أنّ نتائجها الاقتصادية سيئة وغير مرغوب فيها .

أخذ على عاتقه أحد حملة الأسهم بعد مضى ستة عشرة سنة على تأسيس الشركة أن يشرح للجمهور الفوائد القومية العظيمة التى تجنى من وراء تجارة التوابل، فذكر بأن معدل المرتبات والأجور التى تصرف لبحارة كل سفينة ترسل إلى الهند يزيد على زنة « طن من النقود الذهبية »، تنفق كلها داخل هولندا . أضف إلى ذلك الفرص التى أتيحت للعمال فى مختلف المرافق المتصلة بشئون الملاحة مما تضمن أسباب المعاش لفقراء الأمة فى شىء من الراحة النسبية، على أن الذى كان يعتبره هذا المساهم من أهم النتائج المرضية هو ما أنزل بملك أسبانيا من خسارة فادحة ونكد مقيم .

وراح هذا الهولندى يعدد ما غنموه من السفن، منذ حرم فيليب الثانى على الهولنديين عام ١٥٩٦ إستيراد التوابل من اشبونة إلى قادس، ثم يسترسل هذا الهولندى إلى القول فى زهو وفخر، بأن مركز تجارة التوابل قد انتقل من البرتغال إلى هولندا، وأن تجار أسبانيا قد اضطروا فى بعض الأحيان إلى شراء جوزة الطيب والقرنفل والبهار من «أسواقنا» أى الأسواق الهولندية .

وكانت الأرباح فى انجلترا عظيمة كذلك حتى وصلت أرباح التجار الانجليز فى وقت من الأوقات إلى ٦٥٠٪ من تجارة جوزة الطيب وإلى ٧٠٠٪

www.ibtesama.com Exclusive



صندوق توابل يرجع عهده إلى أوائل القرن التاسع عشر

من تجارة الفلفل وإلى ٨٠٠ ٪ من تجارة البهار والقرنفل .

وهنا أيضا كانت تعلو الأصوات بالاحتجاج على شركة الهند الشرقية بأن هناك من الإعتبارات ماهو أهم من خفض أسعار التوابل ، فهناك مسألة هذه الأرواح التى تزهق أثناء هذه الأسفار المحفوفة بالأخطار .

وفى إحدى المناقشات حول تجارة إنجلترا مع جزائر الهند الشرقية إحتج بعضهم على أنه « كان أفضل للعالم المسيحى لو أن رأس الرجاء الصالح لم يكتشف ، لأن فى إرسال إنجلترا والبرتغال وهولندا سفنها لابتياع السلع التافهة من الشرق مضيعة لثروة المسيحية من ذهب وفضة ونقود وخاصة فيما يتعلق بانجلترا » .

وهنا رد أحد أعضاء شركة الهند الشرقية بأن مثل هذا الاحتجاج لا يصدر إلا عن جهل مطبق بمجريات الأمور ، وأن المنطق السليم ليشهد بأن هذه التوابل أشياء ضرورية للاحتفاظ بالصحة ، كما أنها ضرورية لمعالجة الأمراض والأدواء . فإذا ما قيل أن هناك من الشعوب من يعيشون بغير حاجة إلى استعمال التوابل والعقاقير ، فإن تفسير ذلك لا يكون إلا لأنهم عاجزون عن دفع الثمن ، ولا بد أن تكون الأمراض أكثر انتشاراً بين تلك الشعوب وأن تكون آلامهم أشد وأمض . ويقول عضو آخر فى دفاعه عن تجارة التوابل ، بأنها أبعد من أن تكون عقبة فى سبيل تنمية الثروة ، لأنها تخلق الثروة . وهو يبرهن على صحة ماذهب إليه ، بأن الشركة ابتاعت فى أحد الأعوام مائة وخمسين ألف رطل من الفلفل من مصدر إنتاجه بسعر شلن وثمانية بنسات للرطل الواحد بينما لم يقل سعر الرطل عن ثلاثة شلنات قبل أن تقوم شركة الهند الشرقية باستيراده . أما ثمن القرنفل فكان ثمانى شلنات ، وثمن البهار تسعة شلنات .

ويقول المؤلف بأن مدينة مرسيليا كانت تنفق سنوياً خمسة آلاف من الجنيهات وكمية صغيرة من السلع أحياناً فى الهند ، لاستيراد بعض منتجات

www.ibtesama.com Exclusive

الهند . أما فينسيا فكانت تنفق نحو مليون من الجنيهات وكميات كبيرة من السلع ، بينما كانت البلاد المنخفضة تنفق خمسة ملايين من الجنيهات إلى جانب قليل من السلع . وفى ذلك ينطلق لسان أحد الخطباء بالإطراء على شركة الهند الشرقية بهذه الكلمات .

ماأعظم التقدير الذى تستحقه هذه الشركة الإنجليزية لتجارة الهند الشرقية الذى أصبح بفضل مسعاها يتحقق الأمل فى تحويل جانب من هذه التجارة الغنية المربحة إلى إنجلترا عن طريق شحن البضائع رأسا من الخليج الفارسى ، على حساب تركيا ، إذ أن النتيجة التى لابد وأن تترتب على ذلك هى أن تقل حصيلة الجمارك التركية وأن تزداد خسائرها تدريجيا ، بينما تُوفر أموال العالم المسيحى كما هو حاصل حاليا فيما يتعلق بتجارة بعض أنواع معينة من التوابل وصبغة النيلة .

نشرت هذه الكلمة فى تبرير الاتجار بالتوابل سنة ١٦٢٠ وحدث فى العام نفسه أن جزيرتين من جزائر بنداس المشهورة بالتوابل والتى لم يكن الهولنديون قد أدعوا ملكيتها بعد ، وهما بلواى[١] وبولارون[٢] قد استسلم أهاليها لانجلترا بمقتضى اتفاقيتين محترمتين ، نص فيهما على سبيل تخليد الذكرى ، أن يرسل أهالى الجزيرتين لملك إنجلترا كل عام غصناً من شجر جوزة الطيب .

حدث هذا بينما بادرت بعض الدول الأخرى إلى الاشتراك فى السباق إلى الهند ، خشية أن يفوتهم الحصول على جانب من كنوزها ، فأرسلت الدانمرك بعض سفنها إلى ترنكبار[٣] على ساحل كرومندل[٤] حيث أسست مركزاً لتجارتها . وجاء دور السويد فمنح الملك جوستاف أدلفس[٥]

---

(1) Pulaway
(2) Pularone
(3) Tranquebar
(4) Coromandel
(5) Gustuf Adolphus

www.ibtesama.com Exclusive

عام ١٦٢٥ امتيازاً لإحدى الشركات ولكن الحروب ووفاته أجلت قيامها مؤقتا بأى نشاط .

* * *

كانت تقام فى مدينة لندن أحياناً مواكب تعرض فيها منتجات جزائر الهند وكنوزها وتوابلها وفاكهتها العبقة العطرة . وكان فى كل مرة ينتخب فيها محافظ لندن الجديد عضوا فى جمعية البقالين الموقرة خلال القرن السابع عشر ، كما كانت تقام حفلة يمثل فيها مشهد يتصل من بعض نواحيه بالتوابل وحوادثها . كان هذا من الأمور الطبيعية نظراً لأن جمعية البدالين وهى إحدى نقابات مدينة لندن الاثنتى عشرة كانت قد تطورت فى عام ١٣٤٥ من جمعية الإخوان الفلفليين القديمة إلى نقابة . وقد أشير لهم فى البراءة الممنوحة عام ١٣١٥ بلغة النورمانديين الفرنسيين بهذه العبارة « هؤلاء الرجال المحترمون من المقدمين فى تجارة الفلفل » وقد استبدل اسم الفلفليين بالبدالين لأنه يميز أصحاب البيع بالتجزأة عن تجار الجملة .

ولما كان استيراد التوابل مقصوراً فى العهود السابقة على التجار الإيطاليين ، خلفاء الرومان القدماء ، فقد حدث فى بعض الأزمنة أن أحد أهالى لومبرديا ، يدعى بوتشرينى، كان من أجداد أحد محافظى لندن من عام ١٢٣١ إلى ١٢٣٧ إسمه اندرو بوكرل[1] .

وفى الأجيال المتعاقبة انتخب كثير من اتحاد البدالين ليكون محافظاً لمدينة لندن، وقد حدث هذا بالفعل عام ١٦٧٨ — وبهذه المناسبة كان مهرجان « انتصار لندن » وهو الاسم الذى كان يطلق على هذه المهرجانات ، قد أقيمت له — حفلة رائعة تمثل كل ما يتعلق بالمعاملات التجارية مع الهند ، وخاصة فى ميدان التوابل .

ولما كان شعار جمعية البدالين صورة جمل يحمل بالات من منتجات الشرق ، فقد صنع تمثال على صورة جمل فى هذا المهرجان ، جلس فوق ظهره

(١) Andrew Bokerel

www.ibtesama.com Exclusive

غلام زنجى يتوسط سلتين فضيتين ملئتا بالفاكهة والتوابل ، وقدأخذ الغلام ينثرها بين جموع النظارة الذين تدافعوا فى مرج وسرور لالتقاط البرتقال والليمون والقرنفل وجوزة الطيب .

وكان من بين مناظر المهرجان آلهة تسمى أبيولنتا (Opulenta) (ومعناها الثرية) ، وهى التى يقال أن بيدها مفاتيح كنوز الهند ، وقفت تلق على الجماهير خطاباً جاء فيه :

« إن العقاقير والتوابل والطيوب [التى تأتى بها السفن الإنجليزية إلى لندن] والتى تستخرج منها بفضل توجيه الأطباء ، وحكمة الكيمائيين وفن الصيادلة الأدوية والمراهم للعلاج وصيانة الصحة ، يحتفظ البدالون بكميات وفيرة منها فى متاجرهم إلى جانب ما يعرضونه من أنواع التوابل ، كالفلفل والقرفة والقرنفل وجوزة الطيب والأرز والمستكة وخشب الصندل الوردى بجميع أنواعه . وبمتاجرهم أيضاتجدون جميع أنواع الفاكهة وغيرها من السلع التى تزيد عن الحصر » .

وبعدأن فرغت أبيولنتامن كلمتها، جاءدور أروماتوريو [1] (رب الطيوب) ليلق كلمته ، وهو يمثل مزرعة خيالية يفترض وجودها فى جزيرة سيلان ، وتشمل أشجار القرفة وجوزة الطيب والقرنفل .

وكان رب الطيب هذا يرتدى قباء من الستان الأبيض فوق ثوب حريرى أسود، وشيت أهدابه بالخيوط الفضية ، وعلى رأسه تاج صغير مطعم بالقرنفل، فألق كلمة دعى فيها أصحاب المزارع وفلاحيها إلى تأدية أعمالهم ، ففعلوا وهم ينشدون فى فرح ومرح .

بالقرفة والقرنفل والبهار وغيرها من التوابل
نحن الزراع قد زرعنا فردوساً جديداً

---

(1) Aromatorio

www.ibtesama.com Exclusive

دون أن نشعر بأى ضرر من خطيئة آدم .
فهاكم فلفلا لنوى المروءة ، وهاكم جوز طيب للحسان .
نحن نعمل ونكد دون أى ملل أو ضجر،
فليس لدينا ما نُلعَن به سوى توبل أو بعض توبل .

* * *

فى عام ١٦٨٩ : انتخب الملك وليم رئيساً أعلى لجمعية البدالين ، فكتب مسجل الجمعية ويدعى وليم ريفنهل نبذة قصيرة رغبة منه فى إحاطة صاحبي الجلالة الملك وليم والملكة مارى بتاريخ نشأة الجمعية ومقرها الرسمى الذى يسمى بهو الطيوب والذى بنى بعد حريق لندن . وشرح المسجل فى نبذته هذه ، كيف أن الجمعية أفل نجمها فى السنين الأخيرة نتيجة الحروب [1] والحريق، ولكنه الآن ينتظر أن يعود لها سابق ازدهارها بفضل نفوذ جلالتهما .

وأشار المسجل إلى أن الملك شارل الثانى كان قد أدمج أصحاب العطارة والحلوى والتبغ فى جمعية البدالين للسبب الآتى .

« أدرجت أنواع كثيرة من السلع على مر الأيام تحت إسم البدالة : ولا جدال فى أن هذه المدينة (لندن) والأمة الانجليزية ، تدين بتطور ملاحتها وترقيتها ، إلى حد بعيد ، للتجار الذين كانوا يتاجرون بفضل امتيازات الجمعية ، مع جميع بلاد المعمورة ، مستوردين التوابل والعقاقير والفاكهة والأثمار والطيوب وما إلى ذلك من السلع الثمينة ، وحق لهذه الجمعية أن تفخر بأصلها العريق ، الذى ينحدر من تجار روما ، أولئك الذين كانوا يستوردون التوابل من أنحاء الشرق ، والذين جاءوا إلى هذه المدينة من روما واستقروا بها منذ فتح الجزيرة ، وكانوا أول من نهض بشئون الملاحة هنا مما ترتب عليه أن أصبحت هذه الجمعية (أكثر من أى شركة أخرى فى لندن) تضم أعضاء أثرياء يتجرون فى داخل البلاد وخارجها ، وقد أعقبوا أسراً محترمة ضمن نطاق

(١) كان هذا فى الواقع بسبب القروض الممنوحة للملك شارل الأول على غرار القروض الممنوحة له من الشركات فى المدن الكبرى

www.ibtesama.com Exclusive

طائفة تعرف باسم «الحراس الأربعة »، وليس للطائفة رئيس ، لذلك كانت جديرة برئاسة رأس متوّج .

وبعد مضى خمسين عاماً على مهرجان التوابل هذا الذى كشف لجمهور لندن عن أهمية التوابل التى حبتها الطبيعة برائحة زكية عبقة ، نشر رجل فرنسى إسمه دى فرزن دى فرانشفيل "de Fresne de Francheville" مؤلفا ألم فيه بتجارة التوابل ، وكان مما أشار إليه فى هذا المؤلف ، تطلع كثير من الأمم للأخذ بنصيب من تجارة الهند الشرقية . ومما كتبه أيضا قوله : « ليس فى هذا ما يستغرب له ، لأنه لا يوجد فى العالم تجارة أوفر ربحاً ولا أكثر أهمية من التجارة التى تتصل أسبابها بتلك البلاد الشرقية . فمن تلك الجزائر الخصبة التى تشرق عليها الشمس من مسافة أقرب من المسافة التى بيننا وبينها، تستورد أثمن السلع التى تساعد على رغد العيش ورفاهيته ، وفخامة المظهر وروعته . فمن جزائر الهند تستورد الجواهر والأحجار الكريمة إلى جانب الحرير الثمين ، والقرفة ، والفلفل ، والقرنفل ، وجوزة الطيب .



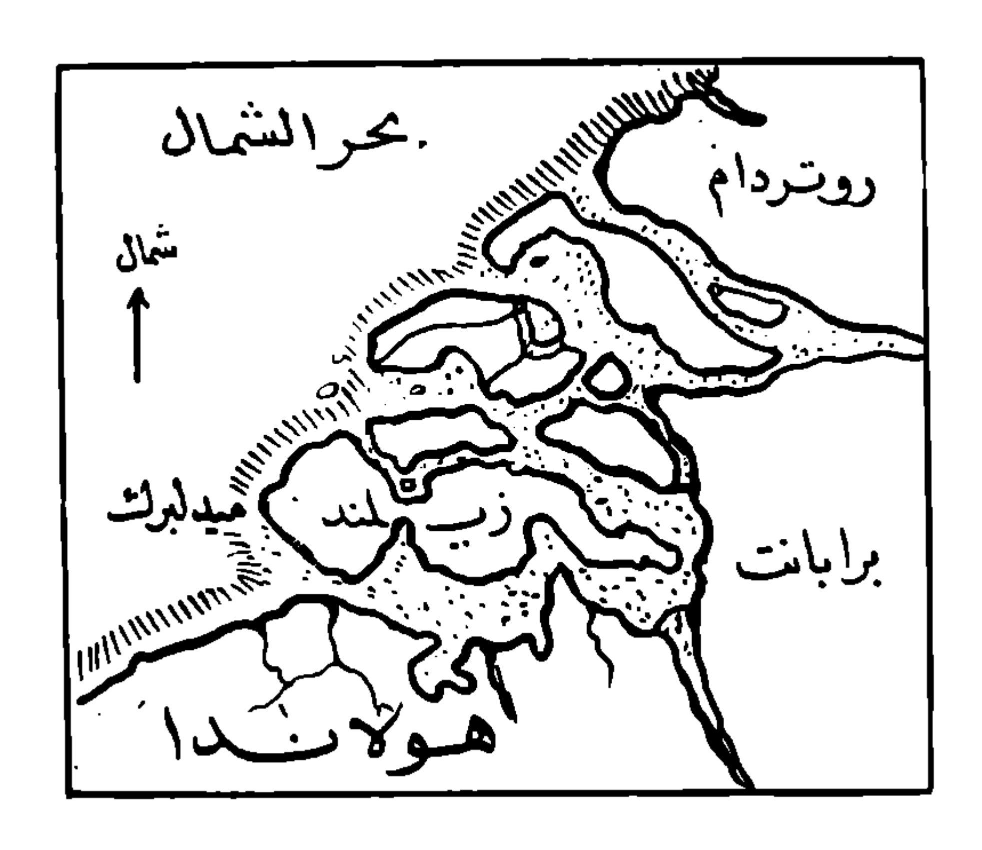
الجذور الصينية « الجنزبيل »

وكان ما كتبه هذا الفرنسى نثرا رزينا ، قدنظمه أحد الإنجليز فى الأبيات التالية .

www.ibtesama.com Exclusive

فوق ظهر البسيطة من أقصاها إلى أقصاها
وفى الأسفار الطويلة فوق العباب المتموج
بعثت فرنسا وأسبانيا وهولندا وانجلترا
رجالا يبحثون عن الجواهر من أين تأتى وعن التوابل كيف تنمو
حاملين معهم قليلا من السلع
غير أنهم عادوا بتجارة جزائر الهند الغنية

مجلة انتصار لندن
سنة ١٦٦٨



www.ibtesama.com Exclusive

الفصل التاسع عشر

اختطاف أشجار التوابل

لم يسق لعاشق أن يحيط محبوبة يغارعليها بمثل ما أحاط به الهولنديون جزيرة أمبوانا[1] حيث تنبت أشجار القرنفل

« لأحد المعاصرين » عام ١٧٥٠

فى أواخر القرن السابع عشر ، توصل الهولنديون إلى احتكار تجارة القرنفل وجوزة الطيب ، فابتاعوا من حكام جزائر « ملوك » حق اتلافها وتدميرها و إبادتها عن آخرها فى الجزر الواقعة تحت سلطانهم ، حيث أشجار التوابل ، نظير مبلغ من المال يدفعونه لهم سنويا على سبيل التعويض .

ركز الهولنديون زراعة أشجار القرنفل فى جزيرة أمبوانا ، وزراعة أشجار جوزة الطيب فى ثلاث جزر صغيرة من بين مجموعة جزائر بندا[2]. وكان لهم فى أمبوانا حامية ترابط فى حصنها ، كما رابطت الجنود على طول الشاطىء . ونظمت الدوريات البحرية فى السفن لتمنع كل تعامل تجارى غير مشروع ، ومراقبة المزارع لإبادة الشجيرات التى ربما تكون قد ترعرعت فى المناطق المخربة . وقد تأثر مناخ المنطقة نتيجة إحراق مثل هذا العدد الضخم من أشجار التوابل حتى أصبحت الإقامة فى امبوانا لا تلائم الصحة بعد أن كانت منتجعا للناس ينشدون فيها استعادة صحتهم ونشاطهم ، والواقع أن جوها فسد وساء إلى درجة رؤى معها عدم مرابطة أى جندى بها لأكثر من ستة شهور . ويبدو أن شذى العطر الذى كان ينبعث من أشجار التوابل التى لا حصر لها كان يلطف من ضرر الأبخرة البركانية فى هذه الجزر .

وقد ترتب على هذا أن مُنِىَ أهالى هذه الجزر بخسائر مادية فادحة

---

(١) Amboyna

(٢) Banda

www.ibtesama.com Exclusive

نتيجة حرمانهم من مقومات معاشهم ، غير أن الذى كان أدهى وأمر من ذلك كله ، استجلاب الهولنديين الرقيق للعمل فى مزارع التوابل . وكانت مزارع التوابل هذه تباع إسميا للعجزة من الجنود أو المعتلين منهم ، على شريطة أن يبيعوا جميع محصولهم إلى الشركة الهولندية بالسعر الذى تحدده . وكانت هذه الشركة تقوم بتزويدهم بكل مستلزمات معاشهم وبالرقيق أيضاً لفلاحة الأرض .

أثرت هولندا ثراء عريضا بفضل تجارة التوابل المجزية ، وأصبحت الآن سيدة بحار الشرق ، وكانت تعتبر عدوا لها كل من ينافسها أو يناوئها من أبناء الغرب ، لذلك كان عليها أن تقعده عن المنافسة ولو عن طريق إزهاق الروح .

ولكن قيل أن أحداً لم يحط محبوبة يغار عليها بمثل ما أحاط به الهولنديون جزيرة أمبوانا حيث تنبت أشجار القرنفل .

حدث ذات يوم أن فرنسيا مغامراً متوبل الاسم إذ كان يدعى (لى بوافر) أى الفلفل — إسماً ومعنى — ، جعل هدفه فى الحياة اختطاف هذه الغادة الفاتنة ، معشوقة الهولندى التى لم تكن فى هذه المناسبة سوى القرنفل ، ليحررها من الأسر ، ويطلق سراحها تنتشر حيث تشاء فوق هذه الأرض الطيبة لعلها تجد رقعة منها تكون بها أكثر براً وأشد حدباً عليها . وكان من الافتراضات الشائعة فى ذلك الوقت أن أشجار القرنفل وجوزة الطيب المزدوجة ، لا تنمو فى تربة غير تربة جزائر ملوك ، كأن الله لم يجعل لها مكاناً تحمل فيه ثمارها سوى هذه الرقعة الضيقة المحدودة .

قضى السيد ليبوافر المثابر الجرىء على مزاعم أصحاب هذه النظرية الوهمية ، فاستحق مانعت به من أنه رسول التوابل .

* * *

كان ليبوافر فى صباه قد اعتزم التبشير والدعوة إلى المسيحية فى الصين الوثنية ، فسافر من أجل ذلك إلى الصين لإعداد نفسه للقيام بهذه المهمة .

www.ibtesama.com Exclusive

ولكن الأقدار كانت قد رسمت لهذا الغلام الاكليركى المشبوب العاطفة خطة غير التى رسمها لنفسه .

والظاهر أنه اختار هذه المهنة استجابة لرغبة ملحة لمشاهدة العالم ودرس الطبيعة فى الصين ، أكثر من رغبته فى صلاح الأرواح وتقويمها . ففى مكتبة « البعثات الرسولية » بباريس يوجد إسم « بيير ليبوافر » مدرجا فى سجلات عام ١٧٤٠ — ١٧٤٤. ويرى مرة أخرى فى سجلات عام ١٧٤٩ — ١٧٥٤ . إنها قصة محزنة ، ولكنها قصة فنان شغف حباً برسم اللوحات الزيتية ، وكان عقله المتوقد يهيم حباً بالطبيعة كما كان به بعض الميل للشئون التجارية ، وكل هذه صفات طيبة فى مجموعها ، ولكنها بعيدة كل البعد عما ينتظر من نشاط رسول دينى فى مستقبل أيامه .

أما فيما يتعلق بطباعه فقد كان شديد الإنفعال ، غير ضابط لأعصابه ، سريع الغضب ، ولكنه كان طيب القلب رحيما . وليس بمستغرب والحالة هذه فى غلام فتى السن ، لا يقيم للنظام وزناً ، أن يتورط فى كثير من المنازعات ، والتى كان بعضها من النوع الذى يثير الشبهات حتى أن رؤساءه من رجال الدين تنفسوا الصعداء حينما نفى الأسقف هذا الغلام المشاغب من الصين .

أعيد « بيير ليبوافر » إلى فرنسا على ظهر سفينة من سفن شركة التجارة الفرنسية ، ولكن حدث أثناء الرحلة أن تصدت لها سفينة إنجليزية فدارت بين الفريقين معركة حامية ، فقدفيها ليبوافر كفه اليمنى وأسرت السفينة الإنجليزية السفينة الفرنسية . وجرد صاحبنا من جميع مذكراته ورسوماته ولوحاته ، ولعل هذا كان بدافع الأمل فى أن تحتوى على معلومات قيمة عن الهند الصينية تستفيد منها الشركة الإنجليزية لشرق الهند .

وفى بتافيا ، أنزل أمير البحر الانجليزى الأسرى الفرنسيين توفيرا للطعام والشراب ، وهنا أدرك الفتى المغضوب عليه أهمية ما يتمتع به الهولنديون من احتكار تجارة التوابل ، فعكف على دراسة طريقة زراعة أشجار القرنفل

www.ibtesama.com Exclusive

وأشجار جوزة الطيب . وشرع يرسم فى مخيلته مشروعات تجارية عظيمة تعود عليه وعلى بلاده بالخير والنفع العميم .

زار بيير ليبوافر فى طريق العودة إلى الوطن مملكة سيام ، حيث قضى بعض الوقت فى ضيافة المبشرين الذين لم يكن قد ترامى إلى علمهم بعد ما جلبه على نفسه من العار ، معتقدين أنه ما يزال عضوا من أعضاء الهيئة الدينية . كان رسو السفينة بعد ذلك فى المحطة التالية ، وهى بندتشرى[1] ، حيث تعرف برجل إرلندى يدعى فريل[2] . وكان هذا الأخير قد سبق له زيارة الصين الهندية الفرنسية من بضع سنوات ، وقد أحضر معه بإذن من الملك غلامين ، داماس وميجل ، ليتمرنا على الترجمة ، إذ كان يرجو العودة إلى الصين .

واستطاع بيير ليبوافر اكتساب صداقة ميجل الذى كان القسس البرتغاليون قد حولوه عن عقيدته الأصلية إلى الدين المسيحى . فشرع ليبوافر يعلمه رسم اللوحات فى نظير دروس يعطيها له هذا الأنامى . عاد بيير ليبوافر إلى فرنسا عام ١٧٤٥ ، بيد أن فكرة العودة إلى الشرق الأقصى وتحويل تجارة القرنفل وجوزة الطيب المربحة إلى وطنه — كانت ما تزال تداعب خياله ، وكان يعتزم تنظيم الإتجار مع الصين الهندية الفرنسية .

وفى باريس اتصل بمديرى شركة الهند الشرقية الفرنسية الذين سبق أن أثار اهتمامهم المستر فريل للإتجار مع الهند الصينية . ولكن الحرب حالت دون تنفيذ هذا المسعى . وما أن وضعت الحرب أوزارها حتى اغتبط مديرو الشركة بمعرفة بيير ليبوافر ، إذ وجدوا فيه خير ممثل لهم فى الشرق ، والتمسوا من الملك لويس الخامس عشر أن يكتب خطاباً لامبراطور آنام يقدمه له بيير ليبوافر بنفسه ، كما حُمل خطابات لحاكى إيل دى فرانس[3]

---

(١) Pondichery

(٢) Friell

(٣) Ile de france

www.ibtesama.com Exclusive

أى — جزيرة فرنسا — ، وبوندتشرى يتضمنان تعليمات بوجوب مساعدة مبعوث الملك بكل الوسائل الممكنة . فكانت النتيجة أن أعطى بيير ليبوافر سفينة تحمل أربعين مدفعاً وجميع السلع التجارية اللازمة ، إلى جانب الهدايا المخصصة لملك تلك الجهات ، وكان الفضل فى هذا كله ، يرجع إلى الخطاب الذى حمله ليبوافر إلى المركيز دوبلكس[1].

أثار وصول مثل هذه السفينة المسلحة كثيراً من الاضطراب فى حصن فايفو[2] بالقرب من توران[3]. ولكن سرعان ما عادت الأمور إلى نصابها عندما تأكد الأهالى من حسن نية الزائرين ، وابتهج القس الفرنسى المشرف على الجزيرة بوصول مواطنيه ، فأسرع إلى استقبالهم مهيبا بهم أن يسرعوا بالرحيل لما كان يعلمه عن طبعة الصعوبات التى كانت فى انتظارهم . غير أن بيير ليبوافر لم يكن يعتزم مغادرة الجزيرة قبل تنفيذ الهدف الذى جاء من أجله ، ولم يكن يشعر بمدى التحول الذى سيعترى هذه الجزيرة فى غضون الشهور الستة القادمة ، بفضل المغامرات والغدر والرشوة ، فأرسل من فوره فى استحضار تلميذه ميجل[4]، وكان نازلا بمكاو فى تلك الأيام ، ليقوم بوظيفة الترجمان بالرغم من تحذير الأسقف له بألا يأمن هذا الأنانى ، كما حذره القائد البرتغالى . ولكن بيير ليبوافر رفض أن يصدق ما قيل له عن صديقه غير أنه لم يلبث أن دفع ثمن عناده ، إذ قامت حوله العقبات نتيجة مكائد الترجمان الغادر ووسائله الدنيئة ، مما سبب لبيير كثيراً من الضيق. وأخيراً حصل من الإمبراطور على وثيقة رسمية ممهورة بتوقيعه ، تعفى المراكب الفرنسية الواردة على ميناء فايفو من المكوس الجمركية لقاء مبلغ من المال وكيات معينة من الهدايا .

---

(١) Marqnis Dupleix

(٢) Fai- Fou

(٣) Tourane

(٤) Miguel

www.ibtesama.com Exclusive

كان غضب ليبوافر على ميجل قد زاد فى هذا الحين إلى أقصى حدود الغضب ، حتى أنه عزم على تأديبه بحمله إلى إيل دى فرانس، والواقع أن هذه الطريقة كان قد اقترحها عليه أحد رجال الكنيسة من البرتغاليين ، وظن ليبوافر أن هذا العمل سهل ميسور . كان ميجل يقوم ببعض الأعمال المعينة أثناء إعداد السفينة للرحيل ، فانتهز ليبوافر هذه الفرصة وأمر بحمل ميجل قسراً قبل بدء الرحلة ، ولكن سرعان ما انتشر فى الميناء خبر اختطاف الترجمان ، وما أن وصل إلى مسامع الإمبراطور حتى ساءت الأحوال وأصبحت حياة الأسقف الفرنسى ورجال البعثة الدينية فى الهندالصينية فى خطر، إذ كان حمل أحد الأهالى من البلاد بدون إذن مليكها يعتبر جرما يعاقب عليه القانون . ولا جدال فى أن ماعمله ليبوافر، هدم جميع ماقام به المبشرون فى تلك البلاد ، فضلا عن أنهم نُفوا جميعاً من الهند الصينية واطهدت السلطات جميع من اعتنقوا المسيحية من المواطنين أعواما عديدة .

تبودلت الرسائل المطولة بين الأسقف وليبوافر الذى أنكر أن حادث اختطاف الترجمان لم يكن سبب ماحل « بالدين » ، وأن كل ما فى الأمر هو أن الإمبراطور اتخذه ذريعة للتخلص منه . واستطرد ليبوافر إلى الجزم بأن أحد الصينيين فى كانتون أخبره بأن إمبراطور الصين الهندية لم يفعل أكثر من اقتفاء أثر إمبراطور الصين الذى نفى جميع الأجانب من عاصمته . وفى سجلات البعثات الدينية فى الخارج قيدت هذه المراسلات تحت عنوان « طيش بيير ليبوافر » .

وصل مبعوث الملك إلى إيل دى فرانس بسلام ، حيث طلب إلى الحاكم أن يعينه على تنفيذ مشروعه المُتّفَق عليه مع مديرى الشركة فى باريس ، وهو حمل بذور القرنفل وجوزة الطيب إلى هذه الجزيرة . اصطدم ليبوافر بعقبات جديدة ، فقد تغير مجلس إدارة الشركة وحل محله أعضاء جدد تحت رئاسة رجل ينحدر من أصل هولندى ، لم يكن يرغب بطبيعة الحال فى إخراج مشروع ليبوافر إلى حيز الوجود نظراً لما سوف يترتب على هذا من خسائر

www.ibtesama.com Exclusive

فادحة لتجارة موطنه الأصلى،فى التوابل ومايصيبهامن أضرار ، على أن ليبوافر نجح فى حمل حاكم إيل دى فرانس على مساعدته فى تنفيذ المشروع مستنداً فى ذلك إلى أن التعليمات الصادرة إليه بالسفر إلى أرخبيل الملايو لم تبلغ بعد. وافق الحاكم ، وهو رجل بحرى إسمه بوفيه[1] على مد يد المساعدة لصاحبنا ليبوافر إذ كان هو أيضا يهمه تنمية ثروة وطنه على حساب الشركة الهولندية للهند الشرقية . لذلك بذل كل مافى جهده لمعاونة مبعوث الشركة . غير أن تلك المساعدة لم تمتد إلى أكثر من إعارة سفينة صغيرة قديمة إسمها كولمب (أى الحمامة البيضاء) ، حمولتها مئة وستون طناً أبحر عليها ليبوافر إلى مانيلا حيث باع ما كان معه من البضائع محققاً بعض الربح . واستغل إقامته بتلك الجزيرة فى عقد أواصر الصداقة مع سكانها من الإسبانيين والوطنيين تمهيداً لمحاولة الحصول على البذور المنشودة .

كانت جزائر الفليبين وجزائر ملوك تتجران معاً خلسة فى القرنفل وجوزة الطيب ، ومن هنا استطاع ليبوافر الحصول على بعض النباتات والبذور الصالحة للتنمية. وكانت هذه البذور تعتبر شيئاً نادراً جداً نظراً لأن الهولنديين كانوا يعالجون كل جوزة طيب بالكلس لقتل المادة الحية فيها ولحفظها من التعفن أيضاً . وكان من حسن حظه كذلك الاتصال بهولندى ثائر على وطنه أفضى إليه بمعلومات تتصل بجزيرة لم يهتد الهولنديون إليها بعد ، حافلة بأشجار التوابل ، فأصبحت هذه الجزيرة منذ ذلك الحين هدف ليبوافر .

كان ليبوافر فى هذا الوقت قد حصل على خدمات بعض المرشدين البحريين المبرزين ، إلى جانب خدمات فرنسيين قضوا الشطر الأكبر من حياتهما بجزائر ملوك . على أن مشروعاته كانت مهددة بالفشل وبالتبخر فى الجو ، نظراً للموقف الذى اتخذه منه أعضاء مجلس الشركة فى إيل دى فرانس . فقد انتظر منهم الرد ، فطال انتظاره اثنين وعشرين شهراً قبل أن يفضى إليه المجلس برأيه. ولما كانت القوانين المحلية فى مانيلا لاتبيح للأجانب قضاء أكثر من موسمين متعاقبين من مواسم الأمطار ، لذلك لم يكن أمامه سوى مغادرة الفليبين

(١) Bouvet

www.ibtesama.com Exclusive

والعودة إلى إيل دى فرانس عن طريق بوند تشرى مصطحباً معه النباتات القليلة التى استطاع الحصول عليها .

وكانت أصعب المشاكل التى واجهته ، مسألة كيفية نقل هذه النباتات الرقيقة ، بيدأن هذه العقبة مالبثت أن ذللت بفضل صاحبنا «الشحنة المترقة»[١] الذى وضع كابينته تحت تصرف ليبوافر . استغرقت الرحلة إلى بوند تشرى ثلاثة أشهر ، وما أن رست السفينة بالثغر حتى تبين ليبوافر أن إثنى عشر غصناً من أغصان النباتات التسع عشرة التى حملها هى كل ما بقى وفيها أثر من حياة . وما أن استقر المقام ببيير ليبوافر فى بوند تشرى حتى بادر إلى إرسال بعض من يوثق به من عماله إلى مانيلا بالتعليمات اللازمة للحصول على أغصان أخرى ، وكميات من جوزة الطيب ، بينما أبحر هو الى إيل دى فرانس ، حاملا معه فى سفينته غصنين اثنين من كنزه الثمين . وعهد إلى سفينة أخرى فى حمل ثلاثة أغصان أخرى حرصاً منه على نجاة طائفة منها إذا ما حدث مكروه لواحدة أو أخرى من السفينتين أثناء الرحلة ، ولكن ماكان أشد ابتهاجه حينما وصل إلى إيل دى فرانس ، أن وجد الشتلات الخمس سالمة لم تتأثر بالرحلة ، وقد كان فى مستقبل الأيام شأن عظيم لنجاتها . عهد ليبوافر بهذه الشتلات إلى بعض الموثوق بهم من الزراع للاعتناء بها بعد أن وعدوا بتنميتها تحت إرشاده ووفقاً لتعليماته ، وأبحر بعد ذلك عائداً إلى مانيلا حيث وجدها تتأجج بنيران الحرب ، كما وجد صديقه ملك بولو أسيراً بين أيدى الإسبان فبذل مجهوداً كبيراً فى الوساطة بين الفريقين لإعادة السلام إلى نصابه كما وفق إلى التوسط لاستعمال بعض اللين فى معاملة الملك الأسير ، ثم واصل بعد ذلك سفره متجها نحو جزيرة تيمور حيث تصادق مع ملكها ومع حاكمها البرتغالى الذى زوده بكمية عظيمة من جوزة الهند وبعض ثمار أشجار القرنفل الناضجة الصالحة للزرع . ومن ثم عاد مرة أخرى إلى إيل دى فرانس حيث وجد حاكمها بوفيه قد رحل عنها ، فأدرك أن فرصة الرحيل من جديد إلى الشرق الأقصى لن تسنح له مرة أخرى ، ففضل العودة إلى فرنسا .

(١) Wilem Lodewijekest الذى رافق أسطول كونيليوس هوتمان البحر إلى الهند عام ١٥٩٥

www.ibtesama.com Exclusive

منح الملك بيير ليبوافر ، بفضل اقتراح المشرف العام على شئون التجارة عشرين ألفا من الفرنكات مكافأة له على خدماته ، فانتقل ليبوافر بعد ذلك إلى مدينة ليون واستقربها مكرساً نفسه لزراعة النباتات النادرة ، وللتراسل مع السيد جوسيه مدير حديقة النباتات بباريس . وقد دعى مسيو ليبوافر بعد ذلك إلى إلقاء محاضرة عن ملاحظاته على النباتات فى الشرق ، ففعل ونشرت محاضراته دون علمه تحت عنوان « رحلات فيلسوف » .

لم يكد كان ليبوافر، هذا الرجل الذى يعتبر من الرعيل الأول فى تأسيس تجارة التوابل ، يشعر بأن مستقبله فى الميدان العملى قد قارب نهايته ، وبدأ يواسى نفسه على فشل مشروعاته العظمى ، حتى عين فجأة عاملا للملك على إيل دى فرانس ولم تمانع عروسه الفتية فى مرافقته إلى الشرق الأقصى، ففرح بذلك كثيرا. وكان هذا التعيين بداية أهم شطر مثمر موفق من حياته. وأصبح فى استطاعته الآن تنفيذ مشروعاته التى حيل بينه وبينها فى الماضى . فبفضل منصبه الجديد أصبح تحت تصرفه من الوسائل ما يضمن إخراج مشروعاته إلى حيز الوجود، بل والتوسع فيها ، كذلك ولقد وجد من بين الاخصائيين فى علم النباتات رجلا يدعى بريفست ، جديراً بالثقة إلى جانب بعض الضباط البحريين ، أرسلهم جميعاً لاستحضار النباتات المنشودة على ظهر سفينتين هما الفيجيلون (اليقظان) والإتوال دى ماتان (نجم الصباح)

اغتبط بيير ليبوافر عظيم الاغتباط فى عام ١٧٧٠ بعودة رسله سالمين ومعهم أربعمائة شتلة من جوزة الطيب ، وعشرة آلاف جوزة حية صالحة للتنمية ، وسبعين شتله من القرنفل وصندوقاً كبيراً مليئا ببذور القرنفل ، بعضها قدشرع فى التنبيت فعلا . ولم يشأ أن يفوّت على نفسه فرصة الاستزادة من هذه الشتلات، فأرسل سفينتين أخريين لصديقه حاكم جزيرة جيبى للحصول على مزيد من الثمار والشتلات المنشودة .



ابتاع ليبوافر قطعة من الأرض أطلق عليها إسم « مسرتى » ليزرع فيها

www.ibtesama.com Exclusive

هذه النباتات والأشجار والبذور ، وماهى إلا عشية أو ضحاها حتى أصبحت هذه الضيعة من أشهر حدائق النبات ، فيها مجموعة ضخمة من مختلف الأشجار المستوردة من الصين والفيليبين وجاوا وسومطرا وسيلان . وكان بها كذلك أشجار فاكهة الخبز والمانجو والمانجوستان[1] ونبات الشاى وأشجار الكافور والقرفة والساجو[2] ونخيل البلح وأشجار التفاح والكمثرى والكروم وأشجار التوت . ولكن كان أهم ما فيها بطبيعة الحال القرنفل وجوزة الطيب .

غير أنه وقع حادث سبب لعامل الملك على هذه الجزيرة حزناً عميقاً فقد حرم المجلس التشريعى فى هذه المستعمرة تصدير القرنفل وجوزة الطيب رغبة منه فى الاحتفاظ بمحصولها لاستهلاك جزيرة إيل دى فرانس محليًا ، واعتبر تصديرها عملا غير مشروع يعاقب عليه القانون .

أدرك عامل الملك بثاقب فكرة خلو هذا القانون من الحكمة والتعقل وما فيه من خطر على هذه الأشجار والنباتات ، فقد تقتلها الرياح الموسمية الهوجاء التى تدمر هذه الجزائر فى بعض الأحيان ، ففكّر فى إرسال شتلات إلى المستعمرات الفرنسية الأخرى لتزرع فيها ، ولحسن الحظ أصدر وزير المستعمرات الفرنسية فى ذلك الحين أمراً بإلغاء القانون السابق الذكر مما ترتب عليه إمكان زراعة أشجار القرنفل بنجاح فى إيل دى بربون[3] وفى كايين وفى جزائر الهند الغربية .

وعندما حان الوقت لعودة بيير ليبوافر إلى فرنسا باع للملك حديقة نباتاته بالسعر الأصلى الذى دفعه ثمناً للأرض ، لا أكثر ولا أقل ، وبذلك يكون قد قدم للملك هدية قيمة كريمة ، وللمستعمرة كل ما بالحديقة من أشجار ونبات . وعين ليبوافر قبل مغادرته الجزيرة مديراً لحديقة النباتات رجلا يدعى سيرن[4] ، أفضى إليه بكل ما يعرفه عن فن أشجار القرنفل وجوزة الطيب الثمينة .

---

(١) المانجوستان فاكهة هندية .

(٢) والساجو دقيق النخل والنشا الحاصل من لب الساجو .

(٣) Ilede Bourbon

(٤) Cerne

www.ibtesama.com Exclusive

فلا غرو أن ازدهرت حديقة النباتات بفضل عناية مديرها الجديد كما ازدهرت فى إيل دى بربون حيث زرعت تحت إشراف مسيو هوبير ثمانى آلاف شجرة من أشجار القرنفل فى ذلك الوقت .

كان المسافر إلى إيل دى فرانس «حديقة الملك» حتى آخر القرن الثامن عشر يعتبر الحديقة من عجائب الدنيا ، واتهز ليبوافر قبل مغادرته المستعمرة فرصة سانحة للبحث مع خلفه فى مصير أشجار التوابل التى زرعها . وكتب من باريس بعد ذلك بفترة من الزمن خطابا إلى خلفه بشأن الحديقة لجاءه رد مطول موجود ضمن سجلات وزارة المستعمرات فى باريس كان مضمونه كالآتى :

إن جل همك يا سيد ليبوافر أثناء ولايتك على إيل دى فرانس لم يكن على ما يبدو سوى العناية بأشجار توابلك الثمينة ، أما أنا فلدى من الأعمال ماهو أهم شأناً وأوسع نطاقاً ، وكأنك لم تكتف بما شافهتنى به أياماً طوالا عن القرنفل وجوزة الطيب فرحت تكتب إلىّ ضارباً على تلك النغمة . فاسمح لى أن أخبرك فى صراحة تامة بأنى قد سئمت كل السأم لفظة « توابل » .

وأضاف الوالى الغاضب بأنه يرى أن المسيو ليبوافر يغالى كثيراً فى تقدير أهمية نباتاته المفضلة كسلعة للتجارة .

ولكن هل تراه تغالى فى ذلك حقيقة ؟ كتب مستر جون كروفرد[1] المقيم الإنجليزى لدى بلاط سلطان جاوا فى عام ١٨٢٠ كتاباً عن تاريخ أرخبيل الملايو ، ولم يكتف المؤلف بما وجده فى سجل محفوظات الحكومة لحسب ، بل استمد كذلك موضوع كتابه من تجاربه الخاصة ، ومن مجريات الحوادث المعاصرة بشأن تجارة التوابل ، فذكر بأنه كان من بين ما استوردته انجلترا عام ١٨١٨ — ٧٨ ألف رطل من القرنفل منها سبعون ألفاً مستوردة من كايين وحدها . فهل هناك برهان أكبر من هذا على بعد نظر بيير ليبوافر وما كان ينتظر أن تربحه فرنسا من وراء كية أشجار القرنفل فى مستعمراتها ؟

---

(١) John Crawfurd

www.ibtesama.com Exclusive

أكثر الناس فى فرنسا لا يعلمون شيئا عن بيير ليبوافر حتى أن بعضهم ليتساءل فى سذاجة لدى سماع إسمه « أترى كلمة الفلفل مشتقة من إسمه » ؟

فإذا لم يكن الأمر كذلك ، ولم تكن هناك أى صلة بين لفظة الفلفل واسم ليبوافر ، فإن الأمر على نقيض ذلك فيما يتعلق بالقرنفل وجوزة الطيب فقد اقترن اسمهما بشهرة مسيو ليبوافر ، وإلى بعد نظره ومثابرته وشجاعته وقوة شخصيته يرجع إليه الفضل ، فى أن جزائر ملوك لم تعد تنفرد وحدها بزراعة التوابل فى هذا العالم ، بل تشاركها فى زراعته اليوم مدغشقر والزنجبار اللتان أصبحتا تزودان الشرق وأوربا وأمريكا بكل ماتحتاج إليه من التوابل ، سواء أكانت لمعالجة الأطعمة أم لمزج المستحضرات الطبية لأدواء الجسم والأسنان .

لقد انقضت عصور وأجيال مابين قيام ملاحى البرتغال برحلتهم التاريخية إلى الهند بحثاً عن التوابل ، وبين أيام بيير ليبوافر ، حينما جاء إلى إيل دى فرانس بتلك الغصينات الصغيرة من أشجار القرنفل . ولكن من المؤكد أنه عضو جدير بالاحترام ، من أعضاء تلك المجموعة الباسلة من الرجال الذين كرسوا حياتهم وأفنوا جهودهم فى طلب تلك المنتجات التى خصت بها الطبيعة تربة الشرق ، والتى تبدو تافهة لأول وهلة كالفلفل والقرنفل وجوزة الطيب بالمقارنة إلى منتجات الطبيعة الأخرى .

www.ibtesama.com Exclusive

محتويات الكتاب

* * *

الجزء الأول

* * *

www.ibtesama.com Exclusive

صفحة

الجزء الثانى ٧٧

www.ibtesama.com Exclusive

فهرست الخرائط

www.ibtesama.com Exclusive

فهرست اللوحات

www.ibtesama.com Exclusive

صور فى النصوص

www.ibtesama.com Exclusive

تصـــويبات

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١	١٤	يعنى	يعن
٦	١٥	جاق بردى	جان بردى
١٠	آخر سطر	١٩٤٧	١٩٣٧
١٤	١٠	الروانه	الراوند
١٧		الهامش(٢)	وهو الذى يقابله ديونيسوس
١٨	٢٣	ثورة	سورة
٢١	٩	البـباس	البـباسة
٢١	١٥	أيضا	أبيض
٢٢	٥	طهى	طهو
٢٢	١٠	متبله	متبلتين
٢٢	٢٢	توابلا	توابل
٢٣	٤	شراه	قوة شرائية
٢٣	٥	ندارته	ندرته
٢٤	٨	بثانى	بثان
٢٥	١٢	سان لويس	هو لويس التاسع
٢٦	الصورة العليا	عدة	غدة
٢٧	١٩	ولها	واليها
٢٩	١٥	كشجار	كشغر
٢٩	١٥	قلاوط	قلاوت
٢٩	١٣	قرطجنة	قرطاجة
٣١	٩	دارايوس	دارا الأول
٣٥	٧	إناء من	إناء من العاج وكل إناء من
٤٠	٧	أضيفوا	أضيفت
٤٤	١٦	تودبلا	تطيلة
٤٥	١٣	مديشيس	الديلمى
٤٥	١٨	التى	الثان
٤٦	٦	Hebkuchin	Lebkuchen
٥٠	١٢	الامبراطورية	الإمبراطور
٥٠	١٣	منها	منهما
٥٠	٢١	المكية	المكية
٥١	٤	بلوماته	بطوماته
٥٣	آخرس بالهامش	الشاق	المناق
٥٥	٥	يستطلموا	ليستطلموا
٥٥	٨	وحت	حتّ
٥٥	١١	توديلا	تطيله
٥٧	٣	انزح	لتزوج
٥٧	٢١	يدعان	يدعيان
٥٧	٢٢	وسيط	وسبط
٥٨	١٦	أو	و
٥٨	٢٢	تقديرات	تقريرات
٥٩	١	أربمائة	واربمائة
٥٩		الهامش	أى عربى
٦٠	٥	معكوف	معقوف
٦٠	٥	إمبراطورين	إمبراطوران
٦١	آخر الهامش	Pdua	Padua
٦٤	٣	حاجوح	ياجوج
٦٥	١١	إدسا	الرها
٦٧	٢٣	القس بوحنا	القس يوحنا(١)
٧٠	٦	المتحمل	المحتمل
٧٢	٥	يمجد	من قصائد يمجد
٨٤	٤	التاجوس	التاجه
٨٥	٣	أثنين	أنثين
٨٩	١١	ماجوركيون	مايورقيون
٩١	١٣	سوكوترا	سقطرى
٩١	١٤	السفن	السفينة
٩٧	٤	كنوز	لتود
٩٧	٥	فوقه	فوقه اكثرها
١٠٤	١٠	مسجبين	مسجيين
١٠٥	١٠	لأمير	الأمير
١٠٥	٢٣	الكناريا	الكنارى
١٠٦	١٣	البابا	البابا فى
١٠٧	١٢	خفة	خفا
١١٠	٨	سوكوترا	سقطرى
١١٠	١٣	سماما	سماها
١١٣	٩	على إنباع	على أمل إبتياع
١١٣	١٣	قوى حريف	قويا حرّيفاً
١١٤	٧	حوران	وهران

www.ibtesama.com Exclusive

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١١٩	١	يذهبون	هنا ينتهى السطر
١١٩	٢	يكلون	هنا ينتهى السطر
١١٩	٤	الشجعان	هنا ينتهى السطر
١١٩	٦	فولها	فوقها
١٢٢	١١	حلت	جعل
١٢٩	٥	سيبحو	سيباجو
١٢٩	٢١	فيصلون	فيصلوا
١٢٩	٢٢	أميرها	أميره
١٣١	٣	لستطيع	لنستطع
١٣١	٢١	مطمين	مطمة
١٣٢	١	الأمر	أمره
١٣٢	٨	شطره نحو	وجهه شطر
١٣٢	٢١	وبدأ	وبدا
١٣٤	١٧	أفضى إليه	أفضى به إليه
١٣٦	٩	لينهوا	لينهيا إلى
١٣٩	٣	سرورهم	سرورها
١٤٣	٧	فرس	وفرس
١٤٤	تحت الصورة		الترين
١٤٥	١	وابتاضى	وابتقصى
١٥١	٥	لوربتانيا(٦)	اسم البرتغال
١٥١	١٥	يبدو	ويبدو
١٥٧	٥	الثانى (٢)	تلحق بآخر السطر التالى
١٦٠	٩	سفينة	على سفينة
١٦٤	٢	أحدثها	أحدثتها
١٦٥	١١	النخل	النحل
١٦٦	١٠	باباوى	بابوى
١٦٧	٢	ممتلكات	ممتلكات
١٦٧	٥	لغير	بغير
١٦٧	١١	يمدا	يبددوا
١٦٩	١٦	القى	التى
١٧٥	٨	الجوردانية	الجيردية
١٨١	٨	بيت	بين
١٨١	٩	وكانوى	وكانوا
١٨١	٩	وجه	وجهه
١٨٢	١٠	ما	وما
١٨٣	٤	وتحذين	وتحدينا
١٨٦	١٣	الجتوية	الجنوبية
٢٢٠	٢	السماوية	السماوية اللون
٢٢١	تحت الصورة		مقفا
٢٢٩	١	أنطونيو	أنتريو
٢٢٩	١٨	توفير	إنفار
٢٤٠	تحت الصورة		جزائر التوابل
٢٥٠	٨	ساحل الذهب	ساحل الفردوس
٢٥٠	١٧	وما	نموها
٢٥٠	٢٤	النيارات	النيران
٢٥١	٢٣	طلق	أطلق
٢٥٧	٩	نيوفودلاند	نيوفوندلاند
٢٥٨	١٨	صدمة	صديقه
٢٥٩	٢٠	قرارته	قراراته
٢٦٢	١٥	إبغاء	إبقاء
٢٦٥	١٠	الملكة	والملكة
٢٦٨	٧	أن أحد	أن أحدا
٢٦٩	١٨	لأنهم	أنهم
٢٧٠	٤	بزيد	يزيد
٢٧٤	٦	أن	وأن
٢٧٤	٨	بدأ	بدء
٢٧٤	١٩	وضع	ووضع
٢٧٥	٣	شيئا	شىء
٢٧٨	٢١	كروساوس	كروسادس
٢٧٩	٨	يبدوا	يبدو
٢٨١	آخر الصفحة	جاسيتهم	جاليتهم
٢٨٣	١	تقابر	تقارير
٢٩٢	٦	حصن	هو المعروف ببرج لندن
٢٩٥	٢٢	لسمين	لسمين
٢٩٦	١٢	الهولندين	الهولنديين
٢٩٦	١٣	زيلانده	زيلند
٢٩٨	١٤	جاؤا	جاءوا
٣٣٠	تحت الصورة	ملقا	نيويورك عام ١٦٦٥
٣٣٧	٦	سفينتهم	سفينتيهم
٣٥٠	١١	ستة	ست
٣٥٣	٩	الفالفين	إشارة إلى رابطة مستوردى الفلفل وتجاره (Pepperera)

www.ibtesama.com Exclusive

ملاحـــظة

لكل كتاب رقمان : الأول ، الرقم العـام ، ويدل على رقم الكتاب فى السلسلة وهو مكتوب على الصحائف الأولى وعلى كعب الكتاب ، بين إسم الكتاب واسم المؤلف .

والثانى : الرقم الخاص ويدل على رقم الكتاب من حيث الموضوع وهو مكتوب على الغلاف عند أسفل الكعب .

والمجموعة كلها مقسمة إلى أربعة موضوعات رئيسية لكل منها لون خاص

١ ـ الأدب (أخضر) ويشمل : الأدب العام ، تاريخ الأدب ، النقد ، الشعر ، القصص .

٢ ـ العلوم (أزرق) وتشمل : الزراعة ، الصناعة ، الطب ، الكيمياء ، الفلك ، الحيوان ، الرياضيات .

٣ ـ العلوم الإنسانية (أحمر) ، وتشمل : الاجتماع ، الاقتصـاد ، التربية علم النفس ، التاريخ والتراجم ، الجغرافيا ، الرحلات ، الدين ، السياسة الفلسفة ، القانون ، المعارف العامة .

٤ ـ الفنون (بنى) وتشمل : الإذاعة ، التصـوير ، الرسم ، المسرح ، الموسيق ، الرياضة البدنية .

www.ibtesama.com Exclusive

صدر من كتب العلوم الإنسانية فى مجموعة الألف كتاب

(اجتماع ، اقتصاد ، تربية ، علم نفس ، تاريخ وتراجم ، جغرافيا ، رحلات دين ، سياسة ، فلسفة ، قانون ، معارف عامة)

١ — تفسير القرآن
٢ — حضارة الإسلام تأليف جوستاف جرونيباوم
٣ — الفكر الخوالد تأليف مولاى محمد على
٤ — اتجاهات الفلسفة المعاصرة تأليف اميل برهية
٥ — البوليس والكشف عن الجريمة اليوم تأليف ريجنالد موريش
٦ — سكتلانديارد تأليف سير هارولد سكوت
٧ — الحياة العامة اليونانية تأليف ا . ا . زمرن
٨ — فلسفة الخير تأليف لويس دكنسن
٩ — رجال ذللوا الصحراء تأليف رتشى كولدر
١٠ — حركات الشباب للصاع الدكتور محمد فتحى
١١ — بلاد مابين النهرين تأليف ل . ديلابورت
١٢ — بسمارك تأليف اميل لدفيج
١٣ — آثار حضارة الفراعنة للأستاذ محرم كمال
١٤ — الحياة الناجحة تأليف أوستاس تشسر
١٥ — كيف تقرأ الجريدة تأليف ادجار ديل
١٦ — الحياة اليومية فى مصر القديمة تأليف ألن شورتز
١٧ — الديانات فى افريقيا السوداء تأليف هـ . ديشان
١٨ — الطفل من الخامسة إلى العاشرة تأليف أرنولد جرل
١٩ — علم نفسك الاقتصاد تأليف س . ايفلين توماس
٢٠ — تاريخ الملاحة تأليف ا . تومازى
٢١ — تاريخ العالم من ١٩١٤ — ١٩٥٠ تأليف دافيد تومسون
٢٢ — التاريخ الجغرافى للقرآن تأليف السيد مظفر الدين

www.ibtesama.com Exclusive

www.ibtesama.com Exclusive

www.ibtesama.com Exclusive

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

www.ibtesama.com

اهداف هذه المجموعة

* تكوين مكتبة عربية متكاملة ، يجد القارىء العربى فيها كل ماهو بحاجة اليه من المعلومات فى شتى الموضوعات ، معروضة عرضا سهلا ، يتقبله القارىء العادى ، ويجد فيه المتخصص الحقائق والنظريات والآراء مبسوطة بغاية الدقة ، متمشية مع آخر ماوصل اليه العلم فى تلك الموضوعات .

* نشر هذه المكتبة فى أوسع نطاق ممكن ، وذلك بتخفيض السعر قدر الامكان ، واشراك أكبر عدد من الناشرين فى نشرها .

* النهوض بالكتاب العربى من حيث الشكل والموضوع .

* تشجيع عادة اقتناء الكتب وقراءتها .

* الافادة بصورة عملية من جهود العلماء والادباء فى شتى الأمم ، باتاحة الفرصة أمام القارىء العربى للاطلاع الواسع على ماعندهم .

* افساح المجال أمام الشباب الطامح الى الاشتغال بالعلم والأدب للمساهمة بصورة ايجابية فى النهضة العلمية والأدبية .

* تشجيع الناشرين فى مصر والدول الشقيقة على الاقبال على نشر كتب العلم والثقافة العالمية ، وتعويضهم تعويضا مجزيا .

* تجديد النشاط الفكرى فى العالم العربى عن طريق الكتب القيمة التى تحمل اليه العلم والمعرفة .

** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة



www.ibtesama.com Exclusive


Exclusive
For
www.ibtesama.com
حصريات مجلة الابتسامة